

«الْكَمْلَةُ» ضِلَالُ الْأَمْلَةِ فِي عِلْفَةِ الْمِلْكَةِ

المجلد الرابع عشر
تأليف
دكتور/ سيد بن حسين العفانى

قدم له

- | | |
|---------------------------|---------------------------|
| الشيخ محمد صفوت نور الدين | الشيخ أبو بكر الجزائري |
| الشيخ أحمد فريد | الشيخ محمد اسماعيل المقدم |
| الشيخ ياسبر برهامي | الشيخ سعيد عبد العظيم |
| الشيخ عائض القرني | الشيخ محمد عبد المقصود |
| الشيخ أبو إسحاق الحويني | الشيخ أحمد عيسى |
| أ.د. عبد الرحمن فوده | د. حمزة بن يافع الفتحي |

دار العفانى



صَلَاحُ الْمَهْمَةِ

عُلُوُّ الْمَهْمَةِ

المجلد الرابع عشر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة السابعة

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

٢٠٠٩ / ١٤٣٠ م

رقم الإيداع بدار الكتاب المصرية

٢٠٧ / ٢٦١٢

دار العفانى

٣ درب الأتراء خلف الجامع الأزهر - القاهرة

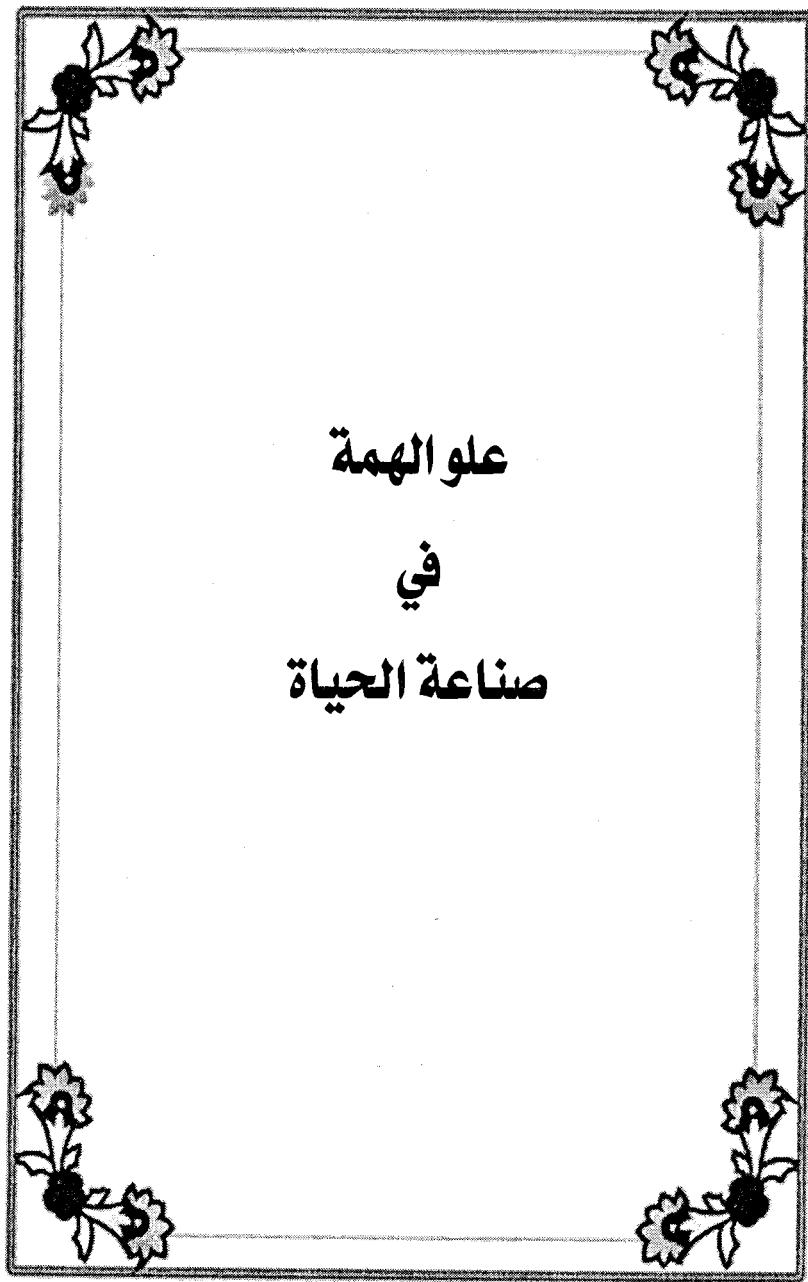
٠١٢ / ٢٥٧٧٥٧١١ - ٠٢ / ٢٥١٨٢٥٧

فرع بنى سويف - برج الري - حي الرمد - بجوار مجمع المحاكم - بنى سويف

٦٢ / ٢٣١٧٣٤٤

مطبعة العمرانية للأوفست

الجizza : ٢٣٧٥٦٢٩٩



تابعونا على مدونة العلوم والتكنولوجيا لتجدوا كل جديد

<https://arabessam.blogspot.com/>

تابعونا على مدونة معلومات و تقنيات لتجدوا كل جديد

<https://web1essam.blogspot.com/>

علو الهمة في صناعة الحياة

كَفَرْ يَا لِهِ مِنْ دِينٍ لَوْ أَنْ لَهُ رِجَالًا.

أرسل الله أعظم رسله محمدًا ﷺ إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه، ذلك القفل المعقود الذي أعيى فتحه جميع المصلحين في عهد الفترة؛ وكل من حاول فتحه بغير مفتاحه، وهو مفتاح التوحيد والإيمان، وقرع أسماع أهل الجاهلية صوت النبي ﷺ داعياً إلى الإيمان بالله وحده وبفضل الوحي والقرآن والإيمان الواسع العميق وسنة رسول الله ﷺ بعث رسول الله ﷺ في الإنسانية تحضراً وحياة جديدة، وحوّل خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية.

«عمد إلى الذخائر البشرية وهي أكداشٌ من المواد الخام لا يعرف أحدٌ غناها، ولا يعرف محلها، وقد أضاءتها الجاهليةُ والكفرُ والإخلادُ إلى الأرض، فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة، وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها، ثم وضع كُلُّ واحدٍ في محله فكأنما خُلق له، ولকأنما كان المكان شاغراً لم يزل يتظاهر ويتطلع إليه، وكأنما كان جماداً فتحول جسماً ناماً وإنساناً متصرفاً، وكأنما كان ميتاً لا يتحرك فعاد حيَا يُملي على العالم إرادته، وكأنما كان أعمى لا يُنصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيِّتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلَهُ فِي الظُّلْمَتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى منهم نوابع كانوا من عجائب الدهر وسوائح التاريخ، فأصبح عمر

الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب وينهره، وكان من أوساط قريش جلادة وصرامة، ولا يتبوأ منها المكانة العُليا، ولا يحسب له أقرانه حساباً كبيراً، إذا به يفجأ العالم بعورته وعصاميته، ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما، ويؤسس دولة إسلامية تجمع بين ممتلكاتها وتفوقها في الإدارة وحسن النظام فضلاً عن الورع والعدل الذي لا يزال فيه المثل السائر.

□ وهذا ابن الوليد كان أحد فرسان قريش الشُّيَّان انحصرت كفاءاته الحربية في نطاق مَحَلِّي ضيق يستعين به رؤساء قريش في المعارك القبلية فينال ثقفهم وثناءهم، ولم يُحرز الشهرة الفائقة في نواحي الجزيرة، فإذا به يلمع سيفاً إلهياً لا يقوم له شيء إلَّا حصده، ويتزل كصاعقة على الرؤوم، ويترك ذكرًا خالِدًا في التاريخ.

□ وهذا أبو عبيدة كان موصوفاً بالصلاح والأمانة والرفق^(١) ويقود سرايا المسلمين، إذا به يتولى القيادة العظمى لل المسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء ويلقي عليها نظرة الوداع ويقول: سلام على سورية سلاماً لا لقاء بعده.

وهذا عمرو بن العاص ثالث كان يُعدُّ من عقلاء قريش وترسله في سفارتها إلى الحبشة تسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائباً إذا به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة.

□ وهذا سعد بن أبي وقاص لم نسمع به في التاريخ العربي قبل الإسلام كقائد جيش ورئيس كتيبة، إذا به يتقدّم مفاتيح المدائن، وينيط باسمه فتح العراق وإيران.

(١) بل كان حفّاراً للقبور، وحاداً للموتى.

- وهذا سليمان الفارسي رض كان ابن موبذان في إحدى قرى فارس لم يزل يتقل من رِّق إلى رِّق، ومن قسوة إلى قسوة، إذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة الإمبراطورية الفارسية التي كان بالأمس أحد رعاياها. وأعجب من ذلك أن هذه الوظيفة لا تغير من زهادته وتقشفه فираه الناس يسكن في كوخ ويحمل على رأسه الأثقال!!.
- وهذا بلال الحبشي يبلغ من فضله وصلاحه مبلغا يلقبه فيه أمير المؤمنين عمر بالسيد رض.
- وهذا سالم مولى أبي حذيفة يرى فيه عمر رض موضعًا للخلافة يقول: «لو كان حيًّا لاستخلفته».
- وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين إلى مؤتة وفيه مثل جعفر ابن أبي طالب وخالد بن الوليد، ويقود ابنه أسامة جيشًا فيه مثل أبي بكر وعمر رض.
- وهذا أبو ذر، والمقداد، وأبو الدرداء، وعمار بن يسار، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، تهُب عليهم نفحة من نفحات الإسلام، فيصبحون من الزَّهاد المعدودين، والعلماء الراسخين.
- وهذا علي بن أبي طالب، وعائشة، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس رض، قد أصبحوا في أحضان النبي الأمي صلوات الله عليه وسلم من علماء العالم يتفجر العلم من جوانبهم، وتنطق الحكمة على لسانهم، أبرز الناس قلوبًا، وأعمقهم عِلْمًا، وأقلّهم تكُلُّفًا، يتكلّمون فينصِّتُ الزمان، ويخطبون فيسجّلُ قلم التاريخ.
- ثم لم يلبث العالم المتبدّن أن يرى من هذه المواد الخام المبعثرة التي

استهانت بقيمتها الأمم المعاصرة، وسخرت منها البلاد المجاورة، لا يلبث أن يرى منها كتلة لم يشاهد الجنس البشري أحسن منها أتزاناً، كأنها حلقة مفرغة لا يُعرف طرفاها، أو كالمطر لا يُدرى أولاًه خير أم آخره، كتلة فيها الكفاية التامة في كل ناحية من نواحي الإنسانية، كتلة هي في غنى عن العالم وليس العالم في غنى عنها، وضعفت مدنيتها، وأُسست حكومتها، وليس لها عهْدٌ بها، فلم تضطر إلى أن تستعيَّر رجلاً من أمّة، أو تستعين في إدارتها بحكومة، أُسست حكومة تمدُّ رواقها على رقعة متّسعة من قارَتَين عظيمتين. وملأت كل ثغر وسَدَّت كُلَّ عوز برجل يجمع بين الكفاية والديانة، والقوَّة والأمانة، تأسست هذه الحكومة المتشبّبة بالأطراف فأنجدتها هذه الأمة الوليدة التي لم يمض عليها إلَّا بعض العقود – كلها جهاد ودفع ومقاومة وكفاح – برجل من الرجال الأكفاء، فكان منها الأمير العادل، والخازن الأمين، والقاضي المقطَط، والقائد العابد، والوالى المتورّع، والجندي المُتقى، وكانت بفضل التربية الدينية التي لا تزال مستمرة، وبفضل الدعوة الإسلامية التي لا تزال سائرة، مادَّة لا تنقطع ومعيناً لا ينضب، لا تزال تسند الحكومة برجال يرجحون جانب الهدایة على الجِبَاية، ولا يزالون يجمعون بين الصلاح والكفاية، وهنا ظهرت المدنية الإسلامية بمظهرها الصحيح، وتجلىَت الحياة الدينية بخصائصها التي لم تتوافر لعهد من عهود التاريخ البشري.

لقد وضع محمد ﷺ مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية، فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب، وقوى وموهاب، أصاب الجاهلية في مقتلها وصميمها، فأصمى رميته، وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحو نحواً جديداً، ويفتح عهداً سعيداً، ذلك هو العهد الإسلامي الذي

لا يزال غرّة في جبين التاريخ»^(١).

حضارة الإسلام:

كانت حضارة الإسلام هي الحضارة المثلثة في التاريخ التي يتمجدَّد الناس ويترفّون بتقليدها.

لقد كانت حضارة قادت العالم بجدارة واستحقاق، أشرف حضارة وأعظمها وأقواها في تاريخ العالم.
خضعت للغتها اللغات، ولثقافتها الثقافات.

□ حضارة الإسلام مختلفة عن غيرها من الحضارات هي حضارة لا إله إلا الله، وجهتها الله، علّمت الناس الحق والخير والجمال، ودعّته إلى التفكير والبحث والدراسة والإبداع، وجعلت تخفيف أعباء الحياة وتوفير المتعة عبادة. أمّا الحضارة الغربية فحضارتها مركزها الإنسان.. هي حضارة المتعة.. حضارة نست الله وكفرت به لا هم لها إلا وحُل الماءة ودنسها.

من روائع حضارتنا وخصائصها:

□ يقول الدكتور مصطفى السباعي في كتابه القيم «من روائع حضارتنا» تحت عنوان: «خصائص حضارتنا»: «يعرف الحضارة بعض الكاتبين في تاريخها بأنها: «نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي» وتنتألف الحضارة من العناصر الأربع الرئيسية: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الأخلاقية، ومتابعة العلوم والفنون. ولا طراد الحضارة وتقدمها عوامل متعددة من جغرافية واقتصادية ونفسية

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للشيخ أبي الحسن الندوبي (ص ١١٨ - ١٢١)
- دار الأنصار الطبعة العاشرة.

كالدين واللغة والتربيّة، ولأنهيارها عوامل هي عكس تلك العوامل التي تؤدي إلى قيامها وتطورها، ومن أهمها: الانحلال الخلقي والفكري، واضطراـب القوانين والأنظمة، وشـيع الظلم والـفقر، وانتشار التـشاؤم أو اللـامبالـاة، وفقدان المـوجهـين الأـكـفاء والـزعـماء المـخلـصـين.. وقصـة الحـضـارة تـبدأ مـنـذ عـرـف الإـنسـان، وهي حـلـقة متـصلـة تـسلـمـها الـأـمـة المتـحضرـة إـلـى مـنـ بـعـدـها، وـلا تـخـتـص بـأـرـض وـلا عـرـق، وإنـا تـنـشـأ مـنـ العـوـامـلـ السـابـقـةـ التي ذـكـرـناـهاـ. وـتـكـادـ لـا تـخلـوـ أـمـةـ منـ تسـجـيلـ بـعـضـ الصـفـحـاتـ فيـ تـارـيخـ الـحـضـارـةـ، غـيرـ أـنـ ماـ تـمـتـازـ بـهـ حـضـارـةـ إـنـهاـ هوـ قـوـةـ الـأـسـسـ الـتـيـ تـقـومـ عـلـيـهـاـ، وـالـتأـثـيرـ الـكـبـيرـ الـذـيـ يـكـونـ لـهـ، وـالـخـيرـ الـعـمـيمـ الـذـيـ يـصـيبـ الـإـنـسـانـيـةـ مـنـ قـيـامـهـاـ، وـكـلـمـاـ كـانـتـ الـحـضـارـةـ عـالـمـيـةـ فيـ رسـالتـهـاـ، إـنـسـانـيـةـ فيـ نـزـعـتـهـاـ، خـلـقـيـةـ فيـ اـتـجـاهـاتـهـاـ، وـاقـعـيـةـ فيـ مـبـادـئـهـاـ، كـانـتـ أـخـلـدـ فـيـ التـارـيخـ، وـأـبـقـىـ عـلـىـ الزـمـنـ، وـأـجـدـرـ بـالـتـكـرـيمـ.

وحضارتنا حلقة من سلسلة الحضارات الإنسانية، سبقتها حضارات، وستتبعها حضارات. وقد كان لقيام حضارتنا عوامل، ولأنهيارها أسباب، ليست هي مما تعنيه هذه السلسلة من أحاديثنا، وإنما نريد قبل أن نبدأ الحديث عن روعة هذه الحضارة، أن نتحدث عن دورها الخطير في تاريخ التقدم الإنساني، ومدى ما قدمته في ميدان العقيدة والعلم والخلق والحكم والفن والأدب من أيات خالدة على الإنسانية في مختلف شعوبها وأقطارها.

إن أيرز ما يلفت نظر الدارس لحضارتنا أنها تميزت بالخصائص التالية:

١- أنها قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فهى أول

حضارة تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له في حكمه وملكه، هو وحده الذي يُعبد، وهو وحده الذي يُقصد ﴿إِيَّاكَ نَبْشُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهو الذي يعز ويذل ويعطي ويسحب، وما من شيء في السموات والأرض إلّا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته.

هذا السمو في فهم الوحدانية كان له أثر كبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير من طغيان الملوك والأسراط والأقواء ورجال الدين، وتصحيح العلاقة بين الحاكمين والمحكومين، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين.. كما كان لهذه العقيدة أثر كبير في الحضارة الإسلامية تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة، وهو: خلوها من كل مظاهر الوثنية وأدابها وفلسفتها في العقيدة والحكم والفن والشعر والأدب، وهذا هو سر إعراض الحضارة الإسلامية عن ترجمة الإلياذة وروائع الأدب اليونياني الوثني، وهو سر تقدير الحضارة الإسلامية في فنون النحت والتصوير مع تبريزها في فنون النقوش والخفر وزخرفة البناء. إن الإسلام الذي أعلن الحرب الشعواء على الوثنية، ومظاهرها لم يسمح لحضارته أن تقوم فيها مظاهر الوثنية وبقاياها المستمرة من أقدم عصور التاريخ، كتماثيل العظاء والصالحين والأنبياء والفاتحين.

وقد كانت التماثيل من أبرز مظاهر الحضارات القديمة والحضارات الحديثة؛ لأن واحدة منها لم تذهب في عقيدة الوحدانية إلى المدى الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية.

وهذه الوحدة في العقيدة تطبع كل الأسس والنظم التي جاءت بها

حضارتنا، فهناك الوحدة في الرسالة، والوحدة في التشريع، والوحدة في الأهداف العامة، والوحدة في الكيان الإنساني العام، والوحدة في وسائل المعيشة وطراز التفكير، حتى إن الباحثين في الفنون الإسلامية قد لحظوا وحدة الأسلوب والذوق في أنواعها المختلفة، فقطعة من العاج الأندلسي، وأخرى من النسيج المصري، وثالثة من الخزف الشامي، ورابعة من المعادن الإيرانية، تبدو رغم تنوع أشكالها وزخرفتها ذات أسلوب واحد وطابع واحد.

٢- وثاني خصائص حضارتنا: أنها إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة فالقرآن الذي أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعرace ومنابته وموطنه، في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائلَ لِتَعَارُفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. إن القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عقداً تنتظم فيه جميع العبريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباكرة من أبناء جنس واحد وأمة واحدة، إلا الحضارة الإسلامية؛ فإنها تفاخر بالعباكرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب، فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبوه والكتبي والغزالى والفارابى وابن رشد وأمثالهم من اختلفت أصولهم وتباينت أوطناتهم، ليسوا إلا عباكرة قدمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السليم.

٣- وثالث خصائص حضارتنا: أنها جعلت للمبادئ الأخلاقية محل الأول في كل نظمها و مختلف ميادين نشاطها، وهي لم تتخل عن

هذه المبادئ قط، ولم تجعلها وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد.. ففي الحكم، وفي العلم، وفي التشريع، وفي الحرب، وفي السلم، وفي الاقتصاد، وفي الأسرة.. روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعاً وتطبيقاً، وبلغت في ذلك شأنها سامياً بعيداً لم تبلغه حضارة في القديم والحديث، ولقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك آثاراً تستحق الإعجاب وتجعلها وحدتها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسانية سعادة خالصة لا يشوبها شقاء.

٤- رابع هذه الخصائص: أنها تؤمن بالعلم في أصدق أصوله، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها، فهي خاطبت العقل والقلب معاً، وأثارت العاطفة والفكر في وقت واحد. وهي ميزة لم تشاركها فيها حضارة في التاريخ، وسر العجب في هذه الخاصة من خصائص حضارتنا أنها استطاعت أن تنشئ نظاماً للدولة قائماً على مبادئ الحق والعدالة، مرتكزاً إلى الدين والعقيدة دون أن يقيم الدين عائقاً ما دون رقي الدولة واطراد الحضارة، بل كان الدين من أكبر عوامل الرقي فيها، فمن بين جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة انطلقت أشعة العلم إلى أنحاء الدنيا قاطبة.

إن الحضارة الإسلامية هي الوحيدة التي لم يفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتها من كل مأساة المزج بينهما كما عرفته أوروبا في القرون الوسطى.

لقد كان رئيس الدولة خليفة وأميرًا للمؤمنين، لكن الحكم عنده للحق، والتشريع للمختصين فيه، ولكل فئة من العلماء اختصاصهم

والجميع يتساون أمام القانون، والتفاضل بالقوى والخدمة العامة للناس «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»^(١).

* هذا هو الدين الذي قامت عليه حضارتنا، ليس فيه امتياز لرئيس ولا لرجل دين ولا لشريف ولا لغني.. ﴿فُلِّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم﴾ [الكهف: ١١٠].

٥ - وأخر ما نذكره من خصائص حضارتنا: هذا التسامح الديني العجيب الذي لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدين. إن الذي لا يؤمن بدين ولا بإله، لا يبدو عجبياً إذا نظر إلى الأديان كلها على حد سواء، وإذا أتى بها عامل أتباعها بالقسطاس المستقيم، ولكن صاحب الدين الذي يؤمن بأن دينه حق وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحها، ثم يتاح له أن يحمل السيف، ويفتح المدن، ويستولي على الحكم، ويجلس على منصة القضاء، ثم لا يحمله إيمانه بدينه، واعتزاذه بعقيدته، على أن يجور في الحكم، أو ينحرف عن سنن العدالة، أو يحمل الناس على اتباع دينه.. إنَّ رجلاً مثل هذا العجيب أن يكون في التاريخ، فكيف إذا وجد في التاريخ حضارة قامت على الدين وشادت قواعدها على مبادئه، ثم هي من أشد ما عرف التاريخ تسامحاً وعدالة ورحمة وإنسانية!.. هذا ما صنعته حضارتنا وسنجد له عشرات الأمثلة فيها نذكره في أحاديثنا المقلبة. وحسبنا أن نعرف أن حضارتنا تنفرد في التاريخ بأن الذي أقامها دين واحد، ولكنها كانت للأديان جميماً.

هذه هي بعض خصائص حضارتنا وميزاتها في تاريخ الحضارات، ولقد كانت بذلك محل إعجاب العالم، ومهوى أفئدة الأحرار والأذكياء

(١) رواه البخاري ومسلم.

من كل جنس ودين، يوم كانت قوية تحكم وتوجه وتهذب وتعلم، فلما انهارت وقامت من بعدها حضارة أخرى، اختلفت الأنظار في تقدير قيمة حضارتنا، فمن مزِّر بها ومن معجب، ومن متحدث عن فضائلها، ومن مبالغ في الانتقاد منها، هكذا تختلف أنظار الباحثين الغربيين اليوم في حضارتنا، وما كانوا ليفعلوا ذلك لو لا أنهم – وهم الذين ييدهم مقاييس الحكم وعنهم تؤخذ الآراء – هم الأقوياء الذين يمسكون بدفة الحضارة اليوم، وإن الذين يُحكم عليهم وعلى حضارتهم هم الضعفاء الذين تتطلع أبصار الأقوياء إلى استلام خيراتهم وحكم بلادهم بشره وجشع، ولعله هو موقف القوي من الضعيف يزري به ويتنقص قدره. كذلك فعل الأقوية في كل عصور التاريخ، إلَّا نحن يوم كنا أقوياء، فقد أنصفنا الناس قويهم وضعيفهم، وعرفنا الفضل لأهله شرقهم وغربهم، ومن مثلنا في التاريخ، عدالة حكم، ونزاهة قصد، واستقامة ضمير؟.

ومن المؤسف أننا لم نتبه تماماً لعصبية الأقوياء ضدنا وجورهم في الحكم على حضارتنا، وكثير منهم إما متعصب ل الدين أو عملاً العصبية بصره عن رؤية الحق، أو متعصب لقومية، حمله كبراءة القومية على أن لا يعترف لغير أمه بالفضل، ولكن ما عذرنا نحن في تأثرنا بأرائهم في حضارتنا؟ فيم يزري بعض الناس من أبناء أمتنا بهذه الحضارة التي ركعت الدنيا أمام قدميها ببضعة قرون؟.

لعل حجة المستخفين من قومنا بقيمة حضارتنا أنها ليست شيئاً إذا قيست بروائع هذه الحضارات الحديثة واحتراعاتها وفتوحاتها في آفاق العلم الحديث، وهذا لو صح لا يبرر الاستخفاف بحضارتنا لسبعين:

الأول: أن كل حضارة فيها عنصران: عنصر روحي أخلاقي، وعنصر مادي.

أما العنصر المادي: فلا شك في أن كل حضارة متأخرة تفوق ما سبقها، تلك هي سنة الله في تطور الحياة ووسائلها، ومن العبث أن تطالب الحضارة السابقة بها ووصلت إليه الحضارة اللاحقة، ولو جاز هذا لجاز لنا أن نزري بكل الحضارات التي سبقت حضارتنا، لما ابتدعه حضارتنا من وسائل الحياة ومظاهر الحضارة ما لم تعرفه الحضارات السابقة قط، فالعنصر المادي في الحضارات ليس هو أساس التفاضل بينها دائمًا وأبدًا.

وأما العنصر الأخلاقي والروحي: فهو الذي تخلد به الحضارات، وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية وإبعادها عن المخاوف والآلام، ولقد سبقت حضارتنا كل الحضارات السابقة واللاحقة في هذا الميدان، وبلغت فيه شأواً لا نظير له في أي عصر من عصور التاريخ، وحسب حضارتنا بهذا خلوداً.

إن الغاية من الحضارة هي أن تقرب الإنسان من ذروة السعادة، وقد عملت لذلك حضارتنا ما لم تعمله حضارة في الشرق والغرب.

الثاني: إن الحضارات لا يقارن بينها بالقياس المادي، ولا بالكمية في الأعداد والمساحات، ولا بالترف المادي في المعيشة والمأكل والملابس، وإنما يقارن بينها بالآثار التي تركها في تاريخ الإنسانية، شأنها في ذلك شأن المعارك والمالك، فهي لا تقارن بينها بسعة الرقعة ولا بحساب العدد، والمعارك الفاصلة في التاريخ القديم والوسطي لو قيست بمعارك الحرب العالمية الثانية من حيث إعداد الجيوش ووسائل القتال لكان شبيئاً تافهاً،

ولكنها لا تزال تعتبر معارك لها قيمتها البالغة في التاريخ لما كان لها من الآثار البعيدة. إن معركة «كانى» التي هزم فيها القائد القرطاجي الشهير «هنيبال» الرومانيين هزيمة منكرة لا تزال من المعارك التي تدرس في المدارس العسكرية في أوروبا حتى الآن.

وإن معارك خالد بن الوليد رض في فتوح الشام لا تزال محل دراسة العسكريين الغربيين وإعجابهم، وهي عندنا من الصفحات الذهبية في تاريخ الفتوحات العسكرية في حضارتنا.

ومع هذا فما كان قدّم معركة «كانى» أو معركة «بدر» أو معركة «القادسية» أو «حطين» ليحول دون النظر إليها على أنها معارك فاصلة في التاريخ^(١).

آثار حضارتنا في التاريخ:

تكلمنا في الحديث الماضي عن الخصائص البارزة لحضارتنا، وقلنا: أن الحضارات إنما تخليد بمقدار ما تقدمه في تاريخ الإنسانية من آثار خالدة في مختلف النواحي الفكرية والخلقية والمادية، وإن حضارتنا لعبت دوراً خطيراً في تاريخ التقدم الإنساني، وتركت في ميادين العقيدة والعلم والحكم والفلسفة والفن والأدب وغيرها آثاراً بعيدة المدى قوية التأثير فيما وصلت إليه الحضارة الحديثة، فما هي هذه الآثار؟ وما هي أهميتها؟.

نستطيع أن نجمل الآثار الخالدة لحضارتنا في ميادين خمسة رئيسية:

(١) «من رواجع حضارتنا» للدكتور مصطفى السباعي (ص ٣٥ - ٣٩) - دار الوراق - دار السلام.

أولها : في ميدان العقيدة والدين :

فقد كان لمبادئ الحضارة الإسلامية أثر كبير في حركات الإصلاح الدينية التي قامت في أوروبا منذ القرن السابع حتى عصر النهضة الحديثة، فالإسلام الذي أعلن وحدة الله وإنفراده بالسلطان وتنتزهه عن التجسيم والظلم والنقص، كما أعلن استقلال الإنسان في عبادته وصلته مع الله وفهمه لشرائعه دون وساطة رجال الدين، كان عاملاً كبيراً في تفتح أذهان الشعوب إلى هذه المبادئ القوية الرائعة، وقد كانت الشعوب يومئذ ترسف في أغلال من الخصم المذهباني العنيف والخضوع لسلطان رجال الدين على أفكارهم وأرائهم وأموالهم وأبدانهم! فمن الطبيعي وقد وصلت فتوحاته في الشرق والغرب إلى ما وصلت إليه، أن تتأثر الأمم المجاورة له بمبادئه في العقيدة قبل كل شيء.

وهذا ما حدث فعلاً، إذ قام في القرن السابع الميلادي في الغربيين من ينكر عبادة الصور، ثم قام بعدهم من ينكر الوساطة بين الله وعباده، ويدعو إلى الاستقلال في فهم الكتب المقدسة بعيداً عن سلطان رجال الدين ومراقبتهم، ويؤكد كثير من الباحثين أن «لوثر» في حركته الإصلاحية كان متأثراً بما قرأه للفلاسفة العرب والعلماء المسلمين من آراء في الدين والعقيدة والوحى، وقد كانت الجامعات الأوروبية في عصره لا تزال تعتمد على كتب الفلسفه المسلمين التي ترجمت منذ عهد بعيد إلى اللاتينية.

ثانيها : في ميدان الفلسفة والعلوم :

من طب ورياضيات وكيمياء وجغرافيا وفلك. فلقد أفاقت أوروبا على

صوت علمائنا وفلاسفتنا يدرسوون هذه العلوم في مساجد أشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها، وكان رواد الغربيين الأول إلى مدارسنا شديدي الإعجاب والشغف بكل ما يستمعون إليه من هذه العلوم في جو من الحرية لا يعرفون له مثيلاً في بلادهم.

ففي الوقت الذي كان فيه علماؤنا يتحدثون في حلقاتهم العلمية ومؤلفاتهم عن دوران الأرض وكرويتها وحركات الأفلاك والأجرام السماوية، كانت عقول الأوروبيين تملئ بالخرافات والأوهام عن هذه الحقائق كلها! ومن ثم ابتدأت عند الغربيين حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وغدت كتب علمائنا تدرس في الجامعات الغربية. فقد ترجم كتاب «القانون» في الطب لابن سينا في القرن الثاني عشر، كما ترجم كتاب «الحاوي» للرازي - وهو أوسع من القانون وأضخم - في نهاية القرن الثالث عشر، وظل هذان الكتابان عمدة لتدريس الطب في الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر، أما كتب الفلسفة فقد استمرت أكثر من ذلك، ولم يعرف الغرب فلسفة اليونان إلا عن طريق مؤلفاتنا وترجماتها.

ومن هنا يعترف كثير من الغربيين المنصفين بأننا كنا في القرون الوسطى أساتذة أوروبا مدة لا تقل عن ستمائة سنة.

□ قال العلامة جوستاف لوبيون: «ظللت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية المصدر الوحيد تقريباً للتدرис في جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة قرون، ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلًا دام إلى أيامنا، فقد شرحت كتب ابن سينا في

«مونبلييه» في أواخر القرن الماضي».

□ ويقول هذا العالم أيضًا: «على كتب العرب وحدتها عوّل روجر بيكون وليونارد البيزى وأرنو الفيلوففى وريمون لول وسان ثوما وألبرت الكبير والأذفونش العاشر القشتالى».

□ قال مسيو رينان: «إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا، وسان ثوما مدين في فلسفته لابن رشد».

□ ويقول العلامة المستشرق سيديو: «كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة الوسطى فدحرروا ببربرية أوربا التي زلزلتها غارات قبائل الشمال، وسار العرب إلى منابع فلسفة اليونان الخالدة»، فلم يقفوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا أبواباً جديدة لدرس الطبيعة».

□ ويقول أيضًا: «والعرب حين زاولوا علم الهيئة عنوا عنية خاصة بالعلوم الرياضية كلها فكان لهم فيها القدح العلي، فكانوا أساتذة لنا في هذا المضمار بالحقيقة».

□ ويقول: «وإذا بحثنا فيما اقتبسه اللاتين من العرب في بدء الأمر وجدنا أن جريرت الذي أصبحى بابا باسم «سلفستر الثاني» أدخل إلينا بين سنة ٩٧٠ وسنة ٩٨٠ ما تعلمه في الأندلس من المعارف الرياضية، وأن «أوهيلارد الإنجليزي» طاف بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٢٨ في الأندلس ومصر فترجم من العربية كتاب الأركان لإقلیدس الذي كان الغرب يجهله، وأن أفلاطون التيقولي ترجم من العربية كتاب الأكّر لثادوسيوس، وأن رودلف البروجي ترجم من العربية كتاب الجغرافيا في

المعمور من الأرض بطليموس، وأن ليونارد البيزي ألف حوالي سنة ١٢٠٠ رسالة في الجبر الذي تعلمها من العرب، وأن كنيانوس النبري ترجم عن العرب في القرن الثالث عشر كتاب إقليدس ترجمة جيدة شارحاً له، وأن قيتيليون البولوني ترجم «كتاب البصريات» للحسن بن الهيثم في ذلك القرن، وأن جيرارد الكريموني أذاع في ذلك القرن أيضاً علم الفلك الحقيقى المتن بترجمته المخططي بطليموس والشرح لخابر إلخ..، وفي سنة ١٢٥٠ أمر الأذفونش القشتالي بنشر الأزياج الفلكية التي تحمل اسمه، وإذا كان روجر الأول قد شجع على تحصيل علوم العرب في صقلية ولا سيما كتب الإدريسي، فإن الإمبراطور فرديريك الثاني لم يبد أقل حضراً على دراسة علوم العرب وأذابهم، وكان أبناء ابن رشد يقيمون بيلات هذا الإمبراطور فيعلمونه تاريخ النباتات والحيوانات الطبيعى.

□ ويقول هو مبلد في كتابه عن الكون: «والعرب هم الذين أوجدوا الصيدلية الكيماوية، ومن العرب أتت الوصايا المحكمة الأولى التي انتحلتها مدرسة ساليرم فانتشرت في جنوب أوروبا بعد زمن، وأدت الصيدلة ومادة الطب اللتان يقوم عليهما فن الشفاء إلى دراسة علم النبات والكييماء في وقت واحد ومن طريقين مختلفين، وبالعرب فتح عهد جديد لذلك العلم.. وأوجبت خبرة العرب بالعالم النباتي إضافتهم إلى أعشاب ذليلوريدس ألفي نبات، واشتمال صيدليتهم على عدة أعشاب كان يجهلها الإغريق جهلاً تماماً».

□ ويقول سيديو عن الرازي وابن سينا: « بأنهما سيطرا بكتبهما على مدارس الغرب زمناً طويلاً . وعرف ابن سينا في أوروبا طبياً فكان له على مدارسها سلطان مطلق مدة ستة قرون تقريباً؛ فترجم كتابه القانون

المشتمل على خمسة أجزاء فطبع عدة مرات لعدّه أساساً للدراسات في جامعات فرنسا وإيطاليا».

ثالثها : في ميدان اللغة والأدب :

فقد تأثر الغربيون وخاصة شعراء الأسبان بالأدب العربي تأثراً كبيراً، فقد دخل أدب الفروسيّة والحماسة والمجاز والتخيلات الراقية البدعة إلى الأدب الغربية عن طريق الأدب العربي في الأندلس على الخصوص.

□ يقول الكاتب الأسباني المشهور «أبانيز»: «إن أوربة لم تكن تعرف الفروسيّة، ولا تدين بآدابها المرعية، ولا نخوتها الحماسية قبل وفود العرب إلى الأندلس، وانتشار فرسانهم وأبطالهم في أقطار الجنوب».

□ ويدلنا على مدى تأثر الأدباء الغربيين بالعربية وأدابها في تلك العصور ما نقله لنا «دوزي» في كتابه عن الإسلام من رسالة ذلك الكاتب الأسباني «الغارو» الذي كان يأسى أشدّ الأسّى لإهمال لغة اللاتين والإغريق والإقبالي على لغة المسلمين، فيقول: «إن أرباب الفتنة والتذوق سحرهم رزين الأدب العربي فاحتقرروا اللاتينية، وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها، وساء ذلك معاصرًا كان على نصيب من النخوة الوطنية أوفي من نصيب معاصريه فأسف لذلك مُؤْلِفُ الأسف وكتب يقول: «إن إخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيدهم، ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلسفه والفقهاء المسلمين، ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والرد عليها بل لا قتباس الأسلوب العربي الفصيح، فأين اليوم من غير رجال الدين - من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل؟ وأين اليوم من يقرأ الأنجليل وصحف الرسل والأنبياء؟ وأسفاه! إن الجيل

الناشع من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدبًا أو لغة غير الأدب العربي واللغة العربية، وإنهم ليتھمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلب الأثمان ويتزمنون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية، في حين يسمعون بالكتب المسيحية، فيأنفون من الإصغاء إليها محتاجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤنة الالتفات. فيا للأسى! إن المسيحيين قد نسوا لغتهم فلن تجد فيهم اليوم واحدًا في كل ألف يكتب بها خطاباً إلى صديق، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب، وقد ينظمون بها شعراً يفوق شعر العرب أنفسهم في الأنقة وصحة الأداء».

ومن عباقرة الأدب في أوروبا في القرن الرابع عشر وما بعده من لا شك أبداً في تأثير الآداب العربية على قصصهم وأدابهم، ففي سنة ١٣٤٩ م كتب بوكاشيو حكاياته المسماة بالصلحات العشرة، وهي تحذو حذو ألف ليلة وليلة، ومنها اقتبس «شكسبير» موضوع مسرحيته العبرة بالخواتيم، كما اقتبس «لسنخ» الألماني مسرحيته ناتان الحكيم.

وكان شوسر إمام الشعر الحديث في اللغة الإنجليزية أكبر المقتبسين من «بوكاشيو» في زمانه، فقد لقيه في إيطاليا ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم حكايات كانتربري. سيرة النبي ﷺ فاطلع منها على قصة الإسراء والمعراج ووصف السباء.

أما بترارك فقد عاش في عصر الثقافة العربية بإيطاليا وفرنسا، وطلب العلم في جامعتي مونبلييه وباريس وكلتاهما قامتا على مؤلفات العرب وتلاميذهم في الجامعات الأندلسية.

وقد تأثرت القصة الأوربية في نشأتها بها كان عند العرب من فنون القصص في القرون الوسطى، وهي المقامات، وأخبار الفروسية ومحاولات الفرسان في سبيل المجد والعشق، وكان لألف ليلة وليلة بعد ترجمتها إلى اللغات الأوربية في القرن الثاني عشر أثر كبير جدًا في هذا المجال، حتى أنها طبعت منذ ذلك الحين حتى الآن أكثر من ثلاثة طبعة في جميع لغات أوروبا، حتى ليرى عدد من النقاد الأوربيين أن رحلات جليفر التي ألفها سويفت، ورحلة «روبنسون كروزو» التي ألفها ديفوه مدينة لألف ليلة وليلة ولرسالة حي بن يقطان للفيلسوف العرب ابن طفيل.

ولا يشك أحد في أن هذه الكثرة الهائلة لطبعات ألف ليلة وليلة دليل على إقبال الغربيين على قراءتها، ومن ثم على تأثيرهم بها.

ولا حاجة بنا إلى أن نذكر ما دخل اللغات الأوربية على اختلافها من كلمات عربية في مختلف نواحي الحياة حتى أنها لتکاد تكون كما هي في اللغة العربية، كالقطن، والحرير الدمشقي، والمسك، والشراب، والجرة، والليمون، والصّفر، وغير ذلك مما لا يحصى.

وحسبنا في هذا المقام قول للأستاذ «ماكييل»: «كانت أوروبا مدينة بأدبها الروائي إلى بلاد العرب، وإلى الشعوب العربية الساكنة في النجد العربي السوري تدين بأكبر قسم أو بالدرجة الرئيسية لتلك القوى النشيطة التي جعلت القرون الوسطى الأوربية مختلفة روحًا وخيارًا عن العالم الذي كان يخضع لروحه».

رابعاً: في ميدان التشريع:

فقد كان لاتصال الطلاب الغربيين بالمدارس الإسلامية في الأندلس وغيرها أثر كبير في نقل مجموعة من الأحكام الفقهية والشرعية إلى لغاتهم، ولم تكن أوروبا في ذلك الحين على نظام متقن ولا قوانين عادلة. حتى إذا كان عهد نابليون في مصر ترجم أشهر كتب الفقه المالكي إلى اللغة الفرنسية، ومن أوائل هذه الكتب «كتاب خليل» الذي كان نواة القانون المدني الفرنسي، وقد جاء متشابهاً إلى حد كبير مع أحكام الفقه المالكي.

□ يقول العلامة «سيديو»: «والذهب المالكي هو الذي يستوقف نظرنا على الخصوص لما لنا من الصلات بعرب إفريقيا، وعهدت الحكومة الفرنسية إلى الدكتور «بيرون» في أن يترجم إلى الفرنسية «كتاب المختصر في الفقه» للخليل بن إسحاق بن يعقوب المتوفى سنة ١٤٢٢ م».

خامسها: في مفهوم الدولة وعلاقة الشعب بالحكومة:

فقد كان العالم القديم والوسط ينكر على الشعب حقه في الإشراف على أعمال حكامه، كما يجعلون الصلة بينه وبين الحاكم صلة بين العبد وسيده، فالحاكم هو السيد المطلق يتصرف بالشعب كما يشاء، وكانت المملكة تعتبر ملكاً خاصاً للملك تورث عنه كما تورث بقية أمواله، ويستبيحون من أجل ذلك أن تقوم الحرب بين دولة وأخرى من أجل المطالبة بحصة أميره في العرش أو للخلاف على ميراث الأصهار!.

أما العلاقة بين الأمم المتحاربة: فهي استباحة الغالب لكل ما في يد المغلوب وما في وطنه من مال وعرض وحرية وكرامة، وظل الأمر كذلك

حتى قامت الحضارة الإسلامية تعلن فيما تعلن من مبادئها أن الشعب هو صاحب الحق في الإشراف على حكامه، وأن هؤلاء ليسوا إلّا إجراء يسهرون على مصالح الشعب وكرامته بأمانة ونزاهة، وفي هذا يقع لأول مرة في التاريخ أن يحاسب فرد من أفراد الشعب حاكمه عما يلبس، من أين جاء به، فلا يحكم عليه بالإعدام، ولا يقاد إلى السجن، ولا ينفي من الأرض، ولكن يقدم له الحاكم حسابه حتى يقنع ويقنع الناس! ولأول مرة في التاريخ يقول أحد أفراد الرعية لحاكمه الأكبر: السلام عليك أيها الأجير! فيعترف الحاكم بأنه أجير الشعب، عليه ما على الأجير من حق الخدمة بإخلاص، والنصح بأمانة. أعلنت الحضارة الإسلامية هذا فيما أعلنته وطبقته بعد ذلك، فما هي إلّا نسمة الحرية والوعي تهب في الشعوب المجاورة للمجتمع الإسلامي فتتململ، ثم تتحرك، ثم ثور، ثم تتحرر.

وهذا ما وقع في أوروبا، فلقد جاء الغربيون إلى بلاد الشام في الحروب الصليبية، ورأوا من قبل في ممالك الخلافة الأندلسية أن الشعوب تراقب حكامها، وأن الحكام لا تخضع لإشراف أحد غير شعبها، وقارن الملوك الغربيون بين تحرر ملوك العرب والمسلمين من سلطان روما طبقة إلّا مجموع الشعب، وبين خضوعهم هم لسلطان روما وتخويفهم بالحرمان والطرد بين ساعة وأخرى إذا لم يقدموا خضوعهم لملك روما الديني! فثاروا بعد رجوعهم إلى بلادهم حتى تحرروا، ثم ثارت شعوبهم عليهم حتى تحررت. وكانت الثورة الفرنسية بعد ذلك فلم تعلن من المبادئ أكثر مما أعلنته حضارتنا قبل اثني عشر قرناً!

وكان مما أعلنته حضارتنا في حروبها: احترام العهود، وصيانة العقائد،

وترک المعابد لأهلها، وضمان حریات الناس وكرامتهم، فأثارت في الشعوب المغلوبة لحكمها روح العزة والكرامة، ونبهت فيهم معانی الإنسانية الكريمة العزيزة.

وكان في التاريخ لأول مرة أن يشكوا والد مغلوب الحاكم الغالب إلى رئيس الدولة الأعلى من أن ولد الحاكم قد ضرب ولده الصغير خفقتين بالسوط على رأسه من غير حق.. ويغضب رئيس الدولة الأعلى ويحاسب ولد الحاكم ويقتض منه، ويقريع الحاكم ويؤنبه ويقول له: متى تعبدتم الناس، وقد ولدتم أمها لهم أحراراً؟! إن هذه روح جديدة تبعثها حضارتنا في الأفراد والشعوب، وقد كان هذا الوالد الذي شكا ضرب ولده، كان قبل حكمنا وحضارتنا يعذب ويضرب ويسلب ماله ويضطهد في عقيدته فلا يثور، ولا يتالم ولا يحس بالعزوة والكرامة، حتى إذا أشرقت عليه شمس حضارتنا رفع صوته ليقول لأمير المؤمنين: أنا عائد بالله وبك من الظلم، وما كان الظلم الذي اشتراكه سفك دم ولا انتهاك عرض ولا سلب دين ولا اغتصاب أرض، وإنما كان ضربتين من ولد صغير لولده الصغير!

إن الغربيين اتصلوا بحضارتنا في القرون الوسطى عن طريق بلاد الشام، وعن طريق الأندلس، وكانوا قبل اتصالهم بنا لا يعرفون ثورة ملك على رئيس دين، ولا انتفاضة شعب على ملك، ولا يجدون أن من حقهم أن يحاسبوا حاكماً أو ينصروا مظلوماً. وكانوا حين يختلف بعضهم مع بعض في العقيدة والمذهب يذبح بعضهم بعضاً كما يذبح الجزار غنه! فلما اتصلوا بنا بدأت نهضتهم وثورتهم، ثم كان تحررهم، فهل ينكر بعد هذا أثر حضارتنا في تحرير العالم وإنقاذ الشعوب؟.

وبعد، فهذه هي بعض الآثار الخالدة لحضارتنا في خمسة ميادين رئيسية هي أبرز مظاهر الحياة في الأمم والحضارات، ومن أجل ذلك كان لنا نحن أبناء هذه الحضارة دين على الشعوب التي حررتها حضارتنا، يجب أن نسترد له لا بالتفاخر الكاذب، ولا بالأمني والأباطيل، بل بمعرفتنا لقدر أنفسنا، وقيمة حضارتنا وسمو تراثنا، واستحقاقنا لأن نكون الأمة الوسط التي تشهد على الناس، وتقودهم إلى الخير والحق والكرامة ولعلنا فاعلون إن شاء الله»^(١).

لن يُعدمَ الحقُّ أنصاراً من الكُفَّارِ:

آراء المستشرين في الحضارة الإسلامية:

١- شهادة المؤرخ الإنجليزي ويلز:

«كل دين لا يسير مع المدنية في كل أطوارها فاضرب به عرض الحائط، وإن الدين الحق الذي وجدته يسير مع المدنية أينما سارت هو الإسلام.. ومن أراد الدليل فليقرأ القرآن وما فيه من نظرات ومناهج علمية، وقوانين اجتماعية، فهو كتاب دين وعلم واجتماع وخلق وتاريخ، وإذا طلب مني أن أحدد معنى الإسلام فإني أحده بهذه العبارة «الإسلام هو المدنية»^(٢).

٢- شهادة العلامة بريغولت:

«ما من ناحية من نواحي الازدهار الأوروبي إلا يمكن إرجاع أصلها

(١) «من رواي حضارتنا» (ص ٤٠ - ٤٦).

(٢) عبد المنعم النمر: «الإسلام والمبادئ المستوردة» (ص ٨٤).

إلى مؤثّرات الثقافة الإسلامية بصورة قطعية، وإنَّ ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيها قدّمه لنا من كشوف مدهشة ونظريات مبتكرة، بل إنه مدین بوجوده ذاته.. ولم يكن ييكون إلَّا رسولًا من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمَلِّ قطًّا من التصريح بأن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق^(١)، ولقد انبعثت الحضارة الإسلامية ابغاً طبيعياً من القرآن، وتميزت عن الحضارات البشرية المختلفة بطبع العدل والأخلاق والتوحيد، كما اتسمت بالسماحة والإنسانية والأخوة العالمية».

□ وقال أيضًا: «لم تكن العلوم الطبيعية -التي يرجع فيها الفضل إلى العرب- هي التي أعادت أوروبا إلى الحياة، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوروبا تأثيرات كبيرة ومتعددة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوروبا»^(٢).

-٣- شهادة المفكر ليوبولد فاييس:

«لسنا نبالغ إذا قلنا: إنَّ العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه، لم يُدشن في مدن أوروبا، ولكن في المراكز الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة»^(٣).

«نحن مدينون للمسلمين بكل حامد حضارتنا في العلم والفن

(١) أنور الجندي: «مقدمات العلوم والمناهج» (٤ / ٧١٠) نقاً عن رويلت بريفولت: «بناء الإنسانية» (ص ٢٠٢).

(٢) أنور الجندي: «أخطر ما تواصى به المسلمين عبر الأجيال» (ص ١٦).

(٣) محمد أسد: «الإسلام على مفترق الطرق» (ص ٤٠).

والصناعة، وحسبُ المسلمين أنهم كانوا مثلاً للكمال البشري، بينما كانا مثلاً للهمجية^(١).

٤- شهادة الكاتب الفرنسي أناتول فرانس:

«أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة «بواتييه» عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام ببرية الفرنجة، ألا ليت شارل مارتل قطعَت يده ولم يتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي».

«حين نذكركم كان العرب بدائيين في جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه خلال مئتي سنة، وعمق ذلك التقدم —أمّا يدعو إلى الذهول حقاً، ذلك بأن علينا أن نذكر أيضاً أن النصرانية احتاجت إلى نحو من ألف وخمسين سنة لكي تُنشئ ما يمكن أن يُدعى حضارة مسيحية، وفي الإسلام لم يُؤلّ كُلّ من العلم والدين ظهره للآخر، بل كان الدين باعثاً على العلم، وإن الحضارة الغربية مدينة للحضارة الإسلامية بشيء كثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى إذا لم تتم معرفة الثانية»^(٢).

٥- شهادة الميسيو سيدليو:

«لم يشهد المجتمع الإسلامي ما شهدته أوروبا من تحجّر العقل، وشلّ التفكير، وجذب الرُّوح، ومحاربة العلم والعلماء، ويذكر التاريخ أن اثنين وثلاثين ألف عالم قد أحرقوها أحياءاً ولا جدال في أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر، بل كان المسلمون منفردين

(١) عبد المنعم النمر: «الإسلام والمبادئ المستوردة» (ص ٨٤).

(٢) روم لاندو: «الإسلام والعرب» (ص ٩، ٢٤٦).

بالعلم في تلك العصور المظلمة، ولم يحدث أن انفرد دينٌ بالسلطة، ومنع خالفيه في العقيدة كل أسباب الحرية كما فعل الإسلام^(١).

«لقد دَيَسَتْ بالأقدام تلك المدنية العظيمة في الأندلس! ولماذا؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، ومن طباع شريفة، نعم من رجال الإسلام. إن المدنية الإسلامية لم تتنكر يوماً للحياة»^(٢).

٦- شهادة العالمة جورج سارتون:

«ال المسلمين عباقرة الشرق، لهم مأثرة عظمى على الإنسانية، تمثل في أنهم تولُّوا كتابة أعظم الدراسات قيمة، وأكثراها أصالةً وعمقاً، مستخدمين اللغة العربية التي كانت بلا مراءٍ لغة العلم للجنس البشري»^(٣).

٧- شهادة الدكتورة لوبيجي رينالدي:

«لما شعرنا بالحاجة إلى دفع الجهل الذي كان يثقل كاهلنا، تقدمنا إلى العرب ومددنا إليهم أيدينا؛ لأنهم كانوا الأساتذة الوحدين في العالم»^(٤).

٨- شهادة البروفسور غريسيب، مدير جامعة برلين:

«أيها المسلمون ما دام كتابكم المقدس عنوان هضبتكم موجوداً بينكم، وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم، فارجعوا إلى الماضي ل المؤسسوا

(١) حسان شمسي باشا: «هكذا كانوا يوم كنا» (ص ٨٣).

(٢) محمد الغزالي: «ظلام من الغرب» (ص ١٤٠).

(٣) حسان شمسي باشا: «هكذا كانوا يوم كنا» (ص ٨)، وانظر: أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية (ص ١١١، ١١٠).

(٤) أنور الجندي: «مقدمات العلوم والمناهج» (١٤١ / ٧).

المستقبل»^(١).

٩- شهادة آلبر شامدرور:

«لقد عاش العربي في أرض قاحلة، تلهب الشمس رماها، فاتخذ النجوم دليلاً، والعلم مرشدًا واستطاع أن يجمع علم العالم في أقل من مئة عام، كما استطاع أن يفتح نصف العالم، في أقل من مئة عام أيضاً، وترك لنا في حراء غرناطة، آثار علمه، وأثار مجده وفخاره»^(٢).

١٠- شهادة المستشرق الفرنسي جاك رسلر:

«في غضون خمسة ما بين ٧٠٠ و ١٢٠٠ م ساد الإسلام على العالم بقوة حضارته وعلمه.. فكان المقاتل العربي في القرن الحادي عشر مزوداً بالقوس والقذافة قبل الغربيين بمئتي عام وكانت القذافة تستعمل لغرضين فهي لم تكن تسمح بإطلاق عدة أسهم فحسب، بل كانت قادرة على قذفها لمسافة بعيدة، ومنها ما كان يطلق من على منصات إطلاق ثقيلة، ثم كان العرب أول من صنع البارود بعد ذلك بنصف قرن»^(٣).

١١- شهادة رينان:

«ما يدرينا أن يعود العقل الإسلامي الولود إلى إبداع المدينة من جديد؟ إن فترات الازدهار والانحدار مرّت على جميع الأمم بما فيها أوروبا المتعجرفة»^(٤).

(١) حسان شمسي باشا: «هكذا كانوا يوم كنا» (ص ٩).

(٢) استيفن هو كينج: «مبادئ السياسة العالمية» (ص ٢٥)، نقلًا عن حراء غرناطة لآلبر شامدرور.

(٣) جاك رسلر: «كتاب الحضارة العربية».

(٤) أنور الجندي: «مقدمات العلوم والمناهج» (٨/١٧٣).

١٢- شهادة غوستاف لوبيون:

«إنَّ حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوروبية الوحشية في عالم الإنسانية، فلقد كان العرب أساتذتنا.. وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مورداً علمياً سوى مؤلفات العرب، فهم الذين مدنوا أوروبا مادةً وعقلاً وأخلاقاً، والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجه.. إن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها.. وإن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين.. فهم الذين علموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل: حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان.. ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى بكثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة..»^(١).

١٣- شهادة جلين ليونارد:

«يجب أن تكون حالة أوروبا مع الإسلام بعيدة من كل هذه الاعتبارات الثقيلة، وأن تكون حالة شكرٍ أبدى بدلاً من نكران الجميل المقوت والازدراء المهين، فإنَّ أوروبا لم تعرف إلى يومنا هذا بأخلاق طوية وقلب سليم، بالدِّين العظيم المدينة به للتربية الإسلامية والمدنية العربية، فقد اعترفت به بفتور وعدم اكتراث عندما كان أهلها غارقين في بحار الهمجية والجهل في العصور المظلمة فقط. ولقد وصلت المدنية الإسلامية عند العرب إلى أعلى مستوى من عظمة العمran والعلم، فأحيت المجتمع الأوروبي وحفظته من الانحطاط، ولم نعرف -ونحن نرى أنفسنا في أعلى قمة من التهذيب والمدنية- بأنه لو لا التهذيب

(١) انظر: غوستاف لوبيون: «حضارة العرب» (ص ٢٦، ٤٣٠، ٢٧٦، ٥٦٦).



الإسلامي، ومدنية العرب وعلمهم وعظمتهم في مسائل المدنية، وحسن نظام مدارسهم، وكانت أوروبا إلى اليوم غارقة في ظلمات الجهل^(١).

١٤- شهادة كارادي فو:

«إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق «للتحرر» من أحابيل البربرية وأغلتها، ووصلوا إلى قمة نشاطهم «الذي استمر حتى القرن الخامس عشر» في القرنين التاسع والعشر. ومن القرن الثاني عشر فصاعداً، كانت مراكش والشرق الأوسط محطةً أنظار كل غربي يميل إلى العلم ويتذوقه، وفي هذه الفترة شرع أبناء أوروبا يترجمون آثار العرب، كما كان العرب قد ترجموا آثار الإغريق»^(٢).

١٥- شهادة زيفرييد هونكه:

«إن هذه القفزة السريعة المدهشة في سلم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء، والتي بدأت من بلا شيء هي جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني، وإن انتصارتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة لفريدة من نوعها، لدرجة تجعلها أعظم من أن تقارن بغيرها، وتدعونا أن نقف متأملين: كيف حدث هذا؟ إنه الإسلام الذي جعل من القبائل المتفككة شعباً عظيماً، آخٌ بينه العقيدة، وبهذا الروح

(١) محمد كرد علي: «الإسلام والحضارة العربية القاهرة ١٩٦٨ م» (ص ٨٢).

(٢) كارادي فو: الفلك والرياضيات بحث منشور بكتاب «تراث الإسلام» بإشراف «أرنولد» (ص ٥٦).

القوي الفتى شَقَّ العرب طريقهم بعزيمة قوية تحت قيادة حكيمه وضع أساسها الرسول بنفسه!! أو ليس في هذا الإيمان تفسير لذلك البعث الجديد؟! الواقع أن «روجر بيكون» أو «جاليليو» أو «دافنشي» ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي.. إنما السباقون في هذا المضمار كانوا من العرب الذين لجأوا في بحثهم إلى العقل والللاحظة والتحقيق والبحث المستقيم، لقد قدم المسلمون أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وسلطه عليها اليوم، وإن كل مستشفى، وكل مركز علمي في أيامنا هذه إنما هي في حقيقة الأمر نصب تذكاري للعقلية العربية.

وقد بقي الطب العربي قرورًا عديداً نسخة مسوخة عن الطب العربي، وعلى الرغم من إحراق كتب ابن سينا في مدينة بازل بحركة مسيحية عدائية، فإن كتب التراث العربي لم تخفي من رفوف المكتبات وجيوب الأطباء، بل ظلت محفوظة يسرق منها السارقون ما أحبوه أن يسرقوا^(١) □ وقالت أيضًا: «حول أعمدة المساجد أتيحت للطلاب دائمًا فرصه الاستماع إلى الأساتذة الزائرين من كل أنحاء العالم العربي المترامي الأطراف.. سواءً أكان هؤلاء العلماء في طريقهم إلى الحج أو مسافرين خصيصاً لهذا الغرض، يجوبون أنحاء العالم الإسلامي من سواحل بحر قزوين إلى سواحل الأطلسي ومنهم المؤرخون والجغرافيون، ومنهم علماء الحيوان والنبات والباحثون في تراث الأدب القديم لقد قدم العرب

(١) زيفريد هونكه: «شمس العرب تسطع على الغرب» (ص ٢٦٩، ١٤٨، ٣١٥). (٣٥٤).

بجماعاتهم التي بدأت تزدهر منذ القرن التاسع، والتي جذبت إليها منذ عهد البابا سلفستر الثاني عدداً من الغربيين من جانبِي جبال البرانس، ظلَّ يتزايد حتى صار تياراً فكريّاً دائرياً، فقدَّم العرب بها للغرب نموذجاً حيّاً لإعداد المتعلّمين لهن الحياة العامة وللبحث العلمي.

لقد قدّمت تلك الجامعات - بدرجاتها العلمية، وتقسيمها إلى كليات، واهتمامها بطرق التدريس - للغرب أروع الأمثل، ولم تقدم هذا المظهر فقط، بل وفرت له كذلك اللباب: مادة الدراسة^(١).

١٦- شهادة بلسنر:

«لا يكاد يوجد شيء من جهود المسلمين في ميدان العلوم لم يتأثر به الغرب بطريق أو بأخر».

«لم تكن علوم المسلمين بطبيعة الحال العامل الوحيد الذي أدى إلى إحياء العلم في الغرب، فتقالييد العلوم القديمة لم تتلاش تماماً وسط الفوضى التي عمّت خلال عصر غزوات البرابرة لأوروبا، ومع ذلك فمن الصحيح أن علماء المسلمين أعطوا العلم الأوروبي قوة دفع جديدة، وأهم من ذلك أن هذا العلم الغربي قد اكتسب مادة أدّت إلى إثراه بدرجة لا نظير لها بفضل الترجمات العربية عن الإغريق، وكذلك بفضل الإنتاج العلمي المستقل للمسلمين أنفسهم...»^(٢).

(١) المصدر السابق «والأفضل في تسميته كما في أصله الألماني» «شمس الله تسطع على الغرب» (ص ٣٦٩ - ٣٧٤، ٣٩٣ - ٣٩٨).

(٢) بلسنر: العلوم الطبيعية والطب دراسة منشورة بكتاب «تراث الإسلام» إشراف «شاخت» و«بوزورث» (ص ٧٩، ٨١).

١٧- شهادة يبدي تومبسون:

«إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثر شعوب غربي أوروبا بالمعرفة العلمية العربية وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك، ويقول في مكان آخر: إن ولادة العلم في الغرب ربما كانت أبجد قسم وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية»^(١).

١٨- شهادة أوسلر:

«إن ابن سينا مكّن علماء الغرب من الشروع في الثورة العلمية، التي بدأت فعلاً في القرن الثالث عشر وبلغت مرحلتها الأساسية في القرن السابع عشر»^(٢).

١٩- شهادة جوان فرينيه:

«وإذا نحن تحرّينا الدقة نجد أن أصول التطور العلمي للرياضيات عند المسلمين تبدأ مع القرآن الكريم، وذلك فيها ورد في القرآن من الأحكام المعقّدة في تقسيم الميراث، ويُعدُّ الخوارزمي أول رياضي مسلم، ونحن مدينون له بمحاولة وضع تنظيم منهجي باللغة العربية لكل المعارف العلمية والتقويم، كما ندين له باللفظ الإسباني «غوارمي» الذي يعني الترقيم – أي: الأعداد ومنازلها والصفر –، وكان الجبر هو الميدان

Yhompsonj J/W/The Medieval Library N.Y. Hafner Publishing Company (١)

.١٩٦٧ ٢٦٢

(٢) شوقي أبو خليل: «دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية» (ص ١٢٣).

الثاني الذي عمل فيه الخوارزمي، وهو فرع من الرياضيات لم يكن حتى ذلك الوقت موضوعاً لأية دراسة منهجية جادة»^(١).

٢٠- شهادة براند تراند جون:

«إن قرطبة التي فاقت كل حواضر أوروبا مدنيةً أثناء القرن العاشر كانت في الحقيقة محطةً إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينسيا في أعين دول البلقان. وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بها هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينة التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمئة حمام عمومي؛ فإن أدركت الحاجة حكام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جراح أو مهندس أو معماري أو خائط ثياب أو موسيقي فلا يتوجهون بمطالبهم إلا إلى قرطبة»^(٢).

٢١- شهادة دوبير:

«ولما آلت الخلافة إلى المأمون سنة ٨١٣ م صارت بغداد العاصمة العلمية العظمى في الأرض؛ فجمع الخليفة إليها كتاباً لا تُحصى، وقرب إليه العلماء، وبأَلْغَ في الحفاوة بهم، وقد كانت جامعات المسلمين مفتوحة للطلبة الأوروبيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم، وكان ملوك أوروبا وأمراؤها يُنذون على بلاد المسلمين يُعالجوا فيها»^(٣).

(١) جوان فرينيه: الرضيات والفلك والبصريات دراسة منشورة كتاب «تراث الإسلام» إشراف «شاخت» و«بوزورث» القسم الثالث (ص ١٦٨).

(٢) براند تراند جون: إسبانيا والبرتغال دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام بإشراف «أرنولد» (ص ٢٧).

(٣) دوبير: «المنازعة بين العلم».

٢٢- شهادة نيكلسون:

«وما المكتشفات اليوم لتهسب شيئاً مذكوراً إزاء ما نحن مدينون للرُّوَاد العرب الذين كانوا مشعلاً وضاءً في القرون الوسطى ولا سيما في أوروبا»^(١).

٢٣- شهادة وايدمان:

«إن العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيداً، وطبقوها على حالات كثيرة و مختلفة، ثم أنشؤوا من ذلك نظريات جديدة وبحوث مبتكرة، فهم بذلك قد أسلوا إلى العلم خدمات لا تقل عن الخدمات التي أتت من مجهودات نبوتن، وفرادي، ورونتجن»^(٢).

٢٤- شهادة كمستون:

«إنه لو لم يكن للعرب غير هذا الفضل في الإنقاذ، لكيماهم خدمة وفخراً، لقد رفع العرب شأن الطب ولم ينقطع في جعل الجراحة قسماً منفصلاً عنه، وفي إنشاء المستشفيات والتفنن فيها، وفي الترخيص الشرعي لممارسة الطب»^(٣).

٢٥- الباحث الألماني الدكتور بير بورمان:

«إن إنجازات المسلمين في العالم واضحة جلية في كل شؤون العلوم والثقافة، بل إن إنجازاتهم في مجال الطب لا يستطيع أحد إنكارها، وهذا هو ما دفعني إلى تأليف كتاب بعنوان «الطب الإسلامي في القرون الوسطى».

(١) قدرى طوقان: «علماء العرب وما قدموه للحضارة» (ص ٦).

(٢) المصدر السابق (ص ١٠).

(٣) قدرى طوقان: «علماء العرب وما قدموه للحضارة» (ص ١٢).

وقال: «دفعني لتأليف هذا الكتاب أنني كمسيحي ألماني أدين بالفضل في جزء من ثقافي للثقافة الإسلامية، وهذا ما أحابه توسيعه وتأكيده رغم محاولات البعض طمس الدور المهم الذي لعبه المسلمون في أوروبا والعالم، ولقد عرفت أنا وزميلي الباحثة «إيميلي سافاج سميث» على رصد إنجازات المسلمين في مجال الطب في القرون الوسطى»، وأضاف: «إن المستشفيات الإسلامية كانت عبارة عن أوقاف إسلامية، وكانت تقدم الخدمة الطبية لكل الناس بصرف النظر عن ديانتهم، فهناك اليهود والمسيحيون والصابئة والزرادشتيون وغيرهم، فكان المستشفى الإسلامي يعالج الجميع، وهذا يعني تسامحاً إسلامياً كبيراً مع غير المسلمين».. وعن أهم الأمراض التي أسهم فيها المسلمون بعلم جديد. قال: «الكثير من الأمراض، إلا أن أخطرها هو مرض المالنخوليا»^(١).

٢٦- شهادة ي. هل:

«من تراث العرب علم حساب المثلثات ونظريات الزوايا والثواب، ولم يكن في استطاعة «بيورباخ» و«رجيوناس» و«كوبيرنيق» أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه دون أساس من علوم العرب وما أسهموا به في ميدان الرياضيات؛ ذلك أن العرب أحبوا تدعيم نظرياتهم بنماذج عملية، وساعدتهم ذلك على وصول درجة الكمال في علم الجوهادسيا «مقاييس سطح الأرض» الخاص بقياس ارتفاع الجبال واتساع الوديان، أو حساب المسافة بين نقطتين تقعان على سطح منبسط، واستخدم العرب هذا العلم أيضاً في تصميم مجاري المياه»^(٢).

(١) حوار له بجريدة الأخبار المصرية بتاريخ ١٣ / ٤ / ٢٠٠٧.

(٢) ي. هل: «الحضارة العربية» (ص ١٠٨)، تعریف الدكتور إبراهيم العدوی.

٢٧- شهادة جوستاف إ. فون جرونيباوم:

«كان الرازي يتناول الطب على صورة علمية حقيقة، حتى لقد كتب رسالة موضوعها «أن مهرة الأطباء أنفسهم لا يستطيعون شفاء جميع الأمراض»^(١).

٢٨- شهادة مايرهوف:

«كان تفوق المسلمين العلمي والمادي في الشطر الأعظم من العصر الوسيط معترفاً به غير منكور إلى حد بعيد، ثم يتناقص ذلك التفوق قرب نهاية ذلك العصر بدخول الشرق في دور الركود الذهني والاضمحلال الاقتصادي، على حين تنخفض أوروبا وتهانك وقد نبهها إلى حد كبير اطراد إمامها بالعلوم الإسلامية»^(٢).

٢٩- شهادة تشرش:

«يعود الفضل للعرب إذ إنهم كانوا أول من أوجد حوانيت الصيدلة لبيع الأقراصيات»^(٣)، وغاب على الظن أنه لو لا العرب لما وصل الطب الأوروبي إلى ما هو عليه الآن»^(٤).

٣٠- شهادة تومبسون:

«إنَّ انتعاش العلم في العالم الغربي نشاً بسبب تأثير شعوب غربى أوروبا

(١) جوستاف إ. فون جرونيباوم: «حضارة الإسلام» (ص ٤٢٤)، ترجمة عبد العزيز توفيق.

(٢) انظر: «تراث الإسلام» (ص ٣٥٣).

(٣) الأقراصيات: فارسية تعنى: فن تركيب الدواء.

(٤) محمد الصادق عفيفي: «تطور الفكر العلمي عند المسلمين» (ص ١٨٨).

بالمعرفة العلمية العربية، وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم، ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك.. إنَّ ولادة العلم في الغرب، ربما كان أبْجَدُ قسم، وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية»^(١).

٣١- شهادة ماكس فانتيجو:

«كل الشواهد تؤكد أن العلم الغربي مدين بوجوده إلى الحضارة العربية الإسلامية، وأن المنهج العلمي الحديث القائم على البحث واللاحظة والتجربة، والذي أخذ به علماء أوروبا، إنما كان نتاج اتصال العلماء الأوروبيين بالعالم الإسلامي عن طريق دولة العرب المسلمين في الأندلس»^(٢).

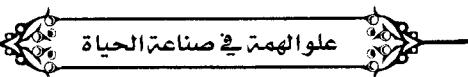
٣٢- شهادة الرعيم الهندي «جواهر لال نهرو»:

«إنهم –الغرب– آباء العلم الحديث وإنَّ بغداد تفوقت على كل العواصم الأوروبية فيما عدا قرطبة عاصمة إسبانيا العربية «الأندلس»، وإنَّه كان لا يُؤْمِنُ من وجود ابن الهيثم والحسن والكتبي وابن سينا والخوارزمي والبيروني لكي يظهر عند الغرب «جاليليو، وكبلر، وكوبرنيق، ونيوتون»^(٣).

(١) Thompson The mediaeval n.y. hafner publishing company page ٢٦٣.

(٢) ماكس فانتيجو: في كلمة له أمام مؤتمر الحضارة العربية الإسلامية المعقود في جامعة برنستون في واشنطن عام ١٩٥٣ م. انظر شوقي أبو خليل، هاني المبارك: «دور الحضارة الإسلامية في النهضة الأوروبية» (ص ١٢٥).

(٣) جواهر لال نهرو: «لحظات من تاريخ العالم».



٣٣- شهادة الأمير البريطاني تشارلز:

«إن الإسلام يمكن أن يعلمها طريقة للتفاهم والعيش في العلم، الأمر الذي فقدته المسيحية، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة»^(١).

٣٤- شهادة الموسوعة البريطانية:

«والحق أن كثيراً من أسماء الأدوية وكثيراً من مركباتها المعروفة حتى يومنا هذا، وفي الحقيقة المبنى العام للصيدلة الحديثة - فيما عدا التعديلات الكيماوية الحديثة بطبيعة الحال - قد بدأه العرب»^(٢).

٣٥- شهادة البروفسور هوكينج:

«إن الشغف بالعلم والتعطش الدائم لارتياد مناهله، صفات امتاز بها العرب، وهي التي تمد عبقريتهم بالقوة المبدعة الخلاقة، يعشقون الحرية ويتطلعون دوماً إلى انتل العليا بدون تعصب ولا تزمرت، ولسوف نرى عندما تزول اللفحة المحرقة التي أصابت العرب وخدررت نفوسهم، أن عناصر الثروة العلمية الكامنة والشجاعة الفكرية الخالية سوف تتطلق من عقابها، وتتحرر من أسرها ليعودوا سريعاً لاحتلال مكانتهم على الأرض»، ويضيف: «والدليل على قوله هو ما كان من انطلاق العرب في هضتهم الأولى وما تركوا للأجيال من تراث علمي، وأثار خالدة، وهذا

(١) حاضرة «الإسلام والغرب» والتي ألقاها في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية عام ١٩٩٣ م.م.

(٢) «الموسوعة البريطانية» (٤٦ / ١٨) الطبعة الحادية عشرة.



ما يزمعون فعله في العصر الحاضر..»^(١).

٣٦- شهادة الدكتور كمبيل:

«إن أوروبا كانت من عصر شارلمان حتى تأسس مدرسة «سالرنو» الطبية «العرب هم الذين أسسوها»، قد انحدرت إلى أدنى دركات الانحطاط، وإن شعوبها لم تكن لتقارن بالمجتمع الأسطوريين الذين عاشوا في أدنى حدود المدنية، وأنها كانت كلها حتى الحروب الصليبية (١٠٩٦ - ١٢٧٢ م) باستثناء إسبانيا وإيطاليا - وكانت تحت النفوذ العربي الإسلامي - في حالة همجية تامة»^(٢).

٣٧- شهادة أندرو ديكسون وايت:

«إن معاملة المجانين في العالم الإسلامي منذ عصر عمر وما بعده كانت أرحم بكثير من الوضع الذي ساد طول العالم المسيحي وعرضه مدة ثمانية عشر قرناً من الزمان، كان المجانين يُعتبرون خلاها ممسوين تقمصتهم الشياطين، ومن ثمةً تعرضوا الأقصى ضرب التنكيل والوحشية».

□ ويقول أيضًا: «إن الراهب «جون هوارد» لاحظ في القرن الثامن عشر ما لاحظه غيره من الرهبان والرجال الأوروبيين في ذلك العصر وقبل ذلك، أنَّ المسلمين قد وفروا كثيراً من الوسائل الرحيمة للمجانين، لم يَرْ هؤلاء لها مثيلاً في أراضي أوروبا المسيحية، والحق أنَّ المسلمين هم الذين نبهوا إلى ضرورةبذل الجهود التي بدأت في أوروبا ابتداء من القرن

(١) استيفن هركينج: «مبادئ السياسة العالمية» (ص ٢٥).

.D. Campbell: ARABIAN Medicine Nol ١٠٧. ١٠٨ (٢)

الثامن عشر لمعاملة المجانين معاملة رحيمة»^(١).

٣٨- شهادة سميث:

«إن البيروني كان أمعن أهل زمانه في الرياضيات، وإن الغربيين مدینون له بمعلوماتهم عن الهند وما تأثرت بهم في العلوم»^(٢).

٣٩- شهادة سنجر:

«نستطيع أن نستبين بوضوح الحالة الراهنة في ذلك العصر بأن نستجمع الصورة الحقيقة من وثائق مختلفة، تدل على أن طالب العلم الأوروبي، المشغوف بالعلم، المتطلع إلى الاستزادة من المعرفة ذاك الذي كانت الدراسة في باريس أو بادوا أو أكسفورد لا ترضيه، إنما كان يذهب إلى طليطلة أو قرطبة»^(٣).

٤٠- شهادة جون هرمان راندال:

«وسط هذا العالم الذي أخذت رقعته في الاتساع اتجاه رجال القرون الوسطى إلى المعرفة العلمية التي وجدوها في مكاتب العرب وجامعاتهم الغنية، وحين أخذ الغرب يستيقظ في مطلع القرون الوسطى انتقل مركز الثقافة الإسلامية بنتيجة فعل المتعصبين من المصلحين المسلمين من الخلافة الشرقية إلى إسبانيا، وعن طريق إسبانيا جاءت أول معرفة

(١) انظر: A.D. White: A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom Vol. ١٢٢/١١

(٢) قدرى حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك (ص ٣١)، نقلًا عن سميث: «تاريخ الرياضيات» الجزء الأول.

.Ch. Singer: Medieval Contribution to modern civilization p. ١٢٤ (٣)

بمؤلفات أرسطو الكبيرة، ولكن المسلمين أنقذوا من العالم القديم شيئاً كان أرسطو بالرغم من عبقريته عاجزاً كل العجز عنه وهو العلم الرياضي والآلي»^(١) اهـ^(٢).

٤١- شهادة الدكتور لويس يونج:

قال الدكتور «لويس يونج» في مقدمة كتابه «العرب وأوروبا»: «نحن حينما نسلّم اليوم أن آسيا وأفريقيا تمثلان أوروبا قدوة لهم، يجب ألا ننسى الوجه الآخر للصورة في العصور الوسطى، عندما عكفت أوروبا على علوم العرب من طب وفلسفة وطبيعة، واستمر ذلك لفترة طويلة. حتى إذا كان القرن الثامن عشر قبست منهم نار الرومانطيقية. وفي القرن التاسع عشر سلبتهم أراضيهم، ثم بتروهم في القرن العشرين. وعلى الرغم من سجل أوروبا الطافح بالتزمرت الفكري واللامسامح الديني، على النقيض من المسلمين، فإنها ظلت ترفض الاعتراف بما للعرب من يد طولى على حضارتها، وتتجاهل دورهم الحضاري وتقلّل من شأنه.

لقد هُوَل المؤرخون الأوروبيون في وصفهم الفتوحات الإسلامية في أوروبا خلال العصور الوسطى ومدى تهديدها للدين المسيحي، بينما تغافلوا عن ظاهره انتكاس الحضارة في البلدان التي أُجلِيَ العرب عنها، وما إسبانيا والبرتغال وصقلية إلَّا أمثلة لذلك.

ففي إسبانيا يسود التعصب الديني وتهذيب الحيوانات «كمصارعة

(١) جون هرمان راندال: «تكوين العقل الحديث» (٣٣١ / ١).

(٢) «العلم وبناء الأمم» للدكتور راغب السرجاني (ص ١٧٩ - ١٩٠) مؤسسة اقرأ.

الثيران» كمشهد مألهوف، وفي البرتغال أعلى نسبة للأمية في أوروبا، وفي صقلية عصابة المافيا السيئة السمعة.

□ ما الذي تركته حضارة العرب والمسلمين في أوروبا؟

لقد تركت بصماتها على جميع المستويات.. وانتهاء بالعلوم حيث يستخدم ملائحو الفضاء اصطلاحات عربية مثل: السمت، وسمت الرأس. وهناك في خرائط القمر أكثر من موقع أطلق عليها أسماء لبعض العلماء العرب: كالزركلي والبتاني وأبي الفداء.

إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلّمها من الحضارة الإسلامية، منها نظرة العرب المتسامحة وعدم تمييزهم فروق الدين والعرق واللون»^(١).

٤٢- موريis لومبار:

□ يقول «موريس لومبار» في كتابه «الإسلام في فجر عظمته» عن تأثير الفتوحات الإسلامية على تحضُّر الغرب وانطلاقه نحو الحضارة: «لم يترافق الفتح بالتخريب مطلقاً، فلم تُحرق المدن ولم تُنهب.. وبالنسبة للقسم الغربي فكان تجدهاً حقيقةً.

إننا نعتقد بالواقع أن الغرب استأنف التماس بالحضارات الشرقية، وعبرها بالحركات العالمية الكبرى للتجارة والثقافة، بفضل الفتح الإسلامي، وفي حين أن الغزوات البربرية الكبرى في القرنين الرابع

(١) «العرب وأوروبا» (ص ٩ - ١٠)، وانظر: «الحضارة الإسلامية وجهتها الله، والحضارة الغربية مركزها الإنسان» للواء أحمد عبد الوهاب (ص ٢٤ - ٢٥) - دار الصحيفة - المركز الإسلامي بمسجد العزيز بالله.

والخامس أدى إلى التقهقر الاقتصادي للغرب، فقد جلب قيام الإمبراطورية الإسلامية الجديدة لهذا الغرب نفسه تطوراً مدهشاً.

وإذا كانت الغزوات الجرمانية قد عجلت بانحطاط الغرب، فإن الفتوحات الإسلامية كانت حافزاً على انطلاق حضارته»^(١).

٤٣- الكاتب الهندي : Mehta

□ يقول في كتابه «الحضارة الهندية والإسلام»: «بقيت حقيقة الإسلام في حجاب، وبقيت هباته وأياديه الجميلة مخفية عن الأنظار.

إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلًا من نور قد انجلت به الظلمات في عصر مالت فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتلذل.. لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الأفكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة.

٤٤- أبانيز:

□ قال «عباس محمود العقاد» في معرض رده على صنف الجائزين الجاحدين المتعصبين^(٢): «وقد أصاب «أبانيز» حين قال: إنَّ عصر النَّهضة مَدِينٌ للحضارة الأندلسية قبل الحضارة الإيطالية التي أعقبتها؛ لأنَّ عصر النَّهضة لم يكن عصر تجديد للفنون الإغريقية القديمة، ولا مزيد على ذلك من عنده، ولكنَّه كان عصر تجديد في الحياة العلمية والمرافق الصناعية والتجارية، وفَهُم مُسْتَحِدِّثُ للعقيدة وللعالم، وللعلاقات بين الحاكمين والمحكومين، أو كأنَّ عصر معيشة جديدةٍ تناولت بالتبديل والتعديل طبقات الشعوب من العلية إلى السواد، وذلك أولى أن يأتي من

(١) «الإسلام في فجر عظمته» لموريس لومبار (ص ١٢).

(٢) في كتابه «أثر العرب في الحضارة الأوربية» للعقاد (ص ١٢٢ - ١٢٣).

القدوة الشعبية في جميع الشؤون العملية بعد اتصال المعاشرة بين حضارة العرب -أي: المسلمين- وأبناء أوروبية العدة قرون.

وفي وسع الأرقام والألفاظ أن تُحصي لنا آثار العرب -أي: المسلمين- في بعض العلوم أو بعض الصناعات، ولكنَّ آثار العرب -أي: المسلمين- في الحضارة العامة لا تستقصيها الأرقام ولا الألفاظ، ولا هي موقوفة على استقصاء أرقام وألفاظ لأنَّ زعم الزاعم أنها قد مضت بغير أثر كبير يُناقض العقل البشري، كما يُناقض المشاهد والمحسوس، وإنجاد هذا الأثر إلى غيرها بلا مشاركة منها على الأقلَّ تعسُّفٌ لا يُؤخذُ به في سياق التاريخ.

وقد جاءت النهضة بعد عهد الحضارة الأندلسية، وجاء الإصلاح الديني بعد النهضة، وجاءت الحرية السياسية بعد الإصلاح، ولم ينكر أحدُ من الأوروبيين أثر واحدة من هذه الحركات في الأخرى، فليس في وُسْعِ المتعصبين منهم أن يقطعوا الصلة بين الحركة الأولى وما تلاها، مع هذا التلازم في الزمان والأسباب»^(١) اهـ.

٤٥- العلامة «درير»:

□ ويقول العلامة «درير» في معرض الدفاع عن حضارة العرب -أي: المسلمين- وتَسْفيه الطريقة التي انتهجهما زملاؤه من كتاب أوروبا للتلّعمية على أفضال المسلمين على الحضارة»^(٢): «ينبغي علي أن أنعَّ على

(١) «الحضارة الإسلامية» للشيخ عبد الرحمن جبنكة الميداني (ص ٦٥٢ - ٦٥٣) - دار العلم.

(٢) نفلاً من كتاب «أثر العرب في الحضارة الأوربية» لجلال مظهر (ص ١٧٠).

الطريقة الرتيبة التي تحايل بها الأدب الأوروبي ليُخفي عن الأنظار ما ثر المسلمين العلمية علينا، أمّا هذه المأثر فإنّها على اليقين لَنْ تظلّ كثيراً بعد الآن خفية ن الأنظار، إنَّ الجُورَ المبنيِّ على الحقد الديني والغرور الوطني لا يمكن أنْ يستمر إلى الأبد» اهـ.

٤٦- سارتون:

□ ويقول «سارتون»^(١): «حقّ المسلمين عباقرةُ الشّرق أعظمَ المأثر في القرون الوسطى. فكُتِبَتْ أعظم المؤلفات قيمةً، وأكثرها أصالةً، وأغْزَرَها مادّةً باللغة العربية، وكانت من منتصف القرن الثامن حتّى نهاية القرن الحادي عشر لُغةُ العلم الارتقاء للجنس البشري، حتّى لقد كان ينبغي لأيّ كائن إذا أراد أنْ يُلّمَ بثقافة عصره، وبأخذَ صورها أن يتّعلم اللغة العربية. ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها»^(٢) اهـ.

٤٧- هربرت فيشر^(٣):

□ يقول في كتابه «تاريخ أوروبا»: «لقد وصلنا الآن إلى نقطة يصبح عندها تاريخ أوروبا مُعَقَّداً بسبب انتصارات الدين الإسلامي. ففي خلال القرون الستة الأولى من التقويم المسيحي ما كان يمكن لأي سياسي متميّز في أوروبا أن يجد فرصة يتذكّرُ بلاد العرب. ولكن ما إن انقضت مئة عام حتّى استطاع هؤلاء المتوجهون

(١) المصدر السابق.

(٢) «الحضارة الإسلامية» للشيخ عبد الرحمن جبنكة الميداني (ص ٦٥٣).

(٣) مؤرخ وسياسي إنجليزي عمل بعد الحرب العالمية الأولى مندوباً مفوّضاً لدى عصبة الأمم، ثم عميداً لكلية new college في جامعة أوكسفورد.

المغمورون أن يصبحوا قوة عالمية عظمى.. وما بين أحد طرفي أوروبا حتى طرفها الآخر، وجدت الدول المسيحية نفسها تواجه التحدي من خلال حضارة شرقية جديدة تأسست على دين شرقي جديد. وخلال السنوات الأولى من التوسيع العربي ما كان الفاتحون في حاجة إلى بذل مجهد كبير لكسب مهتمدين إلى الإسلام. فعلى العكس من ذلك كان نجاحهم في الحكم متوقعاً إلى حد كبير على سياستهم الحكيمية في التسامح التي مارسوها تجاه اليهود والمسيحيين.

وهكذا انتشرت الحضارة الإسلامية، وكانت مراكزها السياسية في دمشق تحت حكم الأمويين، وفي بغداد تحت حكم العباسين، وفي مصر تحت حكم الفاطميين، ولقد ساهم فيها السوريون والفرس والترك والبربر والأتراك ليقدموا جميعاً العصر الرائع للآداب والفنون الإسلامية، التي مكنت شعوب الإسلام من السيادة الفكريّة للعالم طيلة أربعة قرون، بينما كان العقل الأوروبي غارقاً في قيعان الجهل والكسل^(١).

٤٨- برنارد لويس^(٢):

□ يقول «برنارد لويس» عن «الإسلام منذ الأمس حتى اليوم»: «إن المسيحية في إخلاصها إلى «إنسان - إله» إنما تلهم مثلاً علياً دنيوية، بينما الإسلام في إخلاصه للقرآن إنما هو حضارة، إذ لا يمكن فصل محتواه الديني عن تنظيم حياة البشر ذلك التنظيم الذي كان يُوضع موضع

(١) «تاريخ أوروبا» لفيفير (١٥٠ / ١٥٤).

(٢) مستشرق إنجليزي. أستاذ دراسات الشرق الأدنى بجامعة برнстون وأستاذ زائر في جامعات كاليفورنيا وانديانا وعضو في عدد من الجمعيات العلمية العالمية.

التنفيذ فوراً بمجرد التنزيل.

وعلى المستوى الديني، يُعتبر الإسلام هو النهاية، ولكن من الوجهة التاريخية، يُمكِّنُ النظر إليه باعتباره بداية.

فقد كان تأسيساً للدين الجديد، وإمبراطورية جديدة، وحضارة جديدة.. ويُزعم أحياناً أن الدين الإسلامي قد فرض بالقوَّة، إن هذا القول غير صحيح «لقد قامت حضارة أصيلة مستوحاة من العقيدة الإسلامية، ومتعددة بحماية الدولة الإسلامية، ومُدعَّمة بشراء اللغة العربية.. حضارة تنموا وتتَّسَع وتعيش طويلاً، وقد صنعها الرجال والنساء من مختلف الأعراق والديانات، وقد اصطبغ كل شيء فيها بالعروبة والمبادئ والقيم الإسلامية» اهـ.

٤٩- مارسيل بوazar^(١) :

□ يقول «مارسيل بوازار» في كتابه «إنسانية الإسلام»: «في كلمة موجزة، فإن الإسلام حضارة أعطت مفهوماً خاصاً للفرد، وحدَّدت بدقة مكانة في المجتمع وقدّمت عدداً من الحقائق الأولية التي تحكم العلاقات بين الشعوب، كما أن هذه الحضارة لم تقدم فقط مساهمتها التاريخية الخاصة في الثقافة العالمية، ولكنها تؤكّد أيضاً، ولها مبرراتها، على تقديم حلول للمشاكل الرئيسية للأفراد والمجتمعات والمشاكل الدولية التي تثير

(١) أستاذ جامعة سويسري عمل مثلاً للجنة الدولية للصلب الأحمر في عدة دول إسلامية ومديراً مشاركاً في برامج التثقيف الدبلوماسي بالمعهد الجامعي للدراسات الدولية العليا بجنيف ومندوبياً مفوّضاً أوروبياً بالجمعية الثقافية الدولية المعروفة باسم: «الإسلام والغرب».

الاضطرابات في العالم المعاصر.

إن الإسلام هو اتصال بين الله كإله وبين الإنسان كإنسان، فالإسلام تسلّم يقيني نشط وعن طوعية إلى المائدة الإلهية.

ومن الناحية التاريخية، فلقد أنجب هذا الدين «أُمّةً»، وأوجد أسلوبًا للحياة والعمل والتفكير. وفي كلمة واحدة: فقد أنجب حضارة.

ويدلُّ التاريخ على وجود حقيقة ثابتة مثالية في الحضارة الإسلامية، التي كانت منذ بدئها ولا تزال، متوجّهةً توجّهًا كاملاً نحو الله. وهذه الظاهرة التي تغيب دائمًا عن الفكر والتحليل الغربي الحديث، تُعطي للإسلام طابعه المتميّز بالدّوام. وربما كان ديكارت الذي تُغذّي فلسفته ومنهجيته التفكير اليومي لأوروبا، قام بإحداث شق يعتبر واحدًا من أكثر الشقوق عمّا بين الشرق والغرب، ففي اختياره للاتجاه العقلاني، فإنه حول الثقافة الأوروبية من ثقافة تعتبر «الإنسان مركز الكون» ويبقى الله هو المرجع الرئيسي في الفكر الإسلامي، سواءً في علوم الدين أو القانون أو السياسة، ويضطلع الدين بصورة مباشرة بتنظيم الحياة الروحية والزمنية للفرد والجماعة^(١).

□ ويقول أيضًا: «وتُظهر الرسالة القرآنية وتعاليم النبي أنها تقدُّمية بشكل جوهري. وتفسّر هذه الخصائص المميزة، انتشار الإسلام السريع بصورة عجيبة خلال القرون الأولى من تاريخه.

ومن المفيد أن نُسجّل إلى أي مدى يؤثّر مفهوم معين للعالم والإيمان بمصير عالمي للإنسانية، في طبع السلوك اليومي لملايين الأنفس من

(١) «إنسانية الإسلام» لبوازار (ص ٢٧ - ٣٨).

البشر. ولا يمكن لأي طريقة مُثلّى «أيديولوجية» معاصرة أن تدّعى منافسة الإسلام في هذا الصدد»^(١).

□ وقال: «لقد كان هذا الدين حافزاً على تشكيل كيان متميّز لم تستطع تقلبات الزمن والاحتكاك بالحضارات المختلفة أن تفْتَ في عضده على مر العصور. إن الشعور المتيقظ بالانتهاء إلى كيان متميّز، والوعي النشيط بامتلاك الحقيقة قد خلق حضارة خاصة بال المسلمين، فرضت تعريفاً خاصاً للفرد والدولة والعالم».

٥٠- المؤرخ الأمريكي دراير:

□ يقول المؤرخ الأمريكي «دراير» في كتابه «النمو الثقافي في أوروبا»: «ما إن رسخت أقدام العرب في إسبانيا حتى شرعوا في عملهم الفريد الوظّاء. وأصبح خلفاء قرطبة أكبر حماة للعلوم. وأقاموا الدليل على سموّ ذوقٍ يتناقض بصورة صارخة مع بدائية الأمراء الأوروبيين. وتحت إدارة هؤلاء الخلفاء بلغت قرطبة أوج ازدهارها. وبعد غروب الشمس، يُمكِّن للمرء بها أن يقطع عشرة أميال في شوارع مستقيمة مضاءة بالفوانيس. وبعد سبعة قرون من ذلك لم تكن لندن عرفت بعد الإضاءة العمومية، وكانت شوارع قرطبة مُبلّطة بطريقة جيدة. وبعد أربعة قرون من ذلك لم يكن الباريسي يستطيع أن يخطو عتبة بيته دون أن يغوص في الوحل إلى كعبه. إن العرب لم يحملوا معهم إلى إسبانيا: الأحقاد الطائفية أو الدينية، أو محاكم التفتيش، وإنما حملوا معهم أنفساً شائين في العالم، هما أصل عظمة الأمم: الساحة والفلحة»^(٢).

(١) المصدر السابق (ص ٦٢ - ٧٢) ختصرًا.

(٢) «الحضارة الإسلامية وجهتها الله والحضارة الغربية مركزها الإنسان» (ص ٩٦ - ٩٧).

٥١- مرة أخرى مع الأمير تشارلز ولّي عهد بريطانيا :

في عام ١٩٩٣م ألقى الأمير تشارلز ولّي عهد بريطانيا محاضرة في افتتاح مركز الدراسات الإسلامية في أوكسفورد جاء فيها: «إن العالم الإسلامي في العصور الوسطى، من آسيا الصغرى إلى شواطئ الأطلسي، كان عالماً ازدهر فيه الباحثة المختصون ورجال العلم. ولكن بالنظر إلى أننا نميل إلى اعتبار الإسلام عدواً للغرب ونظام عقيدة وثقافة ومجتمعاً غريباً، قد جنحنا إلى تجاهله ومحو أهميته بالنسبة إلى تاريخنا. فقد قللنا مثلاً من أهمية ٨٠٠ عام من المجتمع والثقافة الإسلامية في إسبانيا بين القرنين الثامن والخامس عشر».

لقد تم الاعتراف منذ عهد طويل بمساهمة إسبانيا في ظل الحكم الإسلامي، في المحافظة على العلوم والمعارف الكلاسيكية خلال عصور الظلام، وفي وضع اللبنات الأولى للنهضة الأوروبية، لقد شجع الإسلام البحث والتنقيب وحافظ عليهما، وثمة قول مأثور جاء فيه: إن حبر العالم أقدس من دم الشهيد، لقد كانت قرطبة في القرن العاشر أكثر المدن تحضراً في أوروبا، فنحن نعرف وجود مكتبات عمومية في إسبانيا، في الوقت الذي كان الملك الفرد يرتكب أخطاء في فنون الطبخ في هذه البلاد ويقال: أن مكتبة حاكم قرطبة كانت تضم ٤٠٠٠٠ مجلد، أي ما يزيد على عدد الكتب في جميع المكتبات في بقية أوروبا، إن كثيراً من المزايا التي تفخر بها أوروبا العصرية جاءت أصلاً من إسبانيا أثناء الحكم الإسلامي، فالدبلوماسية، وحرية التجارة، والحدود المفتوحة، وأساليب البحث

للواء أحمد عبد الوهاب.

الأكاديمي، وعلم الأنثربولوجيا، وأداب السلوك والموضبة، والطب البديل والمستشفيات جاءت كلها من تلك المدينة العظيمة، وقد كان الإسلام في العصور الوسطى دينًا يتسم بقدر ملفت للنظر من التسامح بالنسبة إلى تلك الحقبة، وكان بذلك قدوة لم تختذل بها — للأسف — دول كثيرة في الغرب.

إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا في جميع مجالات البحث الإنساني، وقد ساهم في إنشاء أوروبا العصرية، إنه جزء من تراثنا وليس منفصلاً عنه.

وعلاوة على ذلك، فإن الإسلام يمكن أن يعلّمنا طريقة للتواصل والعيش في العالم، الأمر الذي فقدته الديانة المسيحية مما أدى إلى إفقارها، ويكون في جوهر الإسلام حفاظته على نظرية متكاملة إلى الكون، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة.

□ وبعد نحو ثلث سنوات — في ديسمبر ١٩٩٦ — ألقى الأمير حديثاً آخر في «ديلتون بارك»، أمام حشد من الأكاديميين ورجال الأعمال وممثلي هيئات المعنية بموضوع الإسلام والغرب، وقد كتب «جون كيسى» الأستاذ بجامعة «كمبريدج» مقالاً نشرته صحيفة «الديلي تلغراف»، تعليقاً على شجاعة الأمير تشارلز ورؤيته الواسعة للعلاقات الدولية، قال فيه: «من تجربتي الخاصة، فإنك عندما تكتب شيئاً يظهر التعاطف والإحترام للإسلام، تتلقى فيضاً من الرسائل المعادية، ومعظم تلك الرسائل تصدر عن أناس يؤمنون بأن هناك مؤامرة إسلامية عالمية، إن هذه الأجواء السلبية تجعل من حماولات الأمير تشارلز إضفاء شيء من

الإنصاف على فهمنا ورؤيتنا لل المسلمين تنطوي على شجاعة واضحة، فالجو الخانق المنبعث من التحامل على الإسلام في الغرب في الوقت الراهن، يجعل من الصعب علينا فهم هذه الديانة السماوية أكثر من أي وقت مضى».

□ ولقد قال الأمير «شارلز» في حديثه هذا: «إننا الآن بدأنا ندرك العاقب المدمرة لاستسلامنا للتعاليم والرؤى التي تبنيناها الحضارة الغربية، حتى سعى العلم إلى الاستيلاء على الطبيعة من الخالق حين جَرَأَ الكون إلى مرق، وأقصى المقدس إلى زاوية نائية ثانية، وحين فقد الإحساس الكلي بالبيئة وبمسؤوليتنا الشاملة إزاء الخلية كلها». ولقد امتدح الأمير الثقافة الإسلامية التي جاهدت لحفظها على الرؤية الروحية المتكاملة إلى العالم بطريقة لم تتوافر في العالم الغربي، كما أشاد بقدرة الإسلام على الوصل بين الدين والدنيوي، والمادي والمعنوي، بصورة كفلت توازن البشر وأشاعت السكينة لدى جماهير المؤمنين، وكانت دعوته إلى ضرورة التعلم من الإسلام أكثر ما لفت الانتباه في حديثه حتى إن صحيفتا التايمز والديلي تلجراف أظهرتا بجعلها عنواناً لحديث الأمير يقول: «التعلم من الإسلام»^(١).

٥١- صموئيل هنتنجهتون صاحب نظرية «صراع الحضارات» وتراجعه:

□ ولعل رؤية الأمير «شارلز» وأمثاله من عقلاه الغرب وتفكيريه الموضوعيين لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الإسلام والغرب، هي السبب وراء ظهور وعي متدام في هذا الاتجاه، أدى إلى تراجع بعض

(١) صحيفة الشرق الأوسط ٢٣/١٢/١٩٩٦.

المفكرين الغربيين عن نظرياتهم السابقة بحتمية الصراع بين الإسلام والغرب. فلقد عقدت في أكتوبر ١٩٩٧ م في معهد الفرد هير هاوزن بالعاصمة الألمانية بون ندوة موضوعها: الإسلام والغرب، شارك فيها حشد كبير من السياسيين والمفكرين الغربيين ومنهم صموئيل هنتنجهتون صاحب نظرية «صراع الحضارات» الشهيرة والذي توقع فيها صدامًا بين الحضارة الغربية من جهة والحضارتين الإسلامية والكونفوشية الصينية من جهة أخرى.

□ وفي هذه الندوة كرر «جون كالفن» السكرتير العام السابق لخلف الأطلنطي ما سبق أن أعلنَه من أن الإسلام هو العدو الجديد للغرب بدل الشيوعية التي انهارت، إلَّا أنه فوجئ بأنَّ الحاضرين لم يوافقوه على هذا الرأي، فلم يكُد كالفن ينهي حديثه، حتى تصدى له —على غير المتوقع— «صموئيل هنتنجهتون». وقد تصور الحاضرون أنَّ هذا الأخير سيواصل ما بدأه الأول من هجوم على الإسلام والمسلمين، خصوصًا أنه صاحب مقولَة أنَّ «الإسلام سينتهي أمره على يد الغرب بلا أدنى شك»، إلَّا أنَّ «هنتنجهتون» جاء برأي آخر في صالح الحضارة الإسلامية، بل إنه اعترَف أمام هذه الندوة بأنه أخطأ في تقديره وكتابه: «صراع الحضارات»، عندما قال: «إنَّ الإسلام سينهار».

وفي هذه الندوة قال «هنتنجهتون»: «ما من أمة إلَّا تركت حضارة وراءها، ولكن هذه الحضارة اندثرت وصارت أثراً بعد عين —مثل: الرومان والفرس والأشوريين وغيرهم— إلَّا الحضارة الإسلامية التي بقيت إلى الآن شاهدة على إمكانية عودة المسلمين إلى قيادة العالم مرة أخرى، حتى إنَّ المعاهد العلمية التي أقاموها في أوروبا والشرق الأوسط

وأفريقيا وأسيا لا تزال تستمد المعرفة من علمها، وهو أكبر دليل على قدرة المسلمين على الإبداع العلمي والقدرة على الخروج من المأزق الذي يعيشونه، ولم يقف همّيّنّجتون عند هذا الحد، بل واصل حديثه بالاعتراف بأنه أخطأ في تقدير قوة وبقاء الحضارة الإسلامية؛ مثلما أخطأ غيره عندما تصور أن الإسلام سينهار بعد إلغاء أتاتورك للخلافة الإسلامية»^(١).

□ وفي نفس الشهر - أكتوبر ١٩٩٧ م - الذي عقدت فيه تلك الندوة عن الإسلام والغرب في العاصمة الألمانية «بون»، عقدت كذلك ندوة أخرى عن نفس الموضوع في العاصمة القبرصية «نيقوسيا»، وفيها قال «صوموئيل همّيّنّجتون»: «إن عدم الاستقرار السياسي والصراع القادم خلال الأعوام الخمسة والعشرين القادمة، سيكون وراء صعود قوة الإسلام والنهضة الكبرى في الصين»^(٢).

٥٢- روبين كوك وزير خارجية بريطانيا:

□ في أكتوبر ١٩٩٨ م، ألقى «روبين كوك» وزير الخارجية البريطانية خطاباً في أحد المراكز الإسلامية في لندن، جاء فيه: «إن جذور ثقافتنا الإنجليزية ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب، بل هي إسلامية أيضاً، فالفن الإسلامي والعلوم والفلسفة الإسلامية قد ساعدت على تشكيل تطورنا، والأرقام الإسلامية ما زالت يعتمد عليها وهي التي علمتنا طريقة العد الصحيحة، ثم إن ثقافة الغرب مدينة للإسلام، ونحن

(١) صحيفة الشعب ٣١/١٠/١٩٩٧.

(٢) «الحضارة الإسلامية» للواء أحمد عبد الوهاب (ص ١١٧-١١٨)، وصحيفة الأهرام ١١/١١/١٩٩٧ م.

نقوم حالياً بتطویر علاقتنا مع العالم الإسلامي بعد ما سمحنا للأيام أن تباعد بيننا، البعض يقول: إن الغرب بحاجة إلى عدو بعد انتهاء الحرب الباردة، وإن الإسلام هو العدو الجديد الذي سيأخذ مكان الشيوعية في الاتحاد السوفيتي، كما يقولون: إن صراع الحضارات قادم لا مفر منه.

وأنا أقول: أنهم مخطئون، بل مخطئون خطأً فادحاً؛ فنحن لسنا بحاجة إلى الإسلام كعدو، بل نحن في حاجة إليه كصديق، والقرآن الكريم يقول في الآية ١٣ من سورة الحجرات: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَرَّةٍ وَجَعَلْنَاكُمْ شَعُورًا وَقَابِلَ لِتَعْارُفِهِ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَمِيرٌ ﴾ (١٣) فالآلية توضح أن نعمل معًا لتحسين التفاهم بيننا، وتوضيح تلك الصور الخاطئة والمشوهة لبعضنا البعض، وعلينا أن نتخلص كليةً من مشاعر عدم الثقة التي تضر الجميع، إن الغرب مدین للإسلام بالشيء الكثير؛ فالإسلام قد وضع الأسس الفكرية لمجالات عديدة مهمة وكبيرة في الحضارة الغربية.

فأسس حضارتنا يعود الفضل فيها إلى الإسلام، لذلك من أكبر الأخطاء التي يمكن للغرب أن يرتكبها هو الظن بأن الثقافة الإسلامية شيء غريب عننا، فهي ليست كذلك، فإن ثقافتينا قد تشابكتا عبر التاريخ والأجيال، وما زالتا تتلاقيان أيضاً في وقتنا الحاضر»^(١).

٥٤٥٥٥٢٥٣٥

(١) «الحضارة الإسلامية» للواء أحمد عبد الوهاب (ص ١١٨ - ١٢٠)، صحيفة الأهرام

. ١٩٩٨/١٠/١٦

شمس العرب تسطع على الغرب:

□ جاء في كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» للمستشرقية الألمانية «زيغريد هونكه»: «أنَّ «جربرت» الذي ارتقى كرسي البابوية سنة (٩٩٩م) قد تعلَّم الرياضيات والفلك على أيدي أساتذة من العرب في إسبانيا، وأنَّه استمع إلى الأساتذة العرب، وتعلَّم أشياء لم يكن أحدُّ في أوروبية ليَحْلِم بأن يَسْمَع بها، وكان من أهم ما تعلَّمه «جربرت» نظام الأرقام والأعداد العربية.

وأنَّه حَيَّر بعلمه معاصريه، وأنَّ قَوْمَه نظروا إليه كساحر، وكفناً غريب، ونسجوا حوله الإشاعات، حتَّى قيل: إنَّه كان يهرب ليلاً من الدَّير إلى إسبانيا ليتعلم على أيدي العرب علم الفلك والفنون الأخرى»^(١) اهـ.

□ وجاء فيه أيضًا قوله: «فقد كان في مدينة قرطبة وحدها خمسون مستشفى في أواسط القرن العاشر الميلادي، فطغت بهذا العدد على مدينة «بغداد» عاصمة الدنيا آنذاك، ومضرب الأمثال في عصر الخليفة «هارون الرشيد» وكانت المستشفيات تتمتع بموقع تتوافر فيه فيه كُلُّ شروط الصحة والجمال، وتُزَوَّد بهاء جَار للحرَّامات مُدَّ لها من تَهْر دجلة»^(٢) اهـ.

□ وجاء فيه أيضًا قوله: «قبل ٦٠٠ عام كان لكلية الطب الباريسية أكبر مكتبة في العالم، لا تحتوي إلَّا على مؤلَّف واحد، وهذا المؤلَّف كان لعربيًّا كبيرًـ.

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» لزيغريد هونكه (ص ٨٠ - ٨١).

(٢) المصدر السابق (ص ٢٢٨ - ٢٢٩).

ولقد اعترف البارسييون بقيمة هذا الكتز العظيم، ويفضل صاحبه عليهم وعلى الطب إجمالاً، فأقاموا له نصبًا في باحة القاعة الكبيرة في مدرسة الطب لديهم، وعلقوا صورته وصورة عربي آخر في قاعة أخرى كبيرة تقع في شارع «سان جرمان» إنَّه أبو بكر محمد بن زكريا الرازى»^(١) أهـ.

□ وقولها: «لم يكن الرازى ذلك الطبيب العظيم فحسب، بل كان أيضًا أحد الأوائل الذين جعلوا من الكيمياء علمًا صحيحًا»^(٢).

□ وجاء فيه أيضًا ما خلاصته: «أنَّ «قسطنطين» الأفريقي الأصل، الذي عاش في القرن الحادى عشر الميلادى، وعمل بالتجارة، وتاجر بالعقاقير والأدوية، واحتلك بالطب العربي احتكاكاً مباشرًا، والتلقى في «بغداد» وفي «حلب» وفي «أنتاكية» بابن بطلان. وكان يحمل العقاقير والأدوية من بلدان المسلمين، ويبيعها للإفرنج في «سالرنو»^(٣) قد وعد أصدقائه الفرنجة بأنَّ يزودهم في سفراته القادمات بكنوز من الطب العربي، بدلاً من عقاقيره وحدتها.

وأنَّه عاد إلى مصر، ودخل مدارس الطب، ليمضي فيها السنوات الطوال دارسًا، وهو في نضجه الكامل، وبعد سنين طوال عاد إلى «سالرنو» ومعه مجموعة من الكتب المكتوبة باللسان العربي.

وأنَّه أكَّبَ على ترجمة هذه الكتب، إلَّا أنَّه كان يُقدِّم خطوطاته المترجمة

(١) المصدر السابق (ص ٢٤٣ - ٢٤٤).

(٢) «شمس العرب تسطع» (ص ٢٥١).

(٣) سالرنو: مدينة في وسط إيطاليا على البحر التيراني، قرب مدينة نابولي.

إلى لاتينية ركيكة على أنها من تأليفه، وساعدته الراهبان «آتو» و«يوحنا» على تنقيحها وإجلاء غواصتها، وصياغتها بأسلوب واضح. وأنَّ الناس تلقفوا مؤلفاته باعجاب كبير، إذ كانت تنزل كالوحى على أطباء «سالرنو».

وأنَّ شهرته الكبيرة استمرَّت مدةً أربعين سنة، ثم ظهرَ فجأةً أنه كان تاجراً غشاشاً، عرف كيف يُغلِّفُ بضاعةً قديمة بخلاف جديدٍ بَهَرَ الأنظار، وأنَّه قد كان يترجم كُتُباً مكتوبة باللسان العربي وينسبها إلى نفسه^(١).

□ وجاء فيه أيضاً قوله: «لقد انطلق الأوروبيون إلى مدن إسبانيا، وخلجان إيطالية، بل إلى مدن الشرق، سعيًا وراء المعارف العربية.

فاهتمام «فريدرريك الأول» بعلم النجوم العربي، هو الذي حدا به إلى انتزاع «جيرارد» من قلب مديتها الوفية «كريمونا»^(٢) وإرساله إلى إسبانيا، وقد أوصاه بهمَّة جلب «المجسطي»^(٣) لـ «بطليموس» من مدينة «طُلُيطُلَة» وكان ذلك في الوقت الذي تغنى به القوم بشهرة «سالرنو» المفتحة تحت شمس المعرفة العربية.

ولكنَّه ما إن وصل إلى هذه القلعة السابقة للفكر العربي — أي: فكر المسلمين — ورأى هذه الكنوز الفكرية العظيمة، التي ظهرت للأعين فيها حتى قرَّرَ البقاء هناك. وبقي مدةً تزيد على العشرين سنة، جمع فيها أكثر

(١) «شمس العرب تسقط» (ص ٢٩٣ - ٢٩٧).

(٢) «مدينة إيطالية».

(٣) المَجْسِطِي: أقدم كتاب في الفلك ألفه بطليموس.

من ثانين مخطوطة بالإضافة إلى كتاب «المجسطي» وعاد بها إلى موطنه «كريمونا».

وكانت هذه المخطوطات كنوزاً فكريةً بحد ذاتها، وثمراتٍ عظيماتٍ قيمةٍ وسافراتٍ النضج»^(١) أهـ.

□ وجاء فيه أيضاً قوله: «وتدقق سيل الترجمة تدفقاً متواصلاً لم يكن بوسع أحدٍ أن يمنعه، وأنطلقَ من إسبانيا، وصقلية، وشمالي إيطالية، فمن مدينة «بادوا» جاءت ترجمة «الكليات» لابن رشد، وترجمة كتاب «التيسيير» لابن زهر، مرتين على التوالي. ومن «صقلية» جاءت ترجمة «الحاوي» أضخم كتاب للرازي، وقد أمضى اليهودي «ابن سليم» المتعلم في «سالرنو» نصف حياته في ترجمته.

وظلت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية على أشدّها حتى القرن السادس عشر الميلادي، وأضيفت أشياء جديدة لم تكن معروفة، وأعيدت ترجمة كُتب أخرى مِرَّةً ثانيةً، ككتاب «القانون» لابن سينا، وكتاب «زاد المسافرين» لابن الجزار، وكُتب أخرى للرازي، ولا ابن رشد.

وبهذا انطلقت حركة فكريةٌ جبارة لم يقدِرْ أيٌّ من العلماء في القرون التي تَلَتْ إلَّا أن يتأثر بها»^(٢).

□ وجاء فيه أيضاً قوله: «إنَّ سِيَّلاً عَرِمًا من نتاج الفكر العربي «تقصد من نتاج المسلمين» ومواد الحقيقة والعلم قد نجحتهُ أيدٍ عربيةً — أي: أيدٍ مسلمةً — ونظمته، وعرضته بشكل مثالي، قد اكتسح أوروباً — ولو في رداءٍ

(١) «شمس العرب» (ص ٣٠٣).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٠٤ - ٣٠٣).

ركيك من اللّغة اللاتينيّة - وغَمَرَ أرضها الجافّة غَمْرًا، فأُشبعَها كما يُشبع الماء الرّمال الظمائي.

وبعد الموجة الأولى التي سَمِّت بـ «سالرنو» إلى ذُرى من الشهرة العالميّة التي لا تُضاهى، جاءت الموجة الثانية فبعثت الحياة النابضة في مدينة «مونبلييه» الواقعة على مفترق الطرق بين إسبانيا وما تبقى من بلاد الغرب، وأمَدَّت مدرسة «بولونية» الإيطالية، وجامعتها، بدفعات جديdas من الذُّخْر العربي، وأعْطَت موادَ الدراسة المثالية إلى «بادوا» و«باريس» و«أكسفورد».

وفي مراكز العلم الأوروبيّة لم يكن هناك عالمٌ واحدٌ من بين العلماء، إلّا ومدَّ يدَيهُ إلى الكنوز العربيّة هذه يغترف منها ما شاء الله له أن يغترف، وينهُلُ منها كما ينهُلُ الظمان من الماء العذب، رغبةً منه في سد الشغرات التي لدِّيهِ، وفي الارتقاء إلى مستوى عصره العلمي.

ولم يكُنْ هناك كاتبٌ واحدٌ من بين الكتب التي صَدَرَتْ في أوروبا آنذاك إلّا وقد ارتوت صفحاته بالري العميّم من اليّنابيع العربيّة، وأخذ عنها.. وظهر فيه تأثير واضحًا كُلَّ الوضوح، ليس فقط في كلماته العربيّة المترجمة، بل في محتواه وأفكاره^(١) اهـ.

□ وجاء فيه قولها متحديثة عن صقلية التي حكمها المسلمون قرنين ونصفاً، وكانوا فيها سادة لليّزير على طرف أوروبا الجنوبي، ثم طردتهم منها الكونت «روجر الاول» النورماني: «فمنذ مائتي سنة قدم العرب إلى صقلية من تونس، من المنطقة التي حول القبروان، وحوّلوا خرائب

(١) «شمس العرب تسقط» (ص ٣٠٥ - ٣٠٦).

صقلية إلى حدائق غناءً، واستوردوا لها من بلادهم أشجار النخيل، وزرعوا فيها أشجار البرتقال والفستق والموز والزعفران، فتحولوا الجزيرة الفقيرة بالقطن وقصب السكر إلى بلد يزخر بالخيرات، وزينوها بالقصور والمساجد الرائعة التي كانت تعج بالشعراء والمعنى^(١) وال فلاسفة والأطباء وعلماء الرياضة والطبيعة، ويُحصيها ابن حوقل عام (٩٧٠م) في «بالرمو» فقط بثلاثمائة ما بين قصر ومسجد. واستخدم المتعلمون في صقلية في كتاباتهم ورقاً أبيض كان أولَ ورق عرفته أوروبية، وكان ذلك قبل أن تُصدِّرَه إسبانيا إلى الغرب بزمن طويل^(٢) اهـ.

نماذج من علوم المسلمين في الحضارة الإسلامية وذكر علاة الهمم الرواد الأوائل للدنيا بأسرها :

علمُ الطب في الحضارة الإسلامية^(٣) :

يُعدُّ الطب من أوسع مجالات العلوم الحياتية التي كان للمسلمين فيها إسهامات بارزة على مدار عصور حضارتهم الزاهرة، وكانت تلك الإسهامات على نحو غير مسبوق شمولاً وتميّزاً وتصحيحاً للمسار، حتى ليُخيّل للمطلع على هذه الإسهامات الخالدة كأن لم يكن طبُّ قبل حضارة المسلمين.

(١) الغناء حرام في شرعنا وهذا بعد عن تعاليم الإسلام أدى إلى سقوط الأندلس وانهيار حضارته بعد ذلك، وطرد المسلمين من إسبانيا.

(٢) «شمس العرب» (ص ٤١٠).

(٣) هذا المبحث مأْخوذ ومُلْخَص من كتاب «العلم وبناء الأمم» للدكتور راغب السرجاني (ص ١٠٠ - ١٢٦).

ولم يقتصر الإبداع على علاج الأمراض فحسب، بل تعدّاه إلى تأسيس منهج تجاري أصيل انعكس آثاره الراقية والرائعة على جميع جوانب الممارسة الطبية وقاية وعلاجاً، أو مراقب وأدوات، أو أبعاداً إنسانية وأخلاقية تحكم الأداء الطبي.

وتتجلى روعة الإسهامات الإسلامية في الطب في تخرّج هذا الحشد من العقريات الطيبة النادرة التي كان لها — بعد الله — الفضل الكبير في تحويل مسار الطب **أَجْهَانِهَا آخر** تابعت المسير على نهجه **أجيال الأطباء** إلى يوم الناس هذا.

وقد تميز علماء الطب المسلمين بأنهم أول من عرف التخصص؛ فكان منهم: **أطباء العيون**، ويسمّون «**الكحالين**»، ومنهم **الجراحون**، والفاصدون «**الحجامون**»، ومنهم **المختصون في أمراض النساء** وهكذا.

وكان من سمات هذا العصر إنشاء المستشفيات النظامية، وبروز الشخصيات الإسلامية في ميدان علم الطب، وكانت عائلة أبي الحكم الدمشقي هي المسيطرة على هذه المهنة في العصر الأموي، وكان من هذه الشخصيات أيضًا: **تيذوق**، وقد كان قريباً من **الحجاج بن يوسف الثقفي**، وأحمد بن إبراهيم الذي كان طيب الخليفة الأموي **يزيد بن عبد الملك**^(١).

وما كادت عجلة الأيام تدور العasaki حتى أجاد المسلمون في كل فرع من فروع الطب، وصححوا ما كان من أخطاء العلماء السابقين تجاه نظريات بعينها، ولم يقفوا عند حد التقل والتترجمة فقط وإنما واصلوا

(١) «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء» (٤٠٥ / ٤١٠).



البحث وصوّبوا أخطاء السابقين.

□ وكان من عمالقة هذا العصر المبهرين أبو بكر الرازى رحمه الله، والذي يعتبر من أعظم علماء الطب في التاريخ قاطبة، وله من الإنجازات ما يعجز هذا الكتاب عن ضمّه.

طب العيون «الكحال»:

كما تطورَ عند المسلمين طب العيون «الكحال» ولم يُطأولُهم فيه أحدٌ؛ فلا اليونان من قبلهم، ولا اللاتين المعاصرون لهم، ولا الذين أتوا من بعدهم بقرون بلغوا فيه شأوهُم؛ فقد كانت مؤلفاتهم فيه الحجة الأولى خلال قرون طوال، ولا عجب أن كثيرين من المؤلفين كادوا يعتبرون طب العيون طبًا عربيًّا، ويقرّر المؤرخون أن علي بن عيسى الكحال (ت ٤٠٠ هـ) كان أعظم طبيب عيون في القرون الوسطى برمته، ومؤلفه «التذكرة - أعظم مؤلفاته»^(١).

أبوالقاسم الزهراوي أعظم الجراحين في التاريخ:

وإذا طويينا تلك الصفحة المشرقة للرازي وابن عيسى الكحال، فإننا نجد أنفسنا أمام عملاق آخر يعتبر من أعظم الجراحين في التاريخ – إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق – وهو أبو القاسم الزهراوي (ت ٤٠٣ هـ) الذي تمكّن من اختراع أولى أدوات الجراحة كالمشرط والمقص الجراحي، كما وضع الأسس والقوانين للجراحة، والتي من أهمها ربط الأوعية لمنع نزفها، واختراع خيوط الجراحة، وتمكن من إيقاف النزف بالتخثير.

(١) المصدر السابق (ص ٢٦٣ / ٢).

وقد كان الزهراوي هو الواضع الأول لعلم «المناظير الجراحية»، وذلك باختراعه واستخدامه للمحاقن والمبازل الجراحية والتي عليها يقوم هذا العلم، وقام بالفعل بتفتيت حصوة المثانة بما يشبه المنظار في الوقت الحاضر، إلى جانب أنه أول مخترع ومستخدم لمنظار المهبل.

ويعتبر كتاب الزهراوي: «التصريف لمن عجز عن التأليف» - والذي قام بترجمته إلى اللاتينية العالم الإيطالي جيراردو^(١) تحت اسم ALTASRIF - موسوعة طبية متكاملة لمؤسس علم الجراحة بأوروبا وهذا باعترافهم، «تألف هذه الموسوعة من ثلاثين مجلداً مقسمة إلى ثلاثة أقسام: الأول في «الطب»، والثاني في «الكيمياء»، والثالث في «الجراحة والأدوات الجراحية»، ويذهب مؤرخو الطب على أن الزهراوي كان أول من خص الجراحة بدراسة متميزة، وفصلها عن سائر الأمراض التي تعترى جسم الإنسان.

ولقد حلَّ مبحث أبي القاسم الزهراوي في الجراحة محل كتابات القدماء، وظل مبحثه لهذا العمدة في فن الجراحة حتى القرن السادس عشر «أي: لما يزيد على خمسة قرون من زمانه»، ويشتمل على صور توضيحية للعديد من آلات الجراحة «أكثر من مئي آلة جراحية!!» كان لها أكبر الأثر فيما أتى من بعده من الجراحين الغربيين، وكانت باللغة

(١) جيراردو دا كريمونا (١١١٤ - ١١٨٧م) مستشرق إيطالي. مولده ووفاته في «كريمونا» من مدن إيطاليا الشمالية أقام زمناً في طليطلة بـ «الأندلس» فترجم عن العربية إلى اللاتينية أكثر من سبعين كتاباً من كتب الهيئة وأحكام النجوم والهندسة والطب والطبيعة والكيمياء والفلسفة.

الأهمية على الأخص بالنسبة لأولئك الذين أصلحوا فن الجراحة في أوروبا في القرن السادس عشر، يقول عالم وظائف الأعضاء الكبير هالر: «إن جميع الجراحين الأوروبيين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر قد نهلوا واستقروا من هذا البحث»^(١).

ابن سينا الطبيب الرئيس:

- وكانت قد برزت كذلك شخصيات إسلامية أخرى لامعة في ميدان علم الطب من أمثال ابن سينا^(٢) (ت ٢٨٤ھـ)، الذي استطاع أن يقدم للإنسانية أعظم الخدمات بها توصل إليه من اكتشافات، وما يسره الله له من فتوحات طبية جليلة؛ فقد كان أول من اكتشف العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن، فهو الذي اكتشف لأول مرة طفيلي «الإنكلستوما» وسمها الدودة المستديرة، وهو بذلك قد سبق العالم الإيطالي «دوبيني» بنحو ٩٠٠ سنة، كما أنه أول من وصف الالتهاب السحائي، وأول من فرق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في الدماغ والشلل الناتج عن سبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، مخالفًا بذلك ما استقر عليه أساطين الطب اليوناني القديم، فضلاً عن أنه أول من فرق بين المغص المعوي والمغص الكلوي^(٣).
- كما كشف ابن سينا -لأول مرة أيضًا- طرق العدوى لبعض

(١) «حضارة العرب» لجوستاف لوبيون (ص ٥٩١).

(٢) شيعي إسماعيلي، ومن فلاسفة المسلمين، رأس في البدعة، بل كفره جمع كبير من علماء المسلمين على رأسهم شيخا الإسلام: ابن تيمية وابن قيم الجوزية.

(٣) في «تاريخ الطب في الدولة الإسلامية» لعامر النجار (ص ١٣٢، ١٣٣).

الأمراض المعدية كالجدرى والخصبة، وذكر أنها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحية الدقيقة في الماء والجو، وقال: «إن الماء يحتوي على حيوانات صغيرة جدًا لا تُرى بالعين المجردة، وهي التي تسبب بعض الأمراض..»^(١) وهو ما أكدته «فان ليوتھوك» في القرن الثامن عشر والعلماء المتأخرن من بعده، بعد اختراع المجهر.

□ ولهذا فإن ابن سينا يعد أول من رأى «علم الطفيلييات» الذي يحتل مرتبة عالية في الطب الحديث؛ فقد وصف لأول مرة «التهاب السحايا الأولي» وفرقه عن «التهاب السحايا الشانوي» - وهو الالتهاب السحائي - وغيره من الأمراض المماثلة، كما تحدث أيضًا عن طريقة استئصال «اللوزتين»، وتناول في آرائه الطبية أنواعاً من السرطانات كسرطان الكبد، والثدي، وأورام العقد الليمفاوية، وغيرها^(٢).

□ ويُظهر ابن سينا براعة كبيرة ومقدرة فائقة في علم الجراحة؛ فقد ذكر عدة طرق لإيقاف التزيف، سواء بالربط أو إدخال الفتائل أو بالكي بالنار أو بدواء كاو، أو بضغط اللحم فوق العرق، كما تحدث عن كيفية التعامل مع السّهام واستخراجها من الجروح، وحدّر المعالجين من إصابة الشرايين أو الأعصاب عند إخراج السهام من الجروح، كما نبه إلى ضرورة أن يكون المعالج على معرفة تامة بالتشريح^(٣).

□ ويعتبر ابن سينا أول من اكتشف ووصف عضلات العين

(١) «رُوَادُ عِلْمِ الطِّبِّ فِي الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ» (ص ٢٩٨).

(٢) «في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية» لعامر النجار (ص ١٣٣).

(٣) «الطب عند العرب والمسلمين» (ص ١١٨).



الداخلية، وأول من قال بأن مركز البصر ليس في الجسم البلوري كما كان يعتقد من قبل، وإنما هو في العصب البصري^(١).

□ وكان ابن سينا جراحًا بارعًا؛ فقد قام بعمليات جراحية دقيقة للغاية مثل استئصال الأورام السرطانية في مراحلها الأولى^(٢) وشق الحنجرة والقصبة الهوائية، واستئصال الخراج من الغشاء البلوري بالرئة، كما عالج البواسير بطريقة الرابط، ووصف بدقة - حالات البواسير البولية، إلى جانب أنه توصل إلى طريقة مبتكرة لعلاج الباسور الشرجي لا تزال تستخدم حتى الآن! وتعرض لحصاة الكلي وشرح كيفية استخراجها والمحاذير التي يجب مراعاتها، كما ذكر حالات استعمال القسطرة، وكذلك الحالات التي يُحدّر استعمالها فيها^(٣).

□ كما كان له باع كبير في مجال الأمراض التناسلية؛ فوصف بدقة بعض أمراض النساء مثل: الانسداد المهبلي والإسقاط، والأورام الليفيّة.

□ وتحدث عن الأمراض التي يمكن أن تصيب النساء، مثل: التزيف، واحتباس الدم، وما قد يسببه من أورام وحميات حادة، وأشار إلى أن تعفن الرحم قد ينشأ من عسر الولادة أو موت الجنين، وعزّاها إلى الرجل دون المرأة، وهو الأمر الذي أكده مؤخرًا العلم الحديث^(٤).

□ وإلى جانب كل ما سبق، كان ابن سينا على دراية واسعة بطب

(١) «المسلمون علماء حكماء» لحسن الشرقاوي (ص ١٦٠).

(٢) «الطب عند العرب والمسلمين» لمحمد الحاج قاسم (ص ١٤٨).

(٣) «القانون» لابن سينا (٣/١٦٥).

(٤) المصدر السابق (٢/٥٨٦).

الأسنان، وكان واصحًا دقيقًا في تحديده للغاية والهدف من مداواة نخور الأسنان حين قال: «الغرض من علاج التآكل منع الزيادة على ما تأكل؛ وذلك بتقنية الجوهر الفاسد منه، وتحليل المادة المؤدية إلى ذلك...». ونلاحظ أن المبدأ الأساسي لمداواة الأسنان هو المحافظة عليها، وذلك بإعداد الحفرة إعداداً فنياً ملائماً مع رفع الأجزاء النخرة منها، ثم يعمد إلى ملئها بالمادة الحاشية المناسبة لعراض الضياع المادي الذي تعرضت له السن، مما يعيدها وبالتالي إلى أداء وظيفتها من جديد^(١).

□ ولم تكن تلك حالات استثنائية للعقلية الإسلامية في مجال الطب، فقد حفل سجل الأمجاد الحضارية الإسلامية بالعشرات، بل المئات من الرواد الذين تتلمذت عليهم البشرية قروناً طويلاً وشهد بفضلهم وسبّهم الأعداء قبل الأصدقاء؛ فكان منهم أيضاً ابن النفيس.

ابن النفيس الفقيه الشافعي مكتشف الدورة الدموية الصغرى (٦٠٧ - ١٢٨٨/١٢١٠ م) :

أعلم الناس في عصره، وأعظم وأشهر عالم بوظائف الأعضاء في القرون الوسطى برمته، والرائد الذي مهد الطريق أمام ولیام هارفي، العالم физиологи الإنجليزي مكتشف الدورة الدموية الكبرى سنة ١٦٢٨م؛ حيث استطاع ابن النفيس اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، وأن يصفها لأول مرة ليكون رائداً من أتوا بعده!!.

وبحق كان مثالاً للعالم الورع التقى المنقطع إلى العلم، وواحداً من أكبر الأطباء العرب والمسلمين الذين حققوا اكتشافات عظيمة وجليلة،

(١) المصدر السابق (١٩٢ / ١).



يفتخر بها الطب الإسلامي والحضارة الإسلامية إلى يومنا هذا.

□ قال عنه السبكي: «وأما الطب فلم يكن على وجه الأرض مثله قبل، ولا جاء بعد ابن سينا مثله، قالوا: وكان في العلاج أعظم من ابن سينا».

□ وقال الإسنوي: «كان إمام وقته في فنه شرقاً وغرباً بلا مدافعة، أujeوبة فيه وفي غاية الذكاء»^(١).

وكان قد أشـكـل على «جالينوس» فادعـى أنـَّ في الحاجـز الـذـي بـيـن الـجـانـب الـأـيمـن وـالـجـانـب الـأـيـسـر فـي القـلـب ثـقـوـيـاً غـير مـنـظـورـة يـتـسـرـبـ فـيـها الدـم مـنـ الـجـانـب الـوـاحـد إـلـى الـجـانـب الـآـخـر، وـما وـظـيـفـة الرـئـيـن إـلـا أـن تـرـفـرـفـا فـوـقـ القـلـب فـتـبـرـدا حـرـارـتـه وـحـرـارـة الدـم، وـيـتـسـرـبـ شـيـء مـنـ الـهوـاء فـيـها بـوـاسـطـةـ المـنـافـذـ الـتـيـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ القـلـبـ فـيـغـذـيـ ذـلـكـ القـلـبـ وـالـدـمـ.

فـجـاءـ هوـ وـعـارـضـ هـذـهـ النـظـرـيـةـ مـعـارـضـةـ شـدـيـدـةـ، وـأـثـبـتـ بـهـاـ لـيـدـعـ بـجـالـاـ لـلـشـكـ أـنـ الـيـونـانـ لـمـ يـفـهـمـواـ وـظـيـفـةـ الرـئـيـنـ وـالـأـوـعـيـةـ الـتـيـ بـيـنـ القـلـبـ وـالـرـئـيـنـ، وـأـنـهـ فـهـمـ وـظـيـفـتـهاـ وـأـوـعـيـتـهاـ وـتـرـكـيـبـ الرـئـةـ وـالـأـوـعـيـةـ الشـعـرـيـةـ الـتـيـ بـيـنـ الشـرـاـيـنـ وـالـأـوـرـدـةـ الرـئـوـيـةـ، وـشـرـحـ الفـرـجـ الرـئـوـيـةـ شـرـحـاـ وـاضـحـاـ، كـمـ فـهـمـ أـيـضـاـ وـظـائـفـ الـأـوـعـيـةـ الـإـكـلـيـلـيـةـ، وـأـنـهـ تـنـقـلـ الدـمـ لـيـتـغـذـيـ القـلـبـ بـهـ، وـنـفـىـ التـعـلـيمـ القـائلـ بـأـنـ يـتـغـذـيـ مـنـ الدـمـ الـمـوـجـودـ فـيـ الـبـطـينـ الـأـيمـنـ.

ثـمـ كـرـرـ تـعـالـيمـ فـيـ الدـوـرـةـ الـدـمـوـيـةـ الصـغـرـىـ وـطـرـيـقـةـ عـمـلـهـاـ؛ ذـلـكـ أـنـهـ كـرـرـ هـذـهـ التـعـالـيمـ فـيـ خـمـسـةـ مـوـاضـعـ مـتـفـرـقـةـ، ذـاكـرـاـ آـرـاءـ ابنـ سـيـنـاـ، وـمـكـرـرـاـ أـقـوـالـ «ـجـالـينـوـسـ»ـ الـتـيـ اـعـتـمـدـ عـلـيـهـاـ ابنـ سـيـنـاـ، ثـمـ عـارـضـهـاـ بـمـنـتهـيـ.

(١) «طبقات الشافية» لابن قاضي شهبة (١٠٧/١).

الحماسة.. وكان حقيقةً بعدُ بأن يصفه «جورج سارتون» بأنه أول من اكتشف الدورة الدموية، ليكون بذلك الرائد لـ «وليام هارفي» يُنسب إليه هذا الاكتشاف^(١).

إنه الفقيه الطبيب العلامة علاء الدين علي بن أبي الحزم، القرشي «نسبة إلى قرية قرش» الدمشقي، الملقب بابن النفيس، وهو سوري ولد في قرية «قرش» بالقرب من دمشق سنة (٦٠٧هـ / ١٢١٠م)^(٢).

نشأة ابن النفيس العالم:

□ كغيره من علماء المسلمين بدأ ابن النفيس حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم، وكذا درس النحو واللغة، والفقه والأصول والحديث، والمنطق والسيرة وغيرها، ثم في سنة (٦٢٩هـ / ١٢٣١م) وهو في الثانية والعشرين من عمره اتجه إلى دراسة الطب، وذلك بعد أزمة صحية ألمت به.. وتراه يحكي ذلك فيقول: «قد عرض لنا حميات مختلفة، وكانت سيننا في ذلك الزمان قريبة من اثنتين وعشرين سنة، ومن حين عُوفينا من تلك المرضة سوء ظننا بأولئك الأطباء «الذين عالجوه» على الاستغال بصناعة الطب لننفع بها الناس».

وكان تعليمه الطب في دمشق على يد طبيب العيون البارع مهذب

(١) «حضارة الإسلام وأثرها في الترقّي العالمي» بخلال مظهر (ص ٣٤٦، ٣٤٧)، و«رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية» لعلي عبد الله الدفاع (ص ٤٥١) و«مسلمون علموا العالم» لمحمد علي عثمان (ص ٥١، ٥٢).

(٢) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (١/١٠٧)، و«معجم المؤلفين» لكرحالة (٤/٧٥٨)، و«الأعلام» للزركي (٤/٢٧١).

الدين عبد الرحمن المشهور باسم الدخوار، وهو أحد كبار الأطباء في التاريخ الإسلامي، وكان في ذلك الوقت كبير الأطباء في البيمارستان النوري العظيم، الذي أنشأه نور الدين محمود واحتذب إليه أمهر أطباء العصر الذين توافدوا عليه من كل مكان. وكان من أساتذته في الطب أيضاً عمريان الإسرائيلي، ورضي الدين الرجبي.

وكان رفيق دراسته، ابن أبي أصيبيعة «صاحب طبقات الأطباء»، وقد رحلا معاً إلى القاهرة سنة ٦٣٣ هـ وعملَا في البيمارستان الناصري الذي شغل فيه ابن النفيس منصب الرئاسة، وعميداً للمدرسة الطبية الملتحقة به، وشغل ابن أبي أصيبيعة رئيس قسم الكحالة.

□ ولم يكتفِ ابن النفيس بها درسه على أساتذة عظام في البيمارستان النوري، بل إنه انكبَّ أيضاً على كتب ابن سينا وأبقراط وجالينوس وغيرهم، وقال البعض: «إنه كان يحفظ كتاب القانون في الطب لابن سينا عن ظهر قلب».

كما أنه أهتم أيضاً بدراسة الفلسفة والمنطق والبيان، وتعمق في دراسة الفقه، وعلوم الشريعة، حتى إنه أصبح أستاذًا لفقه الشافعى في المدرسة المسرورية بالقاهرة، إلى جانب نبوغه وعقربيته في الطب^(١).

العالم المغمور:

لم يكن ابن النفيس مجهولاً في عصره؛ فقد أطرب في الحديث عنه العمري في مسائل الأ بصار، والصفدي في الوفي بالوفيات، وابن أبي أصيبيعة في إحدى مخطوطاته «طبقات الأطباء»، إلا أنَّ ابن النفيس لم يأخذ

(١) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (١٠٧/١).

حقه من الديوع والشهرة بها يوازي ويضارع إنتاجه واكتشافاته، ولعل ذلك بسبب عدم التقدير أو عدم الإحاطة بهذه الاكتشافات في ذلك الوقت.

وقد تناول ابن النفيس من المستشرقين الأجانب لكثير في كتابه «الطب العربي»، والمستشرق الألماني «مايرهوف» في كثير من مقالاته، ووضع الدكتور «بول غلينج» كتاباً وافياً، يُعدُّ أجمع كتاب عن ابن النفيس^(١).

ويقرّر «بول» في كتابه هذا أنَّ أول من كشف عن ابن النفيس في وقتنا الحاضر، وردَّ إليه اعتباره، هو الطبيب المصري الدكتور محبي الدين الطحاوي؛ حيث عثر على نسخة من مخطوطة «شرح تشریح القانون» لابن النفيس في مكتبة برلين، وقام بإعداد رسالة في الدكتوراه عنها، وعُنى فيها بجانب واحد من جوانب هذا الكتاب العظيم، ألا وهو موضوع: «الدورة الدموية تبعاً للقرشى»، وذلك سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م.

وقد ذُهل أساتذته والمشرفون على الرسالة، وأصابتهم الدهشة حين اطَّلعوا على ما فيها، وما كادوا يصدقونه!!.

وجعلهم باللغة العربية بعثوا بنسخة من الرسالة إلى الدكتور «مايرهوف» المستشرق الألماني الذي كان آنذاك يقيم بالقاهرة، وطلبوه رأيه فيما كتبه الباحث، وكانت النتيجة أنْ أيد «مايرهوف» الدكتور الطحاوي، وأبلغ حقيقة ما كشفه من جهود ابن النفيس إلى المؤرخ «جورج سارتون»، فنشر هذه الحقيقة في آخر جزء من كتابه المعروف «تاريخ

(١) انظر: «ابن النفيس» - «سلسلة أعلام العرب» رقم (٥٧).

العلم»، ثم بادر «مايرهوف» إلى البحث عن مخطوطات أخرى لابن النفيس وعن ترجم له، ونشر نتيجة بحوثه في عدة مقالات.. ومنذ ذلك الحين بدأ الاهتمام بهذا العالم الكبير وإعادة اكتشافه^(١)!!.

ابن النفيس والدورة الدموية :

□ اقترب اسم ابن النفيس باكتشاف الدورة الدموية الصغرى، والتي سجلها بدقة في كتابه «شرح تشريح القانون»، غير أن هذه الحقيقة ظلت مخفية قروناً طويلة، وُنسبت وهمًا إلى الطبيب الإنجليزي «ولIAM هارفي» (ت ١٥٤٧ هـ / ١٦٥٧ م) الذي بحث في دورة الدم بعد وفاة ابن النفيس بأكثر من ثلاثة قرون، وظل الناس يتداولون هذا الوهم حتى أبان عن الحقيقة الدكتور محبي الدين الطحاوي في رسالته كما أشرنا سابقاً.

□ وكان الطبيب الإيطالي ألباجو قد ترجم في سنة ٩٥٤ هـ / ١٥٤٧ م أقساماً من كتاب ابن النفيس «شرح تشريح القانون» إلى اللاتينية، وهذا الطبيب أقام ما يقرب من ثلاثين عاماً في «الرّها» وأتقن اللغة العربية لينقل منها إلى اللاتينية، وكان القسم المتعلق بالدورة الدموية في الرئة ضمن ما ترجمه من أقسام الكتاب، غير أن هذه الترجمة فُقدَّت، واتفق أن عالماً إسبانياً ليس من رجال الطب كان يدعى «سيرفيتوس» كان يدرس في جامعة باريس اطّلع على ما ترجمه ألباجو من كتاب ابن النفيس، ونظرًا لاتهام «سيرفيتوس» في عقيدته، فقد طُرد من الجامعة، وتشريد بين المدن، وانتهى به الحال إلى الإعدام حرقاً هو وأكثر كتبه في سنة (١٥٥٣ هـ / ١٠٦٥ م).

(١) «تطور الفكر العلمي عند المسلمين» لمحمد الصادق عفيفي (ص ٢٠٨)، و«رُوّاد علم الطب في الحضارة الإسلامية» (ص ٤٥١).

على أنَّ اللهَ يَعْلَمُ شاءَ أَنْ تَبْقَى بَعْضُ كِتَابِهِ دُونَ حَرْقٍ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهَا مَا نَقَلَهُ مِنْ تَرْجِمَةِ الْبَاجُو عَنْ ابْنِ النَّفِيسِ فِيهَا يَخْصُ الدُّورَةُ الدُّمُوِيَّةُ، وَاعْتَقَدَ الْبَاحثُونَ أَنْ فَضْلَ اكتشافِهَا يَعُودُ إِلَى هَذَا الْعَالَمُ الإِسْبَانِيِّ وَمِنْ بَعْدِهِ هَارِفيُّ حَتَّى سَنَةٍ ١٣٤٣ / ١٩٢٤ م١٩٢٤ حتَّى صَحَّحَ الطَّيِّبُ الْمَصْرِيُّ هَذَا الْوَهْمَ، وَأَعَادَ الْحَقَّ إِلَى صَاحِبِهِ.

□ وقد أثار ما كتبه الطيب الطحاوي اهتمام الباحثين، وفي مقدمتهم «مايرهوف» المستشرق الألماني الذي كتب في أحد بحوثه عن ابن النفيس: «إن ما أذهلني هو مشابهة، لا بل مماثلة بعض الجمل الأساسية في كلمات «سيرفيتوس» لأقوال ابن النفيس التي تُرجمت ترجمة حرافية.. أي أن «سرفيتوس»، وهو رجل دين متحرّر وليس طبيباً، قد ذكر الدورة الدموية في الرئة بلغة ابن النفيس الذي عاش قبله بما يزيد على القرن والنصف»!!.

□ ولما اطلع «الدو ميلي» على المتنين قال: «إن لابن النفيس وصفاً للدوران الصغير تطابق كلماته كلمات سيرفيتوس تماماً، وهكذا فمن الحق الصريح أن يُعزَّزَ كشف الدوران الرئيسي إلى ابن النفيس لا إلى سيرفيتوس أو هارفي»^(١).

□ ويُعتبر اكتشاف الدورة الدموية الصغرى واحداً فقط من إسهامات واكتشافات ابن النفيس العديدة؛ فهو -بحسب ما كُتب عنه حديثاً- يُعد مكتشف الدورتين الصغرى والكبرى للدورة الدموية، وواضع نظرية باهرة في الإبصار والرؤيا، وكاشف العديد من الحقائق التشريحية، وجامع

(١) «رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية» لعلي عبد الله الدفاع (ص ٤٥١).

شتات المعرفة الطبية والصيدلانية في عصره، وقد قدم للعلم قواعد للبحث العلمي، وتصورات للمنهج العلمي التجريبي.

مؤلفات ابن النفيس:

□ خلف ابن النفيس مؤلفات علمية عديدة، نشر بعضها وما زال البعض الآخر في غياب المكتبات، وحيث رفوف المخطوطات لم ير النور بعد، ومن مؤلفاته ما يلي:

١ - «شرح تشيرح القانون»، وهو من أهم كتب ابن النفيس، وقد نشر في القاهرة سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م بتحقيق الدكتور سليمان قطابة، وتبين قيمة في وصفه للدورة الدموية الصغرى، واكتشافه أن عضلات القلب تتغذى من الأوعية المبئونة في داخلها لا من الدم الموجود في جوفه، كما يظهر في الكتاب ثقة ابن النفيس في علمه؛ حيث نقض كلام أعظم طبيبين عرفهما العرب في ذلك الوقت، وهما: جالينوس، وابن سينا.

٢ - «الشامل في الصناعة الطبية»، ويعد أعظم مؤلفاته، كما يعتبر أضخم موسوعة طبية يكتبها شخص واحد في التاريخ الإنساني، وقد نجح الدكتور يوسف زيدان في مصر في جمع أجزاء الكتاب المخطوطة، كما تطلع المجمع الثقافي في أبوظبي إلى تلك الموسوعة، وأخذ على عاتقه نشر الكتاب محققاً، حتى خرج إلى النور ثلاثة أجزاء منه، وذلك في سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

وكان ابن النفيس قد عكف على إعداد هذه الموسوعة وهو ينوي أن يجعلها مرجعًا طبياً شاملًا، ولو لا أن وفاته المبكرة بعد أن أعدّ منها ثمانين جزءاً، وهي تمثل صياغة علمية لجهود المسلمين في الطب والصيدلة على

مدى خسارة قرون من العمل المتواصل.

٣- «الموجز في الطب»، ويعتبر هذا الكتاب مرجعًا لكل من أراد دراسة الطب، ومارسة هذه المهنة العظيمة، وقد تناقله العلماء بعضهم من بعض، وكثُرت شروحه والتعليقات عليه لما نال من منزلة بين علماء العصور كلها حتى يومنا هذا، ويذكر «بول غليونجي» في كتابه «ابن النفيس» أنَّ كتاب الموجز في الطب لابن النفيس عبارة عن شرح مختصر جدًّا لكتاب القانون بالطب لابن سينا، تناول كل أجزاء القانون بلغة علمية سهلة ما عدا الجزء الخاص بالتشريح ووظائف الأعضاء، الأمر الذي جعله محبوبًا محبة باللغة من الوجهة العلمية لممارسي الطب.

الجدير بالذكر أنه يوجد نسخ منه على شكل مخطوط في كل من باريس وأكسفورد وفلورنسا وميونيخ والأسكوريال، ويقع «الموجز في الطب» في أربعة أجزاء، وقد نال تقدير وإجلال أطباء العلم؛ لذا فقد كثُرت ترجمته إلى اللغات الأجنبية وتعددت التعليقات عليه، وقد نُشر سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م في القاهرة بتحقيق عبد المنعم محمد عمر، وكانت قد سبقته نشرة ماكس مايرهوف ويوسف شاخت ضمن منشورات أكسفورد سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

٤- «شرح فصول أبقراط»، وقد طبع في بيروت سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م، بتحقيق ماهر عبد القادر ويوسف زيدان.

٥- «المهدب في الكحل المُجْرَب»، ونشر في الرباط سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م، بتحقيق ظافر الوفائي ومحمد رواس قلعة جي.

٦- «المختصر في أصول علم الحديث»، ونشر بالقاهرة سنة ١٤١٢ هـ -

١٩٩١م بتحقيق يوسف زيدان^(١).

ولاشك أنَّ لكتب ابن النفيس قيمةً كبيرة بالنسبة لتاريخ الطب العربي والغربي على حد سواء وإضافة إلى ذلك، فإنه أَلْفَ في السيرة وعلم الحديث والنحو والفلسفة والمنطق^(٢).

□ أما عن طريقة في التأليف يقول ابن قاضي شهبة: «وكان تصانيفه يملئها من حفظه، ولا يحتاج إلى مراجعة لتبخُرِه في الفن».

□ وقال السبكي: «صنَّف شرحاً على التنبيه، وصنَّف في أصول الفقه، وفي المنطق، وكان مشاركاً في فنون»^(٣).

□ وقال صاحب «الأعلام»: «وكان طريقة في التأليف أن يكتب من حفظه وتجاربه ومشاهداته ومستنبطاته، وقلَّ أن يراجع أو ينقل»، ثم تراه يقول آخرًا: «وخلَفَ مالاً كثيراً، ووقف كتبه وأملاكه على البيمارستان المنصوري بالقاهرة!!»^(٤).

□ وفي أيامه الأخيرة مرض ابن النفيس مرضًا شديداً، وقد حاول الأطباء أن يعالجوه بالخمر إلَّا أنه دفعها عن فمه وهو يقاوم عذاب المرض قائلاً: «لَا ألقى الله تعالى وفي جوفي شيءٌ من الخمر!!»، ولم يدهم في مرضه هذا طويلاً حتى وافته المنية، وكان ذلك سنة ٦٨٧هـ - ١٢٨٨م^(٥)؛ فرحمه

(١) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (١٠٧/١).

(٢) «عالم غيروا وجه العالم» لأكرم عبد الوهاب (ص ٤١)، و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (١٠٧/١).

(٣) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (١٠٧/١).

(٤) «الأعلام» للزركلي (٤ / ٢٧١).

(٥) المصدر السابق (٤ / ٢٧١).

الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

السلمون وابتكار المستشفيات:

لا شك أن إسهامات المسلمين في مجال الطب لا تُحصى، ولعل من أجل هذه الإسهامات وأعظمها أن المسلمين هم أول من أسس المستشفيات في العالم، بل إنهم سبقو غيرهم في ذلك الأمر بأكثر من تسعة قرون!!

فقد أسس أول مستشفى إسلامي في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، والذي حكم من سنة ٨٦هـ إلى سنة ٩٦هـ وكان هذا المستشفى متخصصاً في الجذام^(١)، وأنشئت بعد ذلك المستشفيات العديدة في العالم الإسلامي، وبلغ بعضها شأواً عظيماً؛ حتى كانت هذه المستشفيات تُعدَّ قلاعاً للعلم والطب، وتُعتبر من أوائل الكليات والجامعات في العالم بينما أُنشئ أول مستشفى أوروبي في باريس بعد ذلك بأكثر من تسعة قرون!!

وكانت المستشفيات تُعرف بـ «البيمارستانات»، وكان منها الثابت ومنها المتنقل، فالثابت هو الذي ينشأ في المدن، وقلما تجد مدينة إسلامية -ولو صغيرة- بغير مستشفى، أما المستشفى المتنقل فهو الذي يجوب القرى البعيدة والصحاري والجبال!!.

وكانت المستشفيات المتنقلة تُحمل على مجموعة كبيرة من الجمال «وصلت في بعض الأحيان إلى أربعين جملًا!!» وذلك في عهد السلطان محمود السلجوقى رحمه الله، والذي حكم من سنة ٥١١هـ إلى سنة ٥٢٥هـ

(١) «تاريخ الطبرى» (٤/٢٩).

وكانت هذه القوافل مزوّدة بالآلات العلاجية والأدوية، ويرافقها عدد من الأطباء، وإن بمقدورها الوصول إلى كل رقعة في الأمة الإسلامية^(١).

وقد وصلت المستشفيات الثابتة في المدن الكبرى إلى درجة راقية جدًا في المستوى، وكان من أشهرها المستشفى العُضدي ببغداد، والذي أنشئ في سنة ٣٧١هـ، والمستشفى النوري بدمشق، والذي أنشئ في سنة ٥٤٩هـ، والمستشفى المنصوري الكبير بالقاهرة، والذي أنشئ سنة ٦٨٣هـ، وكان بقرطبة وحدها أكثر من خمسين مستشفى!^(٢).

وكانت هذه المستشفيات العملاقة تُقسّم إلى أقسام بحسب التخصص؛ فهناك أقسام للأمراض الباطنة، وأقسام للجراحة، وأقسام للأمراض الجلدية، وأقسام لأمراض العيون، وأقسام للأمراض النفسية، وأقسام للعظام والكسور وغيرها.

ولم تكن تلك المستشفيات مجرد دور علاج، بل كانت كليات طب حقيقة على أرقى مستوى؛ فكان الطبيب المتخصص «الأستاذ» يمُرُّ على الحالات في الصباح، ومعه الأطباء الذين هم في أولى مراحلهم الطبية، فيعلمون، ويذَّودُون ملاحظاته، ويصف العلاج، وهم يراقبون ويتعلمون، ثم يتقلّل الأستاذ بعد ذلك إلى قاعة كبيرة ويجلس حوله الطلاب فيقرأ عليهم الكتب الطبية، ويشرح ويوضح، ويجيب عن أسئلتهم، بل إنه يعقد لهم امتحانًا في نهاية كل برنامج تعليمي معين ينتهيون من دراسته، ومن ثم يعطّيهم إجازة في الفرع الذي تخصصوا فيه.

(١) «تاريخ الحكمة» لابن القفطي (ص ٤٠٥).

(٢) «الطب عند العرب وال المسلمين» (ص ٣٢٨، ٣٢٩).

وكانت المستشفيات الإسلامية تضم في داخلها مكتبات ضخمة تحوي عدداً هائلاً من الكتب المتخصصة في الطب والصيدلية وعلم التشريح ووظائف الأعضاء، إلى جانب علوم الفقه المتعلقة بالطب، وغير ذلك من علوم تهم الطبيب.

□ وما يذكر على سبيل المثال -لنعرف ضخامة هذه المكتبات- أن مكتبة مستشفى ابن طولون بالقاهرة كانت تضم بين جنباتها أكثر من مئة ألف كتاب!!.

□ وكانت تُزرع - إلى جوار المستشفيات - المزارع الضخمة التي تنمو فيها الأعشاب الطبية والنباتات العلاجية؛ وذلك لإمداد المستشفى بها يحتاجه من الأدوية.

□ أما الإجراءات التي كانت تُتَّخذ في المستشفيات لتجنب العدوى فكانت من نوع خاص فريد؛ فكان المريض إذا دخل المستشفى يُسلم ملابسه التي دخل بها، ثم يُعطى ملابس جديدة مجانية لمنع انتقال العدوى عن طريق ملابسه التي كان يرتديها حين مرضه، ثم يدخل كل مريض في عنبر مختص بمرضه، ولا يُسمح له بدخول العنابر الأخرى لمنع انتقال العدوى أيضاً، وبينما كل مريض على سرير خاص به، وعليه ملاءات جديدة وأدوات خاصة!!.

□ قارن كل ذلك بالمستشفى الذي أُنشئ في باريس بعد هذه المستشفيات الإسلامية بقرون، حيث كان المرضى يُجبرون على الإقامة في عنبر واحد، وذلك بصرف النظر عن نوعية أمراضهم، بل ويُضطرون لنوم ثلاثة أو أربعة، وأحياناً خمسة من المرضى على سرير واحد!! فتجد

مريض الجدرى إلى جوار حالات الكسور إلى جوار السيدة التي تلد!! كما كان الأطباء والممرضون لا يستطيعون دخول العناير إلا بوضع كمامات على الأنف من الرائحة شديدة العفونة في داخل هذه العناير! بل كان الموتى لا يُنقلون إلى خارج العناير إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعة على الأقل حتى الوفاة!! ولक أن تخيل مدى خطورة هذا الأمر على بقية المرضى!!^(١).

□ وإذا أردنا أن نستعرض بعضًا من المستشفيات الرائدة في التاريخ الإسلامي، فكان من أعظمها: المستشفى العضدي، الذي أنشأه عضد الدولة ابن بويه عام ٣٧١هـ في بغداد، وكان يقوم بالعلاج فيه عند إنشائه أربعة عشرون طبيباً، تزايدوا بعد ذلك جداً، كما كان يضم مكتبة علمية فخمة وصيدلية ومطابخ، وكان يخدم فيه عدد ضخم من الموظفين والفرّاسين، وكان الأطباء يتناوبون على خدمة المرضى بحيث يكون هناك أطباء بالمستشفى أربعةً وعشرين ساعة يومياً.

□ ومن المستشفيات الإسلامية العظمى أيضاً: المستشفى النوري الكبير بدمشق، والذي أنشأه السلطان العادل نور الدين محمود الشهيد رحمة الله عليه، وذلك في سنة ٥٤٩هـ، وكان من أجمل المستشفيات وأعظمها، واستمر في العمل فترة طويلة جداً من الزمان، حيث بقي يستقبل المرضى حتى سنة ١٣١٧هـ - ١٨٩٩م أي قرابة ثمانية عشرة سنة!!

□ كذلك من أعظم المستشفيات في تاريخ الإسلام: المستشفى المنصوري الكبير، الذي أنشأه الملك المنصور سيف الدين قلاوون رحمة الله عليه في

(١) «من رائق حضارتنا» للدكتور مصطفى السباعي (ص ١١٦، ١١٧).



القاهرة، وذلك سنة ٦٨٣ هـ، وكان آية من آيات الدنيا في الدقة والنظام والنظافة، وكان من الصخامة بحيث إنه كان يعالج في اليوم الواحد أكثر من أربعة آلاف مريض !!.

□ ولا ننسى في هذا المضمار مستشفى مراكش، والذي أنشأه المنصور أبو يوسف يعقوب رحمه الله، ملك دولة الموحدين بالغرب، والذي حكم من ٥٨٠ هـ إلى ٥٩٥ هـ، وكان بناء هذا المستشفى آية من آيات الإتقان والروعة! فقد غُرست فيه جميع أنواع الأشجار والزروع، بل كانت في داخله أربع بحيرات صناعية صغيرة!! وكان على مستوى عالي جدًا من حيث الإمكانيات الطبية والأدوية الحديثة والأطباء المهرة^(١).

لقد كان بحق - درة في جبين الأمة الإسلامية.

ليس هذا فقط، بل كانت هناك المستشفيات المتخصصة، التي لا تعالج إلا نوعاً معيناً من الأمراض: كمستشفيات العيون، ومستشفيات الجذام، ومستشفيات الأمراض العقلية، وغير ذلك.

□ وأعجب منه وأغرب: أنه كانت توجد في بعض المدن الإسلامية الكبرى أحياط طيبة متكاملة؛ فقد حدث ابن جبير رحمه الله في رحلته التي قام بها في سنة ٥٨٠ هـ تقريرًا، أنه رأى في بغداد -عاصمة الخلافة العباسية- حيًّا كاملاً من أحياطها يشبه المدينة الصغيرة، يتوسطه قصر فخم جميل، تحيط به الحدائق والبيوت المتعددة، وكان كل ذلك وفقاً على المرضي، وكان يؤمه الأطباء من مختلف التخصصات، فضلاً عن الصيادلة وطلبة الطب، وكانت النفقة جارية عليهم من الدولة ومن الأوقاف التي يجعلها

(١) المصدر السابق (ص ١١٠-١١٨).

الأئمّة من الأُمّة لعلاج الفقراء وغيرهم^(١).

الرازي معجزة الطب عبر الأجيال:

لم يكن الرازي طبيباً فحسب، ولا معلمًا فقط.. ولكنه أبدع كذلك في مجالات الأخلاق والقيم والدين.. كما أبدع سو لا شك في ذلك - في مجال الإنسانية.. حتى أصبح علماً من أعلام الفضيلة، كما كان علماً من أعلام الطب.. ولا شك أن هذا الرجل العظيم من أعظم صورة الحضارة الإسلامية.

□ فهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي.. وقد ولد في مدينة الري وإليها نسب.. ومدينة الري تقع على بعد ستة كيلومترات جنوب شرقى طهران وكان ميلاده في سنة ٢٥٠ هـ - ٨٦٤ م، وكان منذ طفولته محباً للعلم والعلماء، فدرس في بلاده «الري» العلوم الشرعية والطبية والفلسفية^(٢).

ولكن هذا لم يُشبع نَهْمَه لطب العلم، فلم تكن مدينة الري - على اتساعها وكثرة علمائها - بالمدينة التي تحوي علوم الأرض في ذلك الوقت، ولذلك يَمِّم الرازي وجهه شطر عاصمة العلم في العالم في ذلك الوقت وهي «بغداد» عاصمة الخلافة العباسية، فذهب إليها في شِبَه بعثة علمية مكثفة، تعلم فيها علوماً كثيرة، ولكنه رَكَّز اهتمامه في الأساس على الطب، وكان أستاذه الأول في هذا المجال هو «علي بن زين الطبرى»، وهو صاحب أول موسوعة طبية عالمية «فردوس الحكم»^(٣).

(١) المصدر السابق (ص ١٠١).

(٢) «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء» (٦٣ / ١).

(٣) «نوابغ المسلمين» لمصطفى وهبة (١١٧ / ١).

□ اهتمَ الرازي أيضًا بالعلوم التي لها علاقة بالطب، كعلم الكيمياء والأعشاب^(١)، وكذلك علم الفلسفة؛ لكونه يحوي آراء الكثير من الفلاسفة اليونان والذين كانوا يتكلمون في الطب أيضًا.. وكان أستاذه الأول في الفلسفة هو «البلخي»^(٢)، وهكذا أنفق الرازي عدة سنوات من عمره في تعلم كل ما يقع تحت يديه من أمور الطب، حتى تفوق في هذا المجال تفوقاً ملماوساً.. ثم عاد الرازي بعد هذا التميز إلى الري فتقلدَ منصب مدير مستشفى مدينة الري، وكان من المستشفيات المتقدمة في الإسلام، وذاعت شهرته، ونجح في علاج الكثير من الحالات المستعصية في زمانه، وسمع بأمره الكبير والصغير والقريب والبعيد، حتى سمع به «عضد الدولة بن بويه» كبير الوزراء في الدولة العباسية فاستقدمه إلى بغداد ليتولى منصب رئيس الأطباء في المستشفى العضدي، وهو أكبر مستشفى في العالم في ذلك الوقت، وكان يعمل به خمسون طبيباً^(٣).

□ والحق أنه لم يكن مستشفى فقط بل كان جامعة علمية وكلية للطب على أعلى مستوى، وقد أصبح الرازي فيه مرجعية علمية لا مثيل لها، ليس في بغداد فقط، وإنما في العالم كله، وليس على مدى سنوات معدودة، ولكن لقرون متالية، فكان معجزة الطب عبر الأجيال!!.

□ ولعلَّه من المهم جدًا أن نقف وقفه ونتساءل: كيف وصل الرازي إلى هذا المجد، وإلى هذه المكانة؟

(١) «الفهرست» لابن النديم (٤٦١/٤٦).

(٢) «أبجد العلوم» (٣/١٤١) للقنوجي.

(٣) «رُوَادُ في الحضارة الإسلامية» للدفاع (ص ٢١٨).

- لا بدّ أن نعلم أن النجاح لا يأتي مصادفة، وأن التفوق لا يكون إلا بجهد وتعب وبذل وتضحية، كما أن الإبداع لا يكون عشوائياً أبداً، إنما يحتاج إلى تخطيط وتدريب ومهارة، وهكذا كانت حياة الرazi رحمه الله.
- لقد بحث الرazi عن العلم في كل مصادره، واجتهد قدر استطاعته في تحصيل كل ما يقع تحت يده من معلومات، ثم أتبع ذلك بتفكير عميق وتجارب متعددة ودراسة متأنية، حتى بدأ يعدل في النظريات التي يقرؤها، وأخذ ينقد ويحمل، ثم وصل إلى الاختراع والإبداع.
- لقد انتشر في زمان الرazi الطب اليوناني والفارسي والهندي والمصري نتيجة اجتهاد العلماء في ترجمة كتب تلك الأمم، فقرأها الرazi جيئاً، لكنه لم يكتف بالقراءة بل سلك مسلكاً رائعاً من أرقى مسالك العلم وهو الملاحظة والتجربة والاستنتاج.
- فقد كان الطب اليوناني هو أهم طب في تلك الفترة، ولكنه كان يعتمد في الأساس على النظريات غير المجرّبة، وكان كل أطباء اليونان يعتمدون هذه الطريقة حتى عرفوا بفلسفه الطب، فهم لم يخضعوا نظرياتهم لواقع الحياة إلا قليلاً، ولا يُستثنى من ذلك أحدٌ من أطباء اليونان حتى العمالقة منهم أمثال جالينوس وأبقراط !! ولكن الرazi قال كلمته المشهورة التي تعتبر الآن قانوناً من قوانين العلم بصفة عامة والطب بصفة خاصة، قال: «عندما تكون الواقعـة التي تواجهـنا متعارضـةـ والنـظرـيةـ الرـائـدةـ وجـبـ قـبـولـ الواقعـةـ، حتىـ وإنـ أـخـذـ الجـمـيعـ بالـنظـرـيةـ تـأـيـداـ لـالـشـاهـيرـ العـلـماءـ!!»^(١).

(١) «طبقات الأطباء» (١، ٧٧، ٧٨).

□ ولذلك نجد أن الرازي كثيراً ما انتقد آراء العلماء السابقين نتيجة تجاربه المتكررة، بل إنه ألف كتاباً خصيصاً للرد على جالينوس أعظم أطباء اليونان وسمى الكتاب «الشكوك على جالينوس»، ذكر في هذا الكتاب الأخطاء التي وقع فيها جالينوس، والتصويب الذي قام هو به لهذه الأخطاء، وكيف وصل إلى هذه النتائج^(١).

□ بل إن الرازي وصل إلى ما هو أروع من ذلك، حيث أرسى دعائم الطب التجريبي على الحيوانات، فقد كان يجرب بعض الأدوية على القرود، فإن ثبتت كفاءة وأماناً جربها مع الإنسان، وهذا من أروع ما يكون، ومعظم الأدوية الآن لا يمكن إجازتها إلا بتجارب على الحيوانات كما كان يفعل الرازي حَمْلَهُ^(٢).

ولقد كان من نتيجة هذا الأسلوب العلمي المتميز للرازي، أن وصل إلى الكثير من النتائج المذهلة، وحقق سبقاً علمياً في كثير من الأمور.

فالرازي هو أول مبتكر لخيوط الجراحة، وقد ابتكرها من أمعاء القطة! وقد ظلت تستعمل بعد وفاته لعدة قرون، ولم يتوقف الجراحون عن استعمالها إلا منذ سنوات معدودة في أواخر القرن العشرين، عند اختراع أنواع أفضل من الخيوط، وهذه الخيوط هي المعروفة بخيوط أمعاء القط^(٣).

(١) المصدر السابق (٦٨ / ١).

(٢) «طبقات الأطباء» (٧٨ / ١).

(٣) «الموجز لما أضافه العرب في الطب» (ص ٤٣).

والرازي هو أول من صنع مراهم الزئبق ^(١).

وهو أول من فرق بين التزيف الوريدي والتزيف الشرياني، واستخدم الضغط بالأصابع لإيقاف النزف الوريدي، واستخدم الربط لإيقاف التزيف الشرياني، وهذا عين ما يستخدم الآن!!

وهو أول من وصف عملية استخراج الماء من العيون ^(٢).

وهو أول من استخدم الأفيون في علاج حالات السعال الجاف.

وهو أول من أدخل الملينات في علم الصيدلة.

وهو أول من اعتبر الحمى عرضاً لا مرضًا ^(٣).

وكان عليه السلام يهتم بالتعليق على وصف البول ودم المريض للخروج منها بمعلومات تفيده في العلاج ^(٤).

كما نصح بتجنب الأدوية الكيميائية إذا كانت هناك فرصة للعلاج بالغذاء والأعشاب، وهو عين ما ينصح به الأطباء الآن ^(٥).

ولم يكن الرازي مبدعاً في فرع واحد من فروع الطب، بل قدم شرحاً مفصلاً للأمراض الباطنية والأطفال والنساء والولادة والأمراض التناسلية والعيون والجراحة وغير ذلك.

(١) «قصة الحضارة» لول دبورانت (٤/٤).

(٢) «الطب عند العرب والمسلمين» لمحمود الحاج قاسم (ص ٣٠٨) نقلًا عن مجلة جامعة الموصل عدد ١٥ ، السنة الثانية (ص ٦٧) مقال لعبد المنعم عبد الحميد.

(٣) «الطب عند العرب والمسلمين» (ص ٧٢).

(٤) «الحاوي» للرازي (١٠/١٠).

(٥) «نوابغ المسلمين» (١/١٢١).

□ ولم يكن الرازى يكتفى فقط بالتدريس والتعليم والامتحانات لنقل العلم، بل اهتم بجانب آخر لا يقل أهمية عن هذه الجوانب وهو جانب التأليف، فكان رحمه الله مُكثراً من التأليف وتدوين المعلومات وكتابة الكتب الطبية، حتى أ حصى له ابن النديم في كتابه «الفهرست» ١١٣ كتاباً و ٢٨ رسالة، وهذا عدد هائل، خاصة وأنها جميعاً في مجال الطب ^(١).

وقد كان من أعظم مؤلفات الرازى كتاب «الحاوى في علم التداوى» وهو موسوعة طيبة شاملة لجميع المعلومات الطبية المعروفة حتى عصر الرازى، وقد جمع فيه رحمه الله كل الخبرات الإكلينيكية التي عرفها، وكل الحالات المستعصية التي عالجها، وتتجلى في هذا الكتاب مهارة الرازى رحمه الله، ودقة ملاحظاته، وغزارته علمه، وقوتها استنتاجه.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى أكثر من لغة أوروبية، وطبع لأول مرة في بريشيا بشمال إيطاليا سنة ١٤٨٦-١٤٩١م، وهو أضخم كتاب طُبع بعد اختراع المطبعة مباشرةً، وكان مطبوعاً في ٢٥ مجلداً، وقد أعيدت طباعته مراراً في البندقية بإيطاليا في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادى) ويذكر المؤرخ «ماكس مايرهوف» أنه في عام ١٥٠٠ ميلادية كان هناك خمس طبعات لكتاب الحاوی مع عشرات الطبعات لأجزاء منه.

□ ومن كتبه أيضاً «المتصوري»، وقد ساه بهذا الاسم نسبة إلى المنصور بن إسحاق حاكم خراسان، وقد تناول فيه موضوعات طبية متعددة في الأمراض الباطنية والجراحية والعيون، وقد تعمّد الرازى

(١) «الفهرست» لابن القيم (١/٤٢٠).

الاختصار في هذا الكتاب فجاء في عشرة أجزاء!! لذلك رغب العلماء الأوروبيون في ترجمته عدة مرات إلى لغات مختلفة، منها اللاتينية والإنجليزية والألمانية والعبرية! وقد تم نشره لأول مرة في ميلانو سنة ١٤٨١م، وظل مرجعًا لأطباء أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي^(١).

□ ومن أروع كتبه كذلك كتاب «الجدرى والخصبة»، وفيه يتبيّن أن الرازى أول من فرق بين الجدرى والخصبة، ودون ملاحظات في غاية الأهمية والدقة للتفرقة بين المرضين، وقد أعيدت طباعة هذا الكتاب في أوروبا أربع مرات بين عامي (٩٠٣ - ١٢٨٣ هـ) (١٤٩٨ - ١٨٦٩ م)^(٢).

□ ومن كتبه أيضًا كتاب «الأسرار في الكيمياء»، والذي بقي مدة طويلة مرجعًا أساسياً في الكيمياء في مدارس الشرق والغرب^(٣).

□ ومن كتبه المهمة كذلك كتاب «الطب الروحاني» الذي ذكر فيه أن غايتها من الكتاب هو إصلاح أخلاق النفس، وحضر في كتابه هذا على تكرييم العقل، وعلى قمع الهوى ومخالفة الطباع السيئة وتدريب النفس على ذلك^(٤).

□ وألف أيضًا «طب الفقراء»^(٥) و«أخلاق الطبيب».

هذا.. وقد اعترف القاصي والداني لأبي بكر الرازى بالفضل والمجد والعظمة والعلم والسبق، ولا نقصد بذلك المسلمين فقط، بل اهتم غير

(١) «تطور الفكر العلمي عند المسلمين» (ص ١٩٢).

(٢) «الطب عند العرب والمسلمين» (ص ٧٣).

(٣) «تطور الفكر العلمي عند المسلمين» (ص ١٩١).

(٤) «في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية» لعامر النجار (ص ٩٥).

(٥) المصدر السابق (ص ١١٥، ١١٦).

المسلمين أيضاً بإنجازات الرازي وابتكاراته.

فنجد فضلاً عن ترجمة كتبه إلى اللغات الأوروبية وطبعها أكثر من مرة، نجد إشارات لطيفة وأحداثاً عظيمة تشير إلى أهمية ذلك العالم الجليل، ومن ذلك أن الملك الفرنسي الشهير لويس الحادي عشر، والذي حكم من عام ١٤٦١م إلى ١٤٨٣م، قد دفع الذهب الغزير لينسخ له أطباوه نسخة خاصة من كتاب «الحاوي»؛ كي يكون مرجعاً لهم إذا أصابه مرض ما !!.

□ ونجد أن الشاعر الإنجليزي القديم «جوفري تشورس» قد ذكر الرازي بالمدح في إحدى قصائده المشهورة في كتابه «أقصاص كونتيري» !! ولعله من أوجه الفخار أيضاً أنه رغم تطور العلم وتعدد الفنون إلا أن جامعة «بربستون» الأمريكية ما زالت تطلق اسم الرازي على جناح من أكبر أجنحتها ^(١)، كما تضع كلية الطب بجامعة باريس نصبًا تذكاريًا للرازي، بالإضافة إلى صورته في شارع سان جيرمان بباريس.

□ لقد كان الرازي بحق صورة رائعة من صورة الحضارة الإسلامية، قلماً تتكرر في التاريخ، لقد كان طبيباً وعالماً ومعلمًا وإنساناً، عاش حياته لخدمة الإسلام والعلم والبشرية، ومات عن عمر بلغ ستين عاماً، وكانت وفاته في شعبان ٣١١هـ / نوفمبر ٩٢٣م ^(٢).

ومن نوافع المسلمين في الطب:

□ «عمار بن علي الموصلي.. - نحو ٤٠٠هـ» امتاز بعلم أمراض

(١) «أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية» (ص ١٣٨).

(٢) «العلم وبناء الأمم» (ص ٥٣٥ - ٥٤٢) ملخصاً.

العيون ومداواتها، له كتاب: «المتخب -خ» في علم طب العين، وعلّلها ومداواتها.

□ و«علي بن عيسى بن علي الكحال.. -٤٣٠هـ» كان طبيباً حاذقاً في أمراض العيون ومداواتها، واشتهر بكتابه «تذكرة الكحالين». وكان يسمى طيب العيون كحالاً.

ابن الجزار:

هو «أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد القيرواني.. -٣٦٩هـ» طبيب مؤرخ من أهل القيروان، له عدّة مؤلفات، منها:

كتاب: «زاد المسافر وقوت الحاضر -خ» في الطب، وهو مجلدان، ترجم إلى اللاتينية واليونانية والإيطالية، وكتاب: «الاعتماد -خ» في الأدوية المفردة. وكتاب: «البغية» في الأدوية المركبة. وكتاب «طب الفقراء -خ». وكتاب: «أسباب الوباء بمصر والحقيقة في دفعه».

ولشدّة اهتمام غير المسلمين بهذا الطبيب المسلم تُرجمَت بعض مؤلفاته.

علي بن عباس:

هو «علي بن عباس.. نحو ٤٠٠هـ» كان أبوه مجوسياً، فارسيًّا الأصل، من أهل الأهواز، عالم بالطب، من تلاميذ «موسى بن يوسف بن سيار المتوفى سنة ٣٨٤هـ».

كان متصلةً بعاصد الدولة ابن بويه، وصنف له كتاب: «كامل الصناعة الطبية الضرورية -ط» ويُسمى الكتاب الملكي، تُرجم إلى اللاتينية، وطبع في فيينا سنة ١٤٩٢م.

انتقد في كتبه ما اعتقد من الأغالطي في كتب أبقراط وجالينوس

وغيرها.

ابن رشد:

هو «أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رُشد الأندلسي -٥٢٠ هـ» من أهل قرطبة، وهو ابن رُشد الخفيف تميّزاً له عن جده. عُني بكلام أرسطو، وترجمه إلى العربية، وله مصنّفات كثيرة في الفلسفة والفقه والطبّ وغيرها.

□ قال ابن الأبار: «كان يُفْزَعُ إلى فتواه في الطب، كما يُفْزَعُ إلى فتواه في الفقه».

له في الطب «الكلّيات» مطبوع بالتصوير الشمسي، تُرجم إلى اللاتينية والإسبانية والعبرية.

ابن خاتمة:

هو «أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة.. -بعد ٧٧٠ هـ». طبيب مؤرخ من الأدباء البلغاء من أهل المريّة بالأندلس. له كتاب: «تحصيل غرض القاصد في المرض الوافد -خ» وضعه سنة ٧٤٧ هجرية).

وبحثه في هذا الكتاب تفوق على جميع البحوث العديدة التي انتشرت في أوروبا عن الطاعون، فيما بين القرن الرابع والقرن السادس عشر الميلادي، وهذا موضوع لم يعالج من قبل أطباء اليونان قط، ومرّ عليه الكاتبون في الطب في القرون الوسطى مرّ الكرام.

العلاجات والعقاقير:

□ وكان الأطباء المسلمون يُعدّون بأنفسهم الأدوية والعلاجات

والعقاقير، ويركبون المركبات الدوائية، ويُعطونها لمرضاهem، فهم أطباء وصيادلة معاً.

□ وضع المسلمون أول مؤلف في العقاقير، وأنشأوا أول صيدلية عرفها التاريخ البشري.

واشتهرت مهارتهم في صناعة العقاقير العلاجية، حتى صارت مطلوبةً من مختلف بلدان العالم، وازدهرت تجارة العقاقير المصدرة من بلدان العالم الإسلامي إلى سائر البلدان، لما رأى الناس فيها، من نفعٍ وتأثير، فقد كانت عقاقيرهم تُرسَلُ إلى أوروبا وإفريقيا والصين والهند وسيلان، وكان استيراد عقاقير البلاد الإسلامية من أهمّ عناصر التجارة بينها وبين إيطاليا.

الأدوات الطبية:

واهتمّ الأطباء المسلمين بصناعة الآلات والأدوات الطبية، ومنها الآلات الجراحية المختلفة، وتوجَّد في كتبهم صورٌ لها، وتُوجَّد في المتاحف الغربية وغيرها نماذج عديدة منها.

المصنفات في الطب والعقاقير:

□ ولأطباء المسلمين مصنفاتٌ ضخمةً وكثيرة، في الطب والمفردات التي تستخدم في الأدوية والعلاجات، وتركيب الأدوية والعقاقير. وبقيت مؤلفاتُ أطباء المسلمين تُدرَسُ في جامعاتِ أوروباً معتمدةً، حتى بداية القرن الثامن عشر الميلادي، الثاني عشر الهجري.

ابن البيطار إمام الصيادلة:

هو «ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي المعروف بابن

البيطار .. - ٦٤٦ هـ».

إمام النباتيين وعلماء الأعشاب، ولد في «مالقة» وهي: مرفاً في جنوب إسبانيا بالأندلس على البحر الأبيض المتوسط، وتعلم الطب، ورحل إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم، باحثاً عن الأعشاب والعارفين بها، حتى كان الحجّة في معرفة أنواع النبات، وتحقيقه وصفاته وأسمائه وأماكنه.

وجعله الملك «محمد الكامل الأيوبي» رئيساً للعشائين في الديار المصرية، واستبقاءه الملك «الصالح أیوب»، واشتهر شهرةً عظيمة.

وهو صاحب كتاب: «الأدوية المفردة - ط» في مجلدين، المعروف بمفردات ابن البيطار، وله كتاب: «المغني في الأدوية المفردة - خ» مرتب على مداواة الأعضاء. وله كتاب: «ميزان الطبيب - خ» وله غيرها من الكتب.

٢- الكيمياء^(١) وعلوّهمة علماء المسلمين فيها:

□ كان للمسلمين اهتمام بالغ في علم الكيمياء المبني على التجربة، والملاحظة، ورصد النتائج، والاستعانة بالعلوم الرياضية، وذآب المشغلون منهم في هذا المجال وتجولوا في البلدان بحثاً عن تجارب الناس وما اكتسبوا من خبراتٍ علمية، ودونوا ما توصلوا إليه من معارف، حتى صارت الكيمياء علمًا صحيحًا بفضل جهودهم الطويلة، وتجارباتهم الكثيرة التي أفادوا منها علمًا وأفادوا منها في حياتهم، وقدّموا بها للصناعات منافع كثيرة كانت لها آثارها الطيبة في الرقيِّ الحضاري.

(١) انظر: «العلوم البحتة في العصور الإسلامية» لعمر رضا كحالة، وكتاب «العلوم عند العرب» لندرى حافظ طوقان.

□ وَمِمَّا يُنْبَغِي التَّتْبِيهِ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ اسْتَعْمَلُوا الْقِيَاسَ فِي تَجْرِيَاتِهِمْ، وَاجْتَهَدُوا اجْتِهادَاتِ مُضْنَيَاتِ لِلْحَصُولِ عَلَى مَعْلُومَاتٍ جَدِيدَاتٍ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً لِلنَّاسِ مِنْ قَبْلُ.

وكان اعتمادُهُم على التجربة المتابعة بالتكرار والتحسين والتجويد، والمصحوبة بالمراقبة ودقة الملاحظة، والمقترنة باختبار مختلف الاحتمالات وملاحظة نتائجها، مع استخدام ما كان لدى الناس وما ابتكروه من أدوات وألات، سبباً في تمكينهم من استنتاجات جديدةٍ جليلة، وإضافةً معلوماتٍ جوهريةٍ في علم الكيمياء، وسيماً في توصلهم إلى ابتكاراتٍ واكتشافاتٍ كثيرة، وتقدّمَ بهم علم الكيمياء تقدّماً واسعاً.

□ وقاد المنهج التجريبيُّ عُلَمَاءَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ اسْتَغْلَلُوا بِالْكِيمِيَاءِ لاختراع التصفية، والتبيير، ورفع الأثقال، واستخدام الموازنة في الكيمياء.

وبه توصلوا إلى استخدام عمليات التقطر، والترشيح، والتصعيد، والتذويب، وإلى اكتشاف واختراع وسائل ذلك.

وبه اكتشفوا بعض الأجزاء الكيميائية ذات الأهمية، وبه استخرجوا الكحول «الغُول» من المواد السكرية، والنشوية، واكتشفوا القلوبيات، والنشادر، ونترات الفضة، وحامض الطرطير، والراسب الأحمر.

□ وكانوا أول من استحضر حامض الكبريتيك، وحامض النتريل، والماء الملكي «حامض النتروهيدروكلوريك» وماء الذهب، والصودا الكاوية، وكربونات البوتاسيوم، وكربونات الصوديوم. واستخدموا الزرنيخ، والإثمد، ومواد كثيرة أخرى.

- وما توصل المسلمون إليه بالعلميات الكيميائية التي أُجْرَوْهَا، وما اكتشفوا أو اكتشفوا تأثيراته من المواد الكيميائية، هو من العناصر التي تقوم عليها الصناعات الحديثة في القرن العشرين الميلادي.
- واستخدم المسلمون عِلْمَ الكيمياء في الطب، والصناعات، وصنع العقاقير، وتركيب الأدوية، وتنقية المعادن، وتركيب الروائح العطرية، ودبغ الجلود، وصَبْغِ الأقمشة.
- وكان من وصايا أهل البصيرة والرُّشد من علماء المسلمين المستغلين بالكيمياء، وجوبُ الاعتماد في الكيمياء على العمل وإجراء التجارب، ومعرفة الأسباب في أجزاء كُلِّ عملية، مع الصَّبر والمثابرة والتأنّي في استخراج واستنباط النتائج، وكان من وصايا هؤلاء وجوبُ عدم إضاعة الأوقات فيما هو عديم النفع، أو ثبت بالتجارب المتكرراتٍ تعذر الوصول إليه، كتحويل المعادن الحسيسة كالرصاص والقصدير، إلى معادن نفيسة كالذهب والفضة.
- وقد اعتمدت النهضة الغربية العلمية والعملية على منهج علماء المسلمين التجريبي، وعلى ما توصلوا إليه في علم الكيمياء، وكان هذان الأمران هما القاعدتين الأساسيةَن، اللتان أقام عليهما الباحثون الغربيون في علم الكيمياء نهضَتُهم، التي انطلقت صاعدةً منذ بدايات القرن السابع عشر الميلادي، وفي حركة البناء والصعود الحضاري طَوَّرُوا وجَوَّدُوا وحسَّنُوا وابتَكَرُوا وتفوقوا.
- وقد بُرِزَ في تاريخ المسلمين في مجال الكيمياء أعلامٌ كثيرون أذكر طائفَةً منهم فيما يلي:

أبرز علماء المسلمين في الكيمياء:

١- أبوالكيميا جابر بن حيان الصوفي^(١) مؤسس علم الكيمياء:

وصفه ابن خلدون في مقدمته وهو بقصد الحديث عن علم الكيمياء فقال: «إمام المدونين فيها جابر بن حيان، حتى إنهم يخصونها به فيسمونها: «علم جابر»، وله فيها سبعون رسالة»^(٢).

إن أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الأزدي، نسبة إلى قبيلة أزد اليمنية التي هاجر البعض منها إلى الكوفة بعد انهيار سد مأرب. ولد في «طوس» واستقر في بغداد بعد قيام الدولة العباسية، وتوثقت علاقته بأسرة البرامكة الفارسية، وامتدت حياته ما بين ٧٢١ - ٨١٥ هـ / ١٠٣ - ١٠٣ م^(٣) ويُعرف بـ«الصوفي».

يُعد مؤسس علم الكيمياء التجريبي؛ فهو أول من استخلص معلوماته الكيميائية من خلال التجارب والاستقراء والاستنتاج العلمي،

(١) كان شيعيّاً، نذكره هنا لتميزه في علم «الكيمياء» مع التنبيه على بدعته حتى لا يغتر العوام. مثلما ذكرنا من قبله ابن سينا وهو أشنع منه بدعة.

قال ابن قيم الجوزية: «وكان ابن سينا - كما أخبر هو عنه نفسه - هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين». نذكره؛ لأنّه كان علّاماً في الطب فقد قالوا: كان الطّب معدوماً فأوجده بقراط، وكان ميتاً فأحياه جالينوس، وكان متفرقاً فجمعه الرّازِي، وكان ناقصاً فأكمله ابن سينا». ولعل هذا يكون حافزاً لأهل السنة والجماعة أن يكون منهم من يفوق ابن سينا في «الطب» فكل علم شريف نحن أولى به من أهل البدع «بضاعتنا رُدّت إلينا».

(٢) «مقدمة ابن خلدون» (١/٣٢٢).

(٣) «الفهرست» لابن النديم (ص ٤٢٠)، و«الأعلام» للزرکلي (٢/١٠٣).

وكان غزير الإنتاج والاكتشافات، حتى إن الكيمياء اقترنت باسمه فقالوا: «كيمياء جابر»، و«الكيمياء لجابر»، وكذلك: «صنعة جابر». كما أطلق عليه أيضاً: «شيخ الكيميائيين» وأبو الكيمياء».

فقبل جابر كان هناك مجموعة من المهن البدائية القديمة، وقد احتللت مع كثير من الحرف، كالتحنيط «في مصر القديمة» والدّباغة، والصباغة والتعدين واستخلاص الزيوت، لكن جابر بن حيان استطاع أن يطور الكيمياء ويرفعها من تلك المترفة البدائية التي كانت عليها إلى مترفة عالية، وذلك بإضافته للكثير من المعارف النظرية والعلمية، وإرائه أسس وأصول تحضير المواد الكيميائية والتعامل معها؛ لذلك يعتبر ابن حيان شيخ الكيميائيين بلا منازع^(١).

اتّصل بالبرامكة، وانقطع إلى «جعفر بن يحيى» منهم، وتوفي بطوس. له تصانيف كثيرة قيل: عددها (٢٣٢) كتاباً، وقيل: بلغت (٥٠٠) ضاع أكثرها، وُرِّجم بعض ما بقي منها إلى اللاتينية. ولجابر بن حيان شهرة كبيرة عند الإفرنج بما نقلوه من كتبه، في بدء نهضتهم العلمية.

□ قال «برتلو M.Berthelot»: لجابر في الكيمياء ما لأرسسطو طاليس قبله في المنطق».

□ وجابر بن حيان هو «أبو المنهج التجريبي في علم الكيمياء». □ وعن هذا المنهج التجريبي يقول جابر بن حيان: «وملاك كمال هذه

(١) «عالم غيروا وجه العالم» لأكرم عبد الوهاب (ص ١٧).

الصنعة العمل والتجربة؛ فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء أبداً»^(١).
 □ وفي كتاب الخواص الكبير المقالة الأولى يقول: «إننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه، أو قيل لنا وقرأناه، بعد أن امتحنناه وجربناه، فما صحّ أوردناه، وما بطل رفضناه، وما استخر جناه نحن أيضًا قايسناه على أحوال هؤلاء القوم»^(٢).

ولذلك يُعد جابر أول من أدخل التجربة العلمية المخبرية في منهج البحث العلمي الذي أرسى قواعده، وكان أحيانًا ما يُسمى التجربة بالتدريب، فكان يقول: «فمن كان دَرِبًا كان عالِمًا حَقًّا، ومن لم يكن دَرِبًا لم يكن عالِمًا، وحسبك بالدربة في جميع الصنائع أن الصانع الدَّرِب يحذق، وغير الدَّرِب يُعطَل»^(٣).

وعليه قطع جابر خطوة أبعد مما قطع اليونان في وضع التجربة أساس العمل.

□ ولقد اهتم هوليارد Holmyard بأعمال جابر ومنهجه العلمي ومؤلفاته، وعكف على إبراز القيمة العلمية لعلمه، وترأه بعد ذلك يقول: «إن الصنعة الخاصة عند جابر هي أنه قد عرف وأكَّد على أهمية التجريب بشكل أوضح من كل من سبقه من الكيميائيين»^(٤).

(١) كتاب «التجريدة» لجابر بن حيان، ضمن مجموعة حقّقها ونشرها هوليارد بعنوان «مصنفات في علم الكيمياء» للحكيم جابر بن حيان، باريس ١٩٢٨ م.

(٢) كتاب «الخواص الكبير» (ص ٢٣٢) لجابر بن حيان ضمن مجموعة كراوس.

(٣) «كتاب السبعين» لجابر بن حيان (ص ٤٦٤)، ضمن مجموعة كراوس.

(٤) «تاريخ العلوم عند العرب» لعمر فروخ (ص ٢٥١).

جابر بن حيان أوليات وإنجازات:

قام جابر بإجراء كثير من العمليات المخبرية، كان بعضها معروفاً من قبل فطوره، وأدخل عملياتٍ جديدة. ومن الوسائل التي استخدمها: التبغُ، والتقطير^(١)، والتبلُّر^(٢)، والتسامي^(٣)، والترشيح^(٤)، والصَّهر، والتكييف، والإذابة، ودرس خواص بعض المواد دراسة دقيقة؛ فتعرف على أيون الفضة النشادي المعقد^(٥).

كما قام بتحضير عدد كبير من المواد الكيميائية، فهو أول من حضر حمض الكبريتيك بالتقطر من الشَّب، وحضر أكسيد الزئبق، وحضر النتريك؛ أي ماء الفضة، وكان يسميه الماء المحلل أو ماء النار، وحضر حمض الكلوريدريك المسمى بروح الملح، وهو أول من اكتشف الصودا الكاوية، وأول من استخرج نترات الفضة وقد سُمِّاها حجر جهنم، وثاني كلوريد الزئبق «السلبياني»، وحضر النتروهيدروكلوريك «الماء الملكي»، وُسُمي كذلك؛ لأنَّه يذيب الذهب ملك المعادن.

وهو أول من لاحظ روابسب كلوريد الفضة عند إضافة ملح الطعام إلى نترات الفضة، كما استخدم الشب في تثبيت الأصياغ في الأقمصة،

(١) هو فصل الجسم المراد تهيئته بتضعيده إلى بخار ثم تكييفه إلى سائل.

(٢) هو فصل البُلُورات من ماء البحر المالح والحالات المشابهة.

(٣) هو فصل الجسم الطيار بتتسخينه حيث يتکاثف بخاره إلى مادة صلبة دون المرور على الحالة السائلة.

(٤) تمكنَ بواسطة منخل أو قطعة قماش أن يرشح كثيراً من المواد.

(٥) «دراسات في تاريخ العلوم عند العرب» لحكمة نجيب (ص ٢٦٦)، و«حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي» (ص ٢٨١، ٢٨٠).

وحضر بعض المواد التي تمنع الشاب من البطل؛ وهذه المواد هي أملام الألومنيوم المشتقة من الأحماض العضوية ذات الأجزاء الهيدروكربونية، ومن استنتاجاته أن اللهب يُكسب النحاس اللون الأزرق، بينما يكسب النحاس اللهب لوناً أخضر. وهو أول من فصل الذهب عن الفضة بالحل بوساطة الحمض، وشرح بالتفصيل عملية تحضير الزرنيخ، وتنقية المعادن، وصبغ الأقمصة^(١).

ويُعزى إليه أنه أول من استعمل الميزان الحساس والأوزان متناهية الدقة في تجاربه المخبرية؛ وقد وزن مقادير يقل وزنها عن ١٠٠ / ١ من الرطل، وينسب إليه تحضير مركبات كل من كربونات البوتاسيوم والصوديوم والرصاص القاعدي والإثمد «الأنتميون»، كما استخدم ثاني أكسيد المنجنيز لإزالة الألوان في صناعة الزجاج، كما بلور جابر النظرية التي مفادها أن الاتحاد الكيميائي يتم باتصال ذرات العناصر المتفاعلة مع بعضها، ومثل على ذلك بكلٍّ من الزئبق والكبريت عندما يتهدان ويكونان مادة جديدة. وقد كان يجري معظم تجاربه في مختبر خاص اكتُشف في أنقاض مدينة الكوفة في أواخر القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي.

وقد فحص «جابر بن حيان» ما خلفه الأقدمون، فخالف «أرسطو» في نظريته عن تكوين الفلزات، وخرج بنظرية جديدة، ونظرية التي خرج بها قد بقيت عمولاً بها حتى القرن الثامن عشر الميلادي.

وينسب إليه أيضاً استحضار مركبات أخرى، مثل: كربونات

(١) «حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي» لجلال مظهر (ص ٢٨١).

البوتاسيوم، وكربونات الصوديوم.
وقد درس خصائص مركبات الزئبق واستحضرها.
مؤلفات جابر:

في مجلمل مصنفاته يقول (لوبون G.Lebon) : «تألف من كتب جابر موسوعة علمية تحتوي على خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره، وقد اشتغلت كتبه على بيان مركبات كيميائية كانت مجهرولة قبله»^(١).

فقد كان جابر بن حيان العديد من المؤلفات العلمية، والتي تأثر بها الغرب ونقل عنها، حتى قرر ابن النديم أن له ٣٠٦ كتب في الكيمياء بأسلوبه الخاص في أنحاء العالم، ورغم أن معظمها قد فقد، إلا أنه يوجد منها الآن ثمانون كتاباً محفوظاً في مكتبات الشرق والغرب، وقد ترجم معظم كتبه إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي روبرت الشستري (ت ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م) وجيرار الكريموني (ت ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م) وغيرهما، ومثلت مصنفاته المترجمة الركيزة التي انطلق منها علم الكيمياء الحديث في العالم^(٢).

ويُعدُّ كتاب «السموم ودفع مضارها» أشهر مؤلفات جابر، ويقع في خمسة فصول، وفيه قسم السموم إلى حيوانية ونباتية وحجرية، وذكر الأدوية المضادة لها وتفاعلها في الجسم، وهذا الكتاب يعتبر همة وصل بين الطب والكيمياء.

(١) «حضارة العرب» لجوستاف لوبون (ص ٢٥).

(٢) «الفهرست» لابن النديم (ص ٤٢٠).

ومن أشهر كتبه أيضاً كتابه «الخواص الكبير»، ونسخته الأصلية موجودة في المتحف البريطاني.

وله أيضاً كتاب «التدابير»، وتعني العمل القائم على التجربة، وكتاب «الموازين»، وكتاب «الحديد» وفيه يصف جابر عملية استخراج الحديد الصلب من خاماته الأولى، كما يصف كيفية صنع الفولاذ بوساطة الصهر بالبواتق، ومن كتبه كذلك «نهاية الإتقان» وهو مؤلف رائد في الكيمياء، ورسالة «في الأفران».

وله أيضاً رسائل عن المرايا، كما ألف كتاب «السبعين» والذي يشمل سبعين مقالة حول أهم تجاربه في الكيمياء والنتائج التي توصل إليها، ويمكن اعتباره خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره. وله كذلك كتاب «الرحمة» ألفه في الكيمياء وتطرق فيه إلى إمكانية تحويل المعادن إلى ذهب، وكتاب «الجمل العشرون» و«أسرار الكيمياء» و«أصول الكيمياء»، وهذا غير مؤلفات أخرى في الرياضيات والفلسفة والشعر، وقد ترجمت بعض كتبه إلى اللاتينية مثل كتاب السبعين وكتاب الرحمة، وهناك كتب له باللاتينية لم يتم العثور على أصولها العربية، مثل: «البحث عن الكمال» و«كتاب العهد»، و«كتاب الأتون»^(١).

ولقد ترجمت كتب جابر إلى اللاتينية، وظلّت المرجع الأولي للكيمياء زهاء ألف عام، وكانت مؤلفاته موضوع دراسة مشاهير علماء الغرب، أمثل: كوب، وبرثوليه، وكراوس وهوليار الذي أنصفه ووضعه في القمة، وبدد الشكوك التي أثارها حوله العلماء المغرضون. وأيضاً سارتون

(١) انظر في مؤلفاته «الفهرست» (ص ٤٢١) وما بعدها.

الذي أرَّخ به حقبة من الزمن في تاريخ الحضارة الإسلامية، يقول: «ما قَدَرْ جابر أن الكتب التي ألفها لا يمكن أن تكون من وضع رجل عاش في القرن الثاني للهجرة لكثرتها ووفرة ما بها من معلومات»^(١).

٢- ذو النون المصري:

هو «أبو الفيّاض ثوبان بن إبراهيم الإخيمي المصري.. - ٢٤٥ هـ» أحد العباد الْزُّهاد المشهورين، من أهل مصر، نبوي الأصل، من الموالي. فقد كان له اشتغال في الكيمياء، وله كتاب: «الثقة في الصنعة»، والمراد من الصنعة الأعمال الكيميائية.

٣- ابن وحشية:

هو «أبو بكر أحمد بن علي بن قيس بن المختار بن عبد الكريم بن حرثيا ويعرف بابن الوحوشية.. - ٢٩٦ هـ». ينعت بالصوفي، وهو كلدانٌ الأصل، نبطيٌّ من أهل قُسْين «كورة من نواحي الكوفة» وكان طبيباً للعيون.

له من الكتب في صناعة الكيمياء: كتاب «الأصول الكبير»، وكتاب «الأصول الصغير» وكتاب «المدرجة» وكتاب «المذاكرة» وكتاب يحتوي على عشرين كتاباً في صناعة الكيمياء.

٤- أبو بكر محمد بن زكريا الرازى:

سبقت ترجمته في «أبرز أعلام المسلمين في الطب والصيدلة»، ويعتبر أبو بكر الرازى هذا من مؤسسي الكيمياء العلمية، فقد سلك في تجاربه

(١) «تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه» (ص ١٠٦).

مسلّكًا علميًّا خالصًا، الأمر الذي جعل لبحوثه في الكيمياء قيمة عظيمة. وقد ترجمت طائفة من كتبه إلى اللاتينية، وظلّت مدةً طويلة تدرس في جامعات أوروبية.

ويُعدُّ الرازى هذا من الأوائل الذين طبّقُوا معلوماتهم في الكيمياء على الطب.

ويتجلى فضل الرازى في الكيمياء بصورة واضحة في تقسيمه المواد الكيميائية المعروفة في زمانه إلى أربعة أقسام أساسية وهي:

- ١ - المواد المعدنية.
- ٢ - المواد النباتية.
- ٣ - المواد الحيوانية.
- ٤ - المواد المشتقة.

٥ - وقسمَ المعدنيات إلى ست طوائف فرعية هي: الأرواح، والأجساد، والأحجار، والزجاجات، والبورقات، والأملاح.

ومثل هذا التقسيم لا يكون إلَّا مستندًا إلى بحثٍ وتجربة.

واشتغل الرازى في حساب الكثافات النوعية للسوائل، واستعمل لذلك ميزانًا خاصًا سماه الميزان الطبيعي.

وله في علم الكيمياء كتاب يحتوى على اثنى عشر كتاباً.

٦ - علم الجغرافيا والتدوين فيه لدى الرواد المسلمين العظام:

كان لعلماء الجغرافيا من المسلمين روائع من الإنجازات المُبِهِرة التي غيرت مجرى النظر الجغرافي عبر تاريخ الإنسانية كله.

السلمون وإثبات كروية الأرض:

بالرغم من أن «كروية الأرض» تُعدُّ الآن من الحقائق العلمية البدئية التي لا يشك فيها أحد من الناس إلَّا أن الكنائس التي حكمت العقل الأوروبي قرونًا طويلة ضاقت بهذه الحقيقة العلمية ضيقًا حملها على تكثير من يؤمن بها من العلماء، وربما بلغ الأمر حد التعذيب أو الإعدام بأبشع الأساليب..!! كالتعذيب على الخازوق أو الحرق حيًّا.

وكان علماء أوروبا حتى القرن الثالث عشر الميلادي يرسمون خريطة العالم على شكل صليب: رأسه الجنة، وقدماه النار، وذراعاه: البحر الأبيض والبحر الأحمر.. وبيت المقدس «أورشليم» في موضع القلب!!.

□ وقد كان من أشهر العلماء الأوروبيين الذين تبنّوا نظرية كروية الأرض «نيقولا كوبيرنيكوس» (١٤٧٣ - ١٥٤٣) الذي توصلَ إلى أن الأرض ليست مركز الكون.. إلَّا أنه لم يتجرأ على نشر كتابه إلَّا وهو على فراش الموت!! وظل كتاب «كوبيرنيكوس» من الكتب المحرمة، واضطهدت الكنيسة كل من يؤيد اعتقاد «كوبيرنيكوس» مثل «برونو» الذي أُعدم حرقًا، و«جاليليو» الذي أودع السجن حتى أُرغِمَ على التنكر لنظرية «كوبيرنيكوس» والتخلِّي عن آرائه، والانصياع للفكر الكنسي!!!.

* ولما جاءت الحضارة الإسلامية، عملت على إحياء نظرية كروية الأرض وتبنّتها، وربما كان من أهم أسباب ذلك أن القرآن أشار بصورة مختلفة إلى كروية الأرض.. كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَّلَهَا﴾ ٢٠.

[النazuات]

□ ونقل ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» إجماع

أئمة المسلمين على كروية الأرض، فيقول عنهم: «قالوا: إن البراهين قد صحت بأن الأرض كروية، وال العامة تقول غير ذلك.. وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إن أحداً من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يُحفظ لأحد منهم في دفعه كلمةٌ.. بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكونيرها، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُكَوِّرُ الْأَيْلَلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الْأَيْلَلِ﴾ [الزمر: ٥]، وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض، مأخذ من: «كُورِ العَامَة..» وهو إدارتها، وهذا نص على تكوير الأرض..»^(١).

ولا بد أن نلاحظ هنا إلى أي مدى وصل ابن حزم رحمه الله في اعتراضه على مخالفيه في قضية بديهية كهذه، إنه لم يزيد على وصفهم بـ«العامّة» دونها تكفير ولا أحكام بالقتل، لا سيما وهو أحد فقهاء عصره، ولنقارن ذلك بما أشرنا إليه من مصادرة الكنيسة الأوروبية لآراء الآخرين معتمدة على سطوة النفوذ الديني والروحي !!

وها هي أقوال علماء الجغرافيا المسلمين:

□ يقول «ابن خرداذبة» (ت ٢٧٢ هـ - ٨٨٥ م) في كتابه «المسالك والممالك»: «إن الأرض مُدَوَّرَةٌ كدوران الكرة.. موضحة كالمحة «المحة هي: صفار البيض» في جوف البيضة»^(٢).

□ وكتب «ابن رُستة» (ت ٢٩٠ هـ - ٩٠٣ م) في كتابه «الأعلاق الفيسية»: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة أجوف

(١) «الفصل في الملل» بن حزم (٢/٧٨).

(٢) «المسالك والممالك» لابن خرداذبة (ص ٤).

دوّاراً، والأرض مستديرة أيضاً ومصممة في جوف الفلك»^(١).

□ وكتب «المسعودي» (ت ٩٥٦هـ - ٣٤٦هـ) في كتابه «التنبيه والإشراف»: «جعل الله عَزَّلَ الفلك الأعلى وهو فلك الاستواء وما يشمل عليه من طبائع التدوير، فأولها كرّة الأرض يحيط بها فلك القمر..»^(٢).

□ وقد ذكر «الشريف الإدريسي» (ت ١١٦٦هـ - ٥٦٠هـ) في كتابه «نزهة المشتاق» ما نصه: «.. وإن الأرض مدورة كتدوير الكبة، والماء لا صق بها، وراكد عليها ركوداً طبيعياً لا يفارقها، والأرض والماء مستقران في جوف الفلك كالمحنة في جوف البيضة.. ووضعهما وضع متوسط، والنسيم يحيط بها «يقصد الغلاف الجوي» من جميع جهاتها..»^(٣).

□ ويذكر أن الإدريسي لما أراد صُنْع نموذج للأرض كان على شكل الكرة المجمدة^(٤) ..

□ ويقول «القزويني» (ت ١٢٨٣هـ - ٦٨٢هـ) في كتابه «عجب المخلوقات»: «الأرض كرّة، والدليل على ذلك أن خسوف القمر إذا كان يُرى من بلدان مختلفة، فإنه لا يُرى فيها كلها في وقت واحد بل في أوقات متعاقبة؛ لأن طلوع القمر وغروبها يكونان في أوقات مختلفة في الأماكن المختلفة. والأرض واقفة في وسط الأفلاك كلها بإذن الله تعالى..».

□ ثم يفتّن القزويني آراء علماء القرون الوسطى في أوروبا ورجال

(١) «الأعلاق النفيسة» لابن رستة (ص ٨).

(٢) «أعلام الجغرافيين العرب» لعبد الرحمن حميده (ص ٣١٩).

(٣) «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للإدريسي (ص ٧).

(٤) «حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي» (ص ٤٠٣، ٤٠٢) بلال مظہر.

الكنيسة الذين يقولون: «إن الأرض لو كانت كرة لسقط الناس في الجانب الآخر منها، أو كانت رؤوسهم مقلوبة، فيقول: «إن الإنسان في أي موضع يقف على سطح الأرض فرأسه أبداً ما يلي السماء، ورجله أبداً ما يلي الأرض، وهو يرى من السماء نصفها، وإذا انتقل إلى موضع آخر ظهر له من جانب السماء الذي أمامه بقدر ما كان قد خفي عنه من الجانب الآخر..»^(١).

والعجب -بعد كل ما سبق- أن بعض الكتب والمراجع العربية ما زالت تنقل عن المراجع الأجنبية أن المسلمين لم يعرفوا نظرية كروية الأرض.. وأن هذه النظرية لم تعلن إلا بفضل «كوبيرنيكوس» (١٤٧٣م - ١٥٤٣م)!!.

وحسبي الآن مقارنة تاريخ وفاة «كوبيرنيكوس» بأعوام وفيات علماء المسلمين الذين سبق ذكرهم؛ ليتبين لك: من أخذ مِنْ؟!!.

من إنجازات المسلمين في علم الجغرافيا:

وستتوقف هنا الصفحات القادمة أمام بعض الإنجازات المبهرة التي سبق إليها المسلمون في الجغرافيا، والتي تُشكّل معلماً فارقاً في مسيرة هذا العلم عبر التاريخ الإنساني، القديم والحديث على حد سواء..

خطوط الطول وخطوط العرض:

يُعدُّ المسلمون أول من وضع خطوط الطول وخطوط العرض على خريطة الكرة الأرضية، وقد وضعها العالم أبو علي المراكشي (٦٦٠هـ -

(١) «عجائب المخلوقات» للقزويني (ص ٣٥).

١٢٦٢م)؛ وذلك لكي يستدل المسلمون على الساعات المساوية في بقاع الأرض المختلفة للصلوة.. كما وضع البيروني قاعدة حسابية لتسطيع الكرة أي نقل الخطوط والخرائط من الكورة إلى سطح مسطح وبالعكس.. وبهذا سهل رسم الخرائط الجغرافية^(١).

قياس محيط الأرض:

كان أول من قام بمحاولة قياس أبعاد الكرة الأرضية الخليفة العباسى العالم المأمون (ت ٢١٨هـ - ٨٨٣م)، فقد جاء بفريقين من علماء الفلك والجغرافيا؛ فريق برئاسة «سند بن علي»، وفريق بقيادة «علي بن عيسى الإسطرلابي» «ويقال: إن رئاسة أحد الفريقين كانت لبني موسى بن شاكر، وهو ما ذكرناه في الفصل السابق» واتفق معهما أن يذهبا إلى بقعتين مختلفتين على الدائرة العظمى من محيط الأرض شرقاً وغرباً، ثم يقيسا مقدار درجة واحدة من خطوط الطول «التي تبلغ ٣٦٠ خط طول».

ويحكي في ذلك ابن خلkan أن كل فريق اختار بقعة واسعة مسطحة، وركز في مكانٍ منها وتداً، واتخذ النجم القطبي نقطةً ثابتةً، ثم قاس الزاوية بين الوتر وبين النجم القطبي والأرض، ثم سار شمالاً إلى مكان زادت فيه تلك الزاوية، وقام كل فريق المسافة بين الوددين، وكانوا يقيسون المسافات على الأرض بحبال يشدونها على الأوتاد^(٢).

والعجب أن النتائج جاءت دقيقة وقريبة مما توصل إليه العلم المعاصر؛ فقد أخذ المأمون متوسط قياس الفريقين، فوجده ٦٦,٥٦ ميل

(١) «أعلام الجغرافيين العرب» (ص ٤٥٩).

(٢) «وفيات الأعيان» (١٦٢ / ٥).

تقريباً، والذي توصل إليه العلم المعاصر هو ٩٣,٥٦ ميل. وعلى قياس المأمون هذا فإن محيط الأرض يبلغ ٤٠٠,٤٠٠ ميل، أي حوالي ٤١,٤٨ كم.

ومن خلال مقارنة هذه القيمة مع القيمة التي قيست بواسطة الأقمار الصناعية في العصر الحديث، وهي ٤٠,٧٠ كم، يتضح أن نسبة الخطأ في قياسات فريق المأمون لم تتجاوز (٣٪)!! وهو أمر جدير بالتقدير^(١). ثم جاء «البيروني» فقام بتجربة جديدة على أساس مختلف، بقياس الانخفاض الرأسي من «قلل الجبال» في الهند، فجاءت شبيهة بأرقام فلكيي المأمون فأثنى عليهم^(٢).

□ وفي ذلك يقول المستشرق «نلليتو» - كما أشرنا سابقاً - في كتابه «علم الفلك عند العرب»: «إن قياس العرب للكرة الأرضية هو أول قياس حقيقي أُجري كله مباشرة مع كل ما تقتضيه تلك المسافة الطويلة، وهذا الفريق الكبير من العلماء والمساحين العرب، فهو يعد من أعمال العرب المؤثرة وأمجادهم العلمية!!»^(٣).

دوران الأرض حول نفسها:

في الوقت الذي كان العالم لا يتخيل فيه أن الأرض كرة لم يكن هناك من يناقش مسألة دوران الكورة حول نفسها، ولكن ثلاثة من علماء المسلمين كانوا أول من ناقش فكرة دوران الأرض في القرن الثالث عشر

(١) «كنوز علم الفلك» ليوهانس فيلارز (ص ٢٥).

(٢) «تراث العرب العلمي» لقدري طوقان (ص ٦٣).

(٣) «علم الفلك عند العرب» لنلليتو.

الميلادي «السابع الهجري» وهم «علي بن عمر الكاتبي»، و«قطب الدين الشيرازي» من الأندلس و«أبو الفرج علي» من سوريا.. فقد كان هؤلاء الثلاثة أول من أشار في التاريخ الإنساني إلى احتمال دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة كل يوم وليلة.

□ وعن هؤلاء العلماء يقول «سارتون»: «إن أبحاث هؤلاء العلماء الثلاثة في القرن ١٣ لم تذهب سدى، بل كانت العوامل التي أثرت على أبحاث «كوبرنيكوس» في نظريته التي أعلنها سنة ١٥٤٣ م^(١).

علم الخرائط:

لا يُنكر أحدٌ أن الغرب قد استفاد من مجهودات المسلمين في علم الجغرافيا عامةً أيّها استفادة، بل إن «أطلس الإسلام» أو الخرائط الإسلامية كانت في مقدمة مظاهر التأثير الإسلامي المباشر في الحضارة الغربية.

فقد تخطّف «الغرب» مؤلّف «الإدريسي» «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وقاموا بطبعاته طبعات كثيرة و مختلفة، حتى ظل هذا الكتاب مصدراً أساسياً للدارسي الجغرافيا الأوروبيين على مدار أكثر من أربعة قرون!!.

صمم «الإدريسي» خريطته على الطريقة العربية في ذلك الوقت حيث بدأ بالجنوب في أعلى الخريطة، ثم انتقل إلى الشمال في أسفلها، وت تكون مخطوطة الخريطة من ٧٠ ورقة (٢١×٣٣ سم) تصل إلى نحو خمسة أمتار مربعة.

(١) «مقدمة في تاريخ العلم» (٤٦/١).

وقد قام العالم الألماني «كونراد ميلر» بنشر نسخة مُلَوَّنة منها سنة ١٩٢٨م بعد أن بذل جهوداً خارقةً من أجل تجميع أجزاءها المختلفة وترجمة الأسماء العربية إلى الألمانية، ثم اهتمَّ المجمع العراقي بهذا الكتاب؛ فعمل باحثوه على مراجعة وتدقيق كل النسخ الموجودة في العالم، وأخرجوها خريطة الإدريسي وطبعوها سنة ١٩٥١م وهي بطول مترين وعُرض متراً واحداً^(١).

والجغرافي المتمكن «د. حسين مؤنس» في كتابه الكبير «أطلس تاريخ الإسلام» يرفض بشدة الزعم الشائع بين الناس الذي يرى أن المسلمين أخذوا فنَّ الخرائط عن الإغريق، وأنَّ خرائطهم قامت على أساس خرائط بطليموس الإسكندرى المتوفى في القرن المسيحى الثاني.

ويرى أنَّ الخرائط الإسلامية الأصلية هي خرائط البلدانين والمسالكين الذين زاروا في رحلاتهم البلدان وسلكوا المسالك، وقام علمهم الجغرافي على الرحلة والمشاهدة المباشرة.

أما ما أخذه بعض المسلمين عن الإغريق من علم الخرائط فهو الخرائط الفلكية، التي هي فرعٌ من فروع عِلم الفلك القديم، وهو عِلمٌ وهميٌّ كُله، لا أساس له من الصحة.

وذكر أنَّ خريطة الشريف الإدريسي الذائعة بين أيدي الناس هي أول خريطة كاملة للأرض عملها إنسان، وقد نشرها في أطلسه المذكور^(٢).

(١) «علماء العرب وما أعطوه للحضارة» لقديري طوقان (ص ١٩٩).

(٢) «أطلس تاريخ الإسلام» للدكتور حسين مؤنس (ص ٢٤).

تصحيح أخطاء السابقين:

بين أيدينا الآن شهادة مؤرخ غربي مشهور هو «جوستاف لوبيون» الذي ستؤكّد كلماته ما سبق بخصوص تفوق المسلمين في مجال الخرائط، إلى جانب أنها ستضيف إلى عظمة إسهامات المسلمين في الجغرافيا بعدها جديداً بالغ الأهمية.

□ يقول «جوستاف لوبيون»: «يكفي أن نشير إلى ما حققه العرب في الجغرافيا لإثبات قيمتهم العالية؛ فالعرب هم الذين عيّنوا بمعارفهم الفلكية موقع الأماكن تعيناً مضبوطاً في الخرائط، فصححوا بذلك أغاليط علماء اليونان، والعرب هم الذين نشروا رحلاتهم الممتعة عن بقاع العالم التي كان يشكّ الأوروبيون في وجودها، والعرب هم الذين وضعوا الكتب الجغرافية التي جاءت ناسخة لما تقدمها، فاقتصرت أمم الغرب عليهما وحدهما قرونًا كثيرة..»^(١).

فالروعة والإنجاز لا يتجلّسان فقط في الجديد الذي قدّمه الجغرافيون المسلمين للعالم، وإنما يتجلّسان الإنجاز وتجلّي الروعة كذلك في التصويب والتعديل الذي عاد به عباقرة الجغرافيين المسلمين على التراث الجغرافي اليوناني.

لقد وقع «بطليموس» - على الرغم من براعته المعروفة - في العديد من الأخطاء عند تحديد الأطوال والأعراض، ومن هذه الأخطاء:
أنه بالغ كثيراً في تحديد طول البحر المتوسط.
وبالغ في تحديد امتداد الجزء المعمور من الأرض المعروف له.

(١) «الإسلام وأثره في الثقافة العالمية» لمحمود الشرقاوي (ص ٩٧).

وجعل المحيط الهندي والهادئ بحيرة!!! وذلك عندما وصل جنوب آسيا بجنوبي أفريقيا.

وبالغ في تحديد حجم جزيرة «سيلان». وأنخطاً في وضع بحر قزوين والخليج العربي خطأً فاحشاً^(١). وقد صحق المسلمون كل هذه الأخطاء وغيرها، ولم يأخذ الغرب هذه التعديلات إلا عنهم، ومن هنا يتجلّ دور المسلمين في إنقاذ الدراسات الجغرافية من التشوّهات العلمية والمنهجية، كما رأينا من قبل دورهم في إنقاذهما من بطش السلطة الكنيسية الغاشم.

وقد بدأت تلك المسيرة التصحيحية منذ عهد الخليفة «المأمون» (ت ٢١٨ هـ - ٨٣٣ م).

فقد أسدت الخريطة المأمونية التي أمر علماء عصره بتنفيذها، إلى الحضارة الغربية فضلاً عظيماً، رغم ضعف إمكانات المسلمين من حيث الأجهزة الجغرافية في ذلك العصر، وقام المسلمون بإدخال الكثير من التعديلات المهمة على خريطة بطليموس، وحسنوها وأضافوا إليها الكثير من التصحيحات الجوهرية.

وقد أقبل الغرب على عطاء الجغرافيين المسلمين بشغف واهتمام بالغين؛ فلم يكن الأوروبيون حتى بداية القرن الخامس عشر يرجعون إلا إلى الجغرافيا الإسلامية كما يقرر «كراتشكونفسكي».. وقد ظلت الكارتوغرافيا الأوروبية «علم الخرائط» تعتمد على خريطة الإدريسي

(١) «حضارة الإسلام» (ص ٣٩٠ - ٣٩٣).

حتى قبيل القرن الخامس عشر الميلادي^(١):

وإجمالاً، فإنه منذ وقت الإدريسي ١١٥٠ م إلى حوالي ١٤٥٠ م استمدَّت الجغرافيا الأوروبية رأساً من الجغرافيا الإسلامية.. إلا أن تحولاً عنصرياً أصاب الفكر الأوروبي فيما بين (١٤٥٠ م) إلى (١٥٥٠ م)، فنهضت حملة ضد المسلمين لا أساس لها من العلم، وأسفرت عن تحول الجغرافيين الأوروبيين إلى جغرافيا «بطليموس»!! ولما كان استمرار هذا الأمر غير منطقي فقد اضطرَّ العلماء ثانيةً إلى هجر بطليموس^(٢).

والحق أنَّ إسهامات المسلمين في الجغرافيا محيط واسع، ربما بقدر سعة الآماد المذهلة التي بلغتها رحلات علمائهم الاستكشافية بِرًّا وبحراً.

علوهمة الرُّواد المسلمين في الكشف الجغرافية:

لم تكن النهضة الجغرافية الإسلامية لظهور لولا جهود مضنية -بعد توفيق الله وجلَّ- قام بها العديد من العلماء الأفذاذ الذين مرَّ بنا نبأ بعضهم في صفحات سابقة.

ولم تكن جهود أولئك العلماء حبيسة الجدران، ولا أسمية خيالات أو موروثات بالية.. بل كان السير في الأرض والضرب في مناكبها طولاً وعرضًا، والنظر عن قرب إلى طبائعها في شتى البقاع، وملامح الحياة المتباينة فوق كل شبر منها، كان كل ذلك هو الطابع المميز للدراسات الجغرافية عند المسلمين.

(١) «حضارة الإسلام» بخلال مظهر (ص ٤٠٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٤١٢، ٤١١).

استكشاف القارات:

١- في آسيا:

وقد اكتشف المسلمون عن طريق أساطيلهم التجارية التي كانت تبحر من ميناء عدن إلى ميناء كانوا يرون بالصين أن بحر الصين يتصل بالخليط الهندي، كما اكتشفوا بحيرة «آرال» شمالي شرق قزوفين، فوضعوا لأول مرة على الخرائط المأمونية في عهد المأمون باسم «بحيرة خوارزم»، وقد زار «البيروني» (ت ٤٠٤ هـ - ٩٤٨ م) سibiria الشرقيّة، وكان أول من سمى نهر أنجارات «الواقع شمال غرب بحيرة بيكل شرقى سibiria»، كما أنه عاش في الهند قرابة عشرين عاماً؛ فأبدع في وصفها بما لم يسبقها إليه أحد، وذلك في كتابه «ما للهند من مقوله»^(١).

٢- في أوروبا:

لقد عرف المسلمون أوروبا رغم تخلفها وتخلفها الحضاري في ذلك الوقت؛ ففي عام (٣٠٨ هـ - ٩٢١ م) ذهب «ابن فضلان» رسولًا من قبل الخليفة العباسي «المقتدر» إلى بلاد البلغار في الفوججا «تطلق عند العرب على بلاد الصقالبة الروس وعلى عاصمتهم التي تقع شرقى نهر الفوججا» كما وصف البيروني بلاد «الفرنج» وهم النرويج والإسكندنافيون، ووصف «بحر الثلج» وهو القطب الشمالي كما عرف المسلمون «بلاد الغال» وهي فرنسا^(٢).

وقد عُثر حديثاً على عملاً إسلاميًّا في كل من روسيا وإسكندنافيَا

(١) «الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي» لنفيسيس أحمد ترجمة فتحى عثمان (ص ٤٤).

(٢) المصدر السابق.



تعود إلى العصر العباسي !!

٣- في أفريقيا :

توقفت معلومات الإغريق والرومان في أفريقيا على البلاد الساحلية وحدها، أما قلب القارة السوداء فقد بقي غامضاً أمام العالم حتى وصله المسلمون كتجار أو رحاله أو سفراء، فاستكشفوا القارة الغامضة، ونشروا الإسلام في السودان والسنغال والنيجر وغيرها، وكانوا أول من اكتشف مدغشقر، وقد وصلت مراكبهم من الأندلس والجزائر إلى الصومال وزنجبار وموزمبيق وجزائر الكومور.

وما يُعد من إنجازات المسلمين السابقة أنهم أول من اكتشف منابع نهر النيل العظيمة قبل أن تصل إليها حملات الاستكشاف البريطانية بعدة قرون؛ فقد ذكر الرحالة البريطاني «ستانلي» أنه في رحلاته لاكتشاف منابع النيل قد وجد التجار العرب قد سبقوه، وأن القبائل الأفريقية تدين بالإسلام !!

الاكتشافات البحرية :

يعتبر اكتشاف «كريستوفر كولومبوس» لأمريكا عام ١٤٩٢م، واكتشاف «فاسكو دي جاما» لطريق الهند البحري عام ١٤٩٧م من أكثر الكشف الجغرافية تأثيراً في مجرى التاريخ الإنساني، وبالرغم من مرور ما يزيد على خمسين عام على هذين الكشفين إلا أن الجدل لم يُحسم بعد حول أسبقيتها.

فهل كان «كريستوفر كولومبوس» ذلك البحار الإيطالي هو أول مكتشف للسواحل الأمريكية بالفعل ؟؟

وما السرُّ وراء انطلاق رحلته من إسبانيا التي كانت قد فرغت للتو من القضاء على الوجود الإسلامي في أراضيها؟

ألم يستفند «كولومبوس» ومن معه من آلاف الوثائق العلمية والخرائط الإسلامية التي وضع الإسبان أيديهم عليها من ميراث الحضارة الإسلامية الطويل؛ فأحرقوا بعضها، واستولوا على البعض الآخر مما لم يظهر بعد ذلك إلا حديثاً في مكتبة إسکوريال في مدريد...؟؟؟

وماحقيقة الأهداف التي حررت الكشوف البحرية الأوروبية على نحو كثيف ومتزامن..!!؟

إننا في السطور القادمة سنحاول -بإذن الله- إلقاء الضوء على حقيقة هذا الأمر.

فمنذ أعلن المسلمون كروية الأرض، وأثبتوا ذلك بالبراهين الفلكية والحسابية بدأت الإشارات تظهر في كتبهم إلى أنه لا بد من وجود جزر معصورة في الوجه الآخر من الكره الأرضية لم تكتشف بعد، وقد بُنيَت هذه النظرية على أنه ليس من المعقول أن يكون أحد سطح الكره يابسة بالكامل بينما يغطي الماء الجانب الآخر؛ لأنَّ هذا سيؤدي إلى اختلال توازن الأرض وانتظام دورانها^(١).

وقد كان «البيروني» أول من أشار إلى هذه الحقيقة ويشرِّر بها في كتبه، وبناءً على هذه النظرية ابتدأت مغامرات الكشف الجغرافي التي جاء ذكرها في خطوطات كبار الجغرافيين المسلمين، ومنهم «المسعودي» في كتابه «مروج الذهب» و«الإدرسي» في كتابه «نزهة المشتاق..» وغيرهما.

(١) «حضارة الإسلام» (ص ٣٩٦، ٣٩٧).

□ وأول إشارة في ذلك تقول: إن بحاراً عربياً أندلسيّاً اسمه «خشخاش البحري» أبحر بسفينته من «الشبونة» إلى الغرب في بحر الظلمات «المحيط الأطلطي» (سنة ٢٣٥ هـ تقريرياً - ٨٥٠ م)، وقد اكتشف في هذا البحر جزيرة مأهولة بالسكان أحضر منها المدّايا إلى حاكم الأندلس «عبد الرحمن الثاني» الذي كافأه بتعيينه أميراً للبحرية الإسلامية، وقد استُشهد هذا الرجل في معركة بحرية مع قرصان «الفايكنج»^(١).

□ ثم يتلو ذلك قصة «الفتية المغرّرين» الذين تحدّث عنهم المسعودي والإدريسي، وتقول هذه القصة: إن ثانية من الشباب العرب في مدينة شبونة من عائلة واحدة من البحارة، قرروا المغامرة «في بحر الظلمات» بحثاً عن تلك الجزر التي هلك من سبقوهم دون خبر عنها، وأن أهل المدينة أطلقوا عليهم لقب «الفتية المغرّرين» نسبة إلى «الغرّة» أي «المقدمة» فمن ذلك ما ذكره المسعودي في كتابه «مروج الذهب» عن أخبار «من خاطر نفسه في ركوبه -أي المحيط الأطلسي- ومن نجا منهم ومن تلف، وما شاهدوا منه وما رأوا»^(٢).

وعندما يورد «الإدريسي» هذه القصة يذكر أن هؤلاء الفتية الثانية عندما عادوا إلى الأندلس احتفوا بهم أهل شبونة، واستقبلوهم بالزيارات والأفراح، وأطلقوا على الشارع الذي يسكنون فيه اسم «شارع الفتية المغرّرين»، كان ذلك في أواخر القرن العاشر الميلادي، ثم ظل هذا الاسم

(١) «مروج الذهب» للمسعودي (٤٥ / ١).

(٢) «مروج الذهب» للمسعودي (٤٥ / ١).

معروفاً بعد ذلك في لشبونة لمئات من السنين^(١).

□ كانت هذه صورة موجزة لما أورده جغرافيو الأندلس عن سبق العرب لاكتشاف أمريكا، يقصدها ما ذكره العالم المؤرخ اللغوي «الأب إنسناس الكرملي» من أن العرب قد وصلوا أمريكا من لشبونة قبل «كولومبوس» بفضل معرفتهم لتيار الخليج الحار في الأطلسي، فيقول: «سبق العرب سائر الأمم إلى معرفة هذا التيار وخواصه، وإلى حركته من المكسيك إلى إيرلندا وبالعكس..»^(٢).

□ على أن هناك إشارة تظهر في أقوال «كولومبوس» نفسه؛ حيث يذكر أنه كان يعتقد أول الأمر أن الهندوں الحمر الذين رأهم في تلك الجزر لا بد أن يكونوا من سلالة العرب «الذين سبقوه..» كما قرأ في المخطوطات العربية، وقد قامت «الجمعية الجغرافية البريطانية» بإنتاج مسلسل تليفزيوني وثائقي بعنوان «المكتشفون» وفيه حلقة مستقلة عن «كولومبوس» واكتشافاته، وهي تبين أنه قد اختار أحد رجاله الذين يعرفون اللغة العربية - لأنه من أصل عربي - وبعث معه برسالة إلى ملك الهندوں الحمر كُتِبَتْ باللغة العربية يقول فيها: «يا صاحب الجلالـة.. إن الملكة «إيزابيلا» ملكة إسبانيا وقشتالة تهديك السلام، وتطمع أن يكون بينها وبين بلادك علاقات صداقة.. إلخ»^(٣).

(١) المصدر السابق.

(٢) «أعرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها الغرب»، تُشير هذا البحث في مجلة المقططف عدد

(١٠٦) للأب إنسناس الكرملي، وأشار إليه العقاد في كتابه «أثر العرب في الحضارة» (ص ٤٧).

(٣) «تاريخ أوروبا الحديث» لزينب عصمت راشد (ص ٤٧) - دار الفكر العربي.

إلا أن أكثر تلك الإشارات إبهاراً وإثارة للدهشة هي تلك الخريطة التي اكتشفها المستشرق الألماني «كال Kahle» في مكتبة «طوب كابي سرائي» بإسطنبول، ونشرها على العالم سنة ١٩٢٩م بعد تحقيق علمي دولي استمر عدّة سنوات.

فقد حيرت هذه الخريطة العلماء وأذهلت العالم، وهي من تأليف جغرافي تركي مسلم هو «بيري ريس» واسمها الكامل «محبي الدين بن محمد الرئيس» (ت ١٥١٣م)، وكان أحد قادة البحريّة في الأسطول التركي الذي كان سيد البحار في تلك الأونة، وهذه الخريطة تنقسم في الواقع إلى عدّة خرائط مفردة؛ فهي تبيّن شرق المحيط الأطلسي حيث السواحل الإسبانية والأفريقية الغربية، أما في غرب المحيط فأنت ترى القارة الأمريكية بسواحلها وجزرها وموانئها وحيواناتها فضلاً عن سكانها الأصليين «الهنود الحمر» الذين يرسمهم عراةً وهو يرعون الغنم.

ويذكر المستشرق «كراتشوفسكي» في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» تعليقاً لهذه الخريطة أن لا بد أن يكون «الرئيس» قد بناها على أساس خرائط «كولومبوس» التي ربما تكون قد سقطت في يده عندما انتصر الأسطول التركي على أسطول البندقية سنة ١٤٩٩م، وأسرَ بعض سفنه^(١).

إلا أن هذا الرأي يلقى معارضة من كثير من الباحثين؛ لأن الخريطة بها تفاصيل لأماكن لم يعرّفها «كولومبوس»، ولم يكن اكتشفها، ولكن هؤلاء الباحثين لم يقدموا تعليماً بديلاً يكشف سرّ هذه الخريطة الغامضة.

(١) «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» لكراتشوفسكي (٢/٥٦٢) - النسخة العربية.

اكتشاف القارة السادسة في القطب الجنوبي!! وخرائط بيري ريس:

إن أعجب ما في خرائط «بيري ريس» أنها عادت لتشغل العلماء بعد عصر رحلات الفضاء وتصوير الأرض من الأقمار الصناعية؛ فقد كان الاعتقاد الأول لدى علماء الخرائط في أمريكا وأوروبا في القرن العشرين أن الخرائط غير دقيقة، وأن بها أخطاءً في الرسم حسب أحدث معلوماتهم عن الشاطئ الأمريكي، ولكنهم فوجئوا بعد ظهور أول صورة مأخوذة من القمر الصناعي لهذه المناطق أن خرائط «محبي الدين الرئيس» أدق من كل ما عرفوه وتتصوروه!!، وأنها تطابق تماماً صور القمر الصناعي، وأن معلوماتهم هي التي كانت خاطئة.

وعلى أثر ذلك عكف فريق من العلماء في وكالة الفضاء الأمريكية على إعادة دراسة الخرائط مقطعاً بعد تكبيرها عدة مرات، فكانت المفاجأة الثانية، وهي أن «بيري ريس» قد وضع في خرائطه القارة السادسة في القطب الجنوبي والمسماة Antarctica قبل اكتشافها بأكثر من قرنين!!، كما أنه وصف جبالها ووديانها التي لم تكتشف حتى سنة ١٩٥٢ م!!^(١).

□ يحكي الكاتب «إريك فون دانيكين» في كتابه «Chariots of the gods»^(٢) أن خرائط «بيري ريس» سُلمت إلى الدكتور «ماليري آرلنجلتون» أستاذ الخرائط الجغرافية في الجامعات الأمريكية الذي قرر بعد فحص دقيق أنها تحتوي على كل الحقائق الجغرافية حول أمريكا.. ولكنه

(١) «عربات الآلهة» لإريك فون دانيكين (ص ٢٩).

(٢) اسم الكتاب: عربات الآلهة، وهو يتحدث عن سفن الفضاء، ولا نقر هذا الاسم ونعرض عليه.

شك في وجود خطأ أو عدم دقة في بعض الأماكن، فطلب الاستعانة بجغرافيي الأسطول الأمريكي الذين أظهروا دراساتهم أن خرائط «بيري ريس» قد نقلت الطبوغرافيا الداخلية للقارات «أي: التضاريس» بدقة مذهلة؛ فظهر فيها الجبال والأنهار والسهول وكأنها أخذت من الفضاء الخارجي!!

وفي سنة ١٩٥٧م عكف فريق من علماء الجغرافيا بالمراصد الكبرى والبحرية الأمريكية على مزيد من دراسة خرائط «الريس»، وبعد دراسات على أجهزة متقدمة وجدوا أن صورة عن القارة السادسة Antarctica على درجة بدقة مذهبة، حتى بالنسبة للمناطق التي لم يُستكمل اكتشافها في عصرنا الحاضر !! فالجبال على قارة القطب الجنوبي لم تُكتشف حتى عام ١٩٥٢م، فهي دائمًا مغطاة بطبقة سميكة من الثلوج بحيث إن اكتشاف وجودها على الخرائط الحديثة كان باستعمال أجهزة صدى الصوت Echo-Sounding apparatus.

والجدير بالذكر هنا أيضًا هو اهتمام وكالة الفضاء الأمريكية بمواصلة دراسة هذه الخرائط، حيث اتضح أنها تشبه تمامًا الصور المأخوذة للكرة الأرضية من مركبة فضائية أثناء مرورها فوق منطقة القارة القطبية الجنوبية، وهي صورة تغطي مسافة «خمسة آلاف ميل» فوجدوا تشابهًا مذهلاً بين صور القمر الصناعي وبين خريطة «بيري ريس»^{(١)(٢)ـاهـ}.

(١) «عربات الآلهة» (ص ٢٩).

(٢) هذا البحث مأخوذ برمته من كتاب «العلم وبناء الأمم» (ص ١٤١ - ١٥٩) ملخصًا ومضاف إليه من كتاب «الحضارة الإسلامية» للأستاذ عبد الرحمن جبنكة.

رُوَادُ وعلماء جغرافيون عَلَّتْ همهمهم وسبقو عصرهم:

إن عباقرة المسلمين في علم الجغرافيا كثيرون عدداً، غزيرون إنتاجاً، واسعون سَبْقاً وريادة.

وسنذكر هنا بعض الموسوعين المسلمين في الجغرافيين الذين سبقو عصرهم وسبقوا العالم بعلمهم.

١- الإصطخرى (الكرخي) ت٥٤٦هـ:

أبو إسحاق بن محمد الفارسي الإصطخرى ويُقال له: «الكرخي».

ولد بمدينة إصطخر بإيران وهو أحد أبرز عباقرة الجغرافيا المسلمين، عاش في القرن الرابع الهجري -العاشر الميلادي، وهو جغرافي رَحَالة، طاف ببلاد المسلمين، وجمع معلومات جغرافية دقيقة وواافية.

وقد ألف كتابه «المسالك والممالك» فيما بين ستي (٣١٨-٣٢١هـ) وهو أول من رسم خريطة لعالم الأمة الإسلامية، على مذهب أهل الرحلة والمشاهدة الشخصية، وكل المسالكين المسلمين الذين جاؤوا بعده تأثروا به، ونقلوا من خرائطه، وهو أول خرائطي مُسلم رسم خرائط الأقاليم التي كتب عنها، دون أن يتأثر باليونانيين في مذاهبهم الفلكية.

وقد قسّم أقاليم العالم الإسلامي في عصره إلى عشرين إقليدياً، واحتضن كل إقليم منها بخريطة.

□ وكتابه «المسالك والممالك» أشهر مؤلفاته، وقد نجح فيه منهجاً علمياً يدل على قدرته الفائقة في تصور شكل الأرض؛ فلم يتجاهل الناحية الفلكلورية أو الاقتصادية أو الإثنوغرافية!! «الإثنوغرافيا هو علم في وصف السلالات البشرية وعادات وأخلاق الشعوب»، والحق أن هذه

الطريقة التي سار عليها «الإصطخري» هي ذات الطريقة التي ينتهجها العلماء المعاصرون في مثل هذا النوع من الدراسات؛ وهو ألا تقتصر الدراسات الجغرافية على الجوانب الطبيعية فقط، دون التفات إلى الأبعاد الاقتصادية والثقافية والسلالية وغيرها مما يخص البشر الذين يحيون في هذه البقعة من الأرض.

كما يُحسب للإصطخري رحمه الله أنه رَكَّزَ على المدلول الجغرافي والسياسي والإداري، وتجنب النظريات التقليدية التي تُنصُّ على تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم، وأخذ كل إقليم بذاته كوحدة جغرافية مستقلة.

لقد فهم «الإصطخري» منهج علماء المسلمين في مجال علم الجغرافيا فهماً جيداً مُحكماً، وطبقه في مؤلفاته بدقة واستنباط ذكي؛ وبهذا عَرَفَ أصول المنهج العلمي التجريبي القائم على القياس والاستقراء، والمستند على المشاهدة والتجربة والتمثيل.

وإضافة إلى كل هذا فقد اشتهر أبو إسحاق الإصطخري بالإنصاف من سبقوه من علماء الجغرافيا، كما اتصف بالصدق والأمانة العلمية وتقوى الله، وهي صفات - كما ترى - نحن في أَمْسَ الحاجة إليها في ميادين العلوم التجريبية وغيرها، وهي الصفات التي - كما رأينا من قبل كثيراً - كانت تميّز البحث العلمي في عصور الحضارة الإسلامية، ولم تكن ثمار تلك الصفات مقصورة على الأمة الإسلامية، بل أفادت منها الإنسانية جماء.

أما عن مؤلفات «الإصطخري» فإنه لم يكن صاحب مؤلفات كثيرة، وكل ما وصلنا من أعماله كتابان، هما: «صور الأقاليم»، والثاني: «المسالك

والملك»، ولعل تأثر «الإصطخري» واضح بعالم الجغرافيا السابق عليه ابن خرداذبة» الذي ألف كتاباً بنفس العنوان «المسالك والملك».

كذلك اعتمد على كتاب «البلخي» «تقويم البلدان»؛ فهائل «الإصطخري» كتاب البلخي في مخطوطه، ولكن بتوسيع ومراجعة وتصحيح لكثير مما جاء فيه، وهذا المؤلفان للإصطخري يعدان من المراجع الأهمات في علم الجغرافيا بالأسಚن.

وقد كان اعتماده الأكبر في تصنيف مؤلفيه السابقين على رحلاته العديدة في طلب العلم في شتي الآفاق الإسلامية؛ فجاء وصف تلك البلدان بإطناب، إضافة إلى تزيينه كتابه الأول «صور الأقاليم» بالخرائط والأشكال التوضيحية^(١).

أما مؤلفه الأشهر «المسالك والملك» فقد ظل في معظم مكتبات العالم كمخطوط حتى جاءت سنة (١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م) وطبعه المستشرق «دي خويه» في ليدن بهولندا، وقد أعيد طبعه بالصور سنة (١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م)، وقام بتحقيقه محمد جابر عبد العال الحسيني سنة (١٣٨١هـ - ١٩٦١م) ونشرته وزارة الثقافة المصرية بالقاهرة آنذاك؛ ولعل ذلك كان السبب في انتشار الكتاب وتداؤله من قبل القراء في جميع أنحاء المعمورة، ومنه عرفت مكانة الإصطخري في ميدان علم الجغرافيا الإقليمية^(٢).

والحقيقة أن إنجازات الإصطخري في علم الجغرافيا كانت أكبر بكثير

(١) «رُوَادُ عِلْمِ الْجُغْرَافِيَا فِي الْحُضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ» لِعَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الدَّفَاعِ (ص ١٠٥، ١٠٤).

(٢) «تطوُّر الفكر العلمي عند المسلمين» لِمُحَمَّدِ الصَّادِقِ عَفِيفِي (ص ٢٧٦، ٢٧٧).

من أن ينظر إليها على أساس مؤلفاته، فالإصطخري يعد من أوائل العلماء الذين جعوا بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا السكانية في كتبهم، وإذا كان قد اقتصر في مؤلفيه على وصف العالم الإسلامي، فقد قسمه إلى عشرين إقليماً، وكان يتحدث عن الإقليم لا بوصفه نطاقاً يضم عدداً من درجات خطوط العرض، ولكن بوصفه منطقة جغرافية واسعة، لها خصائصها الطبيعية والسكانية والثقافية والاقتصادية التي تميزها، وقد أولى «الإصطخري» عناية خاصة لموضوع المد والجزر؛ فله نظريات جزئية في هذا المضمار؛ مما يدل على طول باعه في علم الأنواء، والمعروف بين العلماء في الماضي أن علم الأنواء جزء لا يتجزأ من علم الجغرافيا.

ولا ننسى في حديثنا عن إنجازات «الإصطخري» أنه حاول بكل ما يملك أن يصحح الأخطاء الجغرافية التي وقع فيها علماء الجغرافيا السابقون له، واتخذ من الخرائط التي زخرت بها مؤلفاته وسيلة لشرح وإبراز الأفكار الجغرافية التصحيحية، ومن أبرز تلك الخرائط «خريطة بحر قزوين» التي شهد المستشرقون بدقتها، كما ركز على طريقة المقارنة بين المدن^(١).

إلى غير ذلك من الإنجازات المبدعة التي تحملك على الاعتقاد بأنك أمام سيرة وإنجازات لعالمٍ من القرن العشرين الميلادي «الخامس عشر الهجري»، إلا أنه كان يعيش بين علماء القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي !!.

(١) «رواد علم الجغرافيا» للدفاع (ص ٤٠).

٢- البَلْخِيُّ :

وهو «أبو زيد أحمد بن سهل البَلْخِيُّ» (٢٣٥ - ٣٢٢ هـ) أحد الكبار الأفذاذ من علماء المسلمين، جمع بين الشريعة والفلسفة والأدب والفنون، ولد في إحدى قرى «بلخ» وساح سياحة طويلة، ويعتبر المؤسس الحقيقي لمدرسة المسالكين المسلمين، وله مؤلفات كثيرة.

وضع كتاباً يسمى «صور الأقاليم» ويسمى أيضاً «أشكال البلاد» أو «تقويم البلدان» ويُظَنَّ أنَّ هذا الكتاب أول ما أَلَّفَ المسلمون في الجغرافية الوصفية المسالكية، وقد رسم خرائط الأقاليم الإسلامية بالألوان على قدر ما تيسَّر له، وقد قيل: إنَّ كتاب «الإصطخرى» نَقْلٌ عن كتاب «البَلْخِيُّ».

٣- الجيهانيُّ :

وهو «أبو عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجيهاني المتوفى سنة ٣٧٥ هـ».

استوزره أمير خراسان «إسماعيل الساماني». ألف الجيهاني كتاب «المسالك في معرفة الملك» اعتمد فيه على الإصطخرى وخرائطه، وأضاف إلى ذلك معلومات قيمة عن بلاد الهند والسندي وإيران والصين وآسيا، وهذا الكتاب مفقود إلَّا أنَّ الجغرافيين نقلوا عنه، ومنهم الإدريسي.

وقد وصلَتْ إلينا خريطة العالم كما تصورها، وهي أول خريطة للأرض لم تتأثر بآراء اليونان، وإنَّما قامت على أساس البلدان والمسالك.

٤- ابن حوقل:

وهو «أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي البغدادي الموصلي، توفي بعد سنة ٣٦٧هـ».

هو ثالث المسالكين العرب الكبار بعد «البلخي» و«الإصطخري» رحالة جغرافي اعتمد في كتابة جغرافيته ورسم خرائطها على رحلاته ومشاهداته، وكتابات ابن خرداذبة والإصطخري، له كتاب: «المسالك والممالك».

وقد وصل إلينا نص كتاب «صورة الأرض» لابن حوقل، وخرائطه كلُّها، كما يقول «د. حسين مؤنس».

٥- المسعودي:

سبقت ترجمته في المؤرخين برقم (١١)، هو رجل موسوعي، وعلم من أعلام الجغرافيين المسلمين، وخرائطه التي ذكر أنه رسماها البعض الأقاليم مفقودة، لكن ذكرها الجغرافيون الذين جاؤوا بعده ونقلوا عنها، وهو يُعدُّ من أعلام مدرسة المسالكين الخرائطيين المسلمين.

وقد وصلت إلينا خريطته للعالم، وهي تُعدُّ من أدق الخرائط العربية الإسلامية، يقول «د. حسين مؤنس»: ومنها نرى أنَّ المسعودي من أعظم الخرائطيين العرب، وأحسَّنهم تصوِّراً لصورة الأرض.

٦- المقدسي:

وهو «شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي، ويقال له: البشاري ٣٣٦-٣٨٠هـ».

رحالة جغرافي، ولد في القدس، طاف أكثر بلاد المسلمين، وصنف

كتابه «أحسن التقسيم في معرفة الأقاليم» وهو مطبوع، قد أثني بعض المستشرقين المختصين في الجغرافية على المقدسي، إذ امتاز بكثرة ملاحظاته وسعة نظره وحسن ترتيبه.

ومن الخرائط التي عُثر عليها للمقدسي خريطة تتضمن الحقيقة الكبرى التي اطلع عليها «كولومبوس» وكانت أساساً للكشف الكولومبي لأمريكا، الذي غير وجه التاريخ، وهذا تُعدُّ ذروة علم الخرائط الإسلامية قبل الإدريسي.

العالم الفلكي المسلم ثابت بن قرّة بن عرفان الحراني (٥٢١ - ٥٢٨) (٩٠١ - ٨٣٦) :

اشتهر بعلوم مختلفة: رياضيات، وطب، وفلك، وفلسفة.

وكان يجيد عدّة لغات أهمها السريانية، واليونانية، والعبرية بالإضافة إلى العربية، وإليه وإلى تلاميذه يعود الفضل في ترجمة معظم المؤلفات اليونانية في الفلك والرياضيات، لا سيما مؤلفات بطليموس وأرخميدس^(١).

□ وقد ترجم بطليموس «المجسطي»، وكتاب «جغرافية المعمورة»، وقد تعهد هذا العمل بعد ثابت ابن له وحفيدان وابن لأحد أحفاده، وبين كلٌّ منهم شهرة لنفسه في ذلك^(٢).

□ وعن ثابت يقول جورج سارتون في كتابه «المدخل في تاريخ العلوم»: «إن ثابت بن قرّة يُعدُّ من أعظم المترجمين وأعظم من عُرِفَ في

(١) «الفهرست» (ص ٢٦٧ - ٢٦٨).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٠٢).

مدرسة حرّان في العالم العربي، وقد ترجم كتبًا كثيرة من علوم الأقدمين في الرياضيات والمنطق والطب، وذلك بسبب مقدراته على إجاده مختلف اللغات الأجنبية.

□ وقال عنه الدكتور فرانسيس كرمودي في كتابه «أعمال ثابت بن قرّة الفلكيّة»: «إن ثابت بن قرّة طور وترجم معظم الإنتاج العلمي لإقليدس، وأرخميدس، وأبو لونيوس، وبطليموس، حتى صارت مؤلفاتهم كتبًا مدرسية معتمدة في جميع الدول الإسلامية.

ويتفق علماء الرياضيات في المشرق والمغرب أن ثابت بن قرّة مهّد تمهيداً علمياً لحساب التكامل والتفاضل.

□ وعنده قال ديفيد يوجين سمت في كتابه «تاريخ الرياضيات» المجلد الثاني: «.. من هؤلاء يجدر بنا أن نذكر العالم العربي ثابت بن قرّة، الذي أوجد «حجم الجسم المتولّد من دوران القطع المكافئ حول محوره».

وكان الخليفة المعتصم يحترم ثابت بن قرّة احتراماً شديداً، وقد كان ثابت بن قرّة بصحبته ذات مرّة في حدائقه تابعة لبيت الخليفة، فسأها الخليفة واتّكأ على يد ثابت فسحب الخليفة يده بشدّة وقدّم اعتذاره، وقال: يا أبا الحسن سهوت ووضعت يدي على كتفك، واستندت إليها، وليس هكذا يجب أن يكون؛ فإن العلماء يعلّون ولا يُعلّون»^(١).

٧- البَتَّاني:

وهو «أبو عبد الله محمد بن حابر بن سنان الحرّاني الرّقّي المعروف

(١) البَتَّاني الرّقّي لعلي شواخ إسحاق الشعيببي (ص ٤٧ - ٤٨) - طبع دار السلام.

بالبَّاتِنَى، ولد قبل سنة ٢٤٤ هـ وتوفي سنة ٣١٧ هـ».

فلكي مهندس، وهو صاحب كتاب «الزيج» المعروف بريج الصابي، مطبوع في ثلاثة أجزاء، ترجم إلى اللاتينية، وقيل: إنه أصح من زيج بطليموس^(١).

له مصنفات متعددة في الفلك، ولم يُعلَم أحدٌ في المسلمين بلغ مبلغ ابن حابر البَّاتِنَى في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها. وقال «لاند» الفلكي الفرنسي: «البَّاتِنَى أحد الفلكيين العشرين الأئمة الذين ظهروا في العالم كله»^(٢).

□ ويقول «د. حسين مؤنس» في كتابه «أطلس تاريخ الإسلام»: «وخرطيته للعالم التي نشرناها هنا تُعد أول خريطة جامعة مفصلة للعالم بعد خريطة بطليموس، وهي أصح من خريطة بطليموس، لأنَّه اتَّبع في رسماها طريقة التسطيح البسيط، وخطوط الطول والعرض فيها مستقيمة، أمَّا خريطة بطليموس فَعُملت على أساس التسطيح المخروطي.

قالوا عن البَّاتِنَى محمد بن جابر بن سنان:

□ قال المستشرق «نلينو»: «إن له رصوداً جليلة للكسوف والخسوف اعتمد عليها دنتون سنة ١٧٤٩ م في تحديد مسار القمر في حركته خلال قرن من الزمان.

□ وقال «لاند» الفلكي الفرنسي: «البَّاتِنَى أحد الفلكيين العشرين

(١) الزيج: كُلُّ كتاب يتضمن جداول فلكية يُعرف منها سير النجوم، ويُستخرج بواسطتها تقويم السنين.

(٢) «الأعلام» للزركلي (٦/٦٨).

الأئمة الذين ظهروا في العالم كله»^(١).

□ وقال «ديفيد يوجين سمت» في كتابه «تاريخ الرياضيات» الجزء الأول: «ونال البτاني شهرته العظيمة في تطويره لعلم الفلك، وترجمت مؤلفاته في هذا المجال من اللغة العربية إلى لغات أوروبية عديدة».

□ وأضاف «إيرك بل» في كتابه «تطورات الرياضيات»: «إن البτاني هو أول عالم أدخل علم الجبر على علم حساب المثلثات بدلاً من الهندسة كما كان في القديم».

□ ولا يبالغ البروفيسور الأمريكي «درك ستروك» عندما يقول في كتابه «ملخص تاريخ الرياضيات»: «إن البτاني أعظم عالم عربي في علم الفلك عبر التاريخ»، وكان الأجدر به أن يقول: «أعظم عالم فلكي عرفه التاريخ»^(٢).

□ قال الزركلي في «الأعلام»: «ولم يُعْلَم أحدٌ بلغ مبلغ ابن جابر في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها»^(٣).

□ وقال محمد مسعود: «هو أول من كشف السمت Azimuth والناظير Nadir اكتشف حركة أوج الشمس وانحرافه، والجيب الهندسي والأوتار وقد قاله تشمبلن في موسوعة العلوم الفلكية الإنجليزية»^(٤).

(١) «مجلة المقتطف المصرية» (١٨/١)، و«الأعلام» (٦/٦٨) - دار العلم للملائين.

(٢) «العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية» للدكتور علي عبد الله الدفافع (ص ٣٦٥).

(٣) «الأعلام» (٨/٦٨).

(٤) «البτاني» (ص ٧٣) لعلي شواخ.

□ وقال «قب» و«كريمر» الأولبيان في كتابهما «دائرة المعارف في الإسلام»: «إن البتاني عنده سرعة البداهة وباستطاعتنا أن نسميه «قاموس كليات المعرف عند المسلمين»، وله كتاب «الزيج الصابئ» وهو أعظم ما قام به وبلغداوله منزلة عالية عند علماء الفلك في هذا العصر ولا يستغنو عنها عند البحث في تاريخ بعض الكواكب و مواقعها وحركاتها^(١).

وقالوا عن كتابه: إن، أصح من زيج بطليموس.

- الإدريسي:

وهو الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي الحسني الطالبي (٤٩٣ - ٥٦٠ هـ).

من أكابر العلماء بالجغرافية، وهو من أدراسة المغرب الأقصى، ولد في سبطة، ونشأ وتعلم بقرطبة، ورحل رحلة طويلة انتهى بها إلى صقلية، فنزل على صاحبها «روجار الثاني» ووضع له كتاباً سماه «نזהه المشتاق في اختراق الآفاق - مخطوط» وهو أصح كتاب ألفه العرب في وصف بلاد أوروبا وإيطالية.

وله كتاب «روض الأننس ونזהه النفس» ويُعرف بالمالك والمسالك، وكان له ولع بعلم الجغرافية، وكان بفطرته ذا عقلية علمية ممتازة.

□ يقول «د. حسين مؤنس» في «أطلسه»: «والكرة التي صنعها للأرض بناء على طلب «روجار الثاني» التورمندي، ملك صقلية، تعتبر عملاً مبتكرًا في فن الخرائط من بدايته إلى يومنا هذا، فهي خريطة للأرض مجسمة، رسمها في أول الأمر على الورق، ثم جسمها في صورة كرة من

(١) «العلوم البحتة في العصور الإسلامية» لعمر رضا كحالة (ص ١٦٩).

الفضّة، ورسم عليها اليابس بالذهب، وبعد ذلك سطّحها تسطيحاً بسيطاً يشبه ما جرى عليه «مركاتور» في عمل مسقط خريطة الأرض المبوطة، وعمل كلّ الحسابات الرياضية التي يتطلّبها التحويل من الاستدارة إلى التسطيح.

أولئك آباءي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير الجامع

البيروني^(١) أعظم عقلية عرفها التاريخ (٣٦٢-٩٤٤هـ/١٠٤٨-٩٦٣م) :

□ عَرَفَهُ «جورج سارتون» في كتابه «مقدمة لدراسة تاريخ العلم» بقوله: «كان رحالة وفيلسوفاً، ورياضيًّا، وفلكيًّا، وجغرافيًّا، وعالماً موسوعيًّا، ومن أكبر علماء الإسلام، ومن أكبر علماء العالم»، ووصفه المستشرق الألماني سخاو بقوله: «أعظم عقلية عرفها التاريخ»^(٢).

إنه أبو الريحان أحمد بن محمد البيروني الخوارزمي، الذي ولد في بلدة بيرون، إحدى ضواحي مدينة «كاث» عاصمة الدولة الخوارزمية، سنة ٩٦٣هـ-٣٦٢م، والذي اطلع على فلسفة اليونانيين والهنود، وعلّت شهرته، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره^(٣).

كان مؤلفاته اليد الطولى في صناعة أمجاد عصر النهضة والثورة الصناعية في العالم الغربي؛ فقد حدد بدقة خطوط الطول وخطوط العرض، وناقش مسألة ما إذا كانت الأرض تدور حول محورها أم لا،

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص ٥٤٧-٥٥٠).

(٢) «نوایغ المسلمين» (٢/٦٤، ٥٣).

(٣) «الوافي بالوفيات» للصفدي (١/١٠٧٠)، و«الأعلام» للزرکلي (٥/٣١٤)، و«موسوعة العرب: أبو الريحان البيروني» (ص ٢٦).

وسبق في ذلك جاليليو وكوبيرنيكوس، إضافةً إلى اكتشافاتٍ أخرى عديدة.

وقد رحل البيروني إلى الهند وأقام فيها بضع سنين، نتج عنها كتابه «الطائر الصبيت»، المعروف بكتاب الهند، والمعروف بـ«كتاب البيروني» في تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة في العقل أو مرذولة» أودع فيها نتيجة دراساته من تاريخ وأخلاق وعادات وعقائد وأداب وعلوم الهند، ومن جملتها ما كان عندهم من المعرفة بصورة الأرض.

ويصف المستشرق «روزن» منذ أكثر من سبعين عاماً هذا الكتاب بأنه «أثر فريد في بابه، لا مثيل له في الأدب العلمي القديم أو الوسيط، سواء في الغرب أم في الشرق»^(١).

وغير كتابه السابق كان للبيروني أيضاً كتب أخرى كثيرة ومهمة في ضروب مختلفة من العلم؛ ففي الجغرافيا ألف: تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض، وتحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، أمّا في التاريخ؛ فله: تصحيح التواريخ، والأثار الباقية عن القرون الخالية، وفي الفلك كان له مؤلفات عديدة، مثل: الاستشهاد باختلاف الأرصاد، واختصار كتاب بطليموس القلودي، والزيج المسعودي، والاستيعاب للوجوه الممكنة في صنعة الإسطرلاب، وتعبير الميزان لتقدير الأزمان، وقانون المسعودي في الهيئة، وفي الرياضيات أثر عن البيروني مؤلفات عدّة؛ كاستخراج الكعب والأضلاع وما وراءه من مراتب الحساب، وكتاب الأرقام، ورغم اهتمامه بالعلم فإنه كان ذا باعٍ

(١) «أعلام الجغرافيين العرب» لعبد الرحمن حميد (ص ٣٤).

طويل في الأدب؛ لذا كتب شرح ديوان أبي تمام، وختار الأشعار والآثار، وفوق كل ذلك كان له مؤلفات عديدة في الفلسفة، مثل: كتاب المقالات والأراء والديانات، ومفتاح علم الهند، وجواجم الموجود في خواطر الهندود، وغير ذلك العشرات من المؤلفات الضخمة^(١).

وبهذه المؤلفات يكاد البيروني يكون قد أله في كل فروع المعرفة التي عهدها عصره؛ فقد كتب في الرياضيات والفلك والتنجيم والحكمة والأديان والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والأحياء والصيدلة.

أما في مجال الطبيعتيات فقد اهتم بالخواص الفيزيائية لكثير من المواد وتناولت أبحاثه علم ميكانيكا المواقع والاهيدرورستاتيكا، ولجأ في بحوثه إلى التجربة وجعلها محوراً لاستنتاجاته^(٢)، كما انضم مع ابن سينا إلى الذين شاركوا ابن الهيثم في رأيه القائل بأن الضوء يأتي من الجسم المرئي إلى العين^(٣).

ومن أبرز ما توصل إليه البيروني تحديده الثقل النوعي لـ ١٨ عنصراً ومركباً بعضها من الأحجار الكريمة، وقد أجرى تجارب لذلك، استعمل فيها وعاءً مصبه متوجه إلى أسفل، ومن وزن الجسم في الهواء تمكّن من معرفة مقدار الماء المزاح، ومن هذا الأخير وزن الجسم في الهواء حسب الوزن النوعي، وكانت حساباته دقيقة إلى حد كبير، وهي لا تختلف كثيراً

(١) «هدية العارفين» للباباني (١/٤٨٠) و«الوافي بالوفيات» للصفدي (١/٤٨٠).

(٢) «تطور الفكر العلمي عند المسلمين» (ص ١١٤، ١١٥).

(٣) «العلماء العرب وما أعطوه للحضارة» لقדרي طوقان (ص ١٦٣).

عن النتائج الحديثة^(١).

وفي ظاهرة الجاذبية كان البيروني مع ابن الحائث، من الرواد اللذين قالوا: بأن للأرض خاصية جذب الأجسام نحو مركزها، وقد تناول ذلك في آراء بَثَّها في كتب مختلفة، ولكن أشهر آرائه في ذلك ضمنها كتابه القانون المسعودي^(٢).

ومن المسائل الفيزيائية التي تناولها «البيروني» في كتاباته ظاهرة تأثير الحرارة في المعادن، وضغط السوائل وتوازنها، وتفسير بعض الظواهر المتعلقة بسريان المواقع، وظاهرة المد والجزر وسريان الضوء، فقد لاحظ أن المعادن تمدد عند تسخينها، وتنكمش إذا تعرضت للبرودة^(٣).

وأولى ملاحظاته في هذا الشأن كانت في تأثير تباين درجة الحرارة في دقة أجهزة الرصد، حيث تطرأ عليها تغيرات في الطول والقصر في قيظ النهار وصقيع آخر الليل، وتعرض في كتابه الآثار الباقيَة عن القرون الخالية لميكانيكا المواقع؛ فشرح الظواهر التي تقوم على ضغط السوائل واتزانها وتوازنها، وأوضح صعود مياه النافورات والعيون إلى أعلى مستنداً إلى خاصية سلوك السوائل في الأواني المستطرقة، كما شرع بجمع مياه الآبار بالرشح من الجوانب حيث يكون مصدرها من المياه القرية منها، وتكون سطوح ما يجتمع منها موازنة لتلك المياه، وبينَ كيف تفُور العيون وكيف يمكن أن تصعد مياهها إلى القلاع ورؤوس المنارات.

(١) «نوابغ المسلمين» لمصطفى وهبة (٦٣ / ٢) بتصرف.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

وتحدث عن ظاهرة المد والجزر في البحار والأنهار وعزاهما إلى التغير الدوري لوجه القمر^(١).

أما فيما يختص بسريان الضوء، فقد فطن إلى أن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت^(٢)، واتفق مع ابن الهيثم وابن سينا في قولهما بأن الرؤية تحدث بخروج الشعاع الضوئي من الجسم المرئي إلى العين وليس العكس^(٣)، كما يقرر أن القمر جسم معتم لا يضيء بذاته وإنما يضيء بانعكاس أشعة الشمس عليه، وكان البيروني يشرح كل ذلك بوضوح تام، ودقة متناهية في تعبيرات سهلة لا تعقيد فيها ولا التواء^(٤).

□ وفطن البيروني إلى أن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت، واتفق مع ابن الهيثم في أن الرؤية تحدث بخروج الشعاع الضوئي من الجسم المرئي إلى العين وليس العكس.

كما وضع البيروني قاعدة حسابية لتسطيح الكرة، أي نقل الخطوط والخرائط من الكرة إلى سطح مسطح وبالعكس، وبهذا سهل رسم الخرائط الجغرافية^(٥).

ويعتبر البيروني بعد أحد ألمع الوجوه التي يمكن أن تعتز بها الثقافة العربية من خلال تاريخ الفكر الإسلامي وأكثرها جاذبية، فعلى الرغم من أن اسم البيروني يحتل مكانته من الأدب العربي في ميدان الجغرافيا

(١) «العلماء العرب وما أعطوه للحضارة» (ص ١٧٦) بتصرف.

(٢) «تراث الإسلام» لحسن نافعة (٢/١٩٣).

(٣) «العلماء العرب وما أعطوه للحضارة» (ص ١٦٣).

(٤) انظر: «موقع الموسوعة العربية العالمية».

(٥) «أعلام الجغرافيين العرب» لعبد الرحمن حميدة (ص ٤٥٩).

والرحلات، إلّا أنه يتبيّن لنا من خلال المصنفات السابقة أنه لم يكن جغرافيًّا فحسب، بل كان رياضيًّا وفلكيًّا، وفيلسوفًا، وشاعرًا وأديبًا، وعالم اجتماع ومؤرخًا!!

نعم كان كُلَّ أولئك، وبرز في كل فروع المعرفة الإنسانية هذه، وبعبارة أخرى: كان مؤلِّفًا انتظم نشاطه كل دائرة العلوم المعاصرة له، والتي تختل بيتها العلوم الرياضية والفيزيائية مكانة الصدارة عنده^(١).

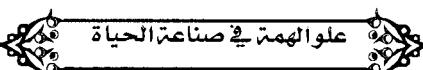
□ وفي رجب سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م توفي البيروني، وكانت وفاته ختام حياة حافلة لرجل حكيم وعظيم، وفي وفاته يحكي أبو الحسن علي بن عيسى – كما ذكرنا من قبل – فيقول: دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه، فقال لي: كيف قلتَ لي يومًا في حساب الجدّات الفاسدة؟ فقلت له إشفاقًا عليه: أفي هذه الحالة؟ قال: يا هذا، أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرًا من أن أخلّيها وأنا جاهل بها؟ فأعدتُ ذلك عليه وحفظ، وعلّمني ما وعد، وخرجت من عنده، وأنا في الطريق فسمعت الصراخ عليه!!^(٢).

الخوارزمي مؤسس علم الجبر:

أبو الجبر أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي .. تعود أصوله إلى خوارزم «أوزبكستان اليوم» وعاش في بغداد فيها بين سنة ١٦٤ وسنة ٢٣٥ هـ (٧٨٠ - ٨٥٠ م)، ولمع في علم الرياضيات والفلك في زمن خلافة المأمون الخليفة العباسي.

(١) المصدر السابق (ص ٣٤٢، ٣٤١).

(٢) «الوافي بالوفيات» (١/١٠٧٠).



□ قال عنه المستشرق «الدومني»: «إذا انتقلنا إلى الرياضيات والفلك فسنلتقي منذ البدء بعلماء من الطراز الأول، ومن أشهر هؤلاء العلماء أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي !!».

فاخوارزمي الرياضي والجغرافي والفلكي يُعدُّ من أكبر علماء المسلمين، ومن العلماء العالميين الذين كان لهم تأثير كبير على العلوم الرياضية والفلكلية، وهو مؤسس ومبتدع علم الجبر كعلم مستقلٌ عن الحساب، وقد أخذه الأوروبيون عنه، كما أنه أول من استعمل كلمة «جبر» للعلم المعروف الآن بهذا الاسم، فحتى الآن ما زال الجبر يعرف باسمه العربي في جميع اللغات الأوروبية، وترجع كل الكلمات التي تنتهي في اللغات الأوروبية بـ«algorithm(algorithme)» إلى اسم الخوارزمي، كما يرجع إليه الفضل في تعريف الناس بالأرقام العربية؛ وهذا كان الخوارزمي أهلاً لتسميته بأبي الجبر^(١).

وقد اشتغل المسلمون بالجبر واستعملوه حتى نبغوا فيه، بينما كان بمثابة الألغاز بالنسبة للأوروبيين؛ يقول الدكتور ديفيد يوجين سميث في كتابه «تاريخ الرياضيات» - المجلد الثاني: «إنَّ الجبر عُرِفَ في اللغة الإنجليزية في القرن السادس عشر الميلادي بالجبر والمقابلة، ولكنَّ هذا الاسم اختُصرَ في النهاية من مخطوطه محمد بن موسى الخوارزمي الذي نال الشهرة العظيمة عام ٨٢٥م، وذلك في بيت الحكم في بغداد حيث أَلْفَ هناك كتابه القيم «الجبر والمقابلة»، وفيه حلَّ الكثير من المعادلات

(١) «مسلمون علموا العالم» لمحمد علي عثمان (ص ٧٤، ٧٥)، و«عالم غيرُوا وجه العالم» لأكرم عبد الوهاب (ص ٢٠).

ذات الدرجة الأولى والثانية من ذات المجهول الواحد».

واعترف رام لاندو في كتابه «مآثر العرب في الحضارة» بأنَّ الخوارزمي «ابتكر علم الجبر، ونقل العدد من صفة البدائية الحسابية لكمية محدودة إلى عنصر ذي علاقة وحدود لا نهاية لها من الاحتمالات، ويمكننا القول بأن الخطوة من الحساب إلى الجبر هي في جوهرها الخطوة من الكينونة إلى الملائمة، أو من العالم الإغريقي الساكن إلى العالم الإسلامي المتحرك الأيدي الرباني»^(١).

وقد طور الخوارزمي علم الجبر كعلم مستقل عن الحساب؛ ولذا ينسب إليه هذا العلم في جميع المعمورة، فقد ابتكر الخوارزمي في بيت الحكمة الفكر الرياضي بإيجاد نظام لتحليل كل معادلات الدرجة الأولى والثانية ذات المجهول الواحد بطرق جبرية وهندسية^(٢).

□ ولذا فقد سُمِّي «جورج سارتون» في كتابه «مقدمة من تاريخ العلوم» النصف الأول من القرن التاسع بـ«عصر الخوارزمي»؛ وذلك لأنَّ الخوارزمي كان أعظم رياضيًّا في ذلك العصر على حد تعبير سارتون، ويستطرد «سارتون» فيقول: «وإذا أخذنا جميع الحالات بعين الاعتبار فإنَّ الخوارزمي أحد أعظم الرياضيين في كل العصور».

وإضافة إلى ذلك أكد الدكتور «أي وايدمان» أنَّ أعمال الخوارزمي

(١) «ابتكر علم الجبر» محمد بن موسى الخوارزمي مقالة لعلي بن عبد الله الدفاع-مجلة البحوث الإسلامية-الرياض-العدد الخامس ١٤٠٠ هـ (١٧٣ / ٥).

(٢) «تراث العلمي للحضارة الإسلامية في الشام والعراق خلال القرن الرابع المجري» (ص ٦٤٢، ٦٤٣).

تميّز بالأصالة والأهمية العظمى، وفيها تظهر عبريتة، كما قال الدكتور ديفيد يوجين سميث^(١) و«لويس شارلز كاريونسكي» في كتابهما «الأعداد الهندية والعربية»: «إنَّ الخوارزمي هو الأستاذ الكبير في عصر بغداد الذهبي؛ إذ إنه أحد الكُتاب المسلمين الأوائل الذين جعوا الرياضيات الكلاسيكية من الشرق والغرب، محتفظين بها حتى استفادت منها أوروبا المتيقظة آنذاك، إنَّ لهذا الرجل معرفة كبيرة، ويدين له العالم بمعرفتنا الحالية لعلمِ الجبر والحساب»^(١):

وقد وجد الخوارزمي متسعاً من الوقت لكتابة علم الجبر حينما كان
منهملًا في الأعمال الفلكية في بغداد، فقد أسس المأمون «بيت الحكمة»
وكان يحتوي على مكتبة تضمُّ نصوصاً مترجمة لأهم الكتب اللاتينية، ثم
يعين الخوارزمي رئيساً له، وعهد إليه بجمعية الكتب اليونانية وترجمتها،
الأمر الذي أفاد الخوارزمي كثيراً؛ حيث درس الرياضيات والجغرافيا،
والفلك، والتاريخ، إضافة إلى إحاطته بالمعارف اليونانية وال الهندية حتى
كان نوغه في حدود سنة ٢٠٥ هـ^(٢).

□ ولم يكتشف الخوارزمي علم الجبر ونظرية الخطأين «وهما أداة أساسية في التحليل العلمي الرياضي» فحسب، وإنما وضع كذلك أسس البحث التجربى الحديث باستخدام النماذج الرياضية، كما نشر أول

(١) «مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي» مقالة للدفاع- مجلة البحوث الإسلامية- (١٧٢/٥) وللدفاع أيضاً «العلوم البعثة في الحضارة العربية والإسلامية» (ص ١٤٩).

(٢) «الفهرست» لابن النديم (ص ٣٣٣)، و«العلوم البحتة» للدفاع (ص ١٤٨).

الجداؤل العربية عن المثلثات للجيوب والظلال، وقد تُرجمت إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر^(١).

إضافةً إلى إسهاماته الكبرى في الحساب، أبدع الخوارزمي أيضًا في علم الفلك، وأتى ببحوث جديدة في المثلثات، ووضع جدولًا فلكيًّا «زيمجاً»، وقد كان لهذا الزيج الأثر الكبير على الجداول الأخرى التي وضعها العرب فيما بعد، إذ استعنوا به واعتمدوا عليه وأخذوا منه، وكان من أهم إسهامات الخوارزمي العلمية التحسينات التي أدخلها على جغرافية بطليموس سواء بالنسبة للنص أو الخرائط^(٢).

مؤلفات الخوارزمي:

□ يقول محمد خان في كتابه «نظرة مختصرة للأثر المسلمين في العلوم والثقافة»: «إنَّ الخوارزمي يقف في الصف الأول من صفوف الرياضيين في جميع العصور، وكانت مؤلفاته هي المصدر الرئيسي للمعرفة الرياضية لعدة قرون في الشرق والغرب»^(٣).

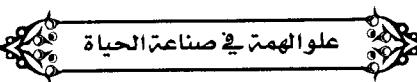
□ وقد اهتم الخوارزمي في بداية الأمر بالاكتشافات في علم الرياضيات والفلك، ثم بعدها بدأ التأليف فصنف كتابًا كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ - كتاب «الجبر والمقابلة»، وهو الكتاب الرئيسي ذو الأثر الحاسم، والذي درس فيه تحويل المعادلات وحلها، وقد ترجمه إلى اللاتينية

(١) «مبتكر علم الجبر للدفاع».

(٢) «١٠٠ عالم غيروا وجه العالم» لأكرم عبد الوهاب (ص ٢٠).

(٣) «مبتكر علم الجبر» - مجلة البحوث الإسلامية (٥/١٧٢)



«جيراردو دي كريمونا» ونشر النص العربي «روزن» مع ترجمة إنجليزية في لندن سنة ١٨٥١ م.

وترجم له أيضاً «يوحنا الإسباني» الذي ترجم من العربية إلى اللاتينية عدة مؤلفات في الفلك والنجوم، من بينها كتاب للخوارزمي، بفضلها انتقل الحساب الهندي والنظام العشري في الحساب إلى أوروبا؛ حتى عرفت العمليات الحسابية باسم Algaurismo. والغريب أنها ترجمت إلى العربية باسم «اللوغاریتمات» وهي في الأصل منسوبة إلى الخوارزمي !! والصحيح أن ترجم «الخوارزميات» أو «الجداول الخوارزمية».

وقد أصبح الكتاب مصدراً أساسياً في الرياضيات في الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر، وكان معظم ما ألفه من جاء بعده في علم الجبر مستندًا عليه، وقد نقله من اللغة العربية إلى اللاتينية «روبرت أوف شستر Robert of chester» فاستنارت به أوروبا.

وحدثياً حقق الدكتوران علي مصطفى مشرفه ومحمد مرسي هذا الكتاب، والمطبوع في سنة ١٩٦٨ م^(١).

- ٢ - كتاب في الجغرافيا شرح فيه آراء بطليموس.
- ٣ - كتاب جداول للنجوم وحركاتها من مجلدين.
- ٤ - كتاب شرح فيه طريقة معرفة الوقت بواسطة الشمس.
- ٥ - كتاب جمع فيه بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك، ويقول البروفيسور «جورج سارتون» في كتابه «المدخل إلى تاريخ العلوم» عن

(١) «مبتكر علم الجبر.. الخوارزمي» للدفاع - مجلة البحوث الإسلامية - (٥/١٨٧).

هذا الكتاب: «إنه يشتمل على خلاصة دراساته لا على ابتكاراته العظيمة».

- ٦ - كتاب «العمل بالإس特朗اب».
- ٧ - كتاب «صنع الإس特朗اب».
- ٨ - كتاب وضح فيه طريقة الجمع والطرح.
- ٩ - كتاب «صورة الأرض وجغرافيتها».
- ١٠ - كتاب صورة الأرض، نشر سنة ١٩٢٩ م.
- ١١ - كتاب «المعرفة»، وهو يبحث في علم النجوم.
- ١٢ - كتاب «زيج الخوارزمي الأول».
- ١٣ - كتاب «زيج الخوارزمي الثاني»، وهو جداول فلكية سمهاء «السندي هند»، جمع فيه بين مذهب الهند والفرس. وهو اختصار «المجسطي» لبطليموس وزاد عليه زيادات كثيرة، وكان هذا الكتاب أساساً لعلم الفلك عند الأوروبيين.
- ١٤ - رسالة عن النسبة التقريبية وقيمتها الرياضية.
- ١٥ - رسالة وضح فيها معنى الوحدة المستعملة في المساحات والحجوم.
- ١٦ - رسالة ذكر فيها برهانآ آخر لنظرية في شاغورس مستخدماً مثلثاً قائم الزاوية ومتتساوي الساقين.
- ١٧ - رسالة مفصلة وضح فيها قوانين لجمع المقادير الجبرية وطريقها وضريبتها وقسمتها.
- ١٨ - رسالة شرح فيها طريقة إجراء العمليات الحسابية الأربع على

الكميات الصُّنم.

- ١٩ - كتاب «رسم الربع المعمور».
- ٢٠ - كتاب «الجمع والتفريق».
- ٢١ - كتاب «الرُّخامة» «الرُّخامة قطعة من الرخام مخططة تساعد على معرفة الوقت عن طريق الشمس».
- ٢٢ - كتاب «هيئة الأرض».
- ٢٣ - كتاب «المعاملات»، ويتضمن المعاملات التي يقوم بها الناس من بيع وشراء ^(١).

لقد عاش الخوارزمي رحمه الله حيَا عمادُها العلم؛ بحثاً واكتشافاً وتأليفاً ابتغاء مرضاه اللَّه عَزَّلَهُ، وسعياً وراء راحة البشرية، ورقي الحضارة، وظلَ كذلك حتى وافته المَنِيَّة سنة ٢٣٥هـ / ٨٥٠م؛ فرحمه اللَّه رحْمَةً وسعةً، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ^(٢).

علم الفلك:

كان للMuslimين عناية فائقة بالفلك، وكان حكيم آل مروان الخليفة الأموي أبو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان «عالماً بالكيمياء والطب والنجوم، وألف فيها رسائل، واهتم بنقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي.

□ وكان للخلفاء العباسيين عناية بالعلوم الكونية، وبتوجيه طائفة

(١) «الفهرست» لابن النديم (ص ٣٣٣)، و«مبتكر علم الجبر» (٥/١٨٦، ١٨٧)، و«العلوم البحتة» للدفع (ص ١٧٣، ١٧٢).

(٢) «العلم وبناء الأمم» (ص ٥٢٨ - ٥٣٤).

منهم ترجمت إلى اللغة العربية كتب كثيرة، مما لدى الهند والإغريق من هذه العلوم، وكانت مدينة بغداد مركزاً مهماً لها في ظل الخلفاء العباسيين، وكان «أبو جعفر المنصور العباسي» وهو عبد الله بن محمد بن علي بن العباس ٩٥ - ١٥٨هـ ثالث خلفاء بني العباس، أول من عُنى بالعلوم الكونية والطبيعية من ملوك المسلمين، وهو باني مدينة بغداد، وفي أيامه شرع المسلمون يطلبون علوم اليونانيين والفرس، وعمل أول إصطلاح في الإسلام، صنعه «محمد بن إبراهيم الفزارى».

□ وامتدت دراسة العلوم الكونية والطبيعية في معظم مراكز العلم والمعرفة في العالم الإسلامي، حتى النائية منها، مثل صقلية والأندلس.

وألف المسلمون جداول «تسمى الأزياج» في حركات الكواكب.

وفي زمن «المأمون» ظهر علماء مسلمون كثيرون، ألهوا في علم الفلك، وعملوا أرصاداً وأزياجاً جليلة تقدم بها هذا العلم تقدماً ارتقائياً مثيراً للإعجاب، ولم يقفوا في علم الفلك عند حد النظريات، بل خرجوا إلى الرصد الفعلي والأعمال التجريبية.

والمسلمون قد ضبطوا حركة أوج الشمس، وتدخل فلكها في أفلاك أخرى.

وللمسلمين جداول دقيقة لبعض النجوم الثوابت.

□ ووجه المسلمون عنائهم لبناء الأرصاد الفلكية، فأقاموا بعضها في دمشق، وفي بغداد، وفي القاهرة، وفي غيرها من بلدان العالم الإسلامي.

واشتهرت الأعمال التي عملها الفلكيون المسلمين بالاستناد إلى هذه الأرصاد بالدقة، وقد اعتمد عليها علماء أوروبا في عصر النهضة وما بعدهُ

في بحوثهم الفلكية.

وابتكر المسلمون آلات مختلفات لأعمال الرصد، وقد اعترف الإفرنج بأن المسلمين قد أتقنوا صناعة هذه الآلات، على الرغم من أنها كانت صناعات يدوية.

المحدث الروداني السوسي صاحب «**جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد» وصاحب «**كرة التوقيت والهيئة**» :**

□ **الروداني**: هو «شمس الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الفاسي ابن طاهر الروداني السوسي المكي (١٠٣٧ - ١٠٩٤ هـ)» محدث مغربي مالكي، عالم بالفلك، رحال.

ولد في «تارودانت» وجال في المغرب الأقصى والأوسط، ودخل مصر والشام والستانة، واستوطن الحجاز، وكان له بمكة شأن.

له مصنفات منها «**جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد**-
ط» في الحديث، ومنها في الفلك «**تحفة أولي الألباب** في العمل بالإصرトラب-خ» وكتاب «**بهجة الطلاب في الأصطرلاب**».

ومن أشهر آثاره «**كرة**» في التوقيت والهيئة^(١)، وصفت بأنّها آلة في التوقيت والهيئة لم يُسبّق إلى مثّلها، وهي كُرة مستديرة الشكل، يحيط بها الناظر إليها بيضةً مسطّرة، كُلُّها دوائر ورسوم، وقد رُكِّبت عليها أُخرَى مُجَوَّفةً منقسمةً إلى تَصْفِين، فيها تخاريم وتجاوزيف لدوائر البروج وغيرها، مصبوغة باللون الأخضر، تغني عن كل آلة تستعمل في فنّ التوقيت

(١) علم الهيئة: هو علم الفلك، وهو علم يبحث عن أحوال الأجرام السماوية، وعلاقة بعضها ببعض، وما لها من تأثير على الأرض.

واهيئة، مع سهولة المدرك، وتصلح لكل البلاد على اختلاف أعراضها وأطواها^(١).

العلامة الرياضي «غياث الدين جمشيد الكاشي»:

هو مبتكر الكسور العشرية وواضع علامة الكسر العشري قبل «ستيفن» بأكثر من (١٧٥) سنة على ما ذكر «قدري طوقان» في كتابه تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك^(٢).

علم البصريات في الحضارة الإسلامية ورائداته الحسن بن الهيثم:

كان للحضارة الإسلامية إسهامات في علم البصريات ونسق فريد متتطور؛ وذلك نظراً لنبوغهم في العديد من العلوم المرتبطة بهذا العلم مثل الفلك والهندسة الميكانيكية وغيرها، إذ أنَّ ابتكاراتهم قد تداخل فيها هذه العلوم.

الفيلسوف أبو يوسف الكندي صاحب كتاب «علم المناظر»:

يعد أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الفيلسوف^(٣) من أوائل العلماء المسلمين الذين طرقوا ميدان علم الطبيعة، وتناولوا الظواهر الضوئية وعالجها في كتابه الشهير «علم المناظر»، وهو أول كتاب عربي يُعنى بعلم البصريات.

ولقد أضاف وصفاً دقيقاً لمبدأ الإشعاع، وصاغ من خلال ذلك

(١) «الحضارة» للشيخ الميداني (ص ٥٥٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٥٥٨)، و«التراث العربي العلمي في الرياضيات والفلك» (ص ٥٢).

(٣) في فلسفته كثير من الزيف والبدع والضلالات فهو يسير على نظم فلاسفة اليونان.

أساس نظام تصوري جديد يحل في نهاية الأمر محل نظرية الانبعاث الإغريقية، وكان لهذا الكتاب صدى في المحافل العلمية العربية، ثم الأوروبية خلال العصور الوسطى.

أبو علي الحسن بن الهيثم «رائد علم البصريات» (٣٥٤ - ٤٣٠ هـ) :

□ أبو علي الحسن بن الهيثم «بطليموس الثاني» المعروف عند الأوروبيين بـ«alhazen» تعد أعماله العلمية فتحاً جديداً ووثبة خطيرة في عالم البصريات، وفزيولوجية الإبصار، وكانت أعماله هي الأساس الذي بنى عليه علماء الغرب جميع نظرياتهم في هذا الميدان، وكان في طليعة العلماء الأجانب الذين اعتمدوا على نظرياته - بل أغادروا عليها ونسبوها لأنفسهم - روجر بيكون وفيتلوك وعلماء آخرون، ولا سيما في بحوثهم الخاصة بالمجهر والتلسكوب والعدسة المكرونة^(١).

□ بدأ ابن الهيثم أولاً بمناقشة نظريات إقليدس وبطليموس في مجال الإبصار، وأظهر فساد بعض جوانبها، ثم في أثناء ذلك قدم وصفاً دقيقاً للعين وللعدسات وللإبصار بواسطة العينين، ووصف أطوار انكسار الأشعة الضوئية عند نفوذها في الهواء المحيط بالكرة الأرضية بعامة، وخاصة إذا نفذ من جسم شفاف كالهواء والماء والذرات العالقة بالجو، فإنه ينبعض - أي: ينكسر - عن استقامته^(٢).

□ وقد بحث في «الانعكاس» وتبيان الزوايا المترتبة على ذلك، كما تطرق إلى شرح أن الأجرام السماوية تظهر في الأفق عند الشروق قبل أن

(١) ابن الهيثم عبقرى في ثوب الجنون - موضع إسلام أون لاين.

(٢) «روائع الحضارة الإسلامية في العلوم» للدفاع (ص ١٢٤).

تصل إليه فعلاً، والعكس صحيح عند غروبها، فإنها تبقى ظاهرة في المجال الأفقي بعد أن تكون قد احتجبت تحته، وهو أول من نوه باستخدام الحجرة السوداء التي تعتبر أساس التصوير الفوتوغرافي^(١).

والكتاب الذي خلّد اسم ابن الهيثم عبر القرون هو «كتاب المناظر»، ويوضح هذا الكتاب تصور البصريات كنظرية أولية في الإبصار، مختلفة جذرًا عن فرض الشعاع المرئي الذي حافظ عليه التقليد الرياضي منذ إقليدس وحتى الكندي.

ولقد أدخل ابن الهيثم أيضًا منهجهية جديدة على هذا التفسير لعملية الإبصار، وبهذا تمكن من صياغة مسائل كانت إمامًا غير مفهومة طبقاً لنظرية الشعاع البصري، أو مهمّلة من جانب فلاسفة يهذفون أساساً إلى تفسير ماهية الرؤية أكثر من اهتمامهم بشرح كيفية حدوث الإبصار.

وعلى الرغم من مكانة ابن الهيثم وبحوثه المبتكرة في علم الضوء، إلا أنه ظل مغموراً لا يعرفه كثير من الناس، حتى قيس الله له من يكشف عن جهوده وينقب عن آثاره ويحليها، وكان من هؤلاء العالم العربي مصطفى نظيف، وذلك حين كتب عنه دراسة طيبة رائدة نشرتها جامعة القاهرة في مجلدين، وقد بذل فيها جهداً مضنياً في قراءة مخطوطات ابن الهيثم ومئات المراجع الأخرى، حتى خلص إلى حقيقة صادقة، وهي أنَّ ابن الهيثم يُعد واضع أساس علم الضوء بالمعنى الحديث!!

□ يقول الأستاذ مصطفى نظيف: «لقد قلب ابن الهيثم الأوضاع القديمة، وأنشأ علىًّا جديداً أبطل فيه علم المناظر، الذي أنشأه اليونان، كما

(١) «تطور الفكر العلمي عند المسلمين» (ص ١٤٨).

أنشأ علم الضوء الحديث، وإن أثره في الضوء لا يقل عن أثر «نيوتون» في الميكانيكا، فإن عُدًّا «نيوتون» بحق رائد علم الميكانيكا في القرن السابع عشر، فإن ابن الهيثم خلائقُ بأن يُعد بحق رائد علم الضوء في مستهل القرن الحادي عشر»^(١).

□ وأتقن ابن الهيثم الطب وصنف فيه لكنه لم يمارسه، وكان دائمًا يقول: «إني ما مُدَّتْ لي الحياة، باذل جهدي، ومستفرغ قولي في مثل ذلك «يقصد الدراسة وتحصيل العلوم»، متوكلاً منه أمورًا ثلاثة: أحدها إفاده من يطلب الحق ويؤثره، في حياتي وبعد مماتي، والآخر أنني جعلت ذلك ارتياضاً لي بهذه الأمور في إثبات ما يتصوره ويتقننه فكري من تلك العلوم، والثالث أنني صيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان المهرم»^(٢).

□ ولقد كان في كل أحواله زاهداً عن الدنيا مقبلًا على التحصيل والدراسة، يصفه ابن أبي أصيبيعة فيقول: «كان ابن الهيثم فاضل النفس، قوي الذكاء، متفتناً في العلوم، لم يهأله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي، ولا يقرب منه، وكان دائم الاستعمال، كثير التصنيف، وافر التزهد»^(٣).

□ وما يُذكر في ذلك أنه وهو بالشام عند أحد أمرائها فأعجب به وأراد أن يغمره بالأموال، فقال ابن الهيثم: «يكفيوني قوت يوم وتكفيني

(١) «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء» لابن أصيبيعة (٣٨٠/٣).

(٢) «المناظر» لابن الهيثم (ص ٦٢).

(٣) «عيون الأنبياء» (٣٧٢/٣).

جارية وخدم، فما زاد على قوت يوم إن أمسكته كنتُ خازنَك، وإن أنفقتُه كنتُ وكيلَك، وإذا اشتغلتُ بهذين الأمرين فمن الذي يشتغل بأمرِي وعلمي؟!»^(١).

وقد درس في بغداد الطب، واجتاز امتحانًا مقررًا لكل من يريد العمل بالمهنة، وتخصص في طب الكحالة «طب العيون»، وكان أهل بغداد يقصدونه للسؤال في عدة علوم، برغم أن المدينة كانت زاخرة بصفوة من كبار علماء العصر.

استقر بمصر واتخذ من غرفة بجوار الجامع الأزهر سكناً، ومن مهنته نسخ بعض الكتب العالمية مورداً لرزقه، هذا بخلاف التأليف والترجمة؛ حيث كان متوفقاً من عدة لغات، ولكنه لم يكن في سعة من العيش، فقد كان يرتفق من نسخ كتابين أو ثلاثة كتب رياضية، منها كتاب الأصول لإقلیدس في الهندسة، وكتب المسطري لبلطيموس في الفلك، فكان ينسخها كل عام فيأتيه من أقاصي البلاد من يشتريها منه بثمن معلوم، لا مساومة فيه ولا معاودة، فيبيعها ويجعلها مئونة حياته طول سنته»^(٢).

□ تقول «زيجريد هونكه»: «والواقع أن روجر بيكون، أو باكوفون فارولام، أو ليوناردو دافنشي، أو جاليليو، ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي؛ إنما السابقون في هذا المضمار كانوا من العرب، والذي حققه ابن الهيثم لم يكن إلّا علم الطبيعة الحديث، بفضل التأمل النظري والتجربة

(١) «تمة صوان الحكمة» للبيهقي ظهير الدين (ص ١٦).

(٢) «عيون الأنباء» (٣/٢٨٠).

الحقيقة»^(١).

□ وعلى هذا المنهج سار ابن الهيثم في كل مؤلفاته وتصانيفه، وقد كان غزير التأليف متذوق الإنتاج في شتى أنواع المعرفة، فطرق الفلسفة والمنطق والطب والفلك والبصريات والرياضيات، مستحدثاً أنهاطًا جديدة من الفكر العلمي الأصيل، وقد بلغ عدد مؤلفاته ما يربو على مائتي مؤلف ٢٣٧ مخطوطه ورسالة في مختلف فروع العلم والمعرفة).

□ وفي البصريات وحدها ألفَ ابن الهيثم ما يقرب من أربعة وعشرين موضوعاً، ما بين كتاب ورسالة ومقالة، غير أن أكثر هذه الكتب فقد فقد فيها فقد من تراثنا العلمي، وما بقي منها فقد ضمتها مكتبات إسطانبول ولندن وغيرهما، وقد سلم من الضياع كتابه العظيم «المنظار» الذي احتوى على نظريات مبتكرة في علم الضوء، وظل المرجع الرئيسي لهذا العلم حتى القرن السابع عشر الميلادي بعد ترجمته إلى اللاتينية^(٢).

□ ولا يعرف العالم من مؤلفات ابن الهيثم حالياً سوى خمسين كتاباً لم يبق منها في القاهرة سوى ثلاثة فقط، حيث تسرب العديد من كتبه الأخرى إلى أوروبا أثناء الحملة الفرنسية على مصر وأثناء الحروب الصليبية.

□ وإلى جانب البصريات فقد كانت له مساهماته في الهندسة، وله فيها ثمانية وخمسون مؤلفاً، تضم آراءه وبراهينه المبتكرة لسائل تواترت عن إقليدس وأرشميدس بدون برهان، أو في حاجة إلى شرح وإثبات، ويوجد

(١) «شمس العرب تسطع على الغرب» لزيغريد هونكه (ص ١٤٨، ١٤٩).

(٢) «روائع الحضارة العربية والإسلامية في العلوم» للدفاع (ص ١٢٣).

في مكتبات العالم في القاهرة ولندن وباريس وإستانبول أكثر من واحد وعشرين مخطوطاً لابن الهيثم في هذا التخصص، وفي الحساب والجبر والمقابلة ألف ما لا يقل عن عشرة كتب، لا يوجد منها سوى مخطوطات قليلة في مكتبة عاطف بتركيا منها: حساب المعاملات واستخراج مسألة عددية.

□ وفي الفلك أبدع ابن الهيثم وأسهم فيه بفاعلية حتى أطلق عليه «بطليموس الثاني»، ولم يصلنا من تراث ابن الهيثم في الفلكيات إلا نحو سبع عشرة مقالة من أربعة وعشرين تأليفاً، تحدث فيها عن أبعاد الأجرام السماوية وأحجامها وكيفية رؤيتها وغير ذلك^(١).

□ كما أن له في الطب كتابين: أحدهما في «تقويم الصناعة الطبية» ضمنه خلاصة ثلاثة كتاباً قرأها جالينوس، والأخر «مقالة في الرد على أبي الفرج عبد الله بن الطيب» لإبطال رأيه الذي يخالف فيه رأي جالينوس، وله أيضاً رسالة في تشريح العين وكيفية الإبصار^(٢).

كتاب المناظر لابن الهيثم ثورة في علم البصريات:

لم يتبنَّ ابن الهيثم نظريات «بطليموس» ليشرحها ويجري عليها بعض التعديل، بل إنه رفض عدداً من نظرياته في علم الضوء، بعدما توصل إلى نظريات جديدة غدت نواة علم البصريات الحديث.

فقد كان «بطليموس» - كما ذكرنا - يزعم أن الرؤية تتم بواسطة أشعة تبعث من العين إلى الجسم المرئي، وقد تبني العلماء اللاحقون هذه

(١) «الحسن بن الهيثم» لرحاب العكاوي (ص ٧٢).

(٢) «رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية» للدفاع (ص ٣١٨).

النظيرية، ولما جاء ابن الهيثم نصف هذه النظرية في كتابه «المناظر»، وبين أن الرؤية تتم بواسطة الأشعة التي تبعث من الجسم المرئي باتجاه عين المبصر، وبعد سلسلة من الاختبارات أجرتها ابن الهيثم بين أن الشعاع الضوئي ينتشر في خط مستقيم ضمن وسط متجلانس.

وكان ابن الهيثم أول من درس العين دراسة علمية، وعرف أجزاءها وتشريحها ورسمها، وأول من أطلق على أجزاء العين أسماء أخذها الغرب بنطقها أو ترجمتها إلى لغاته، ومن هذه الأسماء: القرنية «Cornea»، والشبكة «Vitrous Humour»، والسائل الزجاجي «Retina»، والسائل المائي «Aqueous Humour».

□ وضع ابن الهيثم ولأول مرة قوانين الانعكاس والانعطف في علم الضوء، وعلل لانكسار الضوء في مساره، وهو الانكسار الذي يحدث عن طريق وسائل كالماء والزجاج والهواء، فسبق ابن الهيثم بما قاله العالم الإنجليزي نيوتن ^(١).

□ وكان أول من قال بأن للضوء سرعة محددة يمكن قياسها ^(٢).

وخلاصة القول أنَّ ما أتى به ابن الهيثم قبل أكثر من ألف عام، شيءٌ كثیر يستحق إجلال العلماء وتقديرهم؛ فهو بحق أكبر فيزيائي مسلم، وكتابه في البصريات تضمن أول وصف صحيح للعين بأخلاقها المائية وجسمها البلاورى وقرنيتها وشبكيتها وغرفتها المظلمة.

كما اتضح لنا أن ابن الهيثم جعل علم الضوء يتخذ صبغة جديدة،

(١) «حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي» بلال مظفر (ص ٣٠٣).

(٢) «الحسن بن الهيثم الحكيم بطليموس الثاني» لرحاب عكاوي (ص ١١٧).

وينشأ نشأة أخرى غير نشأته الأولى، حتى أصبح أثره في علم الضوء يشبه تأثير نيوتن العام في علم الميكانيكا، فكانت المعلومات في علم الضوء قبل ابن الهيثم متفرقة لا يربطها رابط، فأعاد البحث فيها من جديد، واتجه في بحثه وجهة لم يسبقها إليها أحد من قبله، فأصلاح الأخطاء وأتم النص، وابتكر المستحدث من البحوث، وأضاف الجديد من الكشف، واستطاع أن يؤلف من ذلك كله وحدة مترابطة الأجزاء، وأقام الأساس الذي انبنى عليه صرح علم الضوء.

□ يقول الدكتور محمد يونس الحملاوي: «لقد حفر ابن الهيثم مكانه في سجل تقدم البشرية بحروفٍ من نور حين درس واستوعب ونقد وفند المسلمات التي عاشت عند رواد علم المناظر من أمثال «إقليدس» و«بطليموس» وغيرهما.. لقد أضاف الكثير لعلم الضوء حين قال بوجود سرعة للضوء، وحدد أن هذه السرعة متناهية، ولكنها كبيرة جدًا لدرجة تبدو في بعض الأحيان لا متناهية، وبرهن على ذلك معتمدًا على الأجهزة التي ابتكرها. لقد اخترع ابن الهيثم وصنع بيديه العديد من الأجهزة الفلكية والطبيعية في مجال تجاربه، وبهذا يكون ابن الهيثم قد سبق كُلَّا من ديكارت ونيوتون، كما سبق ابن الهيثم أينشتاين حينما بين أن سرعة الضوء محدودة، ورغم هذا يتعلم طلابنا تلکم الحقائق عن أي طريق وعن كل طريق إلَّا عن أصله العربي الأصيل، وعن كل العلماء إلَّا عن علماء أمتهم !!».

ابن الهيثم وعلماء الغرب:

وعن طريق الترجمات لأعمال ابن الهيثم تأثر «روجر بيكون وجون

بيكام» و«فيتلو» في بحوثهم، فكتاب جون بيكام الموسوم بالمنظور ليس إلا اقتباساً ناقصاً من كتاب ابن الهيثم في البصريات، وأما كتاب فيتلو الذي ألفه سنة (٦٦٩هـ / ١٢٧٠م) فمأخوذ في قسم كبير منه عن ابن الهيثم، ولا يتجاوز النتائج التي وصل إليها.

وكان كتاب «المناظر» معيناً للعديد من العلماء الحقيقين وغيرهم، فقبل أكثر من خمسة قرون ترجم الإيطالي «جيرادي كيرمونا» هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية، وما زالت مكتبة الفاتيكان تحفظ بنسخة من تلك الترجمة حتى الآن، وتلقف علماء الغرب كتاب «المناظر» ليستفيدوا منه في علوم الضوء والرياضيات، ولينسب البعض إلى أنفسهم بعض الآراء التي جاءت فيه.

□ ومن بين من نسب لنفسه بعض ما جاء في الكتاب في القرن السابع عشر الميلادي الألماني «كبلر»، كما أن عالم البصريات فيتلو البولوني في كتابه «الذخيرة» نسب لنفسه الكثير مما قاله ابن الهيثم؛ مما حدا بالعالم دي لابورتا أن يقول: «لقد أخطأ فيتلو فيما نقله عن المازن - ابن الهيثم كما يطلق عليه الأوروبيون - وكان كالقرد المقلد، ولبث هذا الكتاب المقول عن العربية مرجعاً لأهل أوروبا في علم الضوء خلال القرون الوسطى»^(١).

لقد سبق ابن الهيثم كلاً من «فيتلو» و«كبلر» في وضع أساس علم البصريات ورغم ذلك ما زلنا نشير إلى كليهما على أنها واضعاً أساس علم البصريات في كتابنا !!

(١) «الحسن بن الهيثم بحوثه وكشوفه البصرية» لمصطفى نظيف (٣ / ١٠).

□ ومهما يكن من أمر، فقد حاز ابن الهيثم إعجاب كثير من المصنفين الغربيين، حتى وصفه «جورج سارتون» - وهو من كبار مؤرخي العلم - بقوله: «هو أعظم عالم فизيائي مسلم، وأحد كبار العلماء الذين بحثوا في البصريات في جميع العصور»^(١).

□ ووصفه «أرنولد» في كتاب «تراث الإسلام» يقول عنه: «إن علم البصريات وصل إلى الأوج بظهور ابن الهيثم»^(٢).

□ وقد سحرت بحوث ابن الهيثم في الضوء «ماكس مايرهوف» وأشارت إعجابه إلى درجة جعلته يقول: «إن عظمة الابتكار الإسلامي تتجلّى لنا في البصريات»^(٣).

□ أما دائرة المعارف البريطانية فقد وصفته بأنه رائد علم البصريات بعد بطليموس.

□ وتقول «زيغرید هونكه» الألمانية: «كان الحسن بن الهيثم أحد أكثر علمي العرب في بلاد الغرب أثراً وتأثيراً..».

□ وتقول أيضاً: «لقد كان تأثير هذا العربي «ابن الهيثم» النابغة على بلاد الغرب عظيم الشأن فسيطرت نظرياته في علمي الفيزياء والبصريات على العلوم الأوروبية حتى أيامنا هذه»، فعلى أساس كتاب المناظر لابن الهيثم نشأ كل ما يتعلق بالبصريات ابتداءً من الإنكليزي «روجر بيكون» حتى الألماني «فيتلو» وأما «ليوناردو دافنشي» الإيطالي مخترع آلة «التصوير

(١) «مقدمة لتاريخ العلم» جورج سارتون (١ / ٧٢١).

(٢) «تراث الإسلام» لأرنولد.

(٣) «علماء العرب وما أعطوه للحضارة» لقدري حافظ طوقان (ص ١٦٧).

الثقب» أو الآلة المعتمة ومحترع المضخة والمخرط وأول طائرة – ادعاءً – فقد كان متأثراً تأثيراً مباشراً بالعرب، وأوحت إليه آثار ابن الهيثم أفكاراً كثيرة، وعندما قام «كبلر» في ألمانيا خلال القرن السادس عشر ببحث القوانين التي تمكن «جاليليو» بالاستناد إليها من رؤية نجوم مجهرولة من خلال منظار كبير كان ظل ابن الهيثم الكبير يحيط خلفه، وما تزال حتى أيامنا هذه المسألة الفيزيائية الرياضية الصعبة التي حلها ابن الهيثم واسطة معادلة من الدرجة الرابعة مبرهناً بهذا عن تضليله البالغ في علم الجبر، نقول: ما تزال المسألة القائمة على حسب موقع نقطة التقاء الصورة التي تعكسها المرأة المحرقة بالدوائر على مسافة منها ما تزال تسمى «بالمسألة الهيثمية» نسبة إلى ابن الهيثم نفسه»^(١).

□ ويقول «د. تشارلز جروسي» – متخصص في فسيولوجيا الأعصاب والجوانب العصبية والنفسية للإبصار – بعد دراسة قيمة في كتاب المناظر: «والخلاصة الأساسية التي يمكننا الخروج بها هي أن هذا الرجل المرموق يستحق منا دراسة أعمق، فمع أن العمل الفريد الذي قام به الهيثم في دمج الفيزياء والرياضيات ووظائف الأعضاء في نظرية جديدة عن الإبصار قد احتل مكانة تاريخية، إلا أن نظرياته عن سيكولوجية الإدراك وأثارها ستظل مجالاً خصباً ومهمّاً للبحث والدراسة»^(٢).

وأخيراً كانت هذه الحقيقة.. يقول العالم الرياضي الفرنسي «شارل أبيرنون» (١٨٨٠م): «إن بحوث ابن الهيثم في ميدان المناظر تعدّ أصل

(١) «شمس العرب تسقط على الغرب» (ص ١٥٠).

(٢) «آراء ابن الهيثم في العين والمخ واستيعابها» مقال لـ تشارلز جروسي، موقع ويكيبيديا.

معارفنا في علم الضوء»^(١) هـ - (٢).

العلامة ابن خلدون رائد علم الاجتماع والتاريخ (١٤٠٦-١٣٣٢هـ/٨٠٨-٧٣٢):

□ هو «أبو زيد»، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الحضرمي، الإشبيلي. ولد بتونس سنة (١٣٣٢هـ-٧٣٢م)، ويعود أصله إلى عائلة يمنية هاجرت إلى إشبيلية ولعبت دوراً كبيراً في التاريخ العربي لهذه المدينة، وشاع ذكرها على امتداد القرن الثامن إلى أن أصبحت في القرن العاشر من أعرق العائلات بإشبيلية. ولما تمكن ملوك الصليبيين من السيطرة على هذه المدينة نزح أجداده إلى سبتة، ثم إلى تونس.

□ وفي كتاب «التعريف» لابن خلدون، يشير إلى أنه حفظ القرآن الكريم وألم بالقراءات السبع وعني بالتفسير والحديث، وتعمق في النحو والفقه، ولم يقتصر في تلقى هذه العلوم على أبيه محمد، بل اتصل بكتاب علماء تونس، ولم يبلغ الثامنة عشرة حتى أصبح طويل الباع في الفقه وعلوم الدين، كما درس علم الحديث وأحاط بأصول المنطق وآراء الفلسفه وكتبهم^(٣).

□ وبعد قضائه سنوات في خدمة حكام إفريقيا، ركب البحر مهاجراً إلى أرض أجداده «الأندلس» لينزل عند سلطان غرناطة آخر الممالك الأندلسية، وبعد سلسلة من المكاييد والفتن التي حيكت ضده، آثر الرجوع إلى إفريقيا، واختار قلعة ابن سلامة بالجزائر ليقيم بها، ويبادر

(١) «موقع مهارات النجاح».

(٢) انظر: «العلم وبناء الأمم» (ص ١٦٢ - ١٧٨).

(٣) «ابن خلدون» لعمر فاروق الطابع (ص ٣١ - ٣٢).

كتابه مؤلفه الشهير المعروف بتاريخ ابن خلدون، الذي قدّم فيه نظريات جديدة في علمي الاجتماع والتاريخ^(١).

عاش هذا العالِمة الكبير في عصر مضطرب؛ تميز بالهزائم والانكسارات ليس على مستوى العالم فقط بل على مستوى الشخص أيضاً، فقد نُكِبَ أكثر من مرة بأحبائه وأسرته، ولم يشأ له القدر أن يسكن بلدًا واحدًا، أو أن يتمتهن عملاً محدداً؛ فقد تنقلَ من الأندلس حتى بلاد الشام، وشهد بنفسه تسليم غرناطة ودمشق، ورأى بأمّ عينه انهيار الحضارات، وسيطرة القوي وغطرسته عند النصر.

ورغم حياته القاسية والمضطربة استطاع أن يكون مثقف عصره، وشاهدًا عليه، واستطاع أن يتزعَّز وقتاً للكتابة والتأليف، وأن يقدم للأجيال من بعده عصارة ذهنه ورحيق روحه.

مؤلفاته :

يعتبر «ابن خلدون» واحداً من أعظم المفكرين المسلمين، وأبرز من كتب في علم التاريخ، وعنوان كتابه بـ «كتاب العِبر»، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، وينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء: الأول: المقدمة؛ وفيها تأملات عميقة حول الحضارة الإنسانية، والثاني: يهتم بتاريخ الأمم والملك، والثالث: سيرة ابن خلدون الذاتية. وقد تُرجمَت مقدمته إلى مختلف لغات العالم عدّة مرات.

(١) السابق (ص ٤٥ - ٣٣).

كتاب «تاريخ ابن خلدون»:

«تاريخ ابن خلدون» هو الكتاب الذي رفعت مقدمته ابن خلدون إلى مصاف كبار فلاسفة العالم. وهي كما قال تويني^(١) -مستعيرًا كلمة المقريزي^(٢): «عمل لم يقم بمثله إنسان في أي زمان ومكان»^(٣).

وفيها أرسى قواعد فقه التاريخ وعلم العمران، وهو علم أعتبره عليه الله كما يقول^(٤)، موضوعه: «البحث في أسباب انهيار الدول وازدهارها»^(٥)، وأراد أن تجذب به الملوك ما يعني عن «سر الأسرار» الذي ألهه أرسطو للإسكندر، وأنجزه أولاً في مدة خمسة أشهر، من عام (٧٧٩هـ) أثناء إقامته عندبني العريف في قلعة بنى سلامه بوهران، ثم نَقَّحه بعد ذلك، وهذبَه، وألحق به تاريخ العرب وأخبار البربر وزناته، وأهداه إلى المستنصر أبي العباس، الذي تولى إمارة تونس من سنة (٧٧٢هـ) حتى (٧٩٦هـ). وكانت هذه النسخة موجودة حتى عام (١٨٥٨م)، فلما ترك تُونس إلى مصر عكف على تهذيب الكتاب والزيادة عليه، زهاء

(١) أرنولد جوزيف تويني (١٨٨٩ - ١٩٧٥م): أستاذ الدراسات اليونانية والبيزنطية في جامعة لندن، ومدير دائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية؛ من أشهر مؤرخي القرن العشرين، أهم أعماله «موسوعة دراسة للتاريخ».

(٢) «تقي الدين» أحمد بن علي المقريزي (٧٦٦ - ٨٤٥هـ): شيخ المؤرخين المصريين، عاش من المماليك، من أشهر كتابه: السلوك لمعرفة دول الملوك، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار «المعروف بخطط المقريзи».

(٣) نقلًا عن زهير ظاظا - شبكة الوراق.

(٤) السابق نفسه.

(٥) «موسوعة عباقرة الإسلام» لمحمد أمين فرشوخ (١/٦٨ - ٧١).

عشرين سنة، فأضاف إليه الجزء الخاص بملوك العجم، وأقساماً أخرى ألحقها بمواضعها، وأهدي هذه النسخة للسلطان برقوق؛ فنَحَّله لقلب: «ولي الدين»، و«فرغ منها سنة ٧٩٧هـ» وانتسخ منها نسخة وقفها على طلبة العلم في جامع القرويين بفاس»^(١).

ومن مؤلفاته الأخرى: «شرح قصيدة البردة»، و«تلخيص مجموعة من كتب ابن رشد، تلخيص مُحَصّل الإمام فخر الدين الرازي»، كتاب في الحساب، تعريف مفيد في المنطق، لباب المحسوب في أصول الدين، شرح أرجوزة ابن الخطيب، شفاء السائل لتهذيب المسائل»^(٢).

أفكاره:

أشار باحثون عِدَّة في فكر ابن خلدون إلى رriadته في الإشارة إلى مسائلتين مهمتين تنبئ إلينها الفكر الحديث، وهما:

أولاً: أن القيمة الاقتصادية للسلعة يحددها الجهد الإنساني / العمال المبذول فيها من ليس مجرد قيمتها المادية. وهي مسألة انتهى إليها الفكر الاجتماعي الحديث –الاشتراكي بخاصة- في دعوته إلى إنصاف العمال الذين يضيف جهدهم إلى قيمة السلعة، وهي قيمة يستفيد منها الرأساليون عادة. والواقع أنه لم يصل إلى هذه الدعوة الصريرة لكنه اقترب كثيراً من مضمونها الفكري^(٣).

(١) «مؤلفات ابن خلدون» لعبد الرحمن بدون.

(٢) «ابن خلدون» لعمر فاروق الطباع (ص ٥٤-٥٦).

(٣) «ابن خلدون وسيطًا بين العرب والإسلاميين» مقال لمحمد جابر الأنصار بمجلة العربي مارس (١٩٨٣).

ثانياً: أوماً ابن خلدون إلى شيء قريب من الفكرة القومية الجامعة، عندما تحدث عن «دولة العرب»، ثم «دولة الفرس»، ثم «دولة الترك» في سياق التاريخ الإسلامي، صحيح أنه بنى فكره في تفسير الاجتماع والتاريخ لدى العرب على «العصبية القبلية» - وهو واقع لا يستطيع أي مفكر حقيقي تجاهله - لكنه أشار أيضاً إلى أن تلك العصائب القبلية إذا تحالفت، خاصة في ظل «دعوة دينية»، تستطيع أن تؤسس تحالفاً أوسع بينها يستند إلى حقيقة كونها منتمية إلى «قوم» متميز من الأقوام.

إلاً أن أهمية ابن خلدون وطراقة فكره، وإن تمثلت في إيماءات فكرية تتخطى عصرها كالفكرة الاقتصادية، وال فكرة القومية؛ فإنه كان محدداً وواضحاً في أفكار أخرى، ما زالت واقعاً لا يمكن إنكاره في حياتنا العربية الراهنة؛ ومن ذلك تحذيره من اشتغال رجال السلطة بالتجارة، ومنافستهم لأهل البلد وتجاره، بما يؤدي إلى عرقلة الاقتصاد وتدميره، وانعكاس ذلك وبالأ على الدولة نفسها في نهاية الأمر؛ يقول ابن خلدون: «إن التجارة من السلطان مُضرّة بالرعايا ومُفسدة للجباية»^(١).

كما لخص رؤيته لأثار الاستبداد والسلط بمقولته: «الظلم مؤذن بخراب العمران»، ونبه إلى أن كثرة العصبيات يُنذر بزوال الدولة: «إن الأوطن الكثيرة العصائب، قل أن تستحكم فيها دولة».

وبالرغم من أنَّ عصر ابن خلدون كان عصراً معادياً للفلسفة في المجتمع الإسلامي، وهو ما ينعكس في الفصل الذي عنوانه: «في إبطال الفلسفة وفساد متحليها»، فقد حول ابن خلدون عمل العقل من

(١) «الرومانسيَّة جميلة.. لكنها تجهل حقيقة التاريخ والعالم» - جريدة الوطن.

الانشغال بالميافيزيقيا «ما وراء الطبيعة» إلى إعماله في شؤون المجتمع والتاريخ والعلم، أي إنزاله من السماء فيها يتجاوزه من غيب إلى واقع الأرض وما فيها من مشاهدة، ومن منطلق عقلانيته، انتقد السحر والطسلسات، وكتب في إبطال صناعة التنجيم وضعف مداركها، وفساد غaitها، وعرض لعلم المنطق بحيد موضوعي ولم يهاجمه، كما أنَّ نقه للفلسفة الميافيزيقية لم يصل لديه إلى حد تحريرها، وإنما اكتفى بتنبيه من يزيد الاطلاع عليها إلى الإمام بعلوم «الملة» من فقه وشرعيات^(١).

أن التصالح الذي أقامه ابن خلدون بين نظرته المادية ونظرته الإيمانية شمل الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية؛ فقد حاول بكل قواه إظهار التكامل بين ما هو رُوحِي وما هو مادي، بين ما هو طبيعي وما هو اجتماعي، بين ما تقتضيه طبائع العمران، وبين ما تقرره المشيئة الإلهية.

ثناء العلماء عليه :

□ قال إيف لاكوسن عن مؤلف ابن خلدون «المقدمة»: «التحليل والتأليف والبحوث التي حققها هذا المغربي العبرى في القرن الرابع عشر سُساعدنا اليوم على إجاده فهم القضية التي هي بلا ريب أوسع القضايا وأشدّها مأساوية في عصرنا؛ ألا وهي التخلف»^(٢).

□ وقال كارا دو فو: «إنَّ نزعة الاهتمام بالبحث في تاريخ النشوء والتطور تضع ابن خلدون في مصاف أرقى العقليات في أوروبا

(١) «مراجعات في الفكر القومي» لمحمد جابر الأنصاري-كتاب العربي رقم (٥٧) بتاريخ ١٥/٧/٢٠٠٤.

(٢) «العلامة ابن خلدون» لإيف لاكوسن (ص ٢٤٨).

الحالية»^(١).

ووصف كثير من الكتاب الغربيين سرد ابن خلدون للتاريخ بأنه أول سرد علمي منهج للتاريخ^(٢)، وهذا تقدير كبير عندهم.

دراسات عن ابن خلدون:

كتب عن ابن خلدون وفكره ومنهجه ونظرياته العمرانية والاجتماعية وغيرها، مئات الكتب، منها:

العمان البشري في مقدمة ابن خلدون: سفيانا باتسييفا.

العلامة ابن خلدون: إيف لاكوسن.

السياسة والدين عند ابن خلدون: جورج لابيكا.

فلسفه ابن خلدون الاجتماعية - تحليل ونقد: طه حسين.

النظرية الإسلامية لابن خلدون دراسة مقارنة: محمد محمود ربيع.

الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته: مصطفى الشكعة.

ابن خلدون إسلامياً: عماد الدين خليل.

٤٣٥٩٥٣٨

(١) «ابن خلدون المقدمة» لعمر فاروق الطباع.

(٢) نقل عن زهير ظاظا شبكة الوراق.

المؤسسات الخيرية في أيام الحضارة الإسلامية

عنوان علو الهمة

«ليس أدل على رُؤيَّةِ الأُمُّمِ وجدارتها بالحياة واستحقاقها لقيادة العالم، من سُمُّو النزعة الإنسانية في أفرادها، سُمُّوا يفيض بالخير والبر والرحمة على طبقات المجتمع كافةً، بل على كل من يعيش على الأرض من إنسان وحيوان، وبهذا المقياس تخلد حضارات الأمم، وبآثارها في هذا السبيل يُفاضل بين حضاراتها ومدنيّاتها».

وأمتنا بلغت في ذلك الدُّرُّورة التي لم يصل إليها شعبٌ من قبلها على الإطلاق، ولم تلحقها من بعدها أمّة حتى الآن؛ أما في العصور الماضية، فلم تعرف الأمم والحضارات ميادين للبر إلا في نطاق ضيق لا يتعدى المعاهد والمدارس، وأما في العصور الحاضرة، فإنّ أمّم الغرب وإن بلغت الذروة في استيفاء الحاجات الاجتماعية عن طريق المؤسسات الاجتماعية وعن طريق المؤسسات العامة، لكنها لم تبلغ ذروة السمو الإنساني الحالص لله وَعَلَّمَ كما بلغته أمتنا في عصور قوتها ومجدها، أو عصور ضعفها وانحطاطها، إن لطلب الجاه أو الشهرة أو انتشار الصيت أو خلود الذكر، الأثر الأكبر في اندفاع الغربيين نحو المبررات الإنسانية العامة، بينما كان الدافع الأول لأمتنا على أعمال الخير، ابتغاء وجه الله جل شأنه، سواء علم الناس بذلك أم لم يعلموا، وحسينا دليلاً على هذا أن صلاح الدين الأيوبي أنفق أمواله كلها على جهات البر، وملأ البلاد الشامية والمصرية بالمؤسسات الخيرية، من مساجد ومدارس ورباطات وغيرها، دون أن

يسجل على واحدة منها اسمه، بل كان يسجل عليها أسماء قواده ووزرائه وأعوانه وأصدقائه، وهذا غاية ما يكون من التجرد عن حظوظ النفس في أعمال الخير.

وشيء آخر: أن الغربيين في مؤسساتهم الاجتماعية كثيراً ما يقتصر الانتفاع بها على أبناء بلادهم، أو مقاطعاتهم، بينما كانت مؤسساتنا الاجتماعية تفتح أبوابها لكل إنسان على الإطلاق، بقطع النظر عن جنسه أو لغته أو بلده أو مذهبة.

وفارق ثالث: أنها أقمنا مؤسسات اجتماعية لوجوه من الخير والتكافل الاجتماعي لم يعرفها الغربيون حتى اليوم، وهي وجوه تبعث على العجب والدهشة، وتدل على أن التزعة الإنسانية في أمتنا كانت أشمل وأصفى وأوسع أفقاً من كل نزعة إنسانية لدى الأمم الأخرى.

□ ولقد كان الوقف هو الذي يمد كل المؤسسات الاجتماعية بالموارد المالية التي تعينها على أداء رسالتها الإنسانية النبيلة. كان الوقف هو الحجر الأساسي الذي قامت عليه كل المؤسسات الخيرية في تاريخ حضارتنا.

وقد كان رسول الله ﷺ أول من ضرب المثل الأعلى لأمته في ذلك، فأوقف سبع بساتين كان أوصى بعض المحاربين حين مات أن يترك أمرها للرسول ﷺ يتصرف بها كيف يشاء، فأوقفها رسول الله ﷺ على الفقراء والمساكين والغذاء وذوي الحاجات، ثم تبعه بعد ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأوقف أرضه بخир، ثم تبعه الصحابة، فأوقف أبو بكر، وعثمان، وعلي، والزبير، ومعاذ، وغيرهم رضي الله عنهم حتى لم يبق صاحبي إلّا أوقف من أمواله شيئاً.

وتتجدد هذا العمل الإنساني مرة أخرى في خلافة عمر رض، حين أوقف أرضاً في سبيل الله وهو في خلافته، ودعا نفرًا من المهاجرين والأنصار رض فأحضرهم وأشهادهم على ذلك.

قال جابر بن عبد الله الأنصاري رض: «فما أعلم أحداً ذا مقدرة من أصحاب رسول الله ص من المهاجرين والأنصار إلّا حبس مالاً من ماله صدقةً موقوفةً لا تُشتري ولا تورث ولا توهب».

ثم تتابع المسلمون بعد ذلك جيلاً بعد جيل، يوقفون الأراضي والبساتين والدور والغلات لأعمال البر، مما ملأ المجتمع الإسلامي بالمؤسسات التي بلغت حدًّا من الكثرة يصعب إحصاؤه والإحاطة به.

كانت هذه المؤسسات نوعين: نوعاً ينشئه الدولة، وتوقف عليه الأوقاف الواسعة.

ونوعاً ينشئه الأفراد من أمراء وقادات وأغنياء ونساء.

□ ولا نستطيع في مثل هذا الحديث أن نعدد أنواع المؤسسات الخيرية كلها، ولكن حسبنا أن نلّم بأهمها:

فمن أول المؤسسات الخيرية: المساجد، وكان الناس يتسابقون إلى إقامتها؛ ابتغاء وجه الله، بل كان الملوك يتنافسون في عظمة المساجد التي يؤسسونها حسبنا أن نذكر هنا مبلغ ما أنفقه الوليد بن عبد الملك من أموال بالغة على بناء الجامع الأموي، مما لا يكاد يصدقه الإنسان؛ لكثرة ما أنفق من مال وما استخدم في إقامته من رجال.

ومن أهم المؤسسات الخيرية: المدارس والمستشفيات.

ومن المؤسسات الخيرية: بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين

وغيرهم من ذوي الفقر، ومنها: التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله وَجْهَهُ. ومنها: بناء بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر داراً، ومنها السقایات، أي تسبيل الماء في الطرق العامة للناس جھيماً، ومنها المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام من خبز ولحm وحساء «شوربة» وحلوى، ولا يزال عهداً قریباً بهذا النوع في كل من تکية السلطان سليم، وتکية الشیخ محیی الدین بدمشق، ومنها: بیوت للحجاج في مکة يتزلونها حين يغدوون إلى بیت الله الحرام، وقد کثرت هذه البيوت حتى عممت أرض مکة كلها، وأفتقى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بیوت مکة في أيام الحج؛ لأنها كلها موقوفة على الحجاج، ومنها: حفر الآبار في الفلوات لسقي الماشية والزرع والمسافرين، فقد كانت كثيرة جداً بين بغداد ومکة وبين دمشق والمدینة، وبين عواصم المدن الإسلامية ومدنها وقرابها، حتى قل أن يتعرّض المسافرون – في تلك الأيام – لخطر العطش. ومنها: أمكنة المرابطة على الشغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبي على البلاد، قد كانت هنالك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله، يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب، وكان لها أثر كبير في صد غزوات الروم أيام العباسين، وصد غزوات الغربين في الحروب الصليبية عن بلاد الشام ومصر، ويتبع ذلك وقف الخيول والسيوف والنبال وأدوات الجهد على المقاتلين في سبيل الله وَجْهَهُ، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها في بلادنا، حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية، يغدوون إلى بلادنا – أيام المدنة – ليشتروا منا السلاح، وكان العلماء يفتون بتحريم بيعه للأعداء، فانظر كيف انقلب الأمر الآن فأصبحنا عالةً على

الغريبين في السلاح لا يسمحون لنا به إلّا بشروط تقضي على كرامتنا واستقلالنا.

ويتبع ذلك أوقاف خاصة يعطى ريعها من يريد الجهاد، وللجيش المحارب حين تعجز الدولة عن الإنفاق على كل أفراده، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسراً للكل مناضل يود أن يبيع حياته في سبيل الله ليشتري بها جنةً عرضها السموات والأرض.. فانظر كيف عاد بنا الأمر إلى أن نقيم أسبوعاً للتلصح تجمعاً فيه التبرعات لتنمية الجيش وتسلیمه، ولو كان عندنا وعي اجتماعي وإيمان صادق لأقمنا من أموالنا كل يوم -لا أسبوعاً واحداً في العام- مصانع لتزويد جيشنا بالسلاح والعتاد، حتى يكون من أقوى الجيوش وأكثرها استعداداً لصد العدوان وحماية الديار.

ومن المؤسسات الاجتماعية ما كانت وقفًا لإصلاح الطرقات والقنطر والجسور، ومنها ما كانت للمقابر يتبرع الرجل بالأرض الواسعة لتكون مقبرة عامة.

ومنها: ما كان لشراء أكفان الموتى للفقراء وتجهيزهم ودفنهم.

أما المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي، فقد كانت عجباً من العجب، فهناك مؤسسات للقطاء واليتامي وختانهم ورعايتهم، ومؤسسات للمقعددين والعميان والعجزة؛ يعيشون فيها موفور الكرامة لهم كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضاً.

وهناك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين ورفع مستواهم وتغذيتهم بالغذاء الواجب لصيانة صحتهم، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعددين بمن يقودهم ويخدمهم.

ومؤسسات لتزويج الشباب والفتيات العزّاب من تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهر.. فما أروع هذه العاطفة وما أحوجنا إليها اليوم !

من مبرّات صلاح الدين الأيوبي :

ومنها مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وهي أسبق في الوجود من جمعية نقطة الحليب عندنا، مع تحضّرها للخير الخالص لله عزّلله، وقد كان من مبرات صلاح الدين أنه جعل في أحد أبواب القلعة - الباقية حتى الآن في دمشق - ميزاباً يسيل منه الحليب. وميزاباً آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي إليه الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفاهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر.

ومن أطرف المؤسسات الخيرية وقف الزبادي للأولاد الذين يكسرون الزبادي وهم في طريقهم إلى البيت، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا علبة زبادي جديدة بدلاً من المكسورة ثم يرجعوا إلى أهليهم وكأنهم لم يصنعوا شيئاً.

وآخر ما نذكره من هذه المؤسسات، المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة، أو لإطعامها، أو لرعايتها حين عجزها، كما هو شأن المرح الأخضر في دمشق الذي يقام عليه الملعب البلدي الآن، فقد كان وقفًا للخيول والحيوانات العاجزة المُسِنَّة ترعى منه حتى تلاقي حتفها.

أما بعد، فهذه ثلاثة نويعاً من أنواع المؤسسات الخيرية التي قامت في ظل حضارتنا، فهل تجد لها مثيلاً في أمّة من الأمم السابقة؟ بل هل تجد لكثير منها مثيلاً في ظل الحضارة الراهنة؟.. اللهم إنّه سبيل الخلود تفردنا

بـه وحدنا يوم كانت الدنيا كلها في غفلة وجهل وتأخر وظامـلـم.. اللـهـم إـنـهـ سـبـيلـ الـخـلـودـ كـشـفـنـاـ بـهـ عـنـ الإـنـسـانـيـةـ المـعـذـبـةـ أوـ صـابـهـ وـآـلـمـهـ.. فـهـ هوـ سـبـيلـنـاـ يـوـمـ؟ـ أـيـنـ هـيـ تـلـكـ الأـيـديـ التـيـ تـسـحـ عـبـرـةـ الـيـتـيمـ،ـ وـتـأـسـوـ جـراـحـ الـكـلـيمـ،ـ وـتـجـعـلـ مـنـ مجـتمـعـاـ مـتـرـاـصـاـ،ـ يـنـعـمـ فـيـ النـاسـ جـيـعـاـ بـالـأـمـنـ وـالـخـيـرـ وـالـكـرـامـةـ وـالـسـلـامـ؟ـ»ـ^(١)ـ.

المدارس والمعاهد العلمية في حضارتنا:

قامت المدارس على الأوقاف الكثيرة التي تبرع بها الأغنياء من قادة وعلماء وتجار وملوك وأمراء، فقد بلغت من الكثرة حدًّا بالغاً، وحسبك أن تعلم أن لم تخل مدينة ولا قرية، في طول العالم الإسلامي وعرضه، من مدارس متعددة يعلم فيها عشرات من المعلمين والمدرسين.

كان المسجد هو النواة الأولى للمدرسة في حضارتنا، فلم يكن مكان عبادة فحسب بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة والقرآن والعلوم الشرعية واللغة وفروع العلوم المختلفة، ثم أقيم بجانب المسجد «الكتاب»، وخصص لتعليم القراءة والكتابة والقرآن وشيء من علوم العربية والرياضية، وكان الكتاب يشبه المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر، وكان من الكثرة بحيث عد ابن حوقل ثلاثة كتب في مدينة واحدة من مدن صقلية، وكان من الاتساع أحياناً بحيث يضم الكتاب الواحد مئات وآلافاً من الطلاب.

وما يذكر في تاريخ أبي القاسم البلاخي أنه كان له كتاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ، وكان كتابه فسيحاً جداً بحيث يحتاج إلى أن يركب حماراً

(١) «من روايـعـ حـضـارـتـاـ»ـ لـدـكـتـورـ مـصـطـفـيـ السـبـاعـيـ (ـصـ ٩٤ـ ٩٩ـ)ـ مـلـخـصـاـ.

ليتردّد بين طلابه وليشرف على شؤونهم.

ثم قامت المدرسة بجانب الكتاب والمسجد، وكانت الدراسة فيها تشبه الدراسة الثانوية والعالية في عصرنا الحاضر، كان التعليم فيها مجانيًّا ولمختلف الطبقات، فلم يدفع الطلاب في دراستهم الثانوية والعالية رسماً ما من رسوم الدراسة التي يدفعها طلابنا اليوم، ولم يكن التعليم فيها مخصوصاً بفئة من أبناء الشعب دون فئة، بل كانت فرصة التعليم متوفرة لجميع أبناء الشعب، كان يجلس فيها ابن الفقير بجانب ابن الغني، وابن التاجر بجانب ابن الصانع والمزارع، وكانت الدراسة فيها قسمين: قسماً داخليًّا للغرباء والذين لا تساعدهم أحواهم المادية على أن يعيشوا على نفقات آبائهم، وقسماً خارجيًّا لمن يريد أن يرجع في المساء إلى البيت أهله وذويه. أما القسم الداخلي فكان بالمجان أيضاً، يهأ للطالب فيه الطعام والنوم والمطالعة والعبادة.. وبذلك كانت كل مدرسة تحتوي على مسجد، وقاعات للدراسة، وغرف لنوم الطلاب، ومكتبة، ومطبخ وحمام وكانت بعض المدارس تحتوي فوق كل ذلك على ملاعب للرياضة البدنية في الهواء الطلق. ولا تزال لدينا حتى الآن نماذج من هذه المدارس التي غمرت العالم الإسلامي كله، ففي دمشق لا تزال المدرسة النورية التي أنشأها البطل العظيم نور الدين الشهيد، وهي الواقعة الآن في سوق الخياطين، لا تزال قائمة تعطينا نموذجاً حيًّا لهندسة المدارس في عصور الحضارة الإسلامية، لقد زارها الرحالة ابن جبير في أوائل القرن السابع الهجري، فأعجب بها وكتب عنها: «من أحسن مدارس الدنيا مظهراً» مدرسة نور الدين رحمه الله، وهي قصر من القصور الأنique، ينصب فيه الماء في شاذوران وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في

صهريج كبير وسط الدار فتحار الأ بصار في حسن ذلك المنظر».

الجامع الأزهر كمدرسة:

وأظهر مثال حي لهذه المدارس الجامع الأزهر، فهو مسجد تقام في أبهائه حلقات للدراسة، تحيط به من جهاته المتعددة غرف لسكن الطلاب تسمى بالأروقة، يسكنها طلاب كل بلد بجانب واحد، فرواق للشاميين، ورواق للمغاربة، ورواق للأتراء، ورواق للسودانيين، وهكذا.. ولا يزال طلاب الأزهر حتى اليوم يأخذون راتباً شهرياً مع دراستهم المجانية من ريع الأوقاف التي أوقفت على طلاب العلم بالأزهر.

وجدير لنا ونحن نتحدث عن المدارس أن نتحدث عن المدرسين وأحوالهم ورواتبهم، لقد كان رؤساء المدارس من خيرة العلماء وأكثرهم شهرة، وإننا لنجد في تاريخ مشاهير العلماء المدارس التي درسوا فيها، فالإمام النووي وابن الصلاح وأبو شامة وتقي الدين السبكي وعماد الدين بن كثير وغيرهم من كانوا يدرسون في دار الحديث بدمشق، والغزالى والشيرازى وإمام الحرمين والشاشى والخطيب التبريزى والقزوينى والفيروزآبادى وغيرهم من كانوا يدرسون في المدرسة النظامية ببغداد، وهكذا.. ولم يكن المدرسوں في صدر الإسلام يأخذون أجراً على تعليمهم حتى إذا امتد الزمن واتسعت الحضارة وبنيت المدارس وأوقفت لها الأوقاف جُعل للمدرسين فيها رواتب شهرية، ومن الطريف أن أصبح للمدرسين رواتب تختلف بين الكثرة والقلة بحسب الأمصار والمدارس والأوقاف، ولكنها على كل حال كانت كافية ليعيش المدرس عيشة هانئة. ولم يكن مجلس للتدریس إلّا من شهد له الشیوخ بكفاءة. وقد كان

الأمر في عصر الإسلام الأول أن يسمح الشيخ للتلמיד بالانفصال عن حلقة وإنشاء حلقة خاصة، أو أن يعهد ببرئاسة الحلقة إليه بعد وفاته، فإن فعل غير ذلك كان محل نقد وتعرض للأسئلة الشديدة المحرجة.. في تاريخ أبي يوسف قاضي القضاة في عصر هارون الرشيد، أنه مرض في حياة شيخه أبي حنيفة، فعاده شيخه وقال له: قد كنت أؤمّلُك بعدي للمسلمين، ثم برئ أبو يوسف من مرضه وقد أُعجِبَ بنفسه حين سمع شهادة شيخه له، فعقد مجلساً خاصاً منفرداً عن شيخه أبي حنيفة، فأرسل إليه أبو حنيفة من يسأله خمس مسائل دقيقة يحتاج الجواب فيها إلى تفصيل وإيضاح، فأخذ أبو يوسف في الإجابة وأدرك خطأه في انفراده عن شيخه، فعاد إلى حلقته، فقال له أبو حنيفة: تزَبَّتَ قبل أن تخرصِّمْ، من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك عن نفسه!.. هكذا كان الأمر. فلما أُنشئت المدارس جُعل للمتخرين فيها إجازات علمية يعطيها شيخ المدرسة، وهي تشبه الإجازات العلمية في عصرنا، ولم يكن يُسمح للأطباء بممارسة الطب إلَّا بعد نوال هذه الشهادة من كبير أطباء المدرسة.

□ كانت المدارس على هذا، وخاصة المعاهد العليا، تملأ مدن العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، ويدرك التاريخ بكثير من الإكثار والإعجاب نفراً من أمراء المسلمين كانت لهم اليد الطولى في إنشاء المدارس في مختلف الأمصار، منهم صلاح الدين الأيوبي، فقد أنشأ المدارس في جميع المدن التي كانت تحت سلطانه في مصر ودمشق والموصل وبيت المقدس، ومنهم نور الدين الشهيد الذي أنشأ في سوريا وحدتها أربعة عشر معهداً، منها ستة في دمشق، وأربعة في حلب، وأثنان في حماه، وأثنان في حمص، وواحد في بعلبك، ومنهم نظام الملك الوزير السلجوقي

العظيم الذي ملأ بلاد العراق وخراسان بالمدارس حتى قيل فيه: إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة، وكان ينشئ المدارس حتى في الأماكن النائية، فقد أنشأ في جزيرة ابن عمرو مدرسة كبيرة حسنة، وكلما وجد في بلدة عالماً قد تميز وتبهر في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفاً وجعل فيها دار كتب. وقد كانت نظامية بغداد أولى المدارس النظامية وأهمها، درس فيها مشاهير علماء المسلمين فيما بين القرن الخامس والتاسع الهجري، وقد بلغ عدد طلابها ستة آلاف تلميذ، فيهم ابن أعظم العظام في المملكة وابن أفقر الصناع فيها، وكلهم يتعلمون بالمجان، وللطالب الفقير فوق كل ذلك شيء معلوم يتقادسه من الريع المخصص لذلك.

□ وبجانب هؤلاء العظام كان الأمراء والأغنياء والتجار يتسابقون في بناء المدارس والوقف عليها بما يضمن استمرارها وإقبال الطلاب عليها، وكثيرون جداً هم الذين جعلوا بيوتهم مدارس، وجعلوا ما فيها من كتب وما يتبعها من عقار وقفاً على طلاب العلم الدارسين فيها. وبذلك كثرت المدارس وخاصة في الشرق كثرة هائلة مدهشة، حتى أن ابن جبير الرحالة الأندلسي هاله ما رأى في الشرق من كثرة المدارس والغلات الوافرة التي تغله أوقافها، فدعا المغاربة أن يرحلوا للشرق لتلقي العلم، وكان مما قاله: «وتكثر الأوقاف على طلاب العلم في البلاد المشرقة كلها وبخاصة دمشق، فمن شاء الفلاح من أبناء مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد، فيجد الأمور المعينة على طلب العلم كثيرة، وأولها فراغ البال من أمر المعيشة».

□ وشهادة ابن جبير لها قيمتها، فإنه رحالة تميز بالصدق والأمانة في حديثه، وقد خص ابن جبير دمشق بكثرة المدارس والأوقاف، وكانت

كذلك حقاً أمداً طويلاً من تاريخنا، كانت مدارس دمشق العامرة التي يؤمها الطلاب تزيد على أربعين مدرسة، حتى أن الطالب الغريب إذا قدم دمشق يستطيع أن يقيم سنة فيها لا ينام في كل مدرسة إلّا ليلة واحدة.

□ وكانت المدارس متعددة الغايات، فمنها مدارس لتدريس القرآن الكريم وتفسيره وحفظه وقراءاته، ومنها مدارس للحديث خاصة، ومنها - وهي أكثرها - مدارس للفقه، لكل فقه مدارس خاصة به، ومنها مدارس للطب، ومنها مدارس للأيتام، وهو هو النعيمي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس - وهو من علماء القرن العاشر الهجري - يذكر لنا شيئاً بأسماء مدارس دمشق وأوقافها، ومنه نعلم أنه كان في دمشق وحدها للقرآن الكريم سبع مدارس، ولل الحديث ست عشرة مدرسة، وللقرآن، والحديث معًا ثلث مدارس، وللفقه الشافعي ثلاثة وستون مدرسة، وللفقه الحنفي اثنان وخمسون مدرسة، وللفقه المالكي أربع مدارس، وللفقه الحنيلي إحدى عشرة مدرسة، هذا عدداً مدارس الطب والرباطات والفنادق والزوايا والجوانع، وكلها كانت مدارس يتعلم فيها الناس.. وإنما ذكرنا مع هذا ما كان عليه الغربيون في تلك العصور نفسها من جهة مطبة ومن أميّة متفشية حتى لم يكن للعلم مأوى إلّا أديرة الرهبان، وهي مقصورة على رجال الكهنوت فقط، أدركنا أية عظمة بلغتها أمتنا في أوج مجدها، وكم كانت حضارتنا رائعة في تاريخ المؤسسات الاجتماعية والمعاهد العلمية، وكم كان للإسلام من يد في نشر العلم، ورفع مستوى الثقافة العامة، ويسير سبلها لسائر أبناء الشعب.

□ قال ابن كثير في «البداية والنهاية» في حوادث سنة إحدى وثلاثين

وستمئه: «فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد، ولم يُبن مدرسة قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربع، من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث، وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يستغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام، وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد..» إلى أن قال: «ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها»^(١).

المستشفيات:

في عهد الوليد بن عبد الملك أنشئ أول مستشفى في الإسلام، وهو خاص بالمجذومين، وجعل فيه الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبسهم لثلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق، ثم تتابع إنشاء المشافي، وقد كانت تعرف باسم البيمارستانات أي دور المرضى.

وكانت المستشفيات نوعين: نوعاً متنقلًا، ونوعاً ثابتًا، أما المتنقل، فأول ما عرف في الإسلام في حياة النبي ﷺ، في غزوة الخندق، إذ ضرب خيمة للجرحى فلما أصيب سعد بن معاذ في أكحله «والأكحل عرق في الذراع يقصد» قال ﷺ: «اجعلوه في خيمة رفيدة، حتى أعوده من قريب»، وهو أول مستشفى حربي متنقل في الإسلام، ثم توسع فيه الخلفاء والملوك من بعد، حتى أصبح المستشفى المتنقل مجهزاً بجميع ما يحتاجه المرضى، من علاج وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة، وكان ينقل من قرية إلى قرية في الأماكن التي لم يكن فيها مستشفيات ثابتة. كتب الوزير عيسى

(١) «من روائع حضارتنا» (ص ١٠٦ - ١٠٠) ملخصاً.

ابن علي الجراح إلى سنان بن ثابت، وكان يتولى النظر على مستشفيات بغداد وغيرها: «فكرت فيمن بالسوداء أي القرى - من أهلها، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطلب عليهم خلو السواد من الأطباء، فتقدما بإيفاد متطلبين - أي: أطباء - وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون السواد، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجون من فيه، ثم ينتقلون إلى غيره»، وقد بلغ بعض المستشفيات المتنقلة في أيام السلطان محمود السلاجوري حداً من الصخامة بحيث كان يحمل على أربعين جملأ.

وأما المستشفيات الثابتة، فقد كانت كثيرة تفيض بها المدن والعواصم، ولم تخلي بلدة صغيرة في العالم الإسلامي، يومئذ من مستشفى فأكثر، حتى أن قرطبة وحدها كان فيها خمسون مستشفى.

وتنوعت المستشفيات، فهناك مستشفيات للجيش يقوم عليها أطباء خصوصون، عدا أطباء الخليفة والقواد والأمراء، وهناك مستشفيات للمساجين، يطوف عليهم الأطباء في كل يوم فيعالجون مرضاهم بالأدوية الازمة، وما كتب به الوزير علي بن عيسى بن الجراح إلى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد: «ففكرت في أمر من في الحبس؛ وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تناهم الأمراض، فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم كل يوم، وتحمل إليهم الأدوية والأشربة، ويطوفون في سائر الحبس، ويعالجون فيها المرضى».

وهناك محطات للإسعاف كانت تقام بالقرب من الجواجم والأماكن العامة التي يزدحم فيها الجمهر، ويحدثنا المقريزي أن ابن طولون حين

بني جامعه الشهير في مصر عمل في مؤخره ميضاً و خزانة شراب -أي: صيدلية أدوية- وفيها جميع الشرابات والأدوية، وعليها خدم، وفيها طيب جالس يوم الجمعة، لمعالجة من يصابون بالأمراض من المصلين.

وهناك المستشفيات العامة، التي كانت تفتح أبوابها لمعالجة الجمهور، وكانت تقسم إلى قسمين منفصلين بعضهما عن بعض: قسم للذكور، وقسم للإناث، وكل قسم فيه قاعات متعددة، كل واحدة منها ل النوع من الأمراض، فمنها للأمراض الداخلية، ومنها للعيون، ومنها للجراحة، ومنها للكسور والتجبير، ومنها للأمراض العقلية وقسم الأمراض الداخلية كان مقسماً إلى غرف أيضاً، فغرف منها للحُمّيات، وغرف للإسهال، وغير ذلك، ولكل قسم أطباء عليهم رئيس، رئيس للأمراض الباطنية ورئيس للجراحين والمجربين، ورئيس للكحالين -أي: أطباء العيون-، ولكل الأقسام رئيس عام يُسمى (ساعور) وهو لقب لرئيس الأطباء في المستشفى وكان الأطباء يستغلون بالنوبة، ولكل طبيب وقت معين يلازم فيه قاعاته التي يعالج فيها المرضى، وفي كل مستشفى عدد من الفراشين من الرجال والنساء والمرضى والمساعدين، و لهم رواتب معلومة وافرة، وفي كل مستشفى صيدلية كانت تسمى خزانة الشراب فيها أنواع الأشربة والمعالجين النفيسة، والمربيات الفاخرة، وأصناف الأدوية، والعطورات الفائقة التي لا توجد إلّا فيها، وفيها من الآلات الجراحية والأواني الزجاجية والزبادي وغير ذلك، ما لا يوجد إلّا في خزائن الملوك.

وكانت المستشفيات معاهد طبية أيضاً، ففي كل مستشفى إيوان كبير -قاعة كبيرة- للمحاضرات، يجلس فيه كبير الأطباء و معه الأطباء والطلاب، وبجانبهم الآلات والكتب، فيقعـد التلاميـذ بين يدي معلمـهم،

بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم، ثم تجري المباحث الطبية والمناقشات بين الأستاذ وتلاميذه، القراءة في الكتب الطبية، وكثيراً ما كان الأستاذ يصطحب معه تلاميذه إلى داخل المستشفى ليقوم بإجراء الدراسات العملية لطلابه على المرضى بحضورهم، كما يقع اليوم في المستشفيات الملحقة بكليات الطب، قال ابن أبي أصيبيعة - وهو من درس الطب في البيمارستان النوري بدمشق -: «كنت بعدما يفرغ الحكيم مذهب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم، أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحيبي فأعاني كيفية استدلاله على الأمراض وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها».

وكان لا يسمح للطبيب بالانفراد بالمعالجة حتى يؤدي امتحاناً أمام كبير أطباء الدولة، يتقدم إليه برسالة في الفن الذي يريد الحصول على الإجازة في معاناته، وهي من تأليفه أو تأليف أحد كبار علماء الطب، له عليها دراسات وشرح، فيمتحنه فيها ويسأله عن كل ما يتعلق بها فيها من الفن، فإذا أحسن الإجابة أجازه كبير الأطباء مما يسمح له بمزاولة مهنة الطب، وقد اتفق في عام ٩٣١ هـ - ١٩١٩ م في أيام الخليفة المقender أن بعض الأطباء أخطأوا في علاج رجل فمات، فأمر الخليفة أن يتمتحن جميع أطباء بغداد من جديد، فامتحنهم سنان بن ثابت كبير أطباء بغداد، فبلغ عددهم في بغداد وحدها ثمانية طبيب ونيف وستين طبيباً، هذا عدا عمن لم يتمتحنوا من مشاهير الأطباء، وعدا أطباء الخليفة والوزراء والأمراء.

ولا يفوتنا أن نذكر أنه كان يلحق بكل مستشفى مكتبة عامرة بكتب الطب وغيرها مما يحتاجه الأطباء وتلاميذهم، حتى قالوا: إنه كان في

مستشفى ابن طولون بالقاهرة خزانة كتب تحتوي على ما يزيد على مئة ألف مجلد في سائر العلوم.

أما نظام الدخول إلى المستشفيات، فقد كان مجاناً للجميع، لا فرق بين غني وفقير و بعيد و قريب، ونابه و خامل، يُفحص المرضى أولاً بالقاعة الخارجية، فمن كان به مرض خفيف يكتب له العلاج، ويصرف من صيدلية المستشفى، ومن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى كان يقيده اسمه، ويدخل إلى الحمام، وتخلع عنه ثيابه فتوضع في مخزن خاص، ثم يعطى ثياباً خاصة للمستشفى، ويدخل إلى القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى، وينخصص له سرير مفروش بأثاث جيد، ثم يعطى الدواء الذي يعيّنه الطبيب، والغذاء الموافق لصحته، بالمقدار المفروض له، وكان غذاء المرضى يحتوي على لحوم الأغنام والأبقار والطيور والدجاج، وعلامة الشفاء أن يأكل المريض رغيفاً كاملاً ودجاجة كاملة في الوعقة الواحدة، فإذا أصبح في دور النقاوة أدخل القاعة المخصصة للناقهين، حتى إذا تم شفاءه أعطى بدلة من الثياب جديدة، ومبلاغاً من المال يكفيه إلى أن يصبح قادراً على العمل. وكانت غرف المستشفى نظيفة تجري فيها المياه، وقاعاته مفروشة بأحسن الأثاث، ولكل مستشفى مفتشون على النظافة، ومراقبون للقيود المالية، وكثيراً ما كان الخليفة أو الأمير يتفقد بنفسه المرضى ويشرف على حسن معاملتهم.

هذا هو النظام السائد في جميع المستشفيات التي كانت قائمة في العالم الإسلامي، سواء في المغرب أم في المشرق.. في مستشفيات بغداد ودمشق والقاهرة والقدس ومكة والمدينة والمغرب والأندلس.. وسنقتصر في حديثنا على أربع مستشفيات في أربع مدن من عواصم

الإسلام في تلك العصور.

الأول: المستشفى العضدي ببغداد: بناء عضد الدولة بن بويه عام ٣٧١هـ بعد أن اختار الرازي الطبيب المشهور مكانه بأن وضع أربع قطع لحم في أربعة أنحاء بغداد ليلاً، فلما أصبح وجد أحسنها رائحة في المكان الذي أقيم عليه المستشفى فيها بعد، فأقيم المستشفى وأنفق عليه مالاً عظيماً، وجمع له من الأطباء أربعة وعشرين طبيباً، وألحق به كل ما يحتاج إليه من مكتبة علمية وصيدلية ومطابخ ومخازن وفي عام ٤٤٩هـ جدد الخليفة القائم بأمر الله هذا المستشفى، وجمع فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعز وجودها كثيراً، وأقام الفرش واللحف للمرضى، والعطورات الطبية والأسرة والثلج والمستخدمين والأطباء والفراشين، وله بوابون وحراس، وفيه حمام، وبجانبه بستان قد حوى كل أنواع الشمار والبقول، والسفن على مئة تنقل الضعفاء والفقراة، والأطباء يتناوبونهم بكرة وعشية، ويبيتون عندهم بالنوية.

الثاني: المستشفى النوري الكبير بدمشق: أنشأه السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد سنة ٥٤٩هـ ١١٥٤م من مال أخذه فدية من أحد ملوك الفرنج، وكان حين بنائه من أحسن ما بني من المستشفيات في البلاد كلها، شرط فيه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا اضطر الأغنياء إلى الأدوية التي فيه يسمح لهم بها، وكان الشراب فيه والدواء مباحاً لكل مريض يقصده، وقد دخله ابن جبير الرحالة عام ٥٨٠هـ، فوصف عناية الأطباء بالمرضى وتفقدهم لشئونهم، وإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية، وكان فيه قسم خاص بالأمراض العقلية، يوثق فيه المجانين بالسلال مع العناية بعلاجهم وغذائهم، ويدرك بعض المؤرخين أنه زار دمشق عام ٨٣١هـ.

رجل أعمجي من أهل الفضل والذوق واللطفة، فلما دخل المستشفى النوري، ونظر إلى كثرة أطبائه، وحسن العناية بمرضاه، وما يحتويه من المأكل والتحف واللطائف التي لا تمحى، أراد أن يختبر معرفة أطبائه، فتدارض وأقام به ثلاثة أيام ورئيس الأطباء يتردد إليه ليختبر ضعفه، فلما جسّ نبضه علم أنه غير مريض، وأنه إنما أراد اختبار أطبائه، فوصف له الأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلوى والأشربة والفواكه المتنوعة، ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة يقول فيها: إن الضيافة عندنا ثلاثة أيام.. عرف الأعمجي أنهم فطنوا لقصده، وأنهم استضافوه في المستشفى هذه المدة كلها.

وقد استمر هذا المستشفى يقوم بعمله العظيم حتى سنة ١٣١٧ هـ، حيث أنشأ مستشفى الغرباء، وهو المستشفى الذي تشرف عليه الآن كلية الطب في الجامعة السورية، فأقفل المستشفى النوري ثم استعمل مدرسة أهلية.

الثالث - المستشفى المنصوري الكبير: المعروف بمارستان قلاوون، كان داراً لبعض الأمراء، فحوّلها الملك المنصور سيف الدين قلاوون إلى مستشفى عام ٦٨٣ هـ - ١٢٨٤ م، وأوقف عليه ما يغل عليه ألف درهم في كل سنة، وألحق به مسجداً ومدرسة ومكتباً للأيتام. قالوا: وكان سبب بنائه أن الملك المنصور قلاوون، لما توجه وهو أمير إلى غزو الروم، في أيام الظاهر بيبرس عام ١٢٧٥ م أصابه بدمشق مرض، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من المستشفى النوري الكبير، فبراً، وركب حتى شاهد المستشفى بنفسه، فأعجب به ونذر لله إن آتاه الله الملك أن يبني مثله، فلما صار سلطاناً اختار هذه الدار فاشتراها وحوّلها إلى مستشفى، وكان آية من

آيات الدنيا في التنظيم والترتيب، جعل الدخول إليه والانتفاع منه مباحاً لجميع الناس من ذكر وأثنى وحر وعبد وملك ورعيه، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة، ومن مات جُهز وكُفّن ودُفن، وعين فيه الأطباء من مختلف فروع الطب، كما وظف له الفراشين والخدم خدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام، بحيث كان لكل مريض شخصان يقومان بخدمته، وجعل لكل مريض سريرًا وفرشًا كاملاً، وأفرد لكل طائفة من المرضى أماكن تختص بهم، ورتب فيه مكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء دروس الطب على الطلبة، ومن أروع ما فيه أن الاستفادة منه ليست مقصورة على من يقيم فيه من المرضى، بل رتب له من يطلب وهو في منزله ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية، وأدى هذا المستشفى عمله الإنساني الجليل حتى أخبر بعض أطباء العيون الذين عملوا فيه أنه كان يعالج فيه كل يوم من المرضى الداخلين إليه والناقدين والخارجين أربعة آلاف نفس، ولا يخرج منه كل من يبراً من مرض حتى يعطى كسوة للباسه ودرارهم لنفقاته حتى لا يضطر للالتجاء إلى العمل الشاق فور خروجه.

ومن أروع ما فيه أيضاً، النص في وقوفيته على أن يقدم طعام كل مريض بزبدية خاصة به من غير أن يستعملها مريض آخر، ووجوب تغطيتها وإيصالها إلى المريض بهذا الشكل.

□ ومن أروع ما فيه أن المؤرّقين من المرضى كانوا يُعزلون في قاعة منفردة. يُشنّفون فيها آذانهم بسماع القصص يُلقيها عليهم القُصّاص، وكان الناقهون منهم تُروى لهم الأشياء المضحكة، أو تُنشد لهم الأناشيد بأصوات نديّة تخفيقاً للألام المرضى الذين يضجرهم السهر وطول الوقت.

وهذا لعمر الله سُمُّو إنساني عجيب، وفطنة طبَّية لم ينتبه إليها العالم الحديث إلَّا في العصر الحاضر.

ويذكرني هذا بما كنت سمعته في مدينة طرابلس عن وقف غريب مخصص ريعه لتوظيف اثنين يمران بالمستشفيات يوميًّا، فيتحدثان بجانب المرضى حديثًا خافتًا ليس معه المريض بما يوحى له بتحسن حالته واحمرار وجهه وبريق عينيه.

ونرى من الفائدة أن نذكر نص الوقفية لهذا المستشفى العظيم، كما ذكرها مؤلف تاريخ البيمارستانات في الإسلام.

«إِنَّ أَحَقَّ مَا اتَّهَزَتْ فَرَصَ أَجْرُهُ الْعَزَائِمُ، وَأَحْرَزَتْ مَوَاهِبَ بَرِّهِ
الْغَنَائِمُ، وَأَجْدَرَ مَا تَبَهَّ لَاغْتِنَامُ ثَوَابِهِ كُلُّ نَائِمٍ، وَأَوْلَى مَا تَوَجَّهُ إِلَيْهِ كُلُّ
مَتَوَجِّهٍ وَقَامَ إِلَيْهِ كُلُّ قَائِمٍ، مَا عَادَتْ بِالْخَيْرَاتِ عَوَائِدُهُ، وَزَادَتْ فِي الْمَسَرَاتِ
زَوَائِدُهُ، وَاسْتَمْرَتْ عَلَى الْآبَاءِ فَوَائِدُهُ، وَاسْتَقْرَرَتْ عَلَى التَّقْوَى بِتَطَاوِلِ
الْآمَالِ قَوَاعِدُهُ، وَهِيَ الْأَوْقَافُ الْعَمِيمُ بِرَبِّهَا، الْمَقِيمُ أَجْرُهَا، الْجَسِيمُ وَفَرَّهَا،
الْكَرِيمُ ذَخِرُهَا، فَهِيَ الْحَسَنَاتُ الَّتِي هِيَ الْجَنَانُ، وَالْقَرِبَاتُ الَّتِي فِيهَا
رَضْوَانُ الرَّحْمَنِ، وَالصَّدَقَاتُ الَّتِي هِيَ مَهْوَرُ الْحُورِ الْحَسَانِ، وَالنَّفَقَاتُ
الَّتِي هِيَ بِحُورِ الْأَجْوَرِ وَاللَّؤْلُؤِ الْمَرْجَانِ.. وَلَا يَخْفَى مَا فِيهَا مِنْ إِدْخَالِ
السَّرُورِ عَلَى الْمَرِيضِ الْفَقِيرِ، وَإِيصالِ الْحَبُورِ إِلَى قَلْبِهِ الْكَسِيرِ، وَإِنَّا هُوَ بِإِيَّوْاْهِ
وَمَدَاوَاتِهِ، الَّذِي لَا يَعْبُرُ عَنْ وَفُورِ أَجْرِهِ بِتَعْبِيرِ، فَطُوبِي لِمَنْ عَامَلَ مُولَاهِ
الْعَزِيزَ الْغَفارَ، وَرَاقِبَهُ مِراقبَةُ الْعَالَمِ بِسَرِّهِ وَنَجْوَاهِ فِي الإِيْرَادِ وَالْإِصْدَارِ،
وَأَقْرَضَهُ أَحْسَنَ الْقَرْوَضِ، عَلَى حَسْبِ الْإِمْكَانِ وَالْإِقْدَارِ، وَانتَهَى الْفَرَصَةُ
بِالْإِسْتِبَاقِ، وَأَحْرَزَ بِاغْتِنَامِ أَجْرِهِ قَصْبَ السَّبَاقِ، فَسَاعَدَ الْفَقِيرَ الْمُسْلِمَ

على إزالة ألمه، ومداواة سقمه، مساعدة تنجيه غدًا من عذاب ربه الخالق، ورجاء أن تكون له بها عند الله الرتبة العظمى، والقربة التي لا يخاف بأجرها ظلماً ولا هضماً، والحسنة التي لا تبقي لذنبه همّا. ولما علم بذلك مولانا السيد الأجل، السلطان الملك المنصور العالم العادل.. فتقدمن أمره الشريف بوقف البيمارستان المنصوري.. — وهنا تذكر الوقفيةُ وصفه ومكانه وأوقافه - مداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين، بالقاهرة ومصر وضواحيها، من المقيمين بها والواردين إليها من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم، وتباين أمراضهم وأوصابهم، من أمراض الأجسام، قلت أو كثرت، اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس خفية أو ظهرت، واحتلال العقول التي حفظها أعظم المقاصد والأغراض، وأول ما يجب الإقبال عليه دون الانحراف عنه والإعراض، وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه، بالأدوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب، والانشغال فيه بعلم الطب والاشغال به، يدخلونه جموعاً ووحدات، وشيوخاً وشباباً، وبلغاء وصبياناً، وحرماً وولداً، يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء مداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم، ويصرف ما هو معد فيه للمداواة، ويفرق للبعيد والقريب، والأهلي والغريب، والقوى والضعف، والدني والشريف، والعلي والحقير، والغني والفقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير، والمفضول والفضل، المشهور والخامل، والرقيق والوضيع، والمترف والصلعوك، والمليك والمملوك، من غير اشتراط لعوض من الأعواض، ولا تعريض بإنكار على ذلك ولا اعتراض، بل لمحض فضل الله وطؤله الجسيم،

وأجره الكريم، وبره العميم، وأمره بإجراه النفقات على من يقوم بمصالح المرضى به من الأطباء والكحالين، والجرائحين وطباخى الشراب والمزاور والطعوم، وصانعي المعاجين والأكحال والأدوية والمسهلات المفردة والمركبة، وعلى القومة والفراشين والخزان والأمناء والمبashرين وغيرهم من جرت عادة أمثالهم بذلك، وعلى ما يقوم بمداواة المرضى من الأطعمة والأشربة، والأكحال والشيافات، والمعاجين والمراهم والأدهان والشربات، والأدوية المركبة والمفردة، والفرش والقدور والآلات المعدة للانتفاع بها في مثله، ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ما تدعو حاجة المرضى إليه من مشموم في كل يوم، وزبادي فخار برسم أغذيتهم، وأقداح زجاج وغرار برسم أشربthem، وكيزان وأباريق فخار، وقصاري فخار، وزيت للوقود عليهم، وبباء من بحر النيل المبارك باسم شربهم وأغذيتهم، .. ولأجل تغطية أغذيتهم عند صرفها عليهم، وفي ثمن مراوح خوص لأجل استعمالهم إياها في الحر، ويصرف الناظر ثمن ذلك من ريع هذا الوقف، في غير إسراف ولا إجحاف، ولا زيادة على ما يحتاج إليه، كل ذلك بحسب ما تدعو الحاجة لزيادة الأجر والثواب، ويصرف الناظر في هذا الوقف لرجلين مسلمين موصوفين بالديانة والأمانة، يكون أحدهما خازنًا لمخزن حاصل التفرقة، يتولى تفرقة الأشربة والأكحال والأعشاب والمعاجين والأدهان والشيافات، المأذون له في صرف ذلك من المبashرين، ويكون الآخر أميناً يتسلم صبيحة كل يوم وعشيتها أقداح الشراب المختصة بالمرضى والمختلين من الرجال والنساء المقيمين بهذا المارستان، ويفرق ذلك عليهم ويباشر شرب كل منهم لما وصف له من ذلك، ويباشر المطبخ بهذا المارستان وما يطبخ به

للمرضى من مزاور ودجاج وفرايج ولحم وغير ذلك، ويجعل لكل مريض ما طبخ له في كل يوم في زبدية منفردة له من غير مشاركة مع مريض آخر، ويغطيها ويوصلها إلى المريض إلى أن يتكامل إطعامهم ويستوفي كل منهم غذاءه وما وصف به بكرة وعشية، ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا المارستان من الأطباء المسلمين الطبائعين والكحالين والجرائحين بحسب ما يقتضيه الزمان وحاجة المرضى، وهو مخier في العدة وتقرير الجامكيات ما لم يكن في ذلك حيف ولا شطط، يباشرون المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا المارستان، مجتمعين ومتناوبين باتفاقهم على التناوب، أو بإذن الناظر في التناوب، ويسألون عن أحوالهم وما يتجدد لكل منهم، من زيادة مرض أو نقص، ويكتبون بما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء وغيره في دستور ورق ليصرف على حكمه، ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالمارستان، مجتمعين أو متناوبين، ويجلس الأطباء الكحالون لمداواة أعين الرمداء بهذا المارستان، ولمداواة من يرد إليهم به من المسلمين بحيث لا يرد أحد من المسلمين الرمداء من مداواة عينيه بكرة كل يوم، ويباشرون المداواة ويتلطفون فيها، ويرفقون بالرمداء في ملاطفتهم، وإن كان بينهم من به قروح أو أمراض في عينه تقتضي مراجعة الكحال للطبيب الطباعي، راجعه وأحضره معه، وباشر معه من غير انفراد عنه، ويراجعه في أحوال برئه وشفائه، ويصرف الناظر في هذا الوقف لمن ينصبه شيخاً للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه، يجلس بالمسطبة الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار إليه، للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه، في الأوقات التي يعينها له الناظر ما يرى صرفه إليه، ول يكن جملة أطباء البيمارستان المبارك من غير زيادة عن

العدد، ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف للقومة والفراسين الرجال والنساء بهذا البيمارستان، ما يرى صرفه إلى كُل بحسب عمله، على أن كُلَّاً منهم يقوم بخدمة المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا البيمارستان وبغسل ثيابهم وتنظيف أماكنهم، وإصلاح شؤونهم والقيام بمصالحهم على ما يراه من العدة والتقدير، بحيث لا يزيد في العدة ولا في المقادير على الحاجة إليه في ذلك بحسب الزمان والمكان، ويصرف الناظر ما تدعوه الحاجة إليه في تكفين من يموت بهذا المارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء، فيصرف ما يحتاج إليه برسم غسله وثمن كفنه وحنوطه، وأجرة غاسله وحافر قبره ومواراته في قبره على السنة النبوية والحالة المرضية، ومن كان مريضاً في بيته وهو فقير كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاج إليه من حاصل لهذا المارستان، من الأشربة والأدوية والمعالجين وغيرها، مع عدم التضييق في الصرف على من هو مقيم به، فإن مات بين أهله صرف إليه الناظر في موته بتجهيزه وتغسيله وتكفيته وحمله إلى مدفنه ومواراته في قبره ما يليق بين أهله، ومن حصل له الشفاء والعافية من هو مقيم بهذا البيمارستان المبارك صرف الناظر إليه من ريع هذا الوقف المذكور كسوة مثله على العادة، بحسب الحال من غير زيادة تقتضي لتضييق على المرضى والقيام بمصالحهم، كل ذلك على ما يراه الناظر ويفؤدي إليه اجتهاده بحسب ما تدعوه إليه الحاجة، وعلى الناظر في هذا الوقف أن يراعي تقوى الله سبحانه وتعالى سرّاً وجهرًا، ولا يقدم صاحب جاه على ضعيف، ولا قويّاً على من هو أضعف منه، ولا متأنلاً على غريب، بل يقدم في الصرف إليه زيادة الأجر والثواب والتقرب إلى رب الأرباب.

الرابع: مستشفى مراكش: وهو الذي أنشأه أمير المؤمنين المنصور أبو يوسف من ملوك الموحدين بالمغرب، تخير ساحة فسيحة في مراكش بأعدل موضع فيها، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، وأمر أن يغرس فيه من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره ما لا يوصف، وأقام فيه الصيادلة لعمل الأشربة والأدahan والأكحال، وأعد فيه للمريض ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريض، فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بهال يعيش به ريثما يستغل، وإن كان غنياً دفع إليه ماله، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج حتى يشفى أو يموت، وكان في كل جمعة يزوره ويعود المرضى ويسأل عن أحواهم وعن معاملة الأطباء والممرضين لهم.

□ وبعد، بهذه نماذج أربعة من مئات المستشفيات التي كانت متشرة في شرق العالم الإسلامي وغربه، يوم كانت أوربة تていه في ظلام الجهل ولا تعرف شيئاً من هذه المستشفيات ودقتها ونظافتها وسمو العاطفة الإنسانية فيها، وإليك ما قاله المستشرق الألماني «ماكس مايرهوف» عن حالة المستشفيات في أوربا في العصر الذي كانت فيه المستشفيات في حضارتنا كما وصفناها.. قال الدكتور «ماكس»: «إن المستشفيات العربية ونظم الصحة في البلاد الإسلامية الغابرة لتلقى علينا الآن درساً قاسياً مرّاً لا نقدره حق قدره إلاّ بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات أوربا في ذلك الزمن نفسه».

أكثر من ثلاثة قرون على أوربا، اعتباراً من زمننا هذا قبل أن تعرف المستشفيات العامة معنى، ولا يبالغ إذا قلنا بأنه حتى القرن الثامن عشر (١٧١٠م) والمرضى يعالجون في بيوتهم أو في دور خاصة كانت المستشفيات الأوروبية قبلها عبارة عن دور عطف وإحسان، ومؤوى لمن لا مؤوى لديه، مرضى كانوا أم عاجزين، وأصدق مثال لذلك هو مستشفى «أوتيل ديو» بباريس، أكبر مستشفيات أوربا في ذلك العصر، وصفه كل من «ماكس توردو» و«تينون» بها يلي:

«يحتوي المستشفى على ١٢٠٠ سرير، منها ٤٨٦ خصصت لنفر واحد، أما الباقى ولم تكن سعة الواحد منها تتجاوز خمسة أقدام فتجد فيها عادة ما يتراوح بين ثلاثة مرضى وستة، وكانت الردهات الكبرى عفنة كثيرة الرطوبة، لا منافذ تهوية فيها، مظلمة دوماً، ترى فيها في كل حين حوالي ثمانين مريض يفترشون الأرض وهم مكدسون بعضهم فوق بعض، على القاع أو على كوم من القش، في حالة يرثى لها.. إنك لتجد في السرير ذي الحجم المتوسط أربعة أو خمسة أو ستة مرضى متلاصقين، قدم أحدهم على رأس الثاني، تجد أطفالاً بجانب شيخ، ونساء بجانب رجال، «قد لا تصدق لكنها الحقيقة» تجد امرأة في المخاض مع طفل في حالة تشنج مصاب بالتيروس يحترق في بحران الحمى، وكلاهما إلى جنب مريض بداء جلدي يجعك جلده المتهര بأظفاره الدامية فيجري قبح البثور على الأغطية. وطعام المرضى من أحسن ما يتصوره العقل، يوزع عليهم بكميات قليلة للغاية، وفي فترات متباينة لا نظام فيها، واعتادت الراهبات أن يحيطن المرضى الطائعين المنافقين على حساب الآخرين،

فيسقينهم الخمور، ويصلنهم بالحلوى والماكل الدسمة مما يتفضل به المحسنون في الوقت الذي هم فيه أحوج إلى الحمية، فيماوت الكثير منهم بالتخمة ويفطس غيرهم جوعاً، وكانت أبواب المستشفى مفتوحة في كل وقت وحين لكل رائح وغاد، وبهذا تنتشر العدوى بانتقامها، وبالفضلات وبالهواء التتن الملوث، وإن لم يتفضل المحسنون على المرضى ماتوا جوعاً، كما يموتون أحياناً بالتخمة أو من فرط السكر، والفرش حافلة بالحشرات الدنبلية، وهواء الحجرات لا يطاق لفساده، حتى أن الخدم والممرضين لم يكونوا يحرؤون على الدخول إلا بعد وضع إسفنجية مبللة بالخل على أنوفهم، وتترك جثث الموتى ٢٤ ساعة على الأقل قبل رفعها من السرير المشاع، وكثيراً ما تتفسخ الجثة وتعفن وهي ملقاة بجانب مريض يكاد يطير صوابه».

هذه مقارنة بسيطة بين حالة المستشفيات عندنا في عهود حضارتنا، وحالتها عند الغربيين في تلك العصور، وهي تدل على مبلغ الانحطاط العلمي الذي كان عليه القوم من الجهل الفاضح بأصول المستشفيات، بل بقواعد الصحة العامة البديهية.

إن حضارتنا كانت أسبق من الغربيين إلى تنظيم المستشفيات بتسعة قرون على الأقل.. وأن مستشفياتنا قامت على عاطفة إنسانية نبيلة لا مثيل لها في التاريخ ولا يعرفها الغربيون حتى اليوم.. وأننا بلغنا في تحقيق التكافل الاجتماعي حدّاً لم تبلغه الحضارة الغربية حتى اليوم حين نجعل الطب والعلاج والغذاء للمريض بالمجان، بل حين كنّا نعطي الفقير الناقه من المال ما يُنفق على نفسه حتى يصبح قادرًا على العمل.. إن هذه نزعة

إنسانية بلغنا فيها الذروة يوم كنا نحمل لواء الحضارة، فأين نحن منها اليوم، وأين منها هؤلاء الغربيون؟^(١).

المكتبات:

□ الحديث عن المكتبات في حضارتنا حديث شيق، فقد كانت مدارس للتعليم، ومؤسسات ينفق عليها الأمراء والأثرياء والعلماء، ليتشرر العلم بين الناس، وخصوصاً في ذلك الزمان الذي لم تكن فيه الطباعة موجودة، وكانت الكتب تنسخ على أيدي نسّاخ متخصصين لهذا العمل، فكان يبلغ بذلك ثمن الكتاب حداً قد يتعدّر على طالب العلم أو العالم الفقير شرأوه، فكيف إذا أراد أن تكون له مجموعة من الكتب في الفن أو العلم الذي يتخصص فيه؟ ومن هنا كان قيام المكتبات في مجتمعنا الماضي منبعاً عن عاطفة إنسانية وعن نزعة علمية في وقت واحد.

□ لعل الأدب العربي هو أغنى الأداب العالمية القديمة باللغني بالكتاب والولع به والرغبة فيه والتحدث عنه، حتى لكانه حبيب نأى مزاره وشطّت داره، فالقلوب إليه منصرفة وبه مولعة، قال أحمد بن إسماعيل: «الكتاب هو المسامر الذي لا يبتدىك في حال شغلك، ولا يدعوك في وقت نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمل له، والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يُملّك، والناصح الذي لا يسترلّك». ولقد كانوا يفضلون مطالعة الكتب على غشيان الناس في مجالسهم، ويرون الأنس بها أقرب إلى القلب من الأنس بال الخليفة أو ذي سلطان..

(١) (من روائع حضارتنا) (ص ١٠٧ - ١١٨) ملخصاً.

أمينون مأمونون غيّراً ومشهداً	هُمْ جلساً ماتل حديثهم
معيناً على نفي الموم مؤيداً	إذا ما خلونا كان خير حديثهم
وعقلاً وتأديباً ورأياً وسؤداً	يفيدوننا من علمهم علم ما مضى
ولا نتقي منهم لساناً ولا يداً	فلا ريبة تخشى ولا سوء عشرة
وإن قلت أحياء فلست بكافراً	فإن قلت أموات فلست بكاذب

□ وفضَّلَ الصاحب بن عباد أن يبقى بجانب مكتبه على أن يتولى أعظم المناصب في بلاط نوح بن منصور الساماني، ذلك أنه مولع بمكتبه، فلا هو يستطيع الذهاب بدوتها، ولا هو يستطيع حملها معه، فاثر أن يبقى بجانبها.

بهذه الروح العلمية شغف علماؤنا وأغنياؤنا وأمراهؤنا بالكتب وجمعها، حتى أنهم كانوا يرون نكباتهم في أموالهم وبيوتهم أيسر عليهم من نكباتهم في كتبهم.

□ هجم الجنود مرة على دار ابن العميد بعد أن انتصروا على غلمانه وحراسه، ففر ابن العميد إلى دار الإمارة، فوجد أن خزائنه جميعها قد نهبت، حتى أنه لم يجد ما يجلس عليه، ولا وجد كوزاً يشرب فيه الماء واشتغل قلبه بدافاته وكتبه، ولم يكن شيء أعز عليه منها، وكانت كثيرة تشمل جميع العلوم، وكل نوع من أنواع الحكم والأدب، تحمل على مئة بعير فأكثر، فلما رأى ابن العميد خازن مكتبه سأله عنها فأجابه: هي بحاتها لم تمسها يد، فسرّي عن ابن العميد، وقال لخازنه: أشهد أنك ميمون النقية، أما سائر الخزائن فيوجد عنها عوض، وهذه الخزانة –أي مكتبه-

هي التي لا عوض لها.

□ وبهذه الروح العلمية كانوا يتنافسون في شراء المؤلفات العلمية من مؤلفيها غب الانتهاء من تأليفها. سمع الحكم أمير الأندلس بكتاب الأغاني المشهور الآن في عالم الأدب، فأرسل إلى مؤلفه أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار من الذهب ثمن نسخة منه، فأرسل إليه أبو الفرج نسخة من كتابه، فقرئ كتابه في الأندلس قبل أن يقرأ في العراق موطن المؤلف.

وقد نشأ عن هذه الروح العلمية انتشار المكتبات في شتى أنحاء العالم الإسلامي، فقلما كانت مدرسة ليس بجانبها مكتبة، وقل أن تجد قرية صغيرة ليس فيها مكتبة، أما العواصم والمدن فقد كانت تغضّ بدور الكتب بشكل لا مثيل له في تاريخ العصور الوسطى.

□ كانت المكتبات نوعين رئيين: عامة و خاصة.

أما العامة فقد كان ينشئها الخلفاء والأمراء والعلماء والأغنياء، كانت تشييد لها أبنية خاصة، وأحياناً كانت تلحق بالمساجد والمدارس الكبرى.

أما الأبنية الخاصة، فقد كانت تستقبل على حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة، وكانت الكتب تتوضع على رفوف مثبتة بالجدران تخصص كل غرفة لفرع من فروع العلم، فلكتب الفقه غرفة، ولكتب الطب غرفة، ولكتب الأدب غرفة، وهكذا. وكان فيها أروقة خاصة للمطالعين، وغرف خاصة للنساخ الذين ينسخون الكتب، وفي بعضها غرف للموسيقى، يلتجأ إليها المطالعون للترفيه وتحديث النشاط. وهذا مما تفرد به حضارتنا - وفيها غرف لحلقات الدراسة والنقاش العلمي بين رواد

تلك المكتبات، وكانت جميعها تؤثر تأثيراً فخماً ومرحباً، وكان في بعضها غرف لطعام روادها، ومنامة للغرباء منهم. كالذى قيل في مكتبة علي بن يحيى بن المنجم، فقد كان له قصر عظيم في قرية قريبة من بغداد «هي كركر من نواحي القفص»، وفيه مكتبة عظيمة كان يسمى بها خزانة الحكمة، يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم، والكتب مبذولة في ذلك لهم، والأرزاق معدقة عليهم، وكل ذلك من مال علي بن يحيى نفسه، بل هنالك ما هو أطرف من ذلك مما لا نعلم له مثيلاً اليوم في أرقى عواصم الحضارة الغربية، فقد كان في الموصل دار أنشأها أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي، وسماها دار العلم، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب علم لا يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب وكان معسراً أعطاه ورقة وورقاً - أي: كتاباً ونقوداً -، وكانت تفتح في كل يوم.. فهل سمعتم حتى الآن بمكتبة في لندن أو واشنطن أو عاصمة من عواصم العالم الكبرى اليوم تمنع الأدب والأموال لطلبة العلم؟ ..

وكان للمكتبات العامة موظفون يرأسهم خازن المكتبة، وهو دائمًا من أشهر علماء عصره، وتناولون الكتب للمطالعين، ومتربجون ينقلون الكتب من غير العربية إلى العربية، ونساخ يكتبون الكتب بخطوطهم الجميلة، ومجلدون يجلدون الكتب لحفظ من التمزق والضياع، هذا عدا عن الخدم وغيرهم من تقاضيهم حاجة المكتبات.

وكان لكل مكتبة صغيرة أو كبيرة فهارس يُرجع إليها لسهولة استعمال الكتب، وهي مبوية بحسب أبواب العلم، وبجانب هذا كانت توضع قائمة على كل دولاب تحتوي على أسماء الكتب الموجودة في

الدولاب، وكان من المعروف في نظام المكتبات أن الاستعارة الخارجية مسموحة في أغلبها لقاء ضمان عن الكتاب من عامة الناس، أما العلماء وذوو الفضل فلم يؤخذ منهم ضمان.

أما الموارد المالية التي كانت تقوم ببنقات المكتبات، فمنها ما كان من الأوقاف التي تنشأ من أجلها خاصة، وهذه حال أكثر المكتبات العامة ومنها ما كان من عطايا الأمراء والأغنياء والعلماء الذين يؤسسون تلك المكتبات، فقد قالوا: إنه كان عطاء محمد بن عبد الملك الزيارات للنقلة والنساخ في مكتبته الفي دينار كل شهر. وكان المؤمن يعطي حنين بن إسحاق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلًا بمثل.

والآن لنذكر بعض الأمثلة عن المكتبات العامة والخاصة التي كان لها ذكر في التاريخ من أشهر المكتبات :

□ مكتبة الخلفاء الفاطميين في القاهرة: كانت مكتبة عجيبة بها حوت من نفائس المصاحف والكتب، بلغ مجموع كتبها كما يروي كثير من المؤرخين مليوني كتاب، وإن كان المقرizi يميل إلى أنها مليون وستمائة ألف كتاب.

□ ومنها مكتبة دار الحكمة بالقاهرة: أنشأها الحاكم بأمر الله، وافتُتحت في ١٠ من جمادي الآخرة ٣٩٥هـ. بعد أن فُرشت وزُخرفت، وعلقت على جميع أبوابها ومراتها ستور، وأقيمت بها القوامون والمناولون والفرّاشون، وقد جُمع فيها من الكتب ما لم يجتمع لأحد قط من الملوك، حتى كانت تضم أربعين خزانة، احتوت إحدى خزائنهما على ١٨٠٠٠ كتاب من العلوم القديمة، وكان الدخول إليها مباحًا لجميع الناس،

فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وكان فيها كل ما يحتاج إليه الناس من الخبر والأقلام والورق والمحابر.

□ منها بيت الحكم في بغداد: أنشأها هارون الرشيد، وبلغت ذروة مجدها في عصر المأمون. كانت أشبه بجامعة فيها كتب يجتمع فيها رجال يتفاوضون ويطالعون وينسخون، وكان فيها نسخاً ومتربجون يتրجمون ما كان يحصل عليه الرشيد والمأمون في فتوحاتهم بأنقرة وعمورية وقبرص، ويحدثنا ابن النديم أن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد انتصر عليه المأمون في بعض المعارك، فجعل من شروط الصلح أن يسمح ملك الروم بترجمة ما في خزائنه من كتب بواسطة العلماء الذين يرسلهم المأمون، ففعل، وهذا أعظم ما يُروى في التاريخ عن حاكم متصر لا يرى ثمناً للنصر أغلى من كتب العلم ينقلها إلى أبناء أمته وببلاده.

مكتبة الحكم بقرطبة بالأندلس أكبر مكتبات العالم:

بدأت النهضة العلمية في حياة الخليفة عبد الرحمن الناصر، وقد بلغ من عنانة الناصر بالعلم والمعرفة أن بذل جهداً خارقاً في جمع الكتب، كما وضع أساس المكتبة الأموية الكبرى ^(١) التي ازدهرت في عهد ابنه «المستنصر» ورفعت من شأن الأندلس كمنارة علمية كبرى يقصدها القاصي والداني.

□ ويذكر أنه اشتهر عنه اهتمامه بالكتب وولعه الشديد باقتنائها، حتى بلغ ذلك أحد ملوك عصره، وهو الإمبراطور -أرمانوس- الذي أرسل له

(١) «المكتبات في الإسلام» ماهر حمادة (ص ١٢٢).

هدية علمية يتودده ويأمل أن يحوز رضاه، فأرسل إليه كتابين من تصانيف الأوائل، أحدهما في الطب وهو كتاب «ديستوريدس»، والآخر في التاريخ: وهو كتاب «رهوشيش» وكان باللاتينية^(١).

- ثم تولى من بعده ابنه «الحكم المستنصر» وكان عالماً ثبتاً، وكان عصره عصر العلم والعلماء والرُّقِيِّ والازدهار بالأندلس.
- وفي أيامه كثُرَ العلماء وأدلووا بما عندهم، وألْفَت التواليف، وصُنِّفت تصانيف^(٢).

□ واهتم رحمه الله بالكتب اهتماماً بالغاً، وسار على نهج والده في ذلك، في الحرص على جمع كُل المؤلفات في مكان واحد، فكانت «مكتبة قرطبة» التي تحولت إلى ما يشبه الجامعة في عصرنا؛ لأنها كانت بحق «دار العلوم»، حيث كانت تستقبل أفواجاً من الكتب، التي كان المستنصر قد أوصى بها أعيانه المتشرين في كل مكان من العالم الإسلامي يومئذ، وهكذا رسم المستنصر خطة لإنشاء مكتبة عامرة تكون عوناً لطلاب العلم ومرجعاً أساسياً لكل من أراد الاستزادة، وأمد الحكم المكتبة بذخائر نفيسة من التأليف العلمية، حتى أصبحت في صورة فريدة لم يجمع مثلها أي خليفة في الإسلام، وبلغ من ضخامة محتويات تلك المكتبة أن اشتهر أمرها في الأوساط العلمية في العالم الإسلامي حتى أصبحت مثلاً بارزاً على الازدهار العلمي والنشاط الفكري، وغدت من أعظم خزائن الكتب

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص ٣٧٨).

(٢) «ريحان الألباب» للأشبيلي.



في الإسلام^(١).

□ قال ابن الأبار في حديثه عن «الحكم» إنه «كان حسن السيرة فاضلاً عادلاً مشغوفاً بالعلوم، حريصاً على اقتناء دواوينها، يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان، ويبذل في أعلافها ودفاترها أحسن الأثمان، ونفق ذلك لدِيه، فحُملت من كل جهة إليه، والمُلك سُوق، ما نفق فيها جُلب إليها، حتى غَصَّتْ بها بيته، وضاقت عنها خزائنه»^(٢).

□ ولم يُسمَّع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ «الحكم» في اقتناء الكتب والدواوين وإياتارها والاهتمام بها.

□ وكان له ورّاقون بأقطار البلاد يتّخِبُون له غرائب التواليف قال أبو محمد بن حزم في كتاب «جمرة الأنساب» عن «الحكم»: «اتصلت ولايته خمسة عشر عاماً في هدوء وعلوٌ، وكان رفيقاً بالرَّعية، محبّاً للعلم، ملأ الأندلس بجميع كتب العلم. وأخبرني تليد الفتى -وكان على خزانة العلوم بقصربني مروان بالأندلس- أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلَّا ذكر أسماء الدواوين فقط»^(٣).

فإذا كان هذا الحال مع الدواوين -تتجاوز الألفي ديوان- فما بالنا بمصنفات العلم وكتب العلم والمعرفة، وكان بها فهرسة موضوعية للكتب.

(١) «صبح الأعشى» للقلقشني (٤٦٦/١).

(٢) «الحللة السيراء» لابن الأبار (٢٠١/١).

(٣) «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (٤٤/١).

□ وذكر «المقري» عند حديثه عن مكتبة المستنصر: «أنه جمع من الكتب ما لا يحده ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل: إنها كانت أربعين ألف مجلد، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها»^(١). بل إن المستشرقة الألمانية «زيغريد هونكه» أشارت إلى أن تلك المكتبة ضمت تصنف مليون كتاب»^(٢).

□ وما حققه الأندلسيون في ميدان العلم جعلتهم يصفون قصر الحكم بأنه «مصنع لا يرى فيه إلا النساخون والمجلدون والمزخرفون يحفلون الكتب بالمنمنات والرسوم الجميلة»^(٣).

ولأهمية النسخ في النشاط العلمي اهتم الخلفاء باستقدام أمهر الكتاب، بل تذكر صاحبة كتاب «فن التجليد عند المسلمين» أن ذلك الاهتمام تعدى إلى المجلدين^(٤).

□ يضاف إلى ذلك جهود الخليفة المستنصر في رفع شأن التعليم في بلاده وتيسيره لرعايته، فيذكر ابن عذاري أنه: «أمر بإنشاء سبع وعشرين مكتبة يلحق ثلاط منها بالمسجد الجامع بقرطبة، والباقي فرقه على أنحاء قرطبة، وعيّن فيها العلماء والفقهاء للقيام بتدريس النساء في تلك المكتبات، وأجرى عليهم المرتبات، وأغدق عليهم الصلات، وبالغ في تعليم أطفال المسلمين»^(٥).

(١) «فتح الطيب» للمقري (١/٣٩٥).

(٢) «شمس العرب تسطع على الغرب» (ص ٣٥٣).

(٣) «تاريخ الفكر الأندلسي» لإنجل جونثالث ترجمة حسين مؤنس (ص ١٥).

(٤) «فن التجليد عند المسلمين» لاعتماد القصيري (ص ٣٠).

(٥) «البيان المغرب» لابن عذاري (٢/٢٤٠).

□ ومنها مكتبةبني عمار في طرابلس: كانت آية من الآيات في العظمة والضخامة، كان فيها مئة وثمانون ناسخاً ينسخون فيها الكتب، ويتبادلون العمل ليلاً ونهاراً بحيث لا ينقطع النسخ، وكان بنو عمار يحرصون على أن يزودوها بكل نادر وكل جديد من الكتب، ووظفوا إخصائين وتجاراً ليجربوا البلاد ويحرزوا لهم الكتب المقيدة من البلدان النائية والأقطار الأجنبية، استفاد منهم الموري وذكرها في بعض كتبه، وانختلف في مقدار ما كان فيها وأعدل الأقوال أنها كانت تحوي مليون كتاب.

□ ومنها مكتبة جمال الدين القفطي - المتوفى عام ٦٤٦هـ: جمع من الكتب ما لا يوصف، وقصد بها من الآفاق طمعاً في سخائه وكرمه، وكان لا يحب من الدنيا سوى الكتب، فأوقف عليها نفسه، ورفض أن يتزوج حتى لا يشغله الأهل والأولاد عنها، وأوصى بمكتبته للناصر، وكانت تساوي خمسين ألف دينار.

وبعد، فلئن كانت النشوة تملأ نفوسنا حين نتحدث عن انتشار المكتبات في العالم الإسلامي في عصور حضارته الزاهرة، فإن الأسى ليملأ قلوبنا حين نتذكر مصائر هذه المكتبات، وما تعرضت له من بوار وحرائق لا يمكن أن تقدر خسارة العلم فيها أبداً.

لقد أصيّبت مكتباتنا بها قضى على ملايين الكتب منها بحيث فقدتها العالم إلى الأبد، وهي من أثمن ما خلفه الفكر الإنساني في التاريخ.

فنكبة التار حين افتتحوا بغداد، أصابت هذه المكتبات قبل أن تصيب أي شيء غيرها، وكلنا يعلم أن التار الهمج قذفوا بها وجدوا في دور الكتب العامة في نهر دجلة حتى فاض النهر بالكتب الملقة فيه، فكان يعبر

الفارس عليها من ضفة إلى ضفة، وظل ماء النهر أسود داكناً أشهرًا طويلاً من تغيره بمداد الكتب التي أغرت فيه.

ونكبة الغزو الصليبي أفقدتنا أعز المكتبات التي كانت في طرابلس والمورة والقدس وغزة وعسقلان وغيرها من المدن التي خربها الصليبيون، وحسبنا أن نعلم أن بعض المؤرخين قدر ما أتلفه الصليبيون في طرابلس وحدها بثلاثة ملايين مجلد.

ونكبة استيلاء الأسبان على الأندلس أفقدتنا تلك المكتبات العظيمة التي يتحدث عنها التاريخ بذهول، فقد احترقت كلها بفعل المتدينين المتعصبين، حتى أنه قد أحرق في يوم واحد في ميدان غرناطة ما قدره بعض المؤرخين بمليون كتاب.

ودعوا نكباتنا العامة إلى نكباتنا في الفتنة الداخلية، فقد كانت نهاية مكتبة الخلفاء الفاطميين أن اعتدى عليها الغوغاء من المماليك الأتراك، فأشعلوا فيها النار، واقتسم العبيد جلود كتبها فاخذوها نعالاً يلبسوها، وألقي منها عدد كبير في النيل، وحمل بعضها إلى سائر الأقطار، وبقي منها ما سفت عليه الرياح، فصار تلاً يعرف بتلال الكتب.

هذا حديث مكتباتنا في عصور حضارتنا، وهذه نهاية ما انتهت إليه، ولئن كان الاعتراف للأعداء بالجميل صعباً على النفس، فإن من الواجب أن نعرف أن دور الكتب في أوربا حفظت لنا كثيراً من البقية الباقية من هذا التراث، وأن فيها من ذخائر المؤلفات العربية ما لا يوجد مثله في العالم الإسلامي كله الآن^(١).

(١) «من رواي حضارتنا».

العمران في حضارتنا :

المسجد والمدن .. مسجد قرطبة يدل على علو همة المسلمين :

صفحات الجمال تُهدي نفحات الاجتهاد :

قال الأستاذ محمد أحمد الرشيد في كتابه «صناعة الحياة»: «والمهندس المعماري من أهم صناع الحياة، فإن بعض عجيبة النحل يمكن في سداسياتها، ونصف جمال الحياة بين جناحي فراشة.

إنَّ حُسْنَ الجمال رزقٌ من الله وزعه على المخلوقات من بعض ما عنده من جمال وحب للجمال، كما وزع بعض الرحمة التي عنده.

فجمال الزهور الجميلة من مقدمات تلقيحها، وجمال الديك والطاووس إنما كان لأن عملية البيض والخزن صعبة تأباهما الأنثى لولا جاذبية الجمال.

وقد سخرَ الله تعالى بإذنه بعض الناس أن يكونوا صُنَاعًا للجمال، والمعماري منهم، فهو يبني النفوس والأذواق وجيد الطياع بمبادئ التناظر والتعادل والتناسق والدرج والتناسب.

المدينة الجميلة جزء من الحياة، ولذلك حين يقول المعماريون المؤمنون بعد أن يساهموا في بنائها أنْ: أيها الناس آمنوا: سيؤمن من them عدد، وألف ضعف ذلك العدد تكون نفسه قد تعافت وأنكرت الشذوذ واقتربت من الإيمان، بإيحاءات الجمال التي صاغها المهندسون.

يؤذنون من على عروشهم المعمارية في آن واحد مع المؤذنين من على منابر المساجد.

إن جانبياً من محننا الناس يكمن في فساد الأذواق وانحراف الطياع،

ولا يقبل الكفر إلّا صاحب نفس معكوسة منكوبة، وسَوْيُّ النفس
أقرب إلى الإيمان، وبحق رصد عباس محمود العقاد اتساب أصحاب
الانحرافات إلى الشيوعية حتى وصفها بأنها مذهب ذوي العاهات.
إن المعماري قرير الواقع في تسوية النفوس.

هي فلسفة في الحياة... لكن اسمها جدار ورواق.

وفلسفة من المعاني... لكن يلقبنها باباً وباحة.

وحشد من المعاني... مترجم بأقواس وأعمدة وأخشاب نافرة.

وحاجة الدعوة إلى رهط من المعماريين يشاركون في تعليم الدعاء
والمؤمنين موازين الجمال هي من جنس حاجتها إلى علماء يعلّمونهم
موازين المُزني وشوافع الشافعي وملاك صالح مالك، ولو فوض الأمر
إلى لدفعت ربع أذكياء شباب الدعوة إلى دراسة فنون العمارة، ولأدخلت
ذلك في الخطة وجعلته حتى واجباً، فإن تعادل العقلانية والعاطفية في
الأداء الدعوي يلزمها الاقتران بالمعايير الجمالية، ليتم بهذه الثلاث استواء
الصناعة الحيوية، ومن الخطأ أن نفهم أن الدور المعماري يلزمها التعقيد
والبذخ والتعاظم والإسراف والتطاول والتبذير والتكلف ليؤدي
وظيفته، وإنما يؤديه من خلال البساطة والتواضع ومجانسة البيئة والجري
مع الفطرة واستعمال المواد الخام غير المصنعة، وبدأ الجيل الجديد من
المعاريين يعود إلى هذه المعاني الأصيلة، ولعل أثر جماعة المعماريين المؤمنين
في التربية الدعوية هو الجزء الناقص فيها المكمل لأنّار الحسن البصري
والجنيد.

إن مدحتنا الفاضلة كما تبنيها أبيات الشعراء وتضع قوانينها طوائف

الفقهاء، فإنها تتلأّاً بلمسات فنون العمارة، لتكون وحدة واحدة متجمانسة بما دتها ومعانها.

وقد كانت إنجازات السلف أيام الازدهار الحضاري كذلك.

فاس المغربية وحدة واحدة كلها، وكلها مُصانة الآن محفوظة من الهدم والتغيير بإشراف الأمم المتحدة، وهي كتلة معمارية كلها، ومَعْلَم من معالم الإنسانية حين تنضج ويسمو ذوقها.

وقصر الحمراء ومقرباته وأركان غرناطة كتلة مندمجة.

ومدارس بغداد وخاناتها وبقايا سورها ومساجدها وأزقتها ومستنصريتها علاقات جمالية مؤداة على نسق، بعضها من بعض.

وصناعات لوحة فنية واحدة، وكذا دمشق والقاهرة، والقيروان وتلمسان، وبخارى وسمرقند، وأصفهان واستانبول.

ولهذا فإن سواء أنفس أجيال المسلمين بالأمس هو من تأثير هذه المعطيات الحضارية الفنية كما هو تأثير الإيان^(١).

قرطبة ومسجدها في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) :

امتداداً لحضارة إسلامية إنسانية، طالت السماء وناطحتها؛ عِلْماً وقيماً ومجداً، بزغ نجم مدينة قرطبة كشاهد حيٌّ على ما وصلت إليه حضارة المسلمين وعز الإسلام في ذلك الوقت من التاريخ وهو متتصف القرن الرابع الهجري يوم أن كانت أوروبا تغط في جهل عميق.

□ قرطبة التي قال فيها عبد الرحمن الناصر:

(١) «صناعة الحياة» لمحمد أحمد الراشد (ص ٣٤ - ٣٦) - دار المنطلق - دبي - الإمارات.

هِمُّ الْمَلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا
 مِنْ بَعْدِهِمْ فِي الْبَيْانِ
 أَوْ مَا تَرَى الْهَرَمِينَ قَدْ بَقِيَا وَكُمْ
 مَلِكُ مَحَاهُ حَوَادِثُ الْأَزْمَانِ
 إِنَّ الْبَنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ شَانَهُ
 أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ

□ عَدَتْ ثُنَافِسُ الْقَسْطَنْطِينِيَّةِ عَاصِمَةً الْإِمْپَراَطُورِيَّةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ فِي
 قَارَتِهَا، وَبَغْدَادُ فِي الْمَشْرُقِ، وَالْقِيرَوَانُ وَالْقَاهِرَةُ فِي إِفْرِيقِيَا، وَهُنَّ أَطْلَقُ
 عَلَيْهَا الْأُورَبِيُّونَ «جَوْهَرَةَ الْعَالَمِ».

وَمِنْ مَعَالِمِ قَرْطَبَةِ الْحَضَارِيَّةِ:

١ - قَنْطَرَةُ قَرْطَبَةِ: مِنَ الْمَعَالِمِ الْمُهِمَّةِ فِي قَرْطَبَةِ، «قَنْطَرَةُ قَرْطَبَةِ» وَالَّتِي
 تَقْعُدُ عَلَى نَهْرِ الْوَادِيِّ الْكَبِيرِ، وَقَدْ عُرِفَتْ بِاسْمِ «الْجَسْرِ» وَأَيْضًا «قَنْطَرَةُ
 الدَّهْرِ»، وَكَانَ طُوْلُهَا سَبْعَةٌ وَثَلَاثَيْنَ مِتْرًا تَقْرِيَّبًا، وَأَمَّا عَرْضُهَا فَشَهَانُونْ ذَرَاعًا
 (الذراع يساوي ٦٤ سُم)، وَارْتِفَاعُهَا سِتُونْ ذَرَاعًا !!

□ وَقَدْ وَصَفَهَا ابْنُ الْوَرْدِيُّ فَقَالَ: «وَبِمَدِينَةِ قَرْطَبَةِ الْقَنْطَرَةِ الْعَجِيَّبَةِ
 الَّتِي فَاقَتْ قَنَاطِيرَ الدُّنْيَا حُسْنًا وَإِتقَانًا، وَعَدَدُ قَسِيهَا سَبْعَ عَشَرَ قَوْسًا، كُلُّ
 قَوْسٍ مِنْهَا خَمْسُونْ شَبَرًا وَبَيْنَ كُلِّ قَوْسَيْنِ خَمْسُونْ شَبَرًا»^(١).

□ وَوَصَفَهَا الإِدْرِيْسِيُّ فَقَالَ: «وَلِقَرْطَبَةِ الْقَنْطَرَةِ الَّتِي عَلَّتْ الْقَنَاطِيرُ
 فَخَرَّا فِي بَنَائِهَا وَإِتقَانِهَا..»^(٢).

٢ - مَسْجِدُ قَرْطَبَةِ:

بَدَأَ بَنَاؤُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِ سَنَةَ ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م وَمِنْ بَعْدِهِ أَبْنَهُ

(١) «خَرِيدَةُ الْعَجَائِبِ وَفَرِيدَةُ الْغَرَائِبِ» لِابْنِ الْوَرْدِيِّ (ص ١٢).

(٢) «نَزَهَةُ الْمُشْتَاقِ» لِلْإِدْرِيْسِيِّ (٥٧٩ / ٢).

هشام الأول وكان كل خليفة جديد يضيف لهذا الجامع مع ما يزيد في سعته وتزيينه.. ليكون أجمل المساجد في مدينة قرطبة، ومن أكبر المساجد في وقت وجوده!!.

□ وفي وصف لهذا الجامع يقول صاحب «الرّوض المعطار»: «وبها بـ«قرطبة» الجامع المشهور أمره الرائع ذكره من أَجْلِ مساجد الدنيا كِبَر مساحة، وإحْكَامَ صنعة، وجمال هيئة، وإتقان بنية، تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتنميئاً إثر تتميم، حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنة الوصف، وليس في مساجد المسلمين مثله تنميقاً وطولاً وعرضًا!!».

طوله مئة باع وثمانون باعاً، ونصفه مسقف ونصفه صحن بلا سقف، وسواريه ألف سارية، وفيه مئة وثلاث عشرة ثريا للوقيد، أكبر واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلّها تحمل اثنى عشر مصباحاً، وجميع خشبها من عيدان الصنوبر الطروشى وفي سقفه من ضروب الصنائع والنقوش ما لا يشبه بعضه بعضاً، قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة والبياض والزرقة والخضراء والتكحيل، فهي ترقق العيون وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومخالفات ألوانها.

□ ولهذا الجامع قبلة يعجز الواصفون عن وصفها، وفيها اتقان يبهر العقول تنميقتها، وفيها من الفسيفساء المذهب والبلور مما بعث به صاحب القسطنطينية إلى عبد الرحمن الناصر. وفيه المنبر الذي ليس معمور الأرض مثله صنعة، خشبها أبنوس وبقس وعود المجرم، يقال إنه صُنع في سبع سنين.

□ وللجامع في الجهة الشمالية «المئذنة» الغربية الصنعة، الجليلة الأعمال، الرائقة الشكل والمثال^(١)، وقد كانت مساحته تملأها أشجار البرقان والرمّان ليأكل منها الحائرون والقادمون إلى المدينة من شتى البقاع^(٢).

السنان اللامع.. أبو العمارة العثمانية.. وشيخ مهندسيها سنان باشا:
الفنان المبدع، شيخ المهندسين في العصر العثماني: سنان باشا فقد كان **حليفة** من صناع الجمال، وتمكن من طباعة التفاعل في نفوس المسلمين مع **المعايير الجمالية**.

«وأستحسن أن نرافق مؤلف كتاب «فنون الترك وعمايرهم»^(٣) في استعراضه للدور سنان، لنرى كيف «ظفر عهد السلطان العظيم سليمان القانوني -أزهى عصور الإمبراطورية العثمانية- بأحد قمم العالم وعバاقرته، وهو المهندس سنان، الذي ولد عام ١٤٨٩ م في قرية اغرناس قرب قيصرية.. وبعد انتهاء مدة تعليمه العسكري حارب كإنكشاري في حملة بلغراد ١٥٢١ م، وساهم في حملات سليم الأول على بلاد فارس والشام والعراق ومصر، وزار البلقان وال مجر وجنوب النمسا، وكان اختياره كبيراً للمهندسين حين بلغ الخمسين.. وفي تلك اللحظة كان سنان قد شيد ٣٦٤ بناء على أراضي الإمبراطورية وفي وقت قصير.. وكان

(١) «الروض المعطار في حير الأقطار» للحميري (٤٥٦، ٤٥٧) مُلخصاً.

(٢) «خريدة العجائب» لابن الوردي.

(٣) تأليف: اوقطاي اصلان آبا، ترجمة: أحمد محمد عيسى، نشر: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية. استانبول/ الصفحات ٩٦ إلى ٢٠٣.

يفحص بعناية المنشآت في البلاد التي يزورها، ويمزج بين الملاحظات والأفكار المختلفة التي يلتقطها من هنا وهناك وبين التقاليد المعمارية التركية، وكان سنان أستاذًا كبيرًا في بناء القباب وفي تنسيق المساحات وعابرًا باقتدار ونجاح في تصميم القباب المركزية التي كانت الأصل والمثل الأعلى عند معماري عصر النهضة في إيطاليا».

«قام سنان في أول أعماله باستكشاف ما يمكن أن يعطيه الفراغ المتاح، آخذًا في الاعتبار استمرارية التقاليد المعمارية العثمانية التي ظهرت في أذنيق وبورسدة وأدرنة. ففي عام ١٥٣٧ م بنى مجمع الخسروية في حلب لخسر وباشا وإلى دمشق، وهنا بناء جدير بكل تقدير، باعتباره طليعة أعماله.. وقد سمح للمسجد أن يبرز بوضوح وأن يكون مع ما حوله وحدة متكاملة. والحقيقة أن هذا المجمع الصغير الحجم قد ساير بنجاح الموقع الذي أقيم عليه.

.. وتظهر أهم مراحل عبقرية سنان المعمارية من خلال ثلاثة آثار عظيمة هي: مسجد شهزاده، ومسجد السليمانية، بستانبول، والسليمية بأدرنة.

بدأ العمل بمسجد شهزاده عام ١٥٤٤ م.. ونرى فيه المحاولة الأولى لسنان في معالجة مشكلة نصف القبة، وكيف تجاوز بمحاولته مشاكل قباب أيها صوفيا وبما يزيد عندما ابتكر النموذج المثالي للمبني ذي القبة المركزية وأنصاف القباب الأربع الدائرة حولها، وسنان بهذا العمل يكون قد حقق أحلام مهندسي عصر النهضة.. وكان بناء هذا المسجد بأمر من سليمان القانوني تخليدًا للذكرى ولده الأكبر وأثيره شهزاده محمد».

«ومن التجديفات التي ظهرت عند وضع تصميم أنصاف القباب أي: في مسجد شهزاده الذي أمام بلدية استانبول - أنها أقل قليلاً من نصف قبة كاملة، وأن الدعائم أكثر رقة بفضل التصبيعات والتضليعات التي عملت بها.. أما الشدروان وبوائنك^(١) الصحن المحيطة به وقبابها السبعة وأعمدة البوائنك الائنة عشر، فقد كونت توليفة لا تقل في تناسقها وانسجامها عن تناسق وانسجام المسجد، كما أنها تندمج معه عضويًا وتكون وحدة لها منظور معماري قوي التأثير. وتحويل الممرات هنا من داخل المسجد إلى خارجه أضفى على الداخل مزيداً من الترابط والروحانية، ولطف من جمود الكتلة البنائية من الخارج..».

«وببدأ العمل في مسجد سليمان العظيم وجمعيه واستمر سبع سنوات انتهت بعام ١٥٥٧م، وكان سنان في هذه السنة قد تجاوز الستين من عمره، وفيها أيضاً يتحول سنان للمرة الأولى إلى فكرة تخفيط المسجد ذي نصفى القبة.. ويجهد سنان في الوصول إلى أنجح النسب لإقامة المسجد الجديد من خلال دراسة متأنية ودقيقة لكل من كنيسة أيا صوفيا ومسجد بايزيد معاً، وقد اشتمل مجمع سليمان القانوني على أكبر وأول جامعة منذ زمن محمد الفاتح، كما اشتمل على ١٨ مبنى.. ونسق كل هذا بأسلوب جديد كل الجدة وبمفهوم واع لنظريات بناء المدن، جوهره الاستفادة المثلث من مدرجات الربوة التي تشرف على القرن الذهبي.. وجعل قطر القبة الرئيسية ٢٦.٥ متراً وارتفاعها ٥٣ متراً، وهي أكثر قباب استانبول

(١) في «المعجم الوسيط»: البائكة: النخلة الضخمة، وعلى ذلك فإنها استعارة لوصف الأعمدة المربعة الضخمة.



ارتفاعاً بعد أيها صوفيا.. وإذا كان الداخل إلى المسجد يمتليء بطمأنينة روحية وإحساس باللأنائية فما ذلك إلّا نتيجة لارتفاع القبة الشاهق...».

«وبعد كل التجارب العديدة في منشآت صغيرة نسبياً: أبدع المهندس سنان وهو في الثمانين من عمره مسجد السليمية في أدرنة، واشتمل هذا المسجد على كل الابتكارات والتجديدات التي استحدثها سنان، بالإضافة إلى مستحدثات العمارة التركية جملة، وقد وصف مسجد السليمية بأدرنة بأنه يمثل رائعته المعمارية، وقد استغرق بناؤه خمس سنوات من ١٥٦٩م إلى ١٥٧٤م، ويمثل المسجد الرمز الحي لمدينة أدرنة والإمبراطورية آل عثمان كلها، وكان إنشاؤه بأمر من السلطان سليم الثاني، ويظهر هذا الأثر متجلياً من بعيد بقبته الكبيرة ذات القطر البالغ ٣١.٥ مترًا، أي أكبر من قطر أيها صوفيا.. ويمكن اعتبارها قمة التطور في بناء القباب في العالم بأسره». «وتغطي المسجد كله قبة واحدة تحيط بها امتدادات من كل جانب، وهذه الرحابة الواضحة تملأ نفس الداخل إلى المسجد بحساس مريح ويقاد يشعر بقوة سحرية تحمله إلى عالم بعيد.

وتسليفت النظر من بعيد مآذن المسجد الأربع التي تكون مع القبة وحدة واحدة يسودها الانسجام والتوافق، ويتردج المبني في ارتفاعه، أربع درجات واضحة، تستقر القبة في نهايتها في اطمئنان وتناسق، ويطغى على الواجهات نضج معماري وأناقة في النسب...».

توفي سنان سنة ٩٩٦هـ / ١٥٨٨م، رحمه الله.

أفما ترى معي أن المصلين عبر أربعين سنة في مسجد السليمية والسليمانية وشهزاده قد اتعظوا بمعاني التناسق والدرج بمثل ما وعظهم

به كلام وعارضها؟^(١).

ال عمران في العواصم والمدن الكبرى:

كيف كانت المدن والعواصم كبغداد ودمشق وقرطبة وغرناطة وإشبيلية؛ لترى كيف كانت هذه المدن؟ وكيف كانت حضارتنا؟. لنزور مدن الأندلس، ولنبدأ بقرطبة، ولنحاول أن نلم بملامحها الظاهرة، لا بكل شيء فيها، فكيف نجد لها؟

□ كانت قرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي عاصمة الأندلس المسلمة، تنار المصايبح ليلاً ويستضئ الماشي بسرّجها عشرة أميال لا ينقطع عنه الضوء -أي: ستة عشر كيلو متراً-، أزقتها مبلطة، وقُماماتها مرفوعة من الشوارع، محاطة بالحدائق الغناء حتى كان القادر إليها يتتزه ساعات في الرياض والبساتين قبل أن يصل إليها، كان سكانها أكثر من مليون نسمة «في ذلك العصر الذي لم تكن فيه أكبر مدينة في أوروبا تزيد عن خمسة وعشرين ألفاً» وكانت حماماتها تسع مئه حمام وبيوتها ٢٨٣,٠٠٠ بيت، وقصورها ثمانون ألف قصر، ومساجدتها ستمائة مسجد، وكانت استدارتها ثمانية فراسخ -أي: ثلاثين ألف ذراع-، كان كل ما فيها متعلماً، وكان في ربضها الشرقي مئة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، هذا في ناحية واحدة من نواحيها، وكان فيها ٨٠ مدرسة يتعلم فيها القراء مجاناً وخمسون مستشفى. وأما مساجدها فكأن ولا تزال آثاره حتى اليوم آية خالدة في الفن والإبداع، كان ارتفاع مئذنته أربعين ذراعاً تقوم قبته الهيفاء على روافد من الخشب المحفور، وتستند إلى ١٠٩٣ من

(١) «صناعة الحياة» لحمد أحمد الراشد (ص ٧١-٧٥).

الأعمدة المصنوعة من مختلف الرخام على شكل رقعة شطرنج فيتألف منها تسعه عشر صحتاً طولاً وثمانية وثلاثون صحتاً عرضاً، وكان يضاء في الليل بأربعة آلاف وسبعين مصباح تستنفد في كل سنة ٢٤ ألف رطل من الزيت، وترى في وجهه الجنوبي تسعه عشر باباً مصفحاً بصفائح برونزية عجيبة الصنع خلا الباب الوسط الذي كان مصفحاً باللواح من الذهب، وترى في كل من وجراه الشرقي والغربي تسعه أبواب مشابهة لتلك الأبواب، أما محرابه فحسبك أن يقول فيه مؤرخو الفرنج: «إنه أجمل ما تقع عليه عين بشر، وإنه لا يرى أحسن من زخرفه وسنائه في أي أثر قديم أو حديث».

□ وقد ألحق بقرطبة بناء الزهراء الخالد في التاريخ بفنه وروعته حتى قال فيه المؤرخ التركي ضياباشا: «إنه كان أعجوبة الدهر التي لم يخطر مثل خيالها في ذهن بناء منذ برأ الله الكون، ولا تمثل رسم كرسمها في عقل مهندس منذ وُجدت العقول». كانت قبابه تقوم على ٤٣١٦ عمود من أنواع الرخام المنقوش نقشاً متساوياً، وكانت أرضيه مبلطة بقطع من الرخام ذي الألوان المختلفة على شكل جميل، وكانت جدره مصفحة باللواح لازوردية ذهبية، وفي ردهاته عيون ماء عذب ينصب ويغيب في أحواض من الرخام الأبيض مختلفة الأشكال إلى أن يتهدى إلى بركة في ردهة الخليفة، وكانت ترى في وسط البركة إوزة من ذهب معلقة في رأسها لؤلؤة وفي مياها من صنوف الأسماك والحيتان الآلوف الكثيرة حتى كان عدد ما يرمى لها من الخبز كل يوم اثنى عشر ألف رغيف.

وفي الزهراء المجلس المسمى «قصر الخلافة» وكان سقفه ويحيطانه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه المتلون أجناسه، وفي وسطه حوض

عظيم مملوء بالزئبق، وفي كل جانب من جوانب المجلس ثمانية أبواب على حنایا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها على صدر المجلس وحيطانه، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار، وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أواما إلى أحد مواليه فيحرك ذلك الزئبق، فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور، ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيل لكل من في المجلس أن محل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك، وكانت تحيط بالقصر حدائق غناء وميادين واسعة الأرجاء، ومن وراء ذلك سور عظيم بهذا البناء العجيب فيه ثلاثة برج حربي، وكانت الزهاء تحتوي على دور الخليفة والأمراء والحرير، وقاعات كبيرة لجلوس الملك في مكان خاص أطلق عليه السطح المرد، كانت له قبة قراميدا من ذهب وفضة، ولكن القاضي منذر بن سعيد أنكر على الخليفة فعله هذا في حشد هائل بجامع قرطبة فقضها وأعاد بناءها من لبن، وكان فيها دور الصناعة والآلات: كدار صناعة آلات السلاح للحرب، ودار صناعة الخلي للزينة، ودار صناعة النحت الزخارف والتماثيل. وغير ذلك من المهن والصناعات، استغرق بناء الزهاء أربع سنوات، كان معدل ما ينحت فيها كل يوم من الصخر ٦٠٠٠ صخرة عدا عن الصخر المنصرف في التبليط، وعدد العمال الذين يستغلون فيها كل يوم عشرة آلاف رجل، ويخدم فيها كل يوم ١٤٠٠ بغل، ويردها في كل ثلاثة أيام ١١٠٠ حمل الجير والجص.

أما جامع الزهاء فقد كان يعمل فيه كل يوم من حذاق الصناع ألف رجل منهم ٣٠٠ بناء و ٢٠٠ نجار و ٥٠٠ من الأجراء وسائر الصناع،

وقد استتم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً فقط وهي سرعة لا يكاد يكون لها نظير.

وفي هذا القصر العظيم استقبل الخليفة المستنصر عام ٣٥١ ملك إسبانيا المسيحية أردون بن أذفونش، وقد أصابه الذهول حينما دخل الزهراء ورأى أبهتها وعظمتها وخدمها وجندها وسلاحها، ثم زاد ذهوله حين وصل إلى مجلس الخليفة المستنصر وفي جانبه عظماء المملكة وأشرافها وفحول العلماء والخطباء وأكابر القواد، فلما قارب ملك الأسبان الدنو من الخليفة المستنصر كشف رأسه وخلع برنسه وبقي حاسراً حتى أذن له الخليفة بالاقتراب منه، فلما قابل الخليفة خرّ ساجداً سوية، ثم استوى قائماً ثم تقدم خطوات وعاد إلى السجود.. فعل ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدي الخليفة فأهوى إلى يده ليقبلها فناوله إياها وعاد راجعاً مقهراً على عقبه دون أو يولي الخليفة ظهره. ثم جلس على سرير أعدّ له، فقال الخليفة مرحباً به: «ليسرّك إقبالك، ويُغبطك تأميلك فلدينا لك من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته».

فلما ترجم له كلام الخليفة انبسط وجهه وانحط على رتبته وقبل البساط ثم قال: «أنا عبد أمير المؤمنين مولاي، المتورك على فضله، القاصد إلى مجده، المحكم في نفسه ورجاله، فحيث وضعني من فضله، وعوضني من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة».

فقال له الخليفة: «أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا، وسينالك من تقديمنا لك، وتفضيلنا إياك على أهل ملتك ما يُغبطك وتتعرف به من فضل جنوحك إلينا، واستظلالك بظل سلطاناً».

أسمعتم كلمات القوة والعظمة كيف تنطلق من فم الخليفة المستنصر
فيسمعها ملك الأسبان فلا يكاد يفهمها حتى يخر ساجداً مرة أخرى ثم
يبيه بالدعاء لما شمله الخليفة من عطفه وحماته؟

وإذا انتقلنا من ذلك إلى غرناطة تحجلت لنا عظمة البناء والعمارة في
قصر الحمراء، وقد كان آية عجباً يدهش له الناظرون، ولا يزال رغم
عوادي الزمن محط أنظار السائرين من بلاد العالم كلها، أقيم هذا القصر
على منحدر جبل يشرف على مدينة غرناطة وحقول البقعة الواسعة
الخصبة المحيطة بها، فبدا من أجمل أماكنة العالم، وكانت فيه قاعات
متعددة منها قاعة الأسود، وغرفة الأخرين، وقاعة العدل، وقاعة السفراء،
ولا يمكننا في هذا الحديث القصير أن نلم بوصف الحمراء وحسبنا أن
يتغنى فيها الشاعر الفرنسي «فيكور هوجر» بقوله: «أيتها الحمراء! أيتها
الحمراء! أيها القصر الذي زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك آية
الانسجام، أيتها القلعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان
المائلة إلى الانهدام! حينما تتعكس أشعة القمر الفضية على جدرك من
خلال قناطرك العربية يسمع لك في الليل صوت يسحر الألباب».

وأما الحديث عن المدن الأندلسية الأخرى وما كانت عليه من رقي
وعظمة فذلك حديث يطول، وحسبنا أن نذكر هنا أن أشبيلية كان فيها
ستة آلاف نول للحرير وحده، وكانت محاطة من كل أطرافها بأشجار
الزيتون ومن ثم كان فيها مئة ألف معصرة للزيت.

وعلى العموم فقد كانت مدن أسبانيا عامرة، وكانت كل مدينة
مشهورة بأنواع الصناعة تقبل عليها أوربا بشغف لا مثيل له، حتى إنها

كانت مشهورة بمصانع الدروع والخوذ وسقي الفولاذ، فيقبل الأوربيون على شرائها من كل مكان، ويقول «رينو» في كتابه الغارة على فرنسا: «إن العرب لما أغروا من الأندلس على جنوب فرنسا وافتتحوا بقيادة السمح الخولاني وعنابة الكلبي والحر الشفقي مدائن أريونة وفرتشونه وأفينيون وليلون كانوا مجهزين بأسلحة لم يكن للإفرنج مثلها».

ولتحول بعد ذلك إلى العالم الإسلامي الشرقي لنرى نموذجاً من مدنه الكبرى وحضاراته الرائعة، وسأقتصر هنا على بغداد وكيف كانت حين بنيت من عجائب الدنيا التي لا مثيل لها في القديم.

كانت بغداد قبل أن يبنيها المنصور الخليفة العباسي الشهير ضيعة صغيرة يجتمع فيها على رأس كل سنة التجار من الأماكن القرية منها، فلما عزم المنصور على بنائها أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين، ثم وضع بيده أول آجرة في بنائها وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. ثم قال: ابناوا على بركة الله، بلغ مجموع ما أنفق على بنائها أربعة ملايين وثمانمائة ألف درهم وبلغ عدد العمال المشتغلين فيها مئة ألف، وكان لها ثلاثة أسوار يلي الواحد منها الآخر. بلغ عدد سكانها مليوني نسمة، وبلغت عدد دروبها وسکوكها ستة آلاف بالجانب الشرقي وأربعة آلاف بالجانب الغربي، وكان فيها عدداً دجلة والفرات أحد عشر نهرًا فرعياً تدخل مياهها إلى جميع بيوت بغداد وقصورها وكان في نهر دجلة وحده من المعديات «المعبرانيات» ثلاثين ألفاً، أما حماماتها فقد بلغت ستين ألف حمام، وفي أواخر عهد العباسين بها تناقص هذا العدد إلى بضعة عشر ألف حمام، وأما مساجدها فقد بلغت ثلاثة وألف مسجد،

وأما سكانها وكثرة العلماء والأدباء وال فلاسفة فذلك فيها ما لا يحيط به حصر، ولنتنقل هنا ما قاله أبو بكر الخطيب في وصفها: «هذا إلى تركنا ذكر أشياء كثيرة من مناقبها التي أفردتها الله بها دون سائر الدنيا شرقاً وغرباً، وبين ذلك من الأخلاق الكريمة والسمجايا المرضية، والمليا العذبة الغدقة، والفواكه الكثيرة الدمشة، والأحوال الجميلة، والخلق في كل صنعة والجمع لكل حاجة، والأمن من ظهور البدع، والاغتياب بكثرة العلماء وال المتعلمين، والفقهاء والمتقهيء، ورؤساء المتكلمين، وسادة الحساب والنحوية، ومجيدي الشعراء، ورواة الأخبار والأنساب وفنون الأداب وحضور كل طرفة، واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحد، لا يوجد ذلك في بلد من مدن الدنيا إلّا بها، سيماء زمان الخريف، ثم إن ضاق مسكن ساكن وجد خيراً منه، وإن لاح له مكان أحب إليه من مكانه لم يتعدر عليه النقلة إليه من أي جانب من جانبيه أراده ومن أي طرف من أطرافه خف عليه، ومتى هرب أحد من خصمه وجد من يتره في قرب أو بعد، وإن آثر أن يستبدل داراً بدار أو سكة سكة أو شارعاً بشارع أو زقاقاً بزقاق أو غير ذلك من التبديل اتسع له الإمكان في ذلك حسب الحالة والوقت»، ثم عيون التجار المجهزين، والسلطانين المعظمين، وأهل البيوتات المجلين، في ناحية ناحية، تنبعث الحيرات بهم إلى الذين هم في الحال دونهم غير منقطع ذلك، ولا مفقود؛ فهي من خزائن الله العظام التي لا يقف على حقيقتها إلّا هو وحده».

وقال: «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالته قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها وسعة

أطاراتها^(١) وكثرة دورها ومنازلها، ودوروها وشعوبها، ومحالها وأسواقها، وسكنها وأزقتها، ومساجدها وحماماتها، وطرزها وخاناتها، وطيب هوائها، وعدوية مائتها، وبرد ظلالها، وأفياها، واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر من عدة سكانها، وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيام الرشيد، إذ الدنيا قارّة المضاجع، دارة المراضع، خصيّة المراتع، مورودة المشارع. ثم حدثت بها الفتنة، وتتابعت على أهلها المحن، فخرّب عمرانها، وانتقل قطانها، إلّا أنها كانت قبل وقتنا والسابق لعصرنا على ما بها من الاختلال والتناقض في جميع الأحوال، مبادلة لجميع الأمصار، ومخالفة لسائر الديار.

□ ونختتم حديثنا هذا بوصف عظمتها في عهد المقتدر بالله وبلغ ما وصلت إليه أبهة الخلافة في عصره حين زارها رسول ملك الروم، كانت دار الخلافة في اتساعها تفوق مدينة كبيرة من مدن سوريا اليوم، كان فيها من الخدم الخصي أحد عشر ألف خادم ومن غيرهم آلاف لا تُحصى، وكان عدد كل نوبة من نوب الفراشين أربعة آلاف فرّاش، فلما وردّها رسول ملك الروم أنزل في دار للضيافة ثم صفت العسكري من دار الضيافة إلى دار الخليفة، بلغ عددهم مئة وستين ألف فارس وراجل فسار بينهم إلى أن بلغ الدار، ثم سلم على الخليفة وأمر أن يطاف به دار الخلافة وقد أفرغت ولم يبق فيها إلّا سبعة آلاف خادم وبسبعينية حاجب وأربعة آلاف غلام أسود، وفتحت الخزائن وآلات السلاح وال الحرب فيها مرتبة كما ترتّب أجهزة العرائس، ولما دخل رسول ملك الروم دار الشجرة ذهل إذ رأها،

(١) جمع طر بالضم: شفير النهر والوادي وطرف كل شيء وحرفه.

وكانت شجرة من الفضة وزنتها خمسة ألف درهم، لها ثمانية عشر غصناً لكل غصن منها أغصان صغيرة وقفـت عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب، وهي تتمايل في أوقات ولها ورق مختلف الألوان يتـحرك كما تـحرك الريح ورق الشجر، وكل من هذه الطيور الفضية والذهبية يصفر ويهدـر، وفي جانب دار الشجرة تماثيل خمسة عشر فارسـاً على خمسة عشر فرسـاً قد ألبـساوا الديباج وفي أيديهم مطارد على رماح يورون على خط واحد كأن كل واحد منهم يقصد صاحبه، ثم أدخلـ إلى القصر المعروف بالفردوس فكان فيه من آلات السلاح ما لا يـحصـى ثم أخرجـ من قصرـ إلى قصرـ في دار الخلافـة نفسهاـ حتى بلـغـ ما طـافـه ثـلـاثـة وـعـشـرـين قـصـراـ إلى أن عـادـوا إـلـى مجلسـ المـقتـدرـ بالـلهـ مـرـةـ أـخـرىـ بـعـدـ أنـ اـسـتـرـاحـواـ سـبـعـ مـرـاتـ،ـ وـيـذـكـرـ المؤـرـخـونـ أنـ عـدـدـ الـفـرسـ التـيـ بـسـطـتـ فـيـ دـارـ الـخـلـافـةـ لـزـيـارـةـ رـسـوـلـ مـلـكـ الرـومـ اـثـنـيـنـ وـعـشـرـينـ أـلـفـ بـسـاطـ عـداـ ماـ فـيـ الـمـاقـصـيرـ وـالـمـجـالـسـ منـ الـبـسـطـ وـالـأـنـهـاطـ،ـ وـعـلـقـ فـيـ قـصـورـ دـارـ الـخـلـافـةـ مـنـ الـسـتـورـ الـدـيـبـاجـ الـمـذـهـبـةـ ثـمـانـيـةـ وـثـلـاثـونـ أـلـفـ سـترـ،ـ وـمـاـ زـارـهـ رـسـوـلـ مـلـكـ الرـومـ فـيـ دـارـ الـخـلـافـةـ دـارـ الـوـحـوشـ،ـ وـفـيـهـ مـخـتـلـفـ أـنـوـاعـ الـحـيـوانـ الـمـسـائـنـةـ وـالـمـتوـحـشـةـ،ـ وـدارـ الـفـيـلـةـ وـفـيـهـ أـرـبـعـةـ فـيـلـةـ عـلـىـ كـلـ فـيـلـ ثـمـانـيـةـ نـفـرـ مـنـ الـهـنـودـ،ـ وـدارـ السـبـعـ وـفـيـهـ مـئـةـ سـبـعـ،ـ خـمـسـونـ يـمـيـنـاـ وـخـمـسـونـ يـسـارـاـ،ـ كـلـ سـبـعـ مـنـهـاـ فـيـ يـدـ سـبـعـ وـفـيـ رـؤـوسـهـاـ وـأـعـنـاقـهـاـ السـلـاسـلـ وـالـحـدـيدـ.ـ وـلـاـ رـيبـ فـيـ أـنـ رـسـوـلـ مـلـكـ الرـومـ قـدـ بـلـغـ الدـهـشـةـ فـيـ نـفـسـهـ مـبـلـغـهـ حـينـ رـأـىـ عـظـمـةـ دـارـ الـخـلـافـةـ،ـ فـمـاـ فـيـ

الدنيا يومئذ دار كهذه الدار التي رأها، وحسبنا هذا الذي ذكرناه لندرك
روع حضارتنا في إبان عظمتها وقوتها^(١).

وسلسلة الخطاطين صنعت الحياة والحضارة:
ثلث.. لكنه تام.. ومُعلق.. لكنه مسيطراً:

وهي من أيام ابن الباب وابن مقلة، مروراً بياقوت المستعصمي،
وانتهاء بتلامذة هاشم في بغداد، عبد الغني وصلاح شيرزاد ونزار
الدوري وغيرهم، وتلامذة تحسين الخطوط بالقاهرة، وعُصبة نشأت
مؤخراً باستانبول. تربّي الذوق والحسن الجمالي، لقّنوا الناس معايير الجمال
وغرسوا في القلوب موازين الت المناسب، كل منهم هو أخو المتبّل في محاربه
إذا لقّنهم آداب الإختبات.

إن الحاسة الجمالية في جمهور الناس تحتاج إشباعاً، والخطاط المسلم
رائد في التربية الجمالية للناس يُمْتَعَ أنظارهم باستدارة العين، واستقامة
الألف، وتدخل الهاء، وامتداد السين، وركوع الكاف، وسجود الراء،
وانفتاح الدال، وينقلهم من ثلث إلى ديواني، ومن تعليقات فارس إلى
أعمدة الكوفة، والزخرفة من قبل ذلك وبعده تتفجر بين يديه وتمتد إلى
حيث اللانهاية، فكل تلميذ له هو لـإيهان ولـي، وكل جائز لـرقة من فيه
على جدار بيته هو لـإحسان صَفِيَّ، وتجلياته للنفوس أكبر، وتسكينه للقلق
أعظم، وتسليته للحزين أبلغ، فإن شغله هو الحرص على تكيف أعماق
الذات من خلال حركات الظاهر، فهو مسلم وَلَعُه إنطاق حروف آيات
الإسلام وَدُرُر قول نبي الإسلام ﷺ، ووجهته تربية ذوق رجال الإسلام،

(١) «من رواي حضارتنا» (ص ١٣٥ - ١٣٩).

وغيته جلاء جمال الإسلام، ومصبّ أخباره وألوانه في وادي الإسلام، فهو للإسلام ومن الإسلام وبالإسلام.

ياقوت الأماسي المستعصمي رائد من رواد الخط العربي:

- كان ياقوت الأماسي —من أماسيه— خطاطاً تركياً يعمل كاتباً لدى المستعصم - ٤٢ إلى ١٢٥٨م- آخر خلفاء بنى العباس. وقد استفاد هذا الخطاط من استخدام قلم مقطوطة بمئل في كتابه النسخ والثلث والجلي، وبهذا يكون قد تحرك خطوة في طريق جديد، ولقي خط النسخ على يد ياقوت: الروح التي جعلت منه حقيقة نمطاً كلاسيكيّاً، وحدث الشيء ذاته لخط الثلث، الذي ظل يكتب بطريقته وأسلوبه دون تغيير يذكر لمائات من السنين، وقد تحولَ هذا النمط على يد ياقوت إلى نوع من التحليل التشريجي، وأعطاه، من خلال تفاصيله الدقيقة: أنسب الأشكال وأكثرها ظفراً بالقبول، ويعتبر ياقوت هو الذي أرسى القواعد الصلبة لفن الخط عند الأتراك، بترسيخه كل الأصول والصفات المميزة لستة من أنماط الخط العربي المختلفة، وهي التي عرفت فيما بعد باسم: الأقلام الستة.
- وفي القرن الخامس عشر: مارس الشيخ حمد الله، وهو من أماسيه أيضاً، كتابة الأنماط الستة السابقة، ووضع لها قواعد على أسس محددة تتصل ببنسب جسم الإنسان وقواعد تшиجه، وأصبح حمد الله بهذا أستاداً لكل الخطاطين في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وأطلق عليه لقلب: قبلة الخطاطين.

وقد مات الشيخ حمد الله عام ١٥١٩م.. وكتب الشيخ عدداً من المصاحف ومئات من المخطوطات، وأعطى فن الخط العثماني عموماً

شكله الكلاسيكي، وقدرته على التأثير، واحتفاظه بالحيوية، تلك الصفات التي لازمته عدة قرون وحتى يومنا هذا.

□ ثم طور أحمد القره حصاري خط الجلي في القرن ذاته.. ومع أن جانباً من أسلوب القره حصاري مشتق أساساً من ياقوت الأماسي أو ياقوت المستعصمي، إلا أنه يمكن القول فيه أن خطه كان أجمل من خط ياقوت.. وفي عام ١٥٥٦ م توفي القره حصاري، وكان قد بلغ التسعين.

□ وفي القرن السابع عشر يبلغ فن الخط العربي آفاقاً جديدة في مجال إضافاته الفنية، من خلال أعمال حافظ عثمان المولود في استانبول ١٦٤٢ م.. وطور حافظ خط النسخ وبسّطه وأحسن تنسيقه ليكتسبه وضوحاً أكثر في القراءة، وكان نضجه سريعاً في هذا المجال، وكان متذفقاً، حتى لقد سُمي أسلوبه في الكتابة -في النسخ خاصة- بالأأخذ، كأنه شرارة تخطف الأبصار. ومن خلال الخطوات الزاحفة لكل من ياقوت والشيخ حمد الله وحافظ عثمان: تمثل الفترة الرئيسية لرسوخ خط النسخ والثلث.

□ وأدخل حافظ عثمان نوعاً من الحرية على فن الخط لم يكن معروفاً من قبل.. ومات حافظ عام ١٦٩٨ م وهو في السادسة والخمسين.. وحافظ ٢٥ نسخة من القرآن الكريم.. ونقلت المصاحف التي طبعت وكانت بخطه شهرته إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي وحتى بلاد الهند وأندونيسيا.

□ وقد أضفت الابتكارات التي أشاعها مصطفى راقم في خط الجلي كثيراً من الحيوية، فنجده فيه تكوينات مختلفة للحروف، غيرت باستمرار من أوضاعها وملامحها، وبلغ أسلوبه في هذا النمط غاية الكمال بأقل ما

يمكن من الشكل والاعجام والزخرفة، وبهذا يكون قد حرر الحرف من جموده النمطي الذي استمر عليه في المرحلة الكلاسيكية، وإننا لنلمح في كل عمل من أعماله ابتكاراً رصيناً للحروف، وكان راقم بالإضافة إلى هذا عبقياً في عملية الترتيب والتجميع، وهي التكوين المنسجم الذي يضفيه على هيئة الحروف والكلمات والأسطر معًا، وباختياره مثل تلك التشكيلات ذات التوليفة المتناسقة المنسجمة يكون راقم قد نشر حول الخط نسمة من الجمال والكمال.

إن تشكيل نص من النصوص ليظهر في مساحة معمارية ليس أمراً سهلاً، وإنما هو من الأمور الصعبة التي تحتاج إلى قدرة وموهبة وإحساس فني رفيع.

ولما كان راقم خير من يمثل الإدراك العالي للحركة الجمالية فقد أصبح في نظر الخطاطين أول من يسعون إلى تقليده، وهذا سبب تزايد عدد الفنانين الذين آمنوا بقيادته.

□ ثم هناك محمود جلال الدين، الذي يختلف عن راقم، والمتوفى عام ١٨٢٩م. وهناك زوجته وتلميذته أسماء عبرت، التي كانت على درجة من المهارة كزوجها تماماً.

ابتكر محمود جلال الدين أسلوبًا مستحدثاً هو الآخر.. وكان لأسلوبه من الحيوية والرسوخ مثلما كان لحافظ عثمان، وإذا كانت كتابات راقم تمثل القوة والحيوية، فإن كتابات محمود جلال الدين توحّي بالسکينة والجمال.

□ ومن مشهوري القرن الثامن عشر أيضاً: محمد أسعد يساري، أحد

أساتذة التعليق، الذي كانت له إضافات فنية واضحة، والذي أنتج أعمالاً مبتكرة لا نظير لها، ونرى كتابات هذا الخطاط في كل ركن من أركان استانبول، ومن ذلك لوحاته العديدة في معظم بيوت أهلها، وترسم الابن والتلميذ يساري زاده عزت مصطفى خطوطات الأب، فارتفع بخط التعليق إلى أعلى مراتبه، واكتفى من جاء بعد ذلك من الخطاطين بهذا الأسلوب، وقنعوا منه بالتقليد، وأصبح خط التعليق هو الأسلوب المختار بين أهل العلم في استانبول، وكتبت به الأعمال الأدبية وأشعار البلاط وسائل المظومات»^(١).

□ ومن شهيرات النساء المبدعات ببغداد أواخر القرن الماضي: الخطاطة صالحة النَّقْشُلِي رحمة الله، ولها مصحف بخط الثلث يعتبر من روائع الفن، وهو محفوظ بمكتبة مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني»^(٢). لقد سلَّم الأمانة العصبة الكرام، وكانوا عمالقة وكلهم ساهم في صناعة الحياة.

ومن الحضارة: الفن الحربي والآلات الحربية ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا أَسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ ﴾:

علوهمة محمد الفاتح وسلامان القانوني:

تذكر كتب التاريخ والسير أن محمد الفاتح حظي بتربية علمية خاصة، منذ طفولته، فقد اهتم والده السلطان «مراد الثاني» بتنشئته تنشئة علمية وجسدية جادة، فمرّنه على ركوب الخيل والرمي والبارزة، وجعله يتلذذ

(١) نقول من كتاب «فنون الترك وعمائرهم» (ص ٣١٠ - ٣١١).

(٢) «صناعة الحياة» (ص ٧٦ - ٧٠).

على يد خيرة أساتذة عصره، ومنهم «أحمد بن إسماعيل الكوراني»^(١) الذي ذكر السيوطي أنه كان أول معلمي الفاتح، وقال عنه: إنه «كان عالماً فقيهاً، شهد له علماء عصره بالتفوق والإتقان، بل إنهم كانوا يسمونه: «أبا حنيفة زمانه»، وتشير الروايات التاريخية إلى أن الكوراني حبّ الفاتح في العلم، وجعله يقبل عليه بهمة ونشاط، فما مضى وقت حتى كان محمد الفاتح قد حفظ القرآن، ودرس التاريخ الإسلامي، وكان على اطلاع بالمحاولات الإسلامية السابقة لفتح القسطنطينية، وأسهمت تربيته في تنشئته على حبّ الإسلام، والعمل بالقرآن، وحب العلم، وتقدير العلماء، وقد تأثر الفاتح كذلك بالشيخ «آق شمس الدين سنقر»^(٢) الذي كان أول من زرع حلم «فتح القسطنطينية» في ذهنه منذ الصغر، وكبر الفتى وهو يصبو إلى تحقيق ذلك الحلم.. وقد درَّس الشيخ «آق شمس الدين» محمد الفاتح العلوم الأساسية «من قرآن وحديث وسُنة نبوية وفقهه»، وكذلك اللغات «العربية والفارسية والتركية»، كما درَّس له بعض علوم الحياة كالرياضيات والفلك والتاريخ.

وكان الشيخ آق شمس الدين صارماً مع محمد الفاتح، حتى إنه بعد

(١) العالم الجليل، تولى قضاء العسكر، ثم منصب الفتوى، توفي بالقسطنطينية (٨١٣-٨٩٣) من مؤلفاته: «شرح صحيح البخاري»، «كشف الأسرار عن قراءة الأئمة الأنجيارات»، «شرح جمع الجواب في أصول الفقه»، و«غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني»، و«قصيدة في علم العروض». عمر كحاله «معجم المؤلفين» (١٦٦/١).

(٢) هو محمد بن حمزة الدمشقي الرومي (٧٩٢-٨٦٣) ارتحل مع والده إلى الروم، وطلب فنون العلم وتبصر فيها، وأصبح علماً من أعلام المسلمين في العصر العثماني، تولى تربية الفاتح.. انظر: عمر كحاله «معجم المؤلفين» (٩/٢٧١).

أن تولى السلطنة، يقول لأحد وزرائه: «إنَّ احترامي لهذا الشيخ يأخذ بمجامع نفسي وأنا مائل في حضرته مضطربًا ويداي ترتعشان!»^(١). وقد أثَّرت هذه المجموعة من العلماء، وهذه التنشئة العلمية في تشكيل الأمير الصغير، وتربيته سياسِيًّا وعسكريًّا.

وما إن تولَّ «محمد الثاني» مهام السلطنة خلفاً لوالده «مراد الثاني»، حتى وضع فتح القسطنطينية هدفاً نصب عينه، واتخذ من أجل ذلك عدداً من الخطوات العملية العلمية:

في البداية بذل الفاتح جهوداً مختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، فاعتنى بتقوية الجيش العثماني مادياً ومعنوياً، فحرص على نشر العلماء بينهم، حتى يغرسوا فيهم روح الجهاد، ويدركوهم بحديث رسول الله ﷺ في الشأن على جيش الفتح؛ حتى يجتهدوا في فتح القسطنطينية؛ عسى أن يكونوا هم الجيش المقصود، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائم الجنود، وربطهم بالجهاد في سبيل الله.

□ وفي ذات الوقت أخذ بزمام الاستعداد المادي والأُخذ بالأسباب؛ فأخذ يستعين بأهل الخبرة والعلم وسألهُم: لم لا نستطيع أن نفتح القسطنطينية؟ فحددوه ثلاثة أسباب:

١ - عدم وجود حصون للمسلمين عند بداية الحصار.. مما يجعل المسلمين في العراء أثناء الشتاء القارص.. وأعلموه أنَّ بناء الحصن يستغرق سنة كاملة.

(١) «البدر الطالع» (١٦٦/٢) للشوکانی.

٢- عدم وجود مدفوع يستطيع أن يخترق سبك الأسوار أو يجوز ارتفاعها.

٣- امتداد سلسلة بعرض الخليج، تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج، وتهديد الأسوار الضعيفة^(١).

من هنا انطلق الفاتح، وبعقلية العالم الوعية، وبنفس يملؤها الطموح، وروح تملؤها الحيوية، في استقدام عدد من العلماء المختصين، وتكون مجلس للبحث في كيفية التغلب على هذه العقبات، ويدل من أجل ذلك المال الكثير، وتحثَّ الكثير من ذوي الدراسة والخبرة في فنون الحرب على تقديم مقترحاتهم، وأفكارهم، حتى تكون محل مناقشة، مما أسفَرَ بعد ذلك عن وضع حلول عاجلة، ساعدت في تكوين الخطة الأولى للفتح.

خطة فتح القسطنطينية:

لقد وضع محمد الفاتح خطة عبرية، تحدث عنها المستشركون بانبهار شديد، وقالوا: إن هذا الرجل سبق الإسكندر الأكبر ونابليون؛ فقد قام محمد الفاتح بعد تحديد أسباب امتناع الفتح.. بحلّها واحداً تلو الآخر؛ فللتغلُّب على العائق الأول، وهو عدم وجود حصن للمسلمين أمام سور القسطنطينية؛ قرَّر بناء حصنٍ في مدة زمنية لا تتعدي الأشهر الثلاثة.. فجمع العمال، واختار منهم المتقين المهرة، وحفَّزَهم بقوله: «أتحبون أن تكونوا من أتباع رسول الله ﷺ يوم القيامة.. وتكونوا من الذين قال فيهم: «ولنعم الجيش ذلك الجيش؟» فتحفز العمال، وأنجزوا العمل في

(١) «فتح القسطنطينية» (ص ٥٧) لمحمد صفوتو.

وقت قياسي، وتم بناء قلعة عظيمة يستغرق بناؤها سنة كاملة في ثلاثة أشهر فقط.

أما العائق الثاني، وهو عدم وجود المدفع الصالح لاختراق أسوار المدينة؛ فقد ضرب الفاتح المثل في تفعيل قاعدة «الحكمة ضالة المؤمن؛ أنى وجدها؛ فهو أحق الناس بها»^(١)؛ فقد استقدم الفاتح العالم المجري المهندس «أوربان»، والذي كان قد علم أنه أعدّ مدفع ذات قوة خاصة، بإمكانها أن تدكّ أسوار القسطنطينية، وكان «أوربان» قد عرض خدماته على إمبراطورية القسطنطينية، فلم يمنعه ما كان يريد من مكافأة، فجاء للفاتح، فاستقبله استقبلاً حسناً، وأغدق عليه الأموال، وعرف كيف يستفيد منه أكبر استفادة، بل ويسّر له كل الوسائل التي تمكّنه من إتمام اختراعه، ووضع تحت تصرفه ما طلبه من آلات وفنين، وشرع «أوربان» في صنع المدفع، بمساعدة عدد من المهندسين العثمانيين الآخرين، وكان الفاتح يشرف عليهم بنفسه، ولم تمضِ ثلاثة أشهر حتى كان «أوربان» قد صنع ثلاثة مدافع، بينها مدفع ضخم عملاق، كان يزن سبعمئة طن، وتزن القذيفة الواحدة فيه ألف وخمسمئة كيلو جرام!!، يصل مداها إلى ميل، يجُرُّه ٦٠ ثوراً بمساعدة ٤٠٠ من الرجال الأشداء كل ٢٠٠ على جانب^(٢).

(١) الترمذى: باب العلم: كتاب فضل العلم على العبادة (٢٦٨٧)، وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٤١٦٩)، وابن أبي شيبة (٧/٢٤٠)، والقضاعى في «الشهاب» (ص ١٤٦).

(٢) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص ٢٤٠) لـ محمد حرب.

وعندما أرادوا أن يجربوه لأول مرة في «أدرنة» أnder السلطان سكان المنطقة، ثم أطلقوه فسمع دويه على بعد ثلاثة عشر ميلًا، وسقطت قذيفته على بعد ميل، وتركت أثراً بعمق ستة أقدام في الأرض، وقد قطع هذا المدفع –الذي أسماه العثمانيون بالمدفع السلطاني- الطريق من أدرنة إلى موضعه أمام أسوار القسطنطينية في شهرين اثنين، وسرّ السلطان محمد الفاتح بنجاح التجربة، وتفاعل بالفتح، وأجزل العطاء لهذا المهندس المجري، ولكل المهندسين الذين عاونوه^(١).

أما عن السلسلة الموجودة بعرض الخليج؛ فقد كانت هذه السلسلة تعوق دخول أسطول المسلمين إلى داخل الخليج حتى تصل إلى الأسوار.. وهذا قرر أن يقوم بعمل فريد من نوعه.. فقام بعمل عمر تسير فيه السفن خلال الجبل حتى تصل مباشرة إلى داخل الخليج بدون المرور عبر السلسلة وهذه المسافة تقدر بثلاثة أميال.. واستعمل في ذلك قضباناً خشبية دهنها بالزيت لتسهل من حركة السفن، وكان عددها سبعين سفينه.. واستعمل في جرّها مئات الشiran ومئات الرجال.. واستغرق نقل السفن من بعد غروب الشمس حتى ما قبل الفجر.. حتى يفاجئ الروم.. وقد استمر الحصار ثلاثة وخمسين يوماً حتى قيس الله الفتح للجيش^(٢). وهكذا كان العلم سبيلاً للتخطيط، وعاملًا مهمًا من عوامل فتح القسطنطينية، وتحقيق ذلك الحلم للمسلمين.

بيد أن دور العلم لم يقتصر على التمهيد للفتح، أو استخدامه للحرب،

(١) «محمد الفاتح» (ص ٨٢) لعبد السلام فهمي.

(٢) «محمد الفاتح» (ص ٨٢) لعبد السلام فهمي.

بل ظل ملازمًا للنهضة العثمانية في عهد «محمد الفاتح».

«كان الترك وعلى رأسهم آل عثمان موضعًا للثقة في قيادة الأمم الإسلامية وفي استرداد قوة المسلمين ومكانتهم في العالم، وكان فتحهم للقسطنطينية التي استعصت على المسلمين ثمانية قرون^(١) دليلاً على كفاءتهم وقوتهم، وبلغوهم درجة الاجتهاد في صناعة الحرب، وحسن قيادتهم العسكرية وتفوقهم على الأمم المعاصرة في آلات الحرب واستخدامهم لهمتهم قوة العلم والعمل. وكل ذلك ما لا غنى للأمة عنه.

تفوق محمد الفاتح في فن الحرب:

□ وكان محمد الفاتح -كما يقول درابر-: يعرف العلوم الرياضية ويحسن تطبيقها على الفن الحربي، وكان قد أعد لهذا الفتح عدته، واستفاد كل ما في عصره من معدات حربية.

لقى زائر بندقي وهو (Giacome De Languschi) أو لنغاستو (LANGASTO)، السلطان محمد الفاتح حوالي الوقت الذي فتحت فيه قسطنطينية ووصفه هكذا.

□ «شاب في ٢٦ سنة من العمر^(٢) «وبعد ما ذكر حليته وأخلاقه الائقة بالنوابع وثقافته الواسعة» يبحث بكل دقة عن المعلومات عن

(١) غزا الأسطول العربي القسطنطينية بقيادة يسر بن أرطاة سنة ٤٤ للهجرة وفق سنة ٦٦٤ للمسيح، وحاصر يزيد بن معاوية القسطنطينية سنة ٥٢ هجرية وفق سنة ٦٧٢ مسيحية، وحاصرها العرب أربع مرات على الأقل بعد ذلك، ولم يفتحوها لمنعها.

(٢) الحقيقة أن عمره حينذاك لم يكن يتجاوز ٢٤ سنة «المترجم».

أوضاع ايطاليا وكرسي «عاصمة» البابا، والإمبراطور، وكم مالك هنا في أوربا، وعنه خريطة لها، وتظهر عليها دولها وأقاليمها، لا يعجب ولا يتهم بأي شيء كإعجابه وابتهاجه بدراسة أوضاع العالم وعلم الحرب، باحث فطن للأمور، يلتهب رغبة في الحكم، هذا هو الرجل الذي علينا عشر المسيحيين أن نواجهه، إنه شديد المراقبة والخذر، قادر على تحمل المشقة والبرد، والحرارة والعطش والجوع.. ويقول: إن الزمان تغير الآن، إذ يسير من الشرق إلى الغرب كما سار الغربيون سلفاً- إلى الشرق، ويقول: إن إمبراطورية العالم يجب أن تكون واحدة، دين واحد ودولة واحدة، ولتحقيق هذه الوحدة ليس هناك في العالم مكان أليق من القسطنطينية^(١).

□ قال البارون «كارادفو» (Baron Carra de Vaux) في كتابه «مفكرو الإسلام» في الجزء الأول منه عند ترجمة محمد الفاتح: «إن هذ الفتح لم يقيض لـ محمد الفاتح اتفاقاً، ولا تيسّر لمجرد ضعف دولة بيزنطة، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل، ويستخدم له كل ما كان في عصره من قوة العلم، فقد كانت المدفع حينئذ حديثة العهد بالإيجاد، فأعمل فكراً في تركيب أضخم المدافع التي يمكن تركيبها يومئذ وانتدب مهندساً مجرياً ركب مدفعاً كان وزن الكثرة التي يرمي بها ٣٠٠ كيلو جرام، وكان مدى مرماه أكثر من ميل، وقيل: إنه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه، وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لخشوه، ولما

(١) العبارة مقتبسة من كتاب «استنبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية» (ص ٣٦ - ٣٧)، تأليف الأستاذ «برنارد لوئيس» وترجمة الأستاذ رضوان على الندوى.

زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثة ألف مقاتل، ومعه مدفعية هائلة، وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر (١٢٠) سفينة حربية، وهو الذي -من قريحته- تصور سحب جانب من الأسطول من البر إلى الخليج وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم (٧٠) سفينة أنزلها في البحر من جهة قاسم باشا^(١).

مزايا الشعب التركي:

وقد تفرد الشعب التركي المسلم تحت قيادة آل عثمان بمزايا اختص بها من بين الشعوب الإسلامية يومئذ، واستحق بها زعامة المسلمين.

أولاً: أنه كان شعباً ناهضاً متھمساً طموحاً، فيه روح الجهاد، وكان سليماً بحكم نشأته وقرب عهده بالفطرة والبساطة في الحياة - من الأدوات الخلقية والاجتماعية التي أصابت الأمم الإسلامية في الشرق في مقتلها.

ثانياً: أنه كان متوفراً لديه القوة الحربية التي يقدر بها على بسط سيطرته الإسلامية المادية والروحية، ويرد بها غاشية الأمم المناوئة وعاديتها، ويتبؤا بها قيادة العالم، فقد بادر العثمانيون في صدر دولتهم لاستعمال المعدات الحربية وخصوصاً النارية منها واهتماموا بالمدافع، وأخذوا بالحدث الأحدث من آلات الحرب، عنوا بفن الحرب وتنظيم الجيوش وتعبيتها حتى صاروا في صناعة الحرب أئمة وغير نزاع، والمثل الكامل والقدوة لأوروبا.

(١) من حواشي الأمير شكيب أرسلان على «حاضر العالم الإسلامي» (١/٢٢٠) الطبعة الثانية.

وكانوا يحكمون في ثلاثة قارات: أوروبا، وأسيا، وافريقيا، ملوكاً الشرق الإسلامي من فارس حتى مراكش، ودخلوا آسيا الصغرى وتغلبوا في أوروبا، حتى بلغوا أسوار «فينسا» وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع.. قد جعلوه بحيرة عثمانية لا أثر للأجنبي حوله، وقد كتب معتمد القيصر بطرس الأكبر لدى الباب العالي، أن السلطان يعتبر البحر الأسود كداره الخاصة فلا يباح دخوله للأجنبي، وأنشأوا أسطولاً عظيماً لا قبل لأوروبا به حتى اجتمعت لسحقه كل من عمارات البابا والبنديقية وأسبانيا والبرتغال ومالطة عام ٩٤٥هـ - ١٤٥٧م ولكن لم تغير عنهم كثراً شيئاً^(١).

النهضة العلمية بعد الفتح:

اهتمامه بالمدارس والمعاهد:

□ كان السلطان محمد الفاتح محباً للعلم والعلماء؛ ولذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته، وقد كان السلطان أورخان (٧٢٦هـ - ٧٦١هـ) أول من أنشأ مدرسة نموذجية في الدولة العثمانية، وسار بعده سلاطين الدولة على نهجه، وانتشرت المدارس والمعاهد في بورصة وأدرنة وغيرهما من المدن^(٢).

□ ولقد فاق محمد الفاتح أجداده في هذا المضمار، وبذل جهوداً في نشر العلم، وإنشاء المدارس والمعاهد، وأدخل بعض الإصلاحات في التعليم، وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها، وحرص على نشر المدارس

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص ١٥٩ - ١٦٢) لأبي الحسن الندوبي.

(٢) «محمد الفاتح» (ص ٣٨٤) وما بعدها للرشيد.

والمعاهد في جميع المدن الكبيرة والصغيرة، وكذلك القرى، وأوقف عليها الأوقاف العظيمة، ونظم هذه المدارس، ورتبها على درجات ومراحل، وحدَّد العلوم والمواد التي تدرس في كل مرحلة، ووضع لها نظام الامتحانات فلا ينتقل طالب من مرحلة إلى أخرى إلَّا بعد إتقانه لعلوم المرحلة السابقة، وخضوعه لامتحان دقيق، وكان السلطان الفاتح يتبع هذه الأمور ويشرف عليها، وأحياناً يحضر امتحانات الطلبة، ويزور المدارس بين الحين والحين، ولا يأنف من استئناع الدروس التي يلقاها الأساتذة، وكان يوصي الطلبة بالجد والاجتهاد، ولا يدخل بالعطاء على النابغين من الأساتذة والطلبة، وجعل التعليم في كل مدارس الدولة بالمجان، وكانت المواد التي تُدرَّس في تلك المدارس هي: التفسير، والحديث، والفقه، والأدب، وعلوم اللغة، والهندسة، والرياضية، وعلوم الفلك.. إلخ^(١).

□ كما أنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثانية مدارس على كل جانب من جوانب المسجد، وأربعة مساجد يتوسطها صحن فسيح، وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته، وكانت مدارس المرحلة الأولى تدرس: مبادئ العلوم الدينية، والرياضيات والطبيعة، علاوة على حفظ أجزاء من القرآن، وتسمى في مجموعها «دروس الخارج»، والمرحلة الثانية كانت تدرس مقاصد هذه العلوم، ولا سيما الفقه، ويضاف إليها مواد التاريخ الإسلامي ولغة العربية، وهي في مجموعها عموميات

(١) انظر: «أبو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته العدلية» علي همت بركي - تعریف: محمد إحسان - (ص ٨٤ - ٩٣).

ومدخل للتخصيص، ويمكن لخريج المرحلة الثانية توقيع الوظائف البسيطة، أما الطالب الذي كان يريد إكمال التعليم، فإنه يلتحق بالمرحلة العلمية الثالثة، وهي بمثابة «إعداد» للمرحلة الأخيرة، حيث يدرس على يد علماء متخصصين في العلوم العالية المقررة فيها، حتى إذا أتم الدراسة بنجاح تمكن من دخول المرحلة الرابعة «الصحن».

ومدارس الصحن هي بمثابة جامعة علمية كبرى، تتكون من المدارس الثنائي المبنية حول جامع الفاتح، ويجوارها المدارس الموصلة للصحن، وهي ثانوي مدارس أخرى.

وألحقت بهذه المدارس مساكن للطلبة ينامون فيها، ويأكلون فيها طعامهم، وخصصت لهم منحة مالية شهرية، وكان الموسم الدراسي طول السنة في هذه المدارس، وأنشأ بجانبها مكتبة خاصة، وكان يشترط في الرجل الذي يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقوى متبحراً في أسماء الكتب والمؤلفين، وكان المشرف على المكتبة يغير الطلبة والمدرسين ما يطلبونه من الكتب بطريقة منتظمة ودقيقة، ويسجل أسماء الكتب المستعارة في دفتر خاص، وهذا الأمين مسؤول عن الكتب التي في عهده، ومسؤول عن سلامة أوراقها، وتتخضع هذه المكتبة للتفتيش كل ثلاثة أشهر على الأقل^(١).

وكان مناهج هذه المدارس تتضمن نظام التخصيص، فكان للعلوم النقلية والنظرية قسم خاص، وللعلوم التطبيقية قسم خاص أيضاً، وكان الوزراء والعلماء من أصحاب الثروات يتنافسون في إنشاء المعاهد

(١) «السلطان محمد الفاتح» (ص ١٥٨) الرشيد.

والمدارس والمساجد والأوقاف الخيرية^(١).

اهتمام السلطان محمد الفاتح بالعلماء:

لقد كان للعلماء والأدباء مكانة خاصة لدى محمد الفاتح، فقرب إليه العلماء ورفع قدرهم، وشجّعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال، ووسع لهم في العطایا والمنح والهدایا؛ ليتفرغوا للعلم والتعليم ويكرّمهم غاية الإكرام ولو كانوا من خصومه؛ وبعد أن ضم إمارة القرمان إلى الدولة أمر بنقل العمال والصناع إلى القسطنطينية غير أن وزيره روم محمد باشا ظلم الناس، ومن بينهم بعض العلماء وأهل الفضل، ومن بينهم العالم أحمد جلبي ابن السلطان أمير علي، فلما علم السلطان محمد الفاتح بأمره اعتذر إليه، وأعاده إلى وطنه مع رفاقه معززاً مكرماً^(٢).

وكان السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكانه أصيابه عوز وإملاق إلّا بادر إلى مساعدته ويزدّل له ما يستعين به على أمور دنياه.

وكان من عادة الفاتح في شهر رمضان أن يأتي إلى قصره بعد صلاة الظهر بجماعة من العلماء المتبحرين في تفسير القرآن فيقوم في كل مرة واحدٌ منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم وتقريرها، ويناقشه في ذلك سائر العلماء ويجادلونه، وكان الفاتح يشارك في هذه المناقشات ويشجع هؤلاء بالعطایا والهدایا والمكافآت المالية الجزيلة.

(١) «البدر الطالع» (٤١/١) الشوكاني.

(٢) «العشانيون في التاريخ والحضارة» (ص ٢٤٧) محمد حرب، «محمد الفاتح» (ص ٣٩٦) لعبد السلام فهمي.

اهتمامه بالترجمة :

كان السلطان محمد الفاتح متقدّماً للغة الرومية، ومن أجل أن يبعث نهضة فكرية في شعبه أمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية، من ذلك كتاب «مشاهير الرجال» لبلوتوارك، ونقل إلى التركية كتاب «التصريف في الطب» لأبي القاسم الزهراوي الطبيب الأندلسي مع زيادات في صور آلات الجراحة، وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية.

وعندما وجد كتاب بطليموس في الجغرافيا وخرطيته له قام بمطالعته ودراسته مع العالم الرومي «جورج أميروتزوس»، ثم طلب إليه الفاتح وإلى ابنه «ابن العالم الرومي» - الذي كان يجيد اللغتين: الرومية والعربية - ترجمة الكتاب إلى العربية، وإعادة رسم الخرائط، مع التحقيق في أسماء البلدان وكتابتها باللغتين: العربية والرومية، وكافأهما على هذا العمل بعطائيها واسعة جمّة، وكان العلامة علي القوشجي وهو من أكبر علماء عصره في الرياضيات والفلك كلياً ألف كتاباً بالفارسية نقله إلى العربية وأهداه إلى الفاتح^(١).

ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامة، وقد كون الفاتح مكتبة خاصة في قصره غنية ببنوادر الكتب، وروائع الآثار، فيها ١٢ ألف مجلد من مختلف اللغات «العربية والتركية والفارسية واليونانية..»، بالإضافة إلى المكتبات الأخرى الملحةة بمدارس الصحن، ومدرسة أيا صوفيا، وسار على هذا النهج

(١) (محمد الفاتح) للرشيدی (ص ٤١٣).

وزراؤه، ثم السلاطين الآخرون من بعده، حتى أصبحت استانبول من أغنى العواصم الإسلامية بروائع الكتب والآثار الإسلامية، لحرص السلاطين والوزراء على اقتناء الكتب القيمة من أطراف العالم الإسلامي، وتكوين مكتباتهم الخاصة بالجامعة الكبرى، ولا تزال هذه المكتبات تحفظ بأكبر قدر من روائع المخطوطات العربية^(١).

اهتمامه بالعمaran والبناء والمستشفيات:

كان السلطان «محمد الفاتح» مغرماً ببناء المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات، والخانات والمحامات، والأسواق الكبيرة، والحدائق العامة، وقد أدخل المياه إلى القسطنطينية بواسطة قناطر خاصة، وقد حرص على تشجيع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والمحامات، وغيرها من المباني التي تعطي المدن بهاءً ورونقًا.

وقد اهتمَّ الفاتح بالعاصمة القسطنطينية -التي غير اسمها إلى إسلام بول «استانبول الآن»- اهتماماً خاصاً من أجل أن يجعلها أجمل عواصم العالم، وحاضرة العلوم والفنون.

وفي عهده كثُرَ العمran وانتشر، فاهتمَ بدورِ الشفاء، ووضع لها نظاماً مثالياً في غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب -ثم زيد إلى اثنين من حُذّاق الأطباء من أي جنس- كان يعاونها كحال أي: طبيب عيون- وجراح وصيدلي وجماعة من الخدم والبوايين، ويشرط في جميع المستغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي

(١) «السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي» (ص ٨٣) لسيد رضوان.

القناعة والشفقة والإنسانية، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم، وأن لا تُصرف الأدوية للمرضى إلّا بعد التدقيق من إعدادها، وكان يشترط في طباخ المستشفى أن يكون عارفًا بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى منها، وكان العلاج، والأدوية في هذه المستشفى بالمجان ويعشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم^(١).

وهكذا، لم يكن للنهضة أن تتم، ولا للفتح أن يكتمل إلّا بتضافر تلك الجهود، مع الإخلاص لله عَزَّوجَلَّ، والأخذ بالعلم والنهضة ببناء الأمة نهضة علمية حقيقة، لا تقتصر على جانب علوم الشرع فحسب، بل تأخذ علوم الحياة—من طب وهندسة وغيرها—سبيلًا إلى رقيها وتقدّمها..»^(٢).

سلیمان القانونی لله دره:

«قد جمعت الإمبراطورية العثمانية في عهد سليمان القانوني الكبير بين السيادتين البرية والبحرية، وبين السلطتين السياسية والروحية. بلغت حدود الدولة العثمانية على ملك سليمان الطونة والصاوقة «النهرية» في الشمال ونبع النيل والمحيط الهندي في الجنوب وسلسلة جبال القفقاس في الشرق وجبال أطلس في الغرب وهي مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف ميل مربع.

وكان الأسطول العثماني مؤلفًا ما يزيد على ٢٠٠٠ مركب حربي، وكان القسم الشرقي من بحر سفید وبحر الأدریاتیک ومرمرة وأزارق

(١) «السلطان محمد الفاتح» (ص ١٥٤).

(٢) «العلم وبناء الأمم» (ص ٤٢١ - ٤٢٧).

والأسود والأحمر وفارس في حوزته وتحت سيطرته.

□ يقول الأستاذ «برناد لوئيس» المؤرخ المختص في تاريخ تركيا في كتابه «استانبول»: «ويعتبر، بحق حكم سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٦م) المعروف عند الاتراك بـ«القانوني» -«الذروة في قوة العثمانيين ومجدهم».

«وامتدت رقعة الإمبراطورية في أوروبا بعد انتصارات جديدة، كما تأسست القوة البحرية العثمانية في شرق البحر الأبيض المتوسط بعد الاستيلاء على جزيرة رودس (Rhodes) في ١٥٢٢م وفتح واحضان بلغراد في ١٥٢١م والانتصار العظيم في معركة (موهاكس Mohacs) (Hapsburgs) الطريق لفتح المجر، والصراع المير المتواصل مع (آل هسبسبرج Hapsburgs) للسيادة على أوروبا الوسطى»^(١).

□ «وفي سنة ١٥٢٩م حاصر جيش عثماني مدينة فيينا، وفي سنة ١٥٣٧م حاولت قوة عثمانية صغيرة طرد البرتغاليين عن مجر الهند، وفي سنة ١٥٥٣م قاد السلطان سليمان جيشاً إلى إيران وفي ١٥٥٥م حاول أسطول عثماني الاستيلاء على مالطة، ولم يدرك أحد لزمن طويل أن كل هذه الانجازات كانت أعلى مد للتيار العثماني»^(٢).

□ «ورافق توسيع الإمبراطورية وقوتها العسكرية اقتصاد متين وإدارة دقيقة وثقافة غنية رفيعة»^(٣).

□ «وظلت الإمبراطورية العثمانية بعد وفاة سليمان بأكثر من قرن قوة

(١) كتاب «استانبول» (ص ٤١ - ٤٢).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٣ - ٤٤).

(٣) نفس المصدر.

جبارة، وكانت قادرة في سنة ١٦٨٣ م أن تقوم بالحملة الثانية العظيمة على فيينا»^(١).

□ «وفي رسالة قدمها (كوجوبيك Kochubey) إلى السلطان مراد الرابع في ١٦٣٠ م يدعى الكاتب أنه منذ عهود خلفاء الإسلام الأوائل لم تكن هناك أية سلالة من الحكام أكثر ولاء وإخلاصاً للإسلام من السلاطين العثمانيين، ولا أبدت أية منها احترام مبادئ الشريعة الإسلامية وعلمائها ما أبدى هؤلاء السلاطين، وليس في هذه الدعوى أية مبالغة، فالاعتبار الديني العميق - لمبادئ الشريعة وعلمائها - عند السلالات التركية والمشاهد عند السلاجقة العظام فيها قبل، قد استمر وازداد في حكم العثمانيين، وسبق السلاطين العثمانيون جميع أسلافهم في جعل الشريعة القانون الفعلي للبلاد، ويفيد سلوك أحسنهم شعوراً عميقاً بالواجب نحو أمانة دينية مقدسة»^(٢).

دخل كل مدينة شهرة في العالم القديم ما عدا روما في ضمن حدود الدولة العثمانية^(٣)، وكانت أوروبا كلها ترتعد منهم فرقاً، ويدخل ملوكها الكبار في ذمة ملوكهم، ويمسك أهل الديار عن قرع أجراس كنائسهم احتراماً للترك إذا نزلوا بها - وأمر البابا أن يحتفل بعيد، وأن تقام صلوات الشكر مدة ثلاثة أيام لما أتاه نعي محمد الفاتح.

ثالثاً: كانوا في أحسن مركز للقيادة العالمية، كانوا في شبه جزيرة

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر (ص ٥٠ - ٥١).

(٣) «فلسفة التاريخ العثماني» لمحمد جليل بينهم (ص ٢٨٠ - ٢٨١).

البلقان بحيث يشرفون منها على آسيا وأوروبا، وكانت عاصمتهم واقعة بين البحرين الأسود والأبيض، وواصلة بين البرين بين آسيا وأوروبا، فكانت خير عاصمة لأكبر دولة تحكم على آسيا وأوروبا وأفريقيا، حتى قال نابليون: «لو كانت الدنيا دولة واحدة لكان القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها».

وكانت أوروبا لها الخطر الكبير والشأن العظيم في المستقبل القريب، تزخر فيها القوى الحيوية وتجيش في صدورها عوامل الرقي، فكان في استطاعة الترك -لو وفق الله- أن يتقدموا في ميدان العلم والعقل ويسبقو أمم أوروبا النصرانية ويصبحوا أئمة العالم يقودونه إلى الحق والهدى قبل أن تملك أوروبا زمام العالم وتقوه إلى النار والدمار.

انحطاط الأتراك في الأخلاق وجهودهم في العلم وصناعة الحرب:

ولكن من سوء حظ المسلمين -فضلاً عن سوء حظ الأتراك- أخذ الترك في الانحطاط والتلذل، ودب إليهم داء الأمم من قبلهم: الحسد والبغضاء واستبداد الملوك وجورهم وسوء تربيتهم وفساد أخلاقهم وخيانة الأمراء وغشهم للأمة وإخلاد الشعب إلى الدعوة والراحة، إلى غير ذلك من أخلاق الأمم المنحطة مما هو مبين في كتب التاريخ التركي، وليس هذا موضع تفصيله، وكان شر ما أصيروا به الجمود في العلم والجمود في صناعة الحرب وتنظيم الجيوش، وقد نسوا قول الله تعالى: ﴿وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ، عَدُوُ اللَّهِ عَدُوُّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ [الأناقل: ٦٠]. إلخ.

• وقول النبي ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق

بها»^(١)، وكان خليقاً بهم سرّح مرکزهم السياسي والجغرافي، وقد أحاطت بهم الدولة الأوربية إحاطة السوار بالعصم - أن يجعلوا وصية القائد الإسلامي الكبير عمرو بن العاص رضي الله عنه لل المسلمين في مصر نصب أعينهم: «واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيمة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم»، ولكن الترك وقفوا وتقدم الزمان، وتخلقو وسبقت الأمم الأوربية»^(٢).

٣٤٥٦٥٩٢٥٨

(١) لا يصح عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه.

(٢) «ماذَا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص ١٦٢ - ١٦٥).

«ولكن الإسلام لا يواكي له» : وإسلاماه.. وإسلاماه:

وما تزال بعيني ألف مبكيَّةٍ :

ارتبطت الحضارة الإسلامية في أوج ازدهارها وسمُّوّ قمّتها بتمسك المسلمين بدینهم، وشدة اتباعهم لنبيهم ﷺ، والسير على منهاج سلف الأمة من القرون الخيرية من الصحابة والتابعين وتابعـي التابعـين، فارتبطت هذه الحضارة بتمسك المسلمين بدینهم.. ثم حدث بعد ذلك ما يُدمي العيون ويُبكي القلوب، وغفل المسلمون عن دینهم، وتركوا وراءهم ظهريًّا القرآن والسنّة فكان تخلفهم وانحطاطهم.. فصاروا أحط الناس في الأخذ بأسباب الحياة وعلومها.

الإسلام المفترى عليه :

ومن عجب أن يتكلم بعض العلمانيين السفهاء عن عمِّد وتروير بَيْنَ، فيقول نابحهم فُضَّل فوه أن الإسلام هو البليّة، وأن تخلَّف المسلمين راجع إلى دینهم وتمسکهم بالثوابت من أمور دینهم وهذا يفترى الكذب، ويزور الحقائق ويقلب الموازين..

أشفق على الرأس لا تشفع على الجبل يا ناطح الجبل العالى لتكلِّمه

□ أو كما قال القائل:

ما يضرُّ البحر أمسى زاخراً أنْ رَمَى فيه غلامٌ بحجر

□ أو القائل:

قد تُنكر العين ضوء الشمس من رَمَدٍ وينكِّر الفم طعم الماء من سَقَمٍ

□ هذا ليُحْقِائقُ التَّارِيخِ، وَكُرْهٌ وَاضْحٌ لِلإِسْلَامِ الجَمِيلِ ..
خَفَافِيشُ أَعْشَاهَا النَّهَارَ بِضُوئِهِ وَلَاءُهَا قِطْعٌ مِنَ اللَّيلِ بِادِيَا

وأي منصف قارئ للتاريخ سابر لأغواره يقول: «إن مجد المسلمين
وعلو شأنهم في حياتهم ارتبط بتمسكهم بدينهم، ولما بعدوا عنه صاروا في
آخر ركب الأمم المتحضرة، وأن الإسلام عنوان فلاحهم وأنهم ما أرادوا
الرُّقِيّ عليهم أن يعودوا إلى دينهم ويتمسكون بأهدا به».

□ إن الذي جهل شمولية الإسلام وقدرته على رقي أمته أسفَّ وولَّ
وجهه قبل البيت الأبيض أو الكرملين.. وسماؤه أقدام الغرب الكارهة
الكريهة عليه أن يُقُومَ من جديد درجه انتهاءه إلى الإسلام العزيز الرَّفِيع..
إذا أنت غَمَّتْ عَلَيْكَ السَّمَاءُ وَضَلَّتْ حُوَاسُكَ عَنْ صُبْحَهَا
فَعِشْ دُودَةً فِي ظَلَامِ الْقُبُورِ تَغُوْصُ وَتَسْبُحُ فِي قَيْرَهَا
فساد البدائيات دالٌ على فساد النهايات.. وجهل بَيْنَ بشمول الإسلام وواقع
المسلمين المُرِّ:

إن نظرة متأنية إلى واقع المسلمين اليوم تبعث على الأسى «فمع ازدهار
الصحوة الإسلامية، وشيوخ الالتزام بين صفوف المسلمين، وبالذات
طائفة الشباب، ترسخ في أذهان الكثيرين حب العلم وطلبه، والبحث عنه
ويبذل الوقت له. وكل هذا ولا شك أمر محمود، ونتيجة طبيعية لعودة
المسلمين إلى ربهم وإلى دينهم».

لكن بقيت نقطة أشعر أنها ما أخذت المساحة الكافية من تفكير شباب
الصحوة، وما فُرِّغَتْ لها الأوقات كما فُرِّغَتْ لغيرها، مع أن هذه النقطة

من أهم النقاط التي تنفع في بناء الأمم، وتفيد في تشييد الحضارات..

وهذه النقطة هي الاهتمام بعلوم الحياة، والتفوق والإبداع فيها..

علوم الحياة - كما أشرنا قبل ذلك - هي العلوم التي تصلح حياة البشر على الأرض، والتي تهدي إليها الناس بعقولهم وتجاربهم ومشاهداتهم، ويستطيعون من خلالها عمران الأرض وإصلاحها وتسخير إمكانياتها، وهي مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والنباتات والحيوان، وغير ذلك من العلوم التي تشمل الماديات المنشورة في الكون، والتي يحتاج إليها البشر في إصلاح «حياتهم» على هذا الكوكب.. وتلك العلوم هي التي يقصد بها الغرب، وهي التي يعنونها دائمًا حين يكون الحديث عن مطلق العلم..

ولو قامت الأمة الإسلامية بدورها في هذا المجال «الاهتمام بالتوزن بين العلوم، والربط بين العلم الشرعي والعلم الحياني» حكومة وشعباً جماعات وأفراداً، ما افتقرت أبداً إلى غيرها ولقامت معتمدة على سواعد أبنائها، وهذا -ولا شك - يرفع من قيمتها ويعز شأنها.

وقد تعددت الشواهد واللاحظات المهمة التي تبين سوء الوضع العلمي الذي تعيشه الأمة الإسلامية، ومدى ما وصل إليه حالها فيه، وهي كلها ناتجة عن عامل واحد، هو إهمال المسلمين لعلوم الحياة.

ولعل في الملاحظات التالية دليلاً على القصور غير المقبول الذي وصل إليه المسلمون الآن.

الملاحظة الأولى:

بدراسة أحوال العاملين في حقل الدعوة في الجامعات الإسلامية في

أكثر من بلد إسلامي، يلاحظ أن نسبة المتفوقين دراسياً في أو ساط الدعوة نسبة قليلة بصورة لافتة للنظر، وأن الطالب الملزِم بدعوته وبرسالته الإسلامية يرتب أمره بصورة تضع التحصيل الدراسي والتفوق العلمي في أخرىات أولوياته، وهذا لشعوره واعتقاده الدائم بأنه يجب عليه أن يُضحيّ بعلومه الدراسية ومناهجه البحثية من أجل الدين، فيعطي -مثلاً- حلقة تحفيظ القرآن أولوية عن حاضرة علمية، ويعطي موعدة تُقال في مدرج أولوية عن موضوع علمي يلقيه في فصل دراسي أو في مجموعة علمية، ويعطي قراءةً في كتاب تفسير أو فقه أو حديث أولوية عن قراءة في كتاب كيمياء أو فيزياء أو رياضيات، ويهتم بحضور دروس العلم للمشايخ والقراء، ولا يهتم بحضور الدوريات أو الندوات العلمية، أو المؤتمرات المتخصصة في مجاله مثلاً !!

وهذه ليست ملاحظة عابرة، أو حالات فردية، أو مشكلة محلية، إنما تكاد تكون هي الأصل بين أو ساط الشباب العاملين في حقل الدعوة في الجامعات الإسلامية، وهذا أمر يحتاج -ولا شك- إلى وقفات ووقفات. ومثل هذا الحديث ليس من قبيل الإحباط أو اليأس، وإنما هو محاولة لتشخيص الأمراض برصد الظاهر والحقائق، ثم وصف العلاج بعد ذلك، والأمر يحتاج إلى مصارحة، ووقف على مواطن الداء.

وما زاد من أهمية هذه الملاحظة وإبراز دورها بين أهم المشاهدات التي تبين إهمال المسلمين لهذا الجانب الحيادي من العلوم، وأنهم لم يعطوه حقه بالصورة الكافية، أنه ترتُّب عليها خشية كثير من الطلاب المتفوقين -الذين ليست لهم وجهة إسلامية- من الالتزام أصلاً؛ وذلك لثلا-

يُصْبِحُوا مثلَ كثِيرٍ من الأمثلة الدعووية، الذين هم مُتَرَدُّون دراسياً، ومتغشرون علمياً.

وقد تحدثت كثِيرًا مع بعض الشباب المتفوق دراسياً، ولكنه بعيد عن آداب الإسلام وسلوكيه، فكان يقبل كلامي عن الإسلام، وعلاقته بالعلم، وحضُّه عليه، وتزكيته لأهله، ولكن كان هذا القبول منه مجرد قبول نظري غير واقعي، وقد رصده وهو يقول لي ببيان الحال، أو بلسان المقال: إن هذه قواعد غير قابلة للتطبيق؛ لأن ما أراه حقيقة هو خلاف ما تتحدث عنه!! وإنما فكيف تفسر حصول الطلاب المسلمين على تقديرات متدنية، بينما يتتصدر قائمة المتفوقين شباب لا يضعون الإسلام منهجاً واضحاً لحياتهم، بل قد يكونون من غير المسلمين أصلًا؟! إنها معضلة تحتاج حقاً إلى وقفات!!^(١).

الللاحظة الثانية:

هناك خلل في فهم احتياجات الأمة الإسلامية، وطرق الإنفاق على وجوه الخير المختلفة، فتتجد أن كثِيرًا من أصحاب رؤوس الأموال قد ينفقون على الفقراء والمساكين، ولكن لا ينفقون على طلبة العلم، وخاصة المغاربين منهم، والذين يعانون معاناة شديدة، ويحتاجون إلى تفرغ لجمع وتحصيل العلم.

ونجد أن بعض الأثرياء -مثلاً- يتبعون العمرة بعمارات عديدة، ومنهم من يوالون الحج عاماً بعد عام، ثم هم لا يفكرون في إنفاق المال في حضور مؤتمر علمي متخصص في مجال كالطب أو الهندسة أو الفلك أو

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص ٢٣ - ٢٥).

غيره، مما هو في مجال تخصصه وصميم عمله.
وقد تجد بعضهم يفكر في إنشاء معهدٍ ديني أو دار تحفيظ للقرآن،
ولكنه لا يفكر في إنشاء مركزٍ لتعليم الكمبيوتر، أو مكتبة علمية حديثة،
أو شبكة معلومات، أو جامعةٍ علميةٍ متخصصة.

بل إنني رأيت كثيراً من المسلمين في بلاد الغرب يحرصون على بناء
مسجدٍ في بلدهِ قد يكون فيه عشرة مساجد أو يزيد، ولكنهم لا يحرصون
على بناء مدرسةٍ في نفس البلد، رغم افتقارها إلى مدرسةٍ واحدةٍ
متخصصة!!

وهذا الخلل -لا شك- مردُّه عدم فقهِ لمفهوم العمل الخيري في
الإسلام؛ فالعمل الخيري عندهم مرتبط بالشعائر والعلوم الشرعية فقط،
أما أمور إعمار الأرض وعلوم الحياة فهو ما يقع في مرتبة متأخرة جدًا في
الأولويات، أو لعله لا يقع في الأولويات أصلًا!!

الملاحظة الثالثة:

تفشّي الأمية بصورة كبيرة في بلدان العالم الإسلامي.. وهو ما يعني
غياب قضية العلم أصلًا، أو أنها ليست مطروحة بالمرة.
ففي مصر -على سبيل المثال- وصلت نسبة الأمية في الفتنة فوق سن
الخامسة عشرة ٢٩,٦٪ وهذا يعني أن من بين كل عشرة مصريين ثلاثة
تقريباً لا يعرفون القراءة ولا الكتابة!!^(١).
ويعني أيضاً أن ما يقرب من ثلث المجتمع المصري الذي يقع عليه

(١) «تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، والنشر على موقع المنظمة على شبكة الإنترنت» صفحة مصر.

واجب الإنتاج لا يقرأ ولا يكتب، وخاصة ونحن نواكب عصر الفضاء والأقمار الصناعية والتكنولوجيا متناهية التعقيد..!!

كما يعني ذلك أيضاً -فيها يعني- أن هذه النسبة الخطيرة لا تقرأ الجرائد ولا تعرف المجالات، بل لم تمسّ المصحف الشريف أصلًا..!!

أما الغريب، فحين نعلم أن هذه النسبة ليست بمعزل عنّا، وإنما تعيش بيننا وفي محيطنا، ومع ذلك فلا تجد أهل الخير حريصين على تعليمهم أو الإنفاق على تعليمهم، وكأن القضية مهمشة تماماً في حياتنا!!

وحتى نعي خطورة وفداحة هذا الرقم، فيكفي أن نعلم أن نسبة الأمية في إسرائيل تبلغ ٢٩٪ فيما فوق ١٥ سنة!!^(١).

وفي الفئة العمرية من سن ١٥ إلى ٢٤ سنة ، وهي فئة الشباب، والتي هي أمل الأمة عليها بناؤها، فتبلغ نسبة الأمية بينها في مصر ١٥٪ في مقابل ٠٠٪ لإسرائيل في هذه الفئة نفسها...!!.

ومثل هذا لا ينطبق على مصر فقط، بل وعلى معظم البلدان الإسلامية الأخرى؛ إذ أنَّ نسبة الأمية فيها قريبة جدًا من النسبة في مصر، بل وأحياناً كثيرة تكون أعلى منها، وذلك كما في المغرب -مثلاً- حيث تبلغ نسبة الأمية فيها في فئة الشباب ٣٠٪ أي ضعف التي في مصر، وفي فئة الكبار تبلغ ٤٨٪ وهذه كارثة بكل المقاييس !!^(٢).

وإذا جئنا إلى موقف الإناث في مصر أيضاً -كمثال للبلدان

(١) «تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦ م والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت» صفحة إسرائيل.

(٢) المصدر السابق.

الإسلامية - وجدنا أن نسبة الأمية بينهن وصلت إلى ٤١٪ في مقابل ٤٪ فقط لمثيلاتهن في إسرائيل !!).

ومثل هذه الإحصائيات تُعطي انطباعاً عما يكون عليه المستقبل في مصر مثلاً، وكذلك البلدان الإسلامية الأخرى، مع العلم بأن هذه النسبة من الشباب الذين لا يقرؤون ولا يكتبون قلماً تجدهم يعرفون قيمة العلم، ومن ثم لا يحرضون على تعلمه، وفي الأغلب الأعم لن يدفعوا أولادهم مستقبلاً إليه، وسيزداد الوضع بالنسبة لهم سوءاً على سوء.

إن تعليم مثل هؤلاء القراءة والكتابة هو من أبلغ وأهم مجالات الدعوة إلى الله ﷺ، وهو بابٌ يحتاج لمزيدٍ من الفكر والجهد، كما يتضرر من أهل الخير أن ينفقوا عليه بسخاء، وذلك عن طريق كفالة المعلمين الذين يقومون على تعليم هؤلاء الأميين، وإنها -والله- لنقلة نوعية للأمة، يوم يتقن جميع أبنائها القراءة والكتابة، بل علوم الدنيا والدين.

وقد يبدو لنا أن تعليم القراءة والكتابة أمر صعب قد يطول وقته، وتتعدد جلساته، ولكن هذا ليس صحيحاً بالمرة؛ وقد حكى لي أحد من أعرفهم أنه جلس مع اثنين من حِّرَاسِ الْعَمَاراتِ فِي الْمَنْطَقَةِ الَّتِي يَقْطُنُهَا، وفِي خَلَالِ شَهْرٍ وَاحِدٍ، بِشَهْنَاهِ لِقَاءَاتٍ تَقْرِيبًا لِمَدَةِ تَرَاوِحُ بَيْنِ السَّاعَةِ وَالسَّاعَتَيْنِ، أَصْبَحُوهَا يَتَقْنُونَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ قِرَاءَةً وَكِتَابَةً !!).

الملاحظة الرابعة:

من الملاحظات المزعجة حقاً والمحزنة جداً، ظاهرة هجرة العقول

(١) المصدر السابق.

(٢) «العلم وبناء الأمم» (ص ٢٦ - ٢٩).

الإسلامية إلى الغرب، فيما يُعرف بظاهرة «استنزاف العقول»، فالدول الغربية بصفة عامة – وأمريكا بصفة خاصة – تحرص على استقطاب العقول المفكرة والمبدعة علميًّا من شتى بقاع الأرض، ومنها – بالطبع – بلاد المسلمين^(١).

وبنظرة متخصصة في ظاهرة هجرة العقول العربية الإسلامية إلى الغرب، تجد – على سبيل المثال – أن ٥٠٪ من الأطباء العرب المسلمين يهاجرون إلى أمريكا وأوروبا نهاية، ليصبحوا بذلك ركناً أساسياً في نهضة المشروع الأمريكي الأوروبي الطبي، بينما يتزوي المشروع الإسلامي مع مرور الوقت، وليس هذا في مجال الطب فقط؛ فالإحصائيات تقول: إن ٢٣٪ من المهندسين و١٥٪ من العلماء من مجموع الكفاءات العربية المخريجة يهاجرون متوجهين إلى أوروبا والولايات المتحدة، وكندا بوجه خاص، بل إن في بريطانيا وحدتها تبلغ نسبة الأطباء من أصول عربية ٣٤٪ من مجموع الأطباء هناك!!^(٢).

وقد أثبتت دراسة أجريت على الطلاب العرب الذين يسافرون لتحصيل العلم من أوروبا وأمريكا أن ٥٤٪ منهم لا يعودون إلى بلادهم!! وبهذا وصل عدد العرب الذين يستقرون في أوروبا وأمريكا من حملة الشهادات المؤهلة العليا حتى سنة ٢٠٠٠ إلى ٤٥٠ ألف عربي!!^(٣).

(١) موقع البلاغ على الانترنت مقال بعنوان «العقول المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار».

(٢) «مجلة البرلمان العربي» – السنة الثانية والعشرون – العدد الثاني والثلاثون – ديسمبر ٢٠٠١م.

(٣) مجلة البرلمان العربي – المصدر السابق.

مع ملاحظة أن كل الإحصائيات السابقة على العرب وليس على عموم المسلمين، مع أن العرب لا يمثلون أكثر من خمس العالم الإسلامي، فإذا أضفت المسلمين غير العرب، فإن الإحصائيات ستصل - بلا شك - إلى أرقام مفزعية، وبالأخص إذا كان هناك دول إسلامية غير عربية اشتهر أبناؤها بالهجرة إلى أوروبا وأمريكا بصورة لافتة، وذلك مثل باكستان والهند وإندونيسيا وتركيا ونيجيريا وغيرها.

ويكفي للدلالة على ذلك أن نيجيريا - على سبيل المثال - صدرت بمفردها إلى الآن إلى أمريكا فقط أكثر من ٢١ ألف طبيب نيجيري، وذلك على مدار السنوات السابقة!!^(١).

وهذه الإحصائيات كلها في الظروف الطبيعية العادلة، أمّا في حال الكوارث أو الحروب أو الفتنة أو غيرها، فإن الأرقام تكون أبشع من ذلك.

فالعراق مثلاً تزف من عقولها وعلمائها ما لا يُتخيل، وهناك في بريطانيا أكثر من ٢٠٠٠ طبيب عراقي!! ويتبين حجم الخسارة إذا علمنا أن الطبيب العراقي كان يكلف دولته في السبعينيات أكثر من ٤٥ ألف دولار، فخسارة أكثر من ٢٠٠٠ طبيب عراقي إذن - وبحساب السبعينيات - تعني خسارة ١٠٠ مليون دولار!! وهذا بالإضافة إلى الخسارة العلمية الناتجة عن فقد هؤلاء العلماء، وبالإضافة إلى الخسارة الصحية الناجمة عن فقد من يعالج مرضى الدولة^(٢).

(١) موقع القنطرة: مقال بعنوان: «هجرة العقول سلبيات وابيجابيات ظاهرة الهجرة».

(٢) موقع البلاغ، مقال بعنوان: «العقل المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار».

الللاحظة الخامسة :

مع كل المعوقات التي تواجهها أمتنا للخروج من مأزق التخلف العلمي، إلّا أن الأعذار لاستمرار هذا التخلف غير مقبولة؛ وذلك لأننا نرى دولاً أخرى غير إسلامية مرت بظروف أمتنا نفسها أو أشد، ثم هي تخرج من كبوتها وأزمتها، وترتفع إلى مصاف الدول المتقدمة والمؤثرة في العالم.

والأمثلة على ذلك كثيرة ومتكررة، فهناك – على سبيل المثال – اليابان التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية في الخروج من الأزمة الرهيبة التي عصفت بها، وهناك ألمانيا التي أبیدت أيضاً في الحرب العالمية الثانية، وهناك كوريا الجنوبية التي لم تظهر على الساحة العالمية إلّا منذ سنوات معدودات، وهناك كوريا الشمالية التي استطاعت أن تصنع السلاح النووي مع كل المعوقات التي تمر بها، بل هناك الهند، مع كل ما تعانيه من فقرٍ وتكدسٍ سكاني رهيب، فإنها قد استطاعت أن تُصنّع السلاح النووي، واستطاعت كذلك أن تنبغ وتبuzzi في مجال الكمبيوتر، بل وتصبح من الدولة الأولى المرموقة في هذا المجال في العالم، ويكتفي في التدليل على ذلك ملاحظة المعدلات المتنامية لصادراتها في مجال برامج الكمبيوتر؛ فقد بلغت صادرتها نحو ٣٣,٧١ مليار دولار في ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦ مقارنة بـ ١٧,٢١ مليار دولار في ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥ م، وتسجّل صادرات الهند في قطاع تكنولوجيا المعلومات سنويًا نمواً هائلاً، ففي الفترة ما بين عامي ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦ م سجل حجم الصادرات الهندية في هذا القطاع نمواً بنسبة

.٣٧,٧٪ مقارنة بالفترة ما بين ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥م^(١).

□ مبدأ التخلف العلمي؛ فإنه إذا أرادت دولة إسلامية أن تصل إلى مستوى علمي لائق فإنها حتى ستصل، والأسباب متاحة للجميع، وليس أدل على ذلك من المثال الماليزي.. فدولة ماليزيا الإسلامية تقدم اليوم بخطوات ثابتة رصينة في طريق العلم، وترقي يوماً بعد يوم مع كل المعوقات التي تمر بها.

وهذه التجربة الماليزية تحتاج إلى دراسة متأنية؛ لأنها بالفعل تفتح أبواب الأمل أمام عموم المسلمين.

الللاحظة السادسة:

من الملاحظات السلبية والخطيرة كذلك -والتي تدل على إهمال المسلمين لعلوم الحياة- قضية «الإنفاق على العلم والبحوث العلمية». فقد أورد تقرير التنمية البشرية الصادر عن منظمة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، بنداً يقيس مدى اهتمام دول العالم المختلفة بقضايا العلم، ويحدد ذلك بنسبة ما تنفقه الدولة على البحث العلمي من جملة ناتجها القومي كل عام.

وفي هذا التقرير لن نقارن الدولة الإسلامية بالدول الصناعية الكبرى، مثل أمريكا واليابان والصين وفرنسا وألمانيا وإنجلترا وغيرها وإن كان يجب أن نقارن أنفسنا بهؤلاء لنصل إلى ما وصلوا إليه، بل لنس比هم إن شاء الله، ولكننا سنقارن بدولة لقبيطة ليس لها جذور حقيقة،

(١) مجلة البيان (العدد ٩٨٤٢) السنة السابعة والعشرون.

ولا تملك من القيم ما يدفعها للصدارة، كما أنها قامت على أرض مضطربة مليئة بكثير من المشكلات والصعوبات والمعوقات، وتلك الدولة هي إسرائيل !!

فإسرائيل تنفق ٤٩٪ من ناتجها القومي على العلم والإنجازات التقنية، وتعُد هذه أعلى نسبة إنفاق في العالم على العلم، ويفوق في ذات الوقت ما تخصصه كل الدولة العربية مجتمعة بنحو ثلاثة مرات ونصف !!^(١) وهي بهذا الكم من الإنفاق تستطيع أن تصل إلى مستوى الدول المصنعة والمبتكرة، بل وتفوقها، وبالفعل فقد أصبح لها رصيد محترم من الاختراعات والإضافات، وفي أكثر من مجال، سواء في العلوم العسكرية، أو علوم الفضاء، أو علوم الذرة، أو العلوم الطبية، وكذلك باقي مجالات التصنيع المختلفة.

فالعلم يقع في بؤرة اهتمامها، ولذلك وصلت إلى مستوى متميز، وإلى مكانة مرموقة أما إذا نظرت إلى الدول الإسلامية، فإنك – وللأسف الشديد – تفاجأ بأن قضايا الإنجاز العلمي والتكنولوجي والابتكارات لا تقع في بؤرة الاهتمام، ولا ينفق عليها من الناتج القومي إلا التزير البسيط، مع أنه إذا زاد الاهتمام بالعلم فإن ذلك سيساعد على تقدم الصناعة والزراعة والاقتصاد والتصدير، وكل المجالات الأخرى، وهذا – من وجهة نظر مادية بحثة – سيقدم للأمة للأمام خطوات وخطوات، وسيصب في قوتها، ليس علمياً واقتصادياً فحسب، وإنما أيضاً سياسياً وعسكرياً.

ولكن – على ما يبدو – فإن القضية لا تشغلي أذهان المسؤولين عن

(١) «تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة لسنة ٢٠٠٦م» صفحة إسرائيل.

هذه الأمة الضخمة!!

فيذكر تقرير الأمم المتحدة أن مصر - مثلاً - تنفق ٢٪ من ناتجها القومي على العلم والإنجاز التقني، أي أن نسبة إنفاق إسرائيل على العلم ضعف نسبة إنفاق مصر ما يقرب من ٢٥ مرة!!^(١).

* وعليه فلا يشك أحد أن التمييز اليهودي في مجال العلوم سيكون ضعف التمييز المصري ٢٥ مرة، وهذه سنة ماضية فالذى يبذل في الدنيا لا بد أن يصل إلى ما يريد من غايات، كما لا بد لتحقيق نتائج معينة أن تُبذل أسباب بذاتها، حتى لو كان هذا الذي يبذل كافر ملحد.. يقول تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَهَا نُوقِطُ إِنَّهُمْ أَعْمَلُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]

وعن بقية البلدان العربية، فإن حالها لا يختلف كثيراً عن أحوال مصر في مجال الإنفاق على العلوم والتقنية، وهي تحوم حول النسبة نفسها تقريباً.

فهذه الأردن ينفق ٣٪ من الدخل القومي على العلم، وتونس كذلك، وسوريا تقل لتصل إلى ٢٪ من جملة دخلها القومي، وتعد الإمارات أعلى الدول العربية من حيث الإنفاق على العلم؛ إذ يصل نسبة إنفاقها ٦٪ من دخلها القومي^(٢)، ومع أنها أعلى الدول العربية إلا أن المسافة بينها وبين إسرائيل ما زالت شاسعة.

وفي غير قضايا الإنفاق على الأبحاث العلمية، وبها يعبر عن المدى

(١) المصدر السابق - صفحة مصر.

(٢) المصدر السابق - صفحة كل البلدان.

الذي وصل إليه المستوى العلمي في الدول الإسلامية مقارنة بإسرائيل، فقد كشف تقرير صادر عن هيئة الأمم المتحدة عن حقيقة الفجوة التكنولوجية والعلمية بين العرب وإسرائيل، والتي تجسد تفوقاً علمياً وتكنولوجياً إسرائيلياً ساحقاً.

ففي حين يذكر التقرير أن لكل ١٠٠٠ مواطن إسرائيلي ٢١٧ جهاز كمبيوتر، يذكر أن في الأردن ٥٢ جهازاً لكل ألف أردني، وفي لبنان ٣٩ جهازاً لكل ألف لبناني، وفي مصر ٩ أجهزة لكل ألف مواطن مصري!!^(١).

وبالنسبة لعدد الباحثين العلميين في العالم العربي مجتمعاً، فإن التقرير يُشير أيضاً إلى أن لكل مليون مواطن عربي ١٣٦ باحثاً في حين أن في إسرائيل ١٦١٣ باحثاً لكل مليون يهودي يعيش في إسرائيل!!^(٢).

وإذا أردنا التوسع في ذكر أمثلة أخرى، فإن في أمريكا ٤٣٧٤ باحثاً لكل مليون مواطن أمريكي؛ وفي اليابان ٥٠٠٠ باحث لكل مليون مواطن ياباني^(٣).

أما بالنسبة إلى نصيب المواطن في الدولة من الإنفاق على التعليم، فهو -حسب إحصائيات التقرير نفسه- في إسرائيل ٩٢٢ دولاراً سنوياً، والمواطن الأمريكي يصرف عليه ١٠٠٥ دولارات سنوياً، أما المواطن المصري فنصيبه ٦ دولارات سنوياً!!

ولا تُعدَّ البلاد العربية والإسلامية بفقر أو بضيق في ذات اليد،

(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦ م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

ويكفي في ذلك أن نعرف أن واحدة من هذه الدول التي تشكو معاناة الفقر، والتكدس السكاني، تُتفق الملايين والملايين على أمر ليس من الأولويات في شيء، وقد رأينا مؤسسة علمية ضخمة في مصر تتفق ١٥ مليون جنيه مصرى على تجميل السور المحيط بها، بينما يصعب جدًا إنفاق ألف أو ألفي جنيه مصرى على مشروع بحثي مفيد!! ورأينا أيضًا من يكلف تأسيس مكتب مدير مؤسسة علمية مئات الآلاف من الجنيهات، بينما يتربّد هذا المدير في الموافقة على مكافأة بسيطة لعالم كادح!!^(١).

إن الإمكانيات متاحة والأموال موجودة، لكن المشكلة تكمن في ترتيب الأولويات، وفي فقه الواقع، وفي الضمير، وفي تقديم المصالح الخاصة على المصالح العامة، وفي ضعف الاعتقاد في أهمية العلم.

وخلاصة هذه الملاحظة أن قضية العلم لم تقع بعد في بؤرة الاهتمام في العالم العربي والإسلامي، وكان هذا سلوكًا -أحد أهم الأسباب المباشرة لحالة التخلف والتردي التي تمر بها الأمة، والأمر يحتاج إلى وقفات.

الملاحظة السابعة :

إن الأمم المتحدة -كما جاء في تقرير التنمية البشرية لسنة ٢٠٠١- تقسم العالم بحسب الإنجاز التقني إلى خمس فئات، وأولى هذه الفئات هي مجموعة القادة، ثم القادة المحتملين، ثم النشطين، ثم المُهتمّين، وأخيراً: الآخرين.

فالفئة الأولى وهي مجموعة القادة ضمت ١٨ دولة، ليس من بينهم

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص ٣٤ - ٣٧).

دولة إسلامية واحدة، بينما تقع إسرائيل ضمن هذه الفئة الأولى!!!
أما الفئة الثانية وهي القادة المحتملون، فقد ضممت -فيما ضممتها- دولة إسلامية واحدة هي ماليزيا، بينما تقع مصر وإندونيسيا وتونس وسوريا والجزائر وإيران في فئة النشطين، أما بقية الدول العربية والإسلامية فتقع في طائفة المهمشين والآخرين، والذين لم يضعوا قضية العلم في حساباتهم مطلقاً.

والجدير بالذكر أن بعض هذه الدول الإسلامية تميز بمستوى مرتفع في المعيشة، بل وارتفاع في معدلات التنمية، لكن -وللأسف- ليس لها اهتمام يُذكر بالإنجازات التقنية.

وعند النظر إلى الدول القيادرة أو تلك التي يحتمل أن تصبح قادة، تدرك ولأول وهلة إلى أي مدى وضعت هذه الدول البحث العلمي في أولى حساباتها، وكيف كرّست جهوداً مضيئة للوصول إلى هذه المكانة المرموقة التي تبؤتها.

فعلى سبيل المثال فإن رجال الصناعة في مجالات الاتصالات والمعلومات، وفي مجالات تصنيع الأخشاب في دولة مثل فنلندا -وهي دولة تتفوق في هذه المجالات- يخصصون ٢٠٪ من أوقاتهم لتوسيع الخبرة إلى طلاب الجامعات الفنلندية، وبذلك تستمر الدولة في طريقها نحو التفوق، ويبداً فيها الطلاب من حيث انتها العلماء، وتستطيع الدولة أن تحافظ على مكانتها العلمية، بل تتقدم وتسبق.

وفي دولة مثل الصين تجد أن الجامعات الحكومية تدعم مجالات البحث العلمي، ليس فقط في المشروعات الحكومية، وإنما تدعمه أيضاً

لصالح المؤسسات الصناعية في القطاع الخاص، وذلك مثل تحديث الصناعات البتروكيميائية، وتحسين الأنشطة التقليدية في مجال الزراعة، وغيرها»^(١).

الملحوظة الثامنة :

وضع وترتيب الجامعات الإسلامية على مستوى العالم. فالطبيعي أن تَقدُّم دول العالم يُقاس اليوم بقدر إسهامها في بناء الحضارة الإنسانية، وتقدم العلوم وهو دور لا تقوم به إلّا الجامعات العلمية في تلك الدول.

وعلى هذا الأساس فقد نشر معهد التعليم العالي في جامعة جياو تونج في شنغهاي بالصين تقريرًا تقييمياً مفصلاً حول ترتيب ومكانة أفضل خمسين جامعة في العالم في سنة ٢٠٠٤م، وتلاه تقرير سنة ٢٠٠٥م، ثم تقرير سنة ٢٠٠٦م^(٢) وهو لا يُحابي أحداً حتى دولته الصين.

وهذه التقارير تبرز بوضوح تلك الفجوة الهائلة في مجالات البحث العلمي والاهتمام بالإنجازات التقنية بين دول العالم الإسلامي ودول العالم الأخرى.

□ ونقف وقفة مع تقارير السنوات الثلاث السابقة نستقرئ منها الملاحظات المهمة التالية:

- في تقرير سنة ٢٠٠٤م خَلَت الجامعات الخمسين من جامعة إسلامية، وفي تقرير سنة ٢٠٠٥م دخلت دولة إسلامية واحدة بجامعتين برقم ٤٠٩ و ٤٦٨ على العالم، وهي تركيا..!!

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص ٤٠، ٤١).

(٢) نشر ترتيب الجامعات على موقع الكتروني يتبع جامعة شنغهاي.

وهذا فأل حسن، والوصول إلى القمة لن يحدث قفزة واحدة، وتركيا استحقت بالفعل أن تدخل هذا الترتيب، وتحتاج تجربتها إلى دراسة متأنية. وبينما أصابتنا حالة من الحزن لخروج تركيا من تصنيف الجامعات الأولى في تقرير سنة ٢٠٠٦م، عوّضتنا مصر عن ذلك بدخولها في التصنيف بجامعة القاهرة، وذلك بترتيب ٤٠٤ من أفضل ٥٠٠ جامعة على مستوى العالم^(١).

- وأمريكا هي الدولة الأولى في العالم حيث عدد جامعاتها في تقرير سنة ٢٠٠٥م؛ إذ شملت القائمة ١٦٨ جامعة أمريكية، من بين العشرين الأولى فيها ١٧ جامعة أمريكية، ومن بين المئة الأولى ٥٣ جامعة أمريكية. وتتصدر جامعة هارفارد الأمريكية الجامعات الخمسينية، ثم جامعة ستانفورد في المركز الثالث.

- تأتي إسرائيل لتحتل المركز الثاني عشر في التقرير، متفوقة بذلك على دول كبرى مثل روسيا والصين، وذلك بسبع جامعات إسرائيلية، على رأسها الجامعة العبرية في القدس، وجاءت في المركز ٧٨، وكانت في تقرير ٤٢٠٠٤م في المركز التسعين، بما يعني أنها في صعود وتقدم مستمر!! (واإسلاماه، واإسلاماه، واإسلاماه).

ومثل هذه النتائج تقريرًا جاءت في تقارير معهد التعليم العالي في جامعة جياو الصينية، وتقرير مجموعة «الابوراتور يودي إنترنت» المتخصص ومقرها مدريد بتائج ترتيب أفضل ثلاثة آلاف جامعة في العالم وتكون أمريكا هي الدولة الأولى في تلك القائمة أيضًا، وقد شملت

(١) المصدر السابق.

الألف جامعة الأولى ٤٥٥ جامعة أمريكية على رأسها جمِيعاً جامعة كاليفورنيا.

الللاحظة التاسعة :

«وهذه الملاحظة تعم بلدان العالم الإسلامي، وهي مؤسفة جداً» وتكمن في عدم الاهتمام مطلقاً بالهيئة التعليمية، تلك التي تحمل مسؤولية قيادة البلاد علمياً وتقنياً، وذلك بدءاً من العلماء وأساتذة الجامعات، ومروراً بكل مراحل التعليم، وانتهاء بمدرسي المدارس الابتدائية والحضانات.

والأمر - بلا شك - يعكس قيمة العلم في منظور هذه الدول.
فإذا نظرنا إلى المرتبات والأجور التي يتلقاها العلماء وأساتذة - كواحدة من الصور التي تعكس قيمة العلم ومكانته في هذه الدول - تجد أنها لا تكفي بحال من الأحوال لسد أقل متطلبات الحياة اليومية !!.

وعليه فإن هذا العالم وذاك الأستاذ من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - أن يبرع ويبتكر في مجاله في مثل هذه الظروف، فهو أولاً سيبحث عن عمل خارجي إضافي كي يتكتسب منه، ويحصل من ورائه جزءاً من المال يتقوى به على متطلبات الحياة، وكثيراً ما يكون هذا العمل الإضافي في خارج مجاله تماماً.

ثم هو ثانياً لن يتم كثيراً بعمله في الجامعة أو المؤسسة العلمية؛ لكونه يشعر بالغبن في الأجر، ويعتمد التقدير للمجهود، ومن ثم يعطي من مجهوده ما يتنااسب في تقديره والأجر الذي يتلقاه.

ثم هو ثالثاً يشعر بالسخط وعدم الانتهاء لهذه الدولة التي لم تقدر

جهده وسعيه وعلمه، وهذا الشعور المقيت يقتل كل نوايا الإبداع والابتكار.

وفي النهاية تراه وقد قرر الهجرة وترك الديار إلى بيئة تقدّره علمياً أو مادياً، فإما أن يهاجر إلى أمريكا أو إلى أوروبا ليرتقي بعلمه وينبغ فيه، ويدخل بذلك ضمن المنظومة العلمية الغربية، وإما أن يبحث عن عقد عمل مجزٍ، ولو كان على حساب مجاله ولو كان في بيئة لا تهتم أصلاً بالعلم ولا تحفل به !!

ولعله من البدايات المهمة والتي يجب أن تكون نقطة انطلاق في تلك البلاد التي تريد أن يكون لها مكانة بين الدول الكبرى، أن تهتم بأجور علمائها وأساتذتها ومربيها، ويكفي في الإشارة إلى ذلك أن تعلم أن مرتب أستاذ الجامعة في بلد مثل مصر هو أقل من مرتب أستاذ الجامعة في أمريكا أو أوروبا الغربية بأكثر من خمسين مرة على الأقل، وأحياناً أكثر من مئة مرة، مع أن الأسعار بصفة عامة أرخص هناك عن الأسعار في بلادنا !! وهذا يعطي انطباعاً وخلفية عن الحالة النفسية والمادية التي يعيشها العالم هناك، مما يعني فرصاً أكبر للإبداع والتفوق والابتكار»^(١).

□ ويرحم الله الشافعي القائل: «لو كُلِّفت شراء بصلة من السوق ما استطعت أن أعي مسألة من مسائل الفقه».

□ ورحم الله من قال: «لا تُحَدّثُ من ليس في بيته دقيق، فإنه مُوَلَّ العقل».

ولا مجال هنا للاعتذار والتغطيل بضعف الوضع الاقتصادي في بلادنا،

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص ٤٩ - ٥٠).

والتحديات التي تواجهنا؛ فإن مرتب الوزير في بلادنا ومن كان في وضعه السياسي يفوق مرتب مثيله في تلك البلاد الغربية المتقدمة مرات عديدة!! فالقضية إذن ليست قضية نقص مال، وإنما هي قضية نقص علم ونقص فقه وسوء تصرف، وأحياناً كثيرة تكون نقص ضمير!! ليسمع من له أذنان، ومن كانت عنده همة عالية إذا لم يتفوق المسلمون في هذه المجالات، فما البديل !!؟

إذا لم يتفوق المسلمون في هذه المجالات، فما البديل ؟!!
لن يخالفني أحد إذا قلت بأن البديل في ذلك هو أن يعتمد المسلمون في هذه المجالات التي أهملوها وتخلفوها فيها على غيرهم، أو قل: على عدوهم؛ إذ هو البديل الوحيد أحياناً !!
فهل يستقيم هذا الأمر شرعاً؟!

هل تقوم أمّة على أكتاف غيرها؟! بل هل تقوم أمّة على أكتاف أعدائها..؟!

أليس أمراً يدعو إلى الدهشة والغرابة حين يضطر المسلم لكي يبدع في مهنة ما أن يسافر إلى بلاد أعدائه ليتعلم منهم، وينقل عنهم؟!
وكيف يقوم مصنع في بلد مسلم على ماكينات وقطع غيار مستوردة من بلاد عدوه؟!

وماذا يحدث لو دارت رحى الحرب بين الأمة الإسلامية وبين أعدائها هؤلاء أو حتى حدثت بينها مقاطعات؟ هل سنوقف حياتنا انتظاراً لتحسين العلاقات مع الأعداء؟!

وأوضح من ذلك: كيف سنحارب أعداءنا إذا كنا نعتمد عليهم

اعتماداً كلياً في السلاح، وهم الذين يعلمون بالضبط ما قد يكون مهماً ومؤثراً ومتقدماً فيمنعونه إياناً، وما قد يكون قليلاً الأهمية ضعيف التأثير والجدوى فييعوننا إيه؟!

إن هذا وأيم الله له العجب فعلًا!!

وحتى لا نكون مبالغين ولا مهوّلين، فهذه إحدى إحصائيات سوق السلاح الدولية تشير الإحصائية إلى أن صادرات أمريكا من السلاح ما بين عام ٢٠٠٤-٢٠٠٠ م بلغت ٢٥,٣٩٠ مليار دولار، وهي بذلك تعد الدولة الثانية في العالم في تصدير السلاح بعد روسيا والتي بلغت قيمة صادراتها ٢٦,٩ مليار دولار في الفترة نفسها. وأن ٥,٠٧٩ مليار دولار من إجمالي الصادرات الأمريكية من السلاح هي دول الشرق الأوسط وأفريقيا، أي من العالم العربي والإسلامي !!^(١).

وجوهر القضية ليس فقط في دخول هذه الأموال الطائلة الخزانة الأمريكية أو غيرها، لكن القضية الحقيقة والكارثة الملمة هي في اعتقاد هذه الدول اعتماداً أساسياً وكلياً على السلاح الخارجي فقط !!

وإضافة إلى أمريكا فإن بريطانيا وحدها -كما تشير الإحصائيات أيضاً- صدرت سلاحاً بما يبلغ قيمته ٤,٤٥٠ مليار دولار في الفترة نفسها، وأن ١,٠٠٤ مليار دولار تأتي من دول الشرق الأوسط وأفريقيا، أي من العالم العربي والإسلامي !!

وتشير الإحصائيات أيضاً إلى أن ٤٠٪ من صادرات فرنسا من

(١) «تقرير الاتجاهات الاقتصادية الإستراتيجية الصادر عام ٢٠٠٦ م (ص ١١٣-١١٨) عن مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية.

السلاح يتوجه إلى العالم العربي !! وأن ١٨٪ من صادرات الصين من السلاح أيضاً يتوجه إلى المنطقة نفسها !! وأن ١٥٪ من صادرات روسيا من السلاح يتوجه كذلك إلى العالم العربي !!^(١).

أما الغريب والعجب فهو أن تكون إسرائيل هي الدولة الرابعة في العالم في تصدير السلاح، وذلك بعد أمريكا وروسيا وبريطانيا، متخطية في ذلك دولاً مثل فرنسا والصين وصربيا والتشيك وأوكرانيا !!^(٢).

وتمثل صادرات السلاح في إسرائيل ٤٠٪ من إجمالي صادراتها، وهي أعلى نسبة على مستوى العالم !!^(٣).

أما الدولة التي حازت نصيب الأسد من صادرات السلاح الإسرائيلي فهي الهند، العدو التقليدي لباكستان المسلمة !!

فهل مثل هذه الإحصائيات لا تمثل غضاضة أو قلقاً أو حزناً لدى الشباب المسلم الملتزم، وكل من عنده أدنى حمية لأمتة؟!

ولا يتحجج البعض بأن القضية في ذلك هي مجرد قرار سياسي؛ إذ أنه لو حدث ذات يوم وتم اتخاذ مثل هذا القرار السياسي –أعني القرار بتصنيع السلاح والاكتفاء الذاتي منه مع ما يتطلبه ذلك من مسيرة أحداث تكنولوجيا التسلیح في ذلك العصر – فإننا يجب أن يكون لدينا قبل هذا

(١) المصدر السابق.

(٢) موقع مجلة دار الحياة تقرير بعنوان: إسرائيل الدولة الرابعة في العالم في تصدير السلاح.

(٣) موقع فلسطين المسلمة تقرير ملف الصناعة الحربية الإسرائيلية إعداد: لواء أركان حرب متقاعد حسام سويلم.

القرار العلماء الأكفاء في علوم الهندسة والذرة والكيمياء والفيزياء والطاقة وغيرها، من يستطيعون تصنيع السلاح الأمثل، وإنما أصبح قرار تصنيع السلاح هذا قراراً لا معنى له.

ولتأكيد هذا المعنى وتوضيحه بصورة أكبر كان هناك تقريرات أخرى.

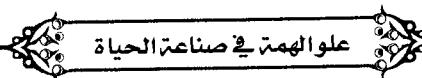
فقد أشار التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠٠٦م، إلى مواصلة ارتفاع حصة الواردات العربية من الولايات المتحدة وأسيا، ومنها الصين بوجه خاص، وكانت نسبة الواردات العربية الإجمالية قد وصلت قيمتها في عام ٢٠٠٥م إلى ٣٤,١ مليار دولار !!

والجانب الأعظم من الواردات العربية يعتبر من الولايات المتحدة، وأهم ما يُستورد منها: العدد والآلات ووسائل النقل المختلفة، حيث تستحوذ على ٦٠٪ من إجمالي هذه الواردات، ويليها في الأهمية السلع الغذائية مثل القمح واللحوم، وتمثل حوالي ١٥٪، ويأتي في المرتبة الأخيرة المشروبات الغازية والتبغ ومنتجاته، وتبلغ فاتورة الواردات العربية في الأغذية وحدها ٢٠ مليار دولار سنوياً.

وتُعد واردات مصر - كمثال من تلك الدول - من السلع الغذائية ١٦,٨٪ من إجمالي الواردات المصرية، وتستهلك من القمح أكثر من ١٢,٢ مليون طن سنوياً، تستورد منها ٦ ملايين طن^(١).

كل هذه الأرقام وغيرها تعكس ضعف نسب الاكتفاء الذاتي العربي

(١) تقرير أوضاع الأمن الغذائي العربي ٢٠٠٢م، الصادر عن المنظمة العربية للتنمية الزراعية التابعة لجامعة الدول العربية، وهو منشور على موقع المنظمة على شبكة الإنترنت.



من السلع الأساسية، ويعني أيضًا إمكانية استخدام هذا الضعف كسلاح ضد الدول العربية.

أما الغريب حقًا فهو أن تكون الواردات العربية من المواد الخام هي ٥٪ فقط، إذ أن ذلك يعني أننا نمتلك الكثير من الثروات الطبيعية التي حبا الله بِعَلَّهِ بها بلادنا، وهو يعني في ذات الوقت عجزنا الكبير عن تحقيق أدنى نسبة تحقيق اكتفاء ذاتي، ثم هو يعني ثالثًا أننا نصدر المواد الخام ليُعاد تصنيعها، ثم نستوردها مرة أخرى، ولكن بأضعاف مضاعفة!!

□ أما عن السلع الاستفزازية، فإن الأرقام تشير إلى أن مصر وحدها استوردت من أنواع الجبن المختلفة التي تم حصرها في ٣٢ نوعًا، ما قيمته نحو ١٢١ مليون جنيه في عام واحد، هذه الحقيقة تأتي على الرغم من أن مصر تعتبر من الدول المنتجة للألبان، وتأتي أيضًا وللأسف— رغم أن بمصر العديد من شركات تصنيع الأجبان، سواء من الشركات الحكومية أو من شركات القطاع الخاص!!.

وكمذا بمصر من المُبكيات:

□ وتبلغ فاتورة أغذية القطط والكلاب المصرية من الخارج في خلال ستة شهور فقط حوالي مليوني جنيه!!^(١).
والظاهرة الأغرب تلك الأرقام التي تصل إلى نحو ٥ ملايين دولار لاستيراد الآيس كريم من الخارج!!.
ألا يدعو ذلك إلى الدهشة والاستغراب..؟!

(١) موقع ديوان العرب لأشرف شهاب بعنوان مصر تستورد طعام الكلاب والقطط.

من رهبة الْبُوْح تستحي وتضطرب
ولا تزال بعيني ألف مُبِكِيَّةٍ

مبكية أخرى:

براءات الاختراع:

من كانت له عينان فلينظر.. واحذر أخي أن يُؤتى الإسلام من قبلك،
فكلنا على ثغر من ثغور الإسلام.

في سنة ٢٠٠١ قدمت مصر - كواحدة من الدول الإسلامية -
اختراعاً واحداً، وفي سنة ٢٠٠٢ كان نصيبها في براءات الاختراع أيضاً
اختراعاً واحداً، وفي سنة ٢٠٠٣ م زاد هذا العدد -بفضل الله- ليصل إلى
١٢ اختراعاً، وكانت سنة ٤ ٢٠٠٤ م قمة لإنجاز بوصول عدد براءات
الاختراع إلى ٧٨ اختراعاً، وهو تطور طيب يدعوه إلى التفاؤل.

وتعتبر مصر بذلك ثاني دولة إسلامية في تسجيل براءات الاختراع،
أما الدولة الإسلامية الأولى في ذلك فهي تركيا، وحصيلتها من عدد
براءات الاختراع في سنة ٤ ٢٠٠٤ هو ١٠٤ اختراعات^(١).

لكن الحقيقة أن هذه النسبة -سواء التي في مصر أو التي في تركيا-
هي قليلة جدًا إذا ما قورنت بغيرها من الدول الأخرى، وخاصة حين
نعلم أن إسرائيل وحدها بلغ نصيبها في تسجيل براءات الاختراع في العام
نفسه ١٢٢٢ اختراعاً، محتلة بذلك المركز رقم ١٥ بين دول العالم في عدد
براءات الاختراع المسجلة سنويًا!!!.

أما المركز الأول فكان -بالطبع- من نصيب أمريكا، والذي وصل

(١) «تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٦».

نصيبها فيه من براءات الاختراع في نفس العام أيضاً ١٨٧٠ اختراعاً!! وتلتها في ذلك اليابان بنحو ١٩٩٨٢ اختراعاً، ومن بعدها فرنسا، ثم إنجلترا^(١).

وحتى تتضح الصورة بعض الشيء، فليس معنى تسجيل براءة اختراع الاقتصر فقط على اختراع شيء لم يكن موجوداً أصلاً، مثل التليفزيون أو الكمبيوتر أو ما شابه، وإنما تمنح براءة الاختراع عن كل إضافة علمية جديدة ناشئة عن فكرة جديدة وجهد في الابتكار، وتكون قابلة للاستغلال الصناعي بما فيها الفلاحة. ويدخل في ذلك تطوير اختراع قائم، أو تحسينه بإدخال بعض التعديلات عليه، مما من شأنه أن يرفع من كفاءته، أو يقلل من مضاعفاته الجانبية، أو يساعد على تخفيض سعره، أو غيره.

أي أن أي إضافة على هذا الشيء ولو صغيرة يُعد اختراعاً، يستطيع صاحبه أن يسجله باسمه في براءات الاختراع، ويكون بذلك قد أضاف للإنسانية شيئاً جديداً.

ولأنه لما كانت هناك دول قليلة السكان ودول أخرى كثيرة السكان، فإن العلماء استحدثوا طريقة أخرى أدق لحساب براءات الاختراع للدول، وذلك بحسب عدد براءات الاختراع فيها بالنسبة إلى عدد السكان، وكان من نتيجة ذلك أن احتلت إسرائيل المركز الثامن بين دول العالم في تسجيل براءات الاختراع، وسبقت في ذلك أمريكا واليابان وفرنسا وإنجلترا ودولًا أخرى كثيرة؛ لأن عدد السكان بها قليل... !!

(١) المصدر السابق.

وتوضيح ذلك أن بمثل هذه الطريقة يكون هناك اختراع لكل ٥٠٠٠ إسرائيلي، في حين أن ذلك الاختراع في أمريكا هو لكل ٦٧٠٠ أمريكي، وفي اليابان لكل ٦٣٠٠! وعلى هذا القياس أيضاً فإن النسبة في مصر هي اختراع واحد لكل ٩٠٠٠٠٠ مصرى !!^(١).

وغير تصنيف الدول، فإن للشركات على مستوى العالم تصنيفاً أيضاً في تسجيل براءات اختراع خاصة بها، وكانت الشركة الأولى في تقديم أكبر عدد من البراءات هي شركة «فيليبس» الهولندية، محتفظة بهذه الصدارة للسنة الثانية على التوالي، ومن بعدها تأتي شركة «ماستوشيتا» التي منها «باناسونيك»، ثم «سيمنز» الألمانية، ثم «نوكيا» الفنلندية، ثم شركة «بوش» الألمانية، ثم «إنتل» الأمريكية، ثم «بُسّ» الألمانية، ثم «ثري إم» الأمريكية، ثم «موتورولا» الأمريكية، ثم «سوني» اليابانية.

شركات كثيرة - وللأسف - ليس بينها واحدة إسلامية.. فكل براءات الاختراع لدينا إنما هي من نصيب الأفراد، وهذا يعني في أهم ما يعنيه - غياب العمل الجماعي أو العمل المؤسسي وعمل الفريق الواحد الذي يعتمد عليه الإبداع كُلّيًّا في القرن الحادي والعشرين !!.

وأخلد المسلمين إلى الأرض :

لما تنفسَتِ الجahليَّةُ في بلاد المسلمين ورفعت رأسها، وأخلدَ المسلمين إلى الترف والنعيم وإلى الملاهي والملاعب، وانغمروا في الملذات والشهوات واستهتروا استهتاراً بهذه الأخلاق المُتحطّة، ومع هذا الانهيار في الملاهي لا تستطيع أمة أن تؤدي رسالة الإسلام، وأن تقوم في الدنيا

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص ٦٦-٦٨).

مقام خلفاء الأنبياء، وأن تكون قدوة وأسوة للناس، ولما فصلوا بين الدين والدولة وزادوا الطين بلة، وعزلوا الإسلام عن قيادة حياتهم، فقدت رسالة الإسلام تأثيرها وقوتها في قلوب غير المسلمين وضعف ثقتهم به. وفي لفظ مؤرخ أوربي: بدأ الإسلام بالانحطاط؛ لأن البشرية بدأت تشک في صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة.

قلة احتفال المسلمين بالعلوم العملية المفيدة ﴿ وَيَنْعَمُونَ مَا يَصْرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾

قال الشيخ أبو الحسن الندوی عن «انحطاط المسلمين»: «إن العلماء المفكّرين منهم لم يعنوا بالعلوم الطبيعية التجريبية وبالعلوم العملية المشرمة المفيدة اعتماداً لهم بعلوم ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلهية التي تلقّوها من اليونان، وما هي إلّا وثنيتهم القومية التي ترجموها في لغتهم الفلسفية وأضفوا عليها لباساً من الفنّ، وما هي إلّا ظنون وتخمينات وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى، وقد أغنى الله المسلمين عنها وكفاهم هذا البحث والتنقيب وعملية تجزئة وتحليل في مسائل ذات الله وصفاته وما يتعلّق بها أشبه بالتحليل الكيمياوي، بما أنزل إليهم بينات من الهدى والفرقان وجعلهم على نور من ربهم، ولكن المسلمين لم يشكروا هذه النعمة العظيمة، وظلوا قروناً طويلاً يجاهدون من هذه العلوم والباحث في غير جهاد، ويضيّعون ذكاءهم في مباحث فلسفية وكلامية لا تُجدي نفعاً ولا تأتي بنتيجة، وليس لها دعوة في الدنيا والآخرة، وتشاغلوا بها عن علوم واختبارات تسخر لهم قوى الطبيعة ويُسخر منها مصلحة الإسلام، ويُسيطرون بها سلطة الإسلام المادية والروحية على العالم كله.

وكذلك اشتغلوا بمباحث الروح وفلسفة الإشراق ومسائل وحدة الوجود، وبذلوا فيها قسطاً كبيراً من أوقاتهم وجهودهم وذكائهم^(١).
ولما كان الذي خُبِثَ لا يخرج إلّا نكداً، ولما فارق المسلمون هدي نبيهم على درب سلفهم الصالح صاروا في ذيل ركب الأمم، وفاقتهم أراذل الشعوب في الإنتاج كمًا وكيفًا وفي الإتقان، والعلم، والإبداع، والتدقيق العلمي، فليصححوا المسار بالإسلام حتى تعود إليهم حضارتهم..

وأنذرهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النُّصْحَ إلَّا ضُحِى الغِدَى

هكذا كانوا يومَ كُنَّا

□ قال الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني في كتابه القيّم «الحضارة الإسلامية - أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم»^(٢):-

واقع حال أوروبة والغرب كله إبان ازدهار حضارة المسلمين:

أخذ المسلمون منذ تكوّنت لهم دولة ذات كيان مستقلّ، يبنون حضارتهم بهذى من تعليمات الإسلام، في القرآن الكريم، هو بيانات الرسول العظيم القولية والعملية، وتوجّهت أنظارهم لإصلاح شعوب الأرض، ودعّورتها للسير على صراط الإسلام المستقيم، فانطلقوا شرقاً وغرباً فاتحين مهذّبين ملتزمين فضائل الأخلاق ومحاسن الشّيم، وعاملين

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للندوي (ص ١٤٩ - ١٥٠).

(٢) «الحضارة الإسلامية» (ص ٦٥٩ - ٦٦٨).

بتعليمات الإسلام، إلا من شدّ منهم عن العمل بتعليمات دينه اتّباعًا للهوى، أو أخطأً في فهم نصوص الإسلام.

□ وفي انطلاقهم شرقاً وغرباً أخذوا يُعلمون الناس ما هداهم إليه الإسلام من حضارة فكرية اعتقادية، وحضارة سلوكيَّة فرديةً واجتماعيةً، وما دعاهم إليه الإسلام من بناء حضارة مادية تُنشُّد الخير، وتُقاومُ الشرَّ والضرَّ والفساد، مؤمنين بأنَّ الله جلَّ جلاله مكِّنَ الناسَ عن طريق البحث والتنقيب واستعمال الفكر، والتأمُّل العميق، والقيام بالتجارب العملية، واللاحظات المتأنيات للتجارب، من التوصل إلى مفاتيح كنوز الكون، وطاقاته الخفيات، والتعزُّف على مسالكها، ومؤمنين بأنَّ الله خالقُ الكون، حثّهم على أن يُتابعوا البحث والتنقيب والتجارب واللاحظات المتأنيات، بكلِّ ما لديهم من وُسْعٍ مُتَجَدِّدٍ، وقدراتٍ على متابعة حلقات سلاسل المعارف المحجوبة عن أنظارهم القصيرة، وحثّهم على أن يخفِّروا أنفاق البحث، لاستخراجها حلقةً فحلقةً، بلا نهاية منظورة، وأن يكونوا دواماً في ارتقاء حضاري، وأن يكونوا السابقين إلى كلِّ فضيلةٍ ومكرُّمةٍ وعلمٍ، وإلى امتلاك كُلُّ فُورَّةٍ يُمْكِنُ أن يمتلكها الناس بتسخير الله ما في الكون لهم.

□ وحين انطلق المسلمون يَيْبُونُ حضارتهم في البلدان التي ملَكُوا نواصيَ السلطان فيها شرقاً وغرباً، كانت شُعُوبُ أوروبا، والشعوب الغَرْبية كافةً، في جهلٍ مُطْبِقٍ، وأُمَّيَّةٍ منتشرةٍ في كلِّ طبقاتهم، وتخلُّفٍ حضاريٍّ بعيدٍ، في الفكر، وفي السلوك الفردي والاجتماعي، وفي مختلف مجالات العلوم.

□ وبينما كان كثير من علماء الدين الإسلامي يتوجهون باهتمام بالغ لدراسة العلوم الرياضية والعلقانية والطبيعية، وينجحون في الظواهر الكونية عن العلَل والأسباب، وينجذبون في كلّ موقع مادي أو معنوي يصلح للتنقيب فيه، بغية اكتشاف سنن الله وقوانينه في كونه، واستخراج الكنوز التي أودعها في خباياه، كان قادةُ الكنيسة ورجالها في أرجاء الأرض يُعادون ويحاربون كلّ مَنْ يأْتِي بنظرية أو حقيقة علمية تخالف تعليماتهم التقليدية، ولو كانت خرافية، وربما كان جزاؤه الحرق بالنار هرطقته ومخالفته في أفكاره التي جاء بها تعليماتهم.

مع أنَّ تعليماتهم هي من أوضاعهم أو من الأساطير التي نقلوها عن أهل القرون الأولى، وليس من دين الله الذي أنزله الله على عيسى أو موسى أو إبراهيم أو أي رسول أونبي يؤمن به اليهود أو النصارى من الصادقين.

□ ولما كان المسلمون يتوضؤون لصلواتهم، ويغسلون اغتسالات واجبات، واغتسالات مندوبات، ويستنجون أو يستجمرون، ويتحرزون من النجاسات والقدارات، ويُسْرِعون إلى إزالتها عن أجسادهم وثيابهم وأماكنهم وأدواتهم إذا وقعت عليها أو لامستها، كانت الشعوب الأوروبية، والشعوب الغربية عامة، لا تعرف شيئاً عن الطهارة وإزالة النجاسات من الأبدان والثياب والأمكنة والأدوات، ولا تعرف الاستنجاء بالماء حتى رأوا المسلمين يفعلون ذلك، واستمروا في الغالب على عاداتهم السابقات حتى اكتشف علماؤهم الجرائم والميكروبات، ورأوا أنَّ النجاسات والقدارات هي أعظم البُؤر الحاملة لها، وأنها تُسبب الأمراض والأوجاع والأوبئة الخطيرة.

وليس بخافٍ على أي فكير ونظر أن الطهارة والعناء بها من أجل مظاهر الحضارة البشرية»^(١).

□ يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «ظل تعذيب الجسم مثلاً كاملاً في الدين والأخلاق إلى قرنين، وروى المؤرخون من ذلك عجائب، فحدثوا عن الراهب ماكاريوس أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرص جسمه العاري ذباب سام، وكان يحمل دائئراً نحو قنطار من حديد، وكان صاحبه الراهب يوسيبيوس يحمل نحو قنطرين من حديد، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح، وقد عبد الراهب يوحنا ثالث سنين قائماً على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدة، فإذا تعب جداً أ Gund ظهره إلى صخرة، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائئراً، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام، وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السبع والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثيراً من الكلأ والخشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأنمون عن غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأنقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس، يقول الراهب اتهيس: أن الراهب أنتوني لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره. وكان الراهب إبراهام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة، وقد قال الراهب الاسكندرى بعد زمن متلهفاً: وأسفاه! لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات.

(١) «الحضارة الإسلامية.. أسسها ووسائلها.. وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم» (ص ٦٦٠ - ٦٦١).

وكان الرهبان يتجلولون في البلاد وينخطفون الأطفال ويبرونهم إلى الصحراء والأديار وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية، والحكومة لا تملك من الأمر شيئاً، والجمهور والدهماء يؤيدونهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم وينختارون الرهبانية ويهتفون باسمهم، وعرف كبار الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت إذا رأين الراهب أمبروز وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئاً، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس^(١).

تأثير الرهبانية في أخلاق الأوروبيين:

«كان نتيجة هذه الرهبانية أن خلال الفتّوة والمروءة التي كانت تعد فضائل عادت فاستحالـت عيوبًا ورذائل، وزهد الناس في البشاشة وخفة الروح والصراحة والسماحة والشجاعة والجرأة وهجروها، وكان من أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم الحياة المترالية، وعم الكنود والقسوة على الأقارب فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حناناً ورحمة، وعيونهم من الدمع، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد، فيخالفون الأمهات ثكالى والأزواج أيامى والأولاد يتامى، عالة يتکففون الناس، ويتجهون قاصدين الصحراء، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة لا يبالون ماتوا أو عاشوا. وحکى «ليكي» من ذلك حكايات تدمـع العين وتخـزن القلب.

(١) اقرأ «تاريخ أوروبا» لليكي، وانظر: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للندوي (ص ١٨٦ - ١٨٧).

وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأممون من قربهن والمجتمع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن ولو كن أمهات وأزواجاً أو شقيقات تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية. وروى «ليكي» من هذه المضحكات المبكيات شيئاً كثيراً.

عجز الرهبانية عن تعديل المادية الجائحة :

ولا يتوهم أحد أن هذه الرهبانية الغالية قد عدلت من شر المادية الرومية، وكبحث من جماحها وغلوائها في البهيمية والشهوات، فإن هذا لم يكن ولا يكون في الغالب، وتأbah الفطرة الإنسانية ويکذبه التاريخ، فإن الذي يوجد الاعتدال ويخفض من المادية الجائحة ويجعل منها حياة معتدلة هو النظام الروحي الديني الخلقي الحكيم الذي يوافق الفطرة الإنسانية الصحيحة، والذي لا يتصدى لأن يزيل الفطرة الإنسانية، بل يوجهها توجيهاً نافعاً، فإ أنها لا تزول ولكن تميل من شر إلى خير، وهكذا فعل الإنسان، وهكذا فعل سيدنا محمد ﷺ.

أما النصرانية الرومية فقد حاولت عبثاً تغيير الفطرة وإزالتها وجاءت بنظام لا تطيقه الفطرة الإنسانية ولا تسيغه، وحملت النفوس ما لا طاقة لها به فرغبت فيه كرد فعل ضد المادية الطاغية واحتملته كارهة، ثم تخلصت منه وثارت عليه ولم تقدر النصرانية - بإسرافها في الرهبانية والزهد ومكابرتها للفطرة والواقع - أن تصلح ما فسد من أخلاق الناس وعوايدهم، وتمسك بضياع المدينة الساقطة إلى الهاوية وتنزعها من التردي، فكانت حركة الفجور والإباحة وحركة الغلو في الزهد والرهبانية تسيران في البلاد النصرانية جنباً إلى جنب، بل الأصح أن الرهبانية كانت معزلة

في الصحارى والخلوات لا سلطان لها على الحياة، وحركة الخلاعة والإباحة كانت زاخرة طامة في المدن والخواضر.

بين الرهبانية العاتية، والمادية الجامحة:

□ يصور «ليكي» ما كان عليه العالم النصراني في ذلك العصر من التأرجح بين الرهبانية والفحجور فيقول: «إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتها في أخلاق الناس واجتماعهم، وكانت الدعاارة والفحجور والإخلاد إلى الترف والتساقط على الشهوات والتملق والزينة في حدتها وشدتها، كانت الدنيا في الحين تأرجح بين الرهبانية القصوى والفحجور، وإن المدن التي ظهر فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفحجور، وقد اجتمع في هذا العصر الفحجور والوهم اللذان هما عَدُوان لشرف الإنسان وكرامته. وقد ضعف رأي الجمهور حتى أصبح الناس لا يحفلون بسوء الأحداث والفضيحة بين الناس، وكان الضمير الإنساني ربها يخاف الدين ووعيده ولكنه أمن واطمأن، لا اعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفر عن جميع أعمال الإنسان، لقد نفت سوق المكر والخداعة والكذب حتى فاق هذا العصر في ذلك عصر القياصرة، ولكن قل الظلم والاعتداء والقسوة والخلاعة، مع انحطاط في حرية الفكر، والحسنة القومية»^(١).

الفساد في المراكز الدينية:

ولم تكن الرهبانية والنظام الديني السلبي إلّا مصادمة للفطرة، فبقيت مقهورة بعوامل الديانة الجديدة وسلطانها الروحي، وساعدتها عوامل أخرى، ثم قهرت الطبيعة وتسرب الضعف والانحراف في المراكز الدينية

.History of European Merrals Vol. II pp. ١٦٢-٣(١)

حتى صارت تزاحم المراكز الدينية، وربما تسبقها في فساد الأخلاق والدعارة والفجور، لذلك أوقفت الحكومة المأدب الدينية التي كانت ترمي إلى عقد الألفة والأخوة بين المسيحيين وأعياد الشهداء والأولياء وذكرياتهم التي وجدت فيها الخلاعة والفجور حتى ومرتعًا، واتهم القسوس بكبائر ومنكرات.

□ ويقول الراهب (جروم Jarum): «إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزري بترف الأمراء والأغنياء المترفين، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيماً واستحوذ عليهم الجشع وحب المال وعدوا طورهم، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع، وقد تباع بالزاد العلني، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران، ويأخذون بنقض القانون، ويعملون شهادات النجاة وإجازات حل المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد، ويرتشون ويرابون، وقد بذروا المال تبذيراً حتى اضطر البابا أنوسنت الثامن أن يرهن تاج البابوية، ويُذكر عن البابا ليو العاشر أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال، وأنفق نصيه ودخله، وأخذ إيراد خليفته المترقب سلفاً وأنفقه، ويروي أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم^(١)».

تنافس البابوية والإمبراطورية :

وببدأ النزاع والمنافسة بين البابوية والإمبراطورية في القرن الحادي عشر، فاشتدت بعنف وحى وطيسها: وانتصرت فيها البابوية أولاً حتى

.Conflict of Religion and Science. P. ٢٣٠ (١)

إن هنري الرابع ممثل الإمبراطورية اضطر سنة ١٠٧٧ م أن يتقدم بخضوع نحو البلاط البابوي في قلعة كانوسا ولم يسمح له البابا بالدخول إلا بعد أن شفع له الرجال، فسمح له بالمشول بين يديه، فدخل الإمبراطور صاغراً حافياً لا بسأ الصوف وتاب على يديه فغفر له البابا زلته، وكانت الحرب بين البابوية والإمبراطورية بعد ذلك سجالاً حتى ضعفت البابوية، وبقى الناس هذه المدة الطويلة يتنازعهم عاملان ديني ودنيوي، ويقروا يرزحون تحت نيرين إمبراطوري وبابوي.

وكان البابوات يتمتعون في هذه العصور الوسطى بنفوذ واسع وسلطان عظيم لم يكن الملوك والأباطرة، وكان يمكن لهم أن يتقدموا بأوربا تقدماً صحيحاً في العلم والمدنية تحت ظل الدين؛ لأن نوابهم وممثليهم كانوا يتجلون في البلدان الأوربية ويتزلون من أهلها في جناب مريع وظل ظليل، ويتفاهمون معهم بلغة واحدة ويتدخلون في أمور سياسية مهمة، ووجدوا في كل بقعة أنصاراً لهم من ذو الرأي والسياسة يتكلمون بلغة واحدة ويساعدونهم في مهام الدولة.

شقاء أوروبا برجال الدين:

ولكن رجال الدين من سوء حظ النصرانية ومن سوء حظ الأمم التي دانت بها أساءوا استعمال هذا السلطان الهائل فاستغلوه لأنفسهم ونفوذهم وجاههم، وبقيت أوروبا تتسلك في دياجير الجهل والخرافة والانحطاط، وأصيّبت المدنية بحكمهم ورهبانيتهم في صميمها، فلم يتضاعف عدد سكان القارة الأوربية في ألف سنة، ولم يتضاعف عدد سكان إنكلترا في خمسة مائة سنة، ولا شك أن من أسبابها حياة العزوبة التي

كان القسوس والرهبان يزينونها للناس ويرغبون فيها، ولم يشاً الكهان والأساقفة أن يساهم الأطباء في مراقبتهم وغلاتهم فانتشرت الأوبيئة والأمراض في طول القارة وعرضها، ونعرف من رحلة أنس سلوئيس الذي اشتهر بعد بلقب (Pus the Second) التي قام بها للجزائر البريطانية حوالي سنة ١٤٣٠ م ما كانت عليه هذه الجزائر من بؤس وانحطاط في المدنية وفقر مدقع.

جنایة رجال الدين على الكتب الدينية :

ولكن من أعظم أخطاء رجال الدين في أوروبا ومن أكبر جنایاتهم على أنفسهم وعلى الدين الذي كانوا يُمثّلونه أنهم دُسوا في كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم في ذلك العصر، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر، ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني، وإذا كان ذلك في عصر من العصور غاية ما وصل إليه علم البشر فإنه لا يؤمن عليه التحول والتعارض؛ فإن العلم الإنساني متدرج متدرج، فمن بنى عليه دينه فقد بنى قصراً على كثيب مهيل من الرمل. ولعلهم فعلوا ذلك بِنَيَّةً حسنة ولكنها كان أكبر جنایة على أنفسهم وعلى الدين، فإن ذلك، كان سبباً للكفاح المشئوم بين الدين والعلم الذي انهزم فيه ذلك الدين المختلط بعلم البشر - الذي فيه الحق والباطل، الخالص والزائف - هزيمة منكرة، وسقط رجال الدين سقوطاً لم ينهضوا بعده، وشر من ذلك كله وأشأم أن أوروبا أصبحت لا دينية.

ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة، بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر به الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية، وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها وألفوا في ذلك كتباً وتأليف، وسموا هذه الجغرافية التي ما أنزل الله بها من سلطان الجغرافية المسيحية (Christian Topography) وعَضُوا عليها بالنواخذ وكفروا كل من لم يدن بها.

اضطهاد الكنيسة للعلم:

وكان ذلك في عصر انفجر فيه بركان العقلية في أوروبا، وحطّم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الديني فزيَّفوا هذه النظريات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها في صرامة وصراحة، واعتذروا عن عدم اعتقادها والإيهان بها بالغيب، وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم فقامت قيامة الكنيسة، وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور في أوروبا وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم في سبيل الدين المسيحي، وأنشأوا محاكم التفتيش التي تعاقب -كما يقول البابا- أولئك الملحدين والزنادقة الذين هم متشرون في المدن وفي البيوت والأسراب والغابات والمغارات والحقول فجذّت واجتهدت وسهرت على عملها، واجتهدت أن لا تدع في العالم النصراوي نابضاً ضد الكنيسة، وانبثت عيونها في طول البلاد وعرضها، وأحصت على الناس الأنفاس، وناقشت عليهم الخواطر حتى يقول عالم نصراني: «لا يمكن لرجل أن يكون مسيحيًا ويموت حتف أنفه»، ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ

عددهم ثلاثة ألف، أحقر منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء كان منهم العالم لطبيعي المعروف برونو، نقمت منه الكنيسة آراء من أشدتها قوله: بتعدد العوالم، وحكمت عليه بالقتل، واقتصرت بأن لا تراق قطرة من دمه، وكان ذلك يعني أن يحرق حيّاً، وكذلك كان.

وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير غاليليو (Galilio) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس»^(١) اهـ.

وهاهو البابا غريغوريوس الكبير ينفي من روما جميع المستغلين بالدراسات العلمية ويحرق مكتبة لاتين^(٢).

«وهذا غيض من فيض.. والأمثلة على ذلك جد كثيرة، ولم تتوقف فقط على محاكمات كوبرنيكس وجاليليو، حتى إنهم توسعوا في تشكييل محاكم التفتيش ضد العلماء، وقد حكمت تلك المحاكم على تسعين ألفاً وثلاثة وعشرين عالماً بأحكام مختلفة في الفترة ما بين سنة ١٤٨١ م إلى سنة ١٤٩٩ م، أي في غضون ١٨ سنة^(٣)، كما أصدرت قرارات تحرّم قراءة كتب جيوردا نويرنو، ونيوتون لقوله بقانون الجاذبية، وتأمر بحرق كتبهم، وقد أحرق بالفعل الكاردينال إيكيمينيس في غرناطة ٨٠٠٠ كتاب خطوط لمخالفتها آراء الكنيسة..!!»^(٤).

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص ١٨٨ - ١٩٤).

(٢) «مع الله أو الدمار» (ص ٤٠).

(٣) «مقاومة الصرانية للعلم في التاريخ» نقلًا عن كتاب «البابا والإسلام» للدكتور يوسف القرضاوي.

(٤) «سقوط غرناطة» لشوقي أبو خليل (ص ٩٨) بتصرف، و«الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة».

وهذا الواقع الرهيب والمظلم عاشته أوروبا قروناً طويلة، سُمِّيت بالعصور المظلمة، وُتُسَمَّى أيضًا بالقرون الوسطى، حيث استغرقت نحو ألف عام من الزمان»^(١).

□ «والقصص والروايات التي تصف ظلم الكنيسة الأوروبية الكاثوليكية لا تكاد تنتهي، ولا يخفى على أحدمحاكمات كوبرنيكس ومحاكمات جاليليو وما حدث لأينشتاين وماكس بلانك وغيرها الكثير.

لقد اكتشف كوبرنيكس عام ١٥٤٣ م أن الأرض تدور حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة، فيحدث تبادل الليل والنهار، وتدور حول الشمس مرة كل عام، فيحدث تغيير الفصول الأربع، وأن الشمس هي مركز الكون وليس الأرض كما كان معتقداً قبل ذلك.. إلّا أن هذا الكشف كان كارثة في أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي، وقد تعجبت الكنيسة لهذا الكشف حين حاكمته بميزان الحقائق الإنجيلية إذ وجدته يتناقض مع معتقداتهم، ومع الإحساس الظاهري للبشر في نظر النصوص المقدسة..!!»^(٢).

ولهذا قررت الكنيسة محاربة كوبرنيكس، واضطهدوه واتهموه بالكفر وطلبوه للقتل، بل وأحرقوا كتبه وأبحاثه ومنعوا تدريسها.. ولم يكتشفوا صحة ما وصل إليه إلّا بعد وفاته بسنوات وسنوات.

أما جاليليو والذي أثبت أن كوبرنيكس كان على حق، وأن الشمس هي مركز الكون، واكتشف أيضاً أن القمر ليس جسماً مستوياً.. فقد أمر البابا بإحضاره بالقوة رغم شيخوخته وسوء صحته للتحقيق معه لتأييده

(١) «العلم وبناء الأمم» (ص ٨٣).

(٢) انظر: «قصة الحضارة» لول ديورانت، ترجمة الدكتور محمد علي أبو درة (٣٠ / ٢٧٣).

فكرة تحرك الأرض، وحكمت عليه الكنيسة بالسجن في بيته—قيد الإقامة الجبرية—إلى أن يموت^(١).

وكذلك أعدمت الكنيسة أيضًا برونو حرّقًا في ميدان عام لدفاعه عن تحرك الأرض، وتوقعه وجود أراضين أخرى^(٢).

«وفي عام ١٢٠٦ نَبَّهَ مجمع رؤساء الكنائس المنعقد في باريس رجال الدين بشدة إلى عدم قراءة كتب العلوم الطبيعية، واعتبر ذلك خطيئة لا تغتفر^(٣).

□ وقال الفيلسوف البريطاني برتر اندرسل في مقال له: «كيف أعادت الكنائس التقدم»: «لقد عارضت الكنيسة جاليليو. وفي الأيام التي بلغت فيها أعظم سلطانها، فإنها ذهبت إلى أبعد مدى في معارضة حياة العقل والتفكير، فلقد كتب البابا جريجوري الكبير (٥٩٠-٦٠٤م) إلى أحد أساقفته رسالة يقول فيها: «لقد وصلنا تقرير لا نستطيع تذكره دون حمرة الوجه خجلًا: ذلك أنك تشرح قواعد اللغة «اللاتينية» إلى بعض الأصدقاء».

لقد اضطرر هذا الأسقف، تحت سلطان صاحب القداسة، أن يكتف عن ذلك العمل الشرير! وهذا لم تنهض اللاتينية من عقاها إلَّا في عصر النهضة. وكما يعلم كل الناس، فإن الكنائس قد عارضت بقدر الإمكان القضاء على العبودية، كما أنه خلافًا لبعض الاستثناءات، فإنها تعارض اليوم أي حركة تجاه العدالة الاقتصادية ويجب أن نذكر أنه في جميع

(١) «قصة الحضارة» (٣٠ / ٢٦٩-٢٧٩).

(٢) المصدر السابق (٣٠ / ٣٠٠).

(٣) «الحضارة الإسلامية وجهتها الله» للواء أحمد عبد الوهاب (ص ١٧).

العصور، بدءاً من عصر قسطنطين (القرن الرابع) حتى نهاية القرن السابع عشر، فإن المسيحيين قد تعرضوا لاضطهادات رهيبة على يد مسيحيين مثلهم آخرين، أكثر بكثير مما تعرضوا على أيدي الأباطرة الرومان!.

حقيقة أن المسيحي المعاصر قد أصبح أقل غلطة، لكن الفضل في ذلك لا يرجع إلى المسيحية، وإنما يرجع إلى أجيال من أحرار الفكر، الذين جعلوا المسيحيين -يخرجون- منذ عصر النهضة إلى الآن -من كثير من معتقداتهم التقليدية^(١).

□ وفي عام ١٦٠٠، أحرقت الكنيسة القس جورданو برونو، في ميدان الأزهار «كامبو دي فيوري» بروما.

وكان من بين التهم الموجهة إليه: الزندقة والردة. والدعوة لنظرية «كوبير نيك» في الفلك القائلة بأن الأرض ليست مركز الكون، وأن الكواكب تدور حول محورها وحول الشمس، وهو ما يتنافى مع الجغرافيا والفلك كما استخلصتها الكنيسة من الكتاب المقدس ومن أعمال أرسطو وبطليموس الجغرافي، وكان من التهم أيضاً، الاستغلال بالسحر، ويدخل في هذا الباب الدعوة إلى العلم للسيطرة على الطبيعة.

□ وفي عام ١٦٤٢ مات الفلكي «جاليليو» في عزلته كمدأ، بعد أن أصيب بالعمى، فقد حاكمته الكنيسة، وحكمت عليه بتحديد إقامته بعد أن أعلن تبرأه من مفاهيمه العلمية حول الأرض وحركتها، والشمس والكون. فقال في اعترافه أمام المجمع المقدس عام ١٦٣٣: «أستنكر هذه الأخطاء والزندقات المذكورة، وبوجه عام كل الأخطاء والزندقات

.Bertrand Russel: Why I am not a Christian ; pp. ٢٨-٤٥ (١)

والمعتقدات المتعارضة مع الكنيسة المقدسة»^(١).

□ ولو أردنا دليلاً آخر على مدى الهوة العميقية التي كانت تفصل الشرق عن الغرب، لكفانا أن نعرف أن نسبة ٩٥٪ على الأقل من سكان الغرب في القرون: التاسع، والعشر، والحادي عشر، والثاني عشر، كانوا لا يستطيعون القراءة والكتابة.

وبينما كان «شارل الأكبر» يجهد نفسه في شيخوخته لتعلم القراءة والكتابة، وبينما أمراء الغرب يعترفون بعجزهم عن الكتابة أو القراءة، وفي الأديرة يندر بين الكهنة من يستطيع مسك القلم، لدرجة أنه عام ١٢٩١ لم يكن في دير جاليوس من الكهنة والرهبان من يستطيع حل الخط – بينما كان هذا كله يحدث في الغرب – كانتآلاف مؤلفة من المدارس في القرى والمدن تستقبل ملايين البنين والبنات، يجلسون على سجادهم الصغير يكتبون بحبر يميل إلى السواد فوق ألواحهم الخشبية، ويقرؤون مقاطع من القرآن حتى يجيئوها، ويُ gioّدون ذلك معًا بلحن جميل عن ظهر قلب، ثم يتقدمون خطوة تلو الأخرى في المبادئ لقواعد اللغة.

وكان الدافع إلى كل هذا هو رغبتهم الصادقة في أن يكونوا مسلمين حقًا كما يجب أن يكون المسلم. فلم يجبرهم أحد على ذلك، بل اندفعوا إليه عن رغبة وإيمان؛ لأن من واجب كل مسلم أن يقرأ القرآن.

فالكتاب المقدس لا يجده الناس إليه سبيلاً؛ إذا استثنينا الكهنة ورجال الدين، فهم وحدهم يستطيعون قراءته وفهم لغته. ومنذ عام ٨٠٠ ميلادية لم يعد الشعب يفهم المواقع الملقاة باللاتينية، حتى أن مجلس

(١) المصدر السابق (ص ٧٢ - ٧٣).

رؤساء الكنائس المنعقد في مدينة تور أوصى بوعظ الناس باللغة التي يتكلمون بها. ولم تكن هناك حاجة تدعو الشعب في تلك العصور إلى تعلم اللاتينية، بل لم تكن هناك أية رغبة في تعليم الشعب أو تنقيفه^(١).

□ «وثار المجددون المتنوروون من أهل الغرب، وعيل صبرهم، وأصبحوا حرّيًّا لرجل الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم، ومقتوا كل ما يتصل باسم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وأداب، وعادوا الدين المسيحي أولاً والدين المطلق ثانياً، واستحالت الحروب بين زعماء العلم والعقلية، وزعماء الدين المسيحي –وبلفظ أصح، الديانة والبوليسيّة– حرّيًّا بين العلم والدين مطلقاً، وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان، وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان، فمن استقبل أحدهما استدير الآخر، ومن آمن بالأول كفر بالثاني، وإذا ذكروا تلك الدماء الزكية التي أريقت في سبيل العلم والتحقيق، وتلك النفوس البريئة التي ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسمهم، تمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة، وجباراً مقطبة، وعيون ترمي بالشرر، وصدور ضيقة حرجة، وعقول سخيفة بليدة، فاشمأزت قلوبهم وألوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه، وتواصلوا به وجعلوه كلمة باقية في أعقادهم.

تقصير الثائرين وعدم تثبيتهم:

ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير، ومن الوداعة والهدوء، ومن العقل والاجتهاد ما يميزون به بين

(١) المصدر السابق (ص ٢٠ - ١٩).

الدين ورجاله المحتكرين لزعامته، ويفرقون بين ما يرجع إلى الدين عن عهدة ومسؤولية، وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود وجهل واستبداد وسوء تمثيل، فلا ينددوا الدين نبذ النواة، ولكن الحفيفة وشنآن رجال الدين والاستعجال لم يسمح بالنظر في أمر الدين والتراث في شأنه كغالب الثوار في أكثر الأعصار والأمسكار.

* ولم يكن عندهم من صدق الطلب والنصيحة لأنفسهم وأمّتهم وسعة الصدر ما يحملهم على النظر في الدين الإسلامي الذي كانت تدين به أمم معاصرة لهم، الدين الذي يخلصهم من هذه الأزمة **وَلَا يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَا يُحَلِّ لَهُمُ الظَّبَابَتَ وَلَا يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَابَ وَلَا يَنْهَاهُمْ إِنْصَارَهُمْ وَلَا أَغْلَلَ أَلَّى كَانَ عَلَيْهِمْ** [الأعراف: ١٥٧].

ولكن حمبة الجاهلية والسدود التي أقامتها الحرب الصليبية بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي ودعاه الكهنة ورجال الكنيسة ضد الإسلام وصاحب رسالته عليه الصلاة والسلام، وعدم تحشيم التعب والمطالعة، وقلة الحرص على النجاة الأخروية والاهتمام بما بعد الموت، زد على ذلك تفريط المسلمين في التبشير الإسلامي، ونشر الإسلام في أوروبا، كل ذلك منعهم من الرجوع إلى الدين الإسلامي والأخذ به في ساعة كانوا يحتاجون إليه حاجة السليم إلى راق والمسموم إلى ترياق^(١).

واتجه الغرب إلى المادية ودعا السياسيون أمثال ميكافيلي الفلازنساوي (١٤٦٦ - ١٢٥٧م) إلى فصل الدين عن الدولة وكان لهم ما أرادوا.

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص ١٩٤ - ١٩٦).



مؤكّدات لهذه الحقائق من بيانات غربية منصفة^(١):

جاء في كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» للمستشرقة الألمانية «زيغريد هونكه» ما يلي:

□ لقد قصّ «فيلهلم» على رفاق سفره الدهشين ما يلي: «كان عندنا في بلادنا فارِسٌ كبير القدر، فمُرِض وأشرف على الموت، فجئنا إلى قَسَّ كبير من قساوستنا، وقلنا: تحيء مَعْنَا حتَّى تُبصِرُ الفارس فلانا؟».

قال: نعم، ومشى معنا، ونَحْنُ نتَحَقَّقُ أَنَّهُ إِذَا حَطَّ يَدَهُ عَلَيْهِ عَوْنَى.

فلما رأاه قال: أعطوني شماعاً، فأخْضُرْنَا له قليل شمع، فلَيْنَهُ بيده وعَمِيلَهُ مثل عُقْد الإصبع، ووضع واحدة في جانب أنفه الأيمن، ووضع أخرى في جانب أنفه الأيسر، فمات الفارس.

فقلنا له: قد مات.

قال: نعم، كان يتَعَذَّبُ، سَدَّدْتُ أَنفَهُ حتَّى يموت ويستريح».

وعلقت «زيغريد» على هذه القصة بقولها: «أَيْدٍ تُوضَعُ، وشَيْطَانٌ يُطْردُ، وصلَّةٌ تُقامُ..».

تلك كانت الوسائل المفضلة في المعالجة التي حاول أطباء أوروبا – عن طريق مُسوح الكهنوت والرهبان – إنقاذ الإنسانية المريضة، وتخليصها من براثن الداء والألم^(٢).

□ وجاء فيه قولها: «ولعلَّ من أَهَمَّ عوامل انتصارات العرب – أي:

(١) انظر: «الحضارة» لحبنكة (ص ٦٦١ - ٦٦٨).

(٢) «شمس العرب» (ص ٢١٨).

ال المسلمين - هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم، حتى إنَّ الملك الفارس «كيروس» نفسه قال: «إِنَّ هُؤُلَاءِ الْمُتَصْرِّفِينَ لَا يَأْتُونَ كَمْخَرِينَ» فما يدعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية، إنَّه هو إِلَّا مجرد أسطورة من نسيج الخيال تكذبها آلَافُ من الأدلة القاطعة عن تسماحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة» اهـ.

□ أقول: أليس هذا من مظاهر الارتقاء الحضاري لدى المسلمين، مع أنهم هم المتصررون الفاتحون، وأصحاب السيادة والسلطان؟!.

□ وتنبع المستشرقة «زيغريد» بيانها هذا بقولها: «وال التاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إِلَّا عدداً ضئيلاً من الشعوب التي عاملَتْ خصومها والمخالفين لها في العقيدة بمثل ما فعل العرب -أي: المسلمين-».

وكان لمسلاكِهم هذا أطْيَبُ الأثر، مما أتاح لحضارتهم أن تتغلغل بين تلك الشعوب بنجاح لم تُحظَّ به الحضارة الإغريقية ببريقها الزائف، ولا الحضارة الرومانية بعنفها في فرض إرادتها بالقوة»⁽¹⁾ اهـ.

□ وجاء فيه عقب بيانها الموسع عن اتجاه الإمبراطورية الرومانية لمحاربة البحث العلمي في الظواهر الطبيعية لاكتشاف قوانين الكون وسننه، وأنَّ من الضلال البحث عن الحقيقة في غير الكتاب المقدس، والتفكير والتمحيص في أمور دنيوية، قوله: «وكان أكبر دليل مؤلم على هذا التفكير الغريب أعمدة الدخان، وألسنة اللهب التي اندلعت فوق الإسكندرية، كنز المعرفة الإغريقية على مرَّ العصور، والتي أصبحت حينذاك مركزاً للكنيسة المسيحية إلى جانب روما.

(1) المصدر السابق (ص ٣٥٧-٣٥٨).

احمرَّت بنيرانها فوق دلتا النيل، وأحرقت نفائس ثمينة لا تُعوضُ، من الشعر، والأدب، والفلسفة، والتاريخ، والعلم، والثقافة الإغريقية. أحرقتها وأبادتها جموع من المسيحيين المتعصبين.

لقد ذهبَ جزء هام من المكتبة قبل ذلك، عام (٤٨٤ق.م) طعمةً للنيران أثناء حصار «يوليوس قيصر» ولكن «كليوباترة» عَوَضَتْ هذه الخسائر من مكتبة «برجامون Pergamon» وفي القرن الثالث الميلادي بدأت تَبُرُّ التخريباتُ المبيتة ضدها، فأغلق أحد البطاركة المسيحيين مدرسة متحف الإسكندرية، وطَرَّدَ طلابها.

وفي أيام حكم القيصر «فالنس ٣٣٦ م valens» حُولَ المتحف إلى كنيسة، وسُلِّبَتْ مكتبه، وطُورَدَ فلاسفته بتهمة السحر والشعوذة.

وفي عام (٣٨١م) استصدر البطريرك «تيوفيليس Theophilus» من القيصر «تيودوسيوس Theodosius» إذنًا بتخريب السرابيون، أكبر ما تبقى من الأكاديميات وأخرها، وإشعال النيران في مكتبه الثمينة. وبهذه الطريقة فقدت البشرية جزء هاماً من ثقافتها لا يمكن تعويضه».

وقالت أيضًا: «وهكذا اختفت مراكز الحضارة الإغريقية واحداً إثر واحد.. وأُقفلت آخر مدرسة للفلسفة في آثينا عام (٥٢٩م) وأحرقت في روما عام (٦٠٠م) مكتبة البلاتين، وهدم ما تبقى من آثار أبنية القدماء. وعندما دخل العرب -أي: المسلمين- الإسكندرية عام (٦٤٢م) لم يكن هناك منذ زمن طويل مكتبات عامة كبيرة. وأماماً ما أُهْمِمْ به قائلهم -عمرو بن العاص- من إحراقه لكتبة



الإسكندرية، والذي يُعبّرُ به حتى اليوم عن صورةٍ مُفزعَةٍ للبربرية والوحشية، فقد ثبت في أكثر من مناسبة، وبعد أبحاث مستفيضة أنه مجرد اختلاقي لا أساس له من الصحة.

إنَّ «عمرو بن العاص» فاتح الإسكندرية، هو نفسه «عمرو» الذي ضرب المثل بتسامحه طوال فتوحاته، وحرم النهب والسلب والتخريب على جنوده، وعمل ما كان غريباً عن فهمِ الشرقيين القدماء والمسيحيين على السواء.

لقد ضمَّنَ صراحةً للمغلوبين حريةً ممارسة شعائرهم الدينية المتوارثة^(١) اهـ.

□ وجاء فيه في معرض مقارنتها بين حث الإسلام على العلم، واكتساب المعرفة الدنيوية بالإضافة إلى المعرفة الدينية، وتخوف المسيحيين من المعارف الدنيوية قولها: «مفهومان مختلفان، بل عالمان منفصلان تماماً، حددَا بهذا طريقين متناقضين للعلم والفكر، في الشرق والغرب.

وبهذا اتسعت الهوة بين الحضارة العربية –أي: الإسلامية- الشائخة، والمعرفة السطحية المعاصرة في أوروبا حيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها». –أي: إبان ازدهار حضارة المسلمينـ.

□ وقولها بشأن رفض معلمي الكنيسة يومئذ فكرة كروية الأرض: «أمَّا ما يدعى به بعضهم من أن الأرض كروية فهو كُفُرٌ وضلالة، فمعلم الكنيسة «لاكتانتوس Lactanius» يتساءل مستنكراً: «هل هذا من المعقول؟ أَيُعقلُ أن يُجْنَّ الناس إلى هذا الحد، فيدخل في عقولهم أنَّ البلدان

(١) «شمس العرب» (ص ٣٦٢ - ٣٦٣).

والأشجار تتدلى من الجانب الآخر من الأرض، وأنَّ أقدام الناس تعلو رؤوسهم؟».

لقد كانت الأرض بالنسبة إلى بعض الناس تلأً تدور الشمس حوله ما بين الشروق والغروب، وبالنسبة إلى الآخرين مسطحة تحيط به المحيطات.

لقد قُضيَ بهذا التفكير الساذج على تطور العقل البشري في العصور السابقة، وعاد عَصْرُ اللاحظةِ البدائيةِ والتفكير المشعوذ إلى الحياة من جديد.

ملعونٌ من يقتنع أو يقبل في ذلك العصر تفسيرًا علميًّا لحوادث الطبيعة. خارجٌ عن طاعةِ ربِّ من يشرحُ أسبابًا طبيعيةً لبزوغ كوكب، أو فيضان نهر، بل من يعلل علميًّا شفاءً قدَّم مكسورةً، أو إجهاض امرأةً، فتلك كلها عقوبات من الله، أو من الشيطان، أو هي معجزات أكبر من أنْ نُدركْ كُنهُها!!.

وإذا كانت القوى الدينية—أي: المسيحية— قد كَرَّست جهدها للهدف الديني، فإنها قد هبطت بالمعرفة الدينية، فابتعدت تماماً عن الثقافية، والفكر الإغريقي، وانغمست في الخرافات والتراثات التي لن نستطيع اليوم أن نتصور مدى انتشارها، وسيطرتها على العقول الساذجة.

ولم تشمل هذه الحركة الرجعية العامة من الناس فحسب، بل إنَّ المتعلمين أيضاً لم يكن لهم من زاد عقلي سوى بعض الأساطير المليئة بالخرافات المقتبسة أسوأ اقتباس عن اللاتينية البربرية، أو عن قصص الإغريق وأساطير الشرق القديمة.

وما وصلت إليه الكنيسة وكَهَّتها في المجال الديني لم يكن عاملً إنقاذه

للحضارة بل كان عائقاً لها.

وظلَّ الفِكْرُ الإغريقي بالنسبة إليهم غريباً، فحوالي عام (٣٠٠ م) عَلَّ أَسقف قيصرية «أوزيبيوس Eusebius» ذلك المُسلَكُ لعلماء الطبيعة من «الإسكندرية» و«برجامون» قائلاً: إنَّ موقفنا هذا ليس جهلاً بالأشياء التي تُعطونها أنتم كُلَّ هذه القيمة، وإنَّما لا احترارنا لهذه الأعمال التي لا فائدة منها، لهذا فإننا نشغل أنفسنا بالتفكير فيها هو أجدى وأنفع.

ولقد كان الفكر الإغريقي يُمثِّلُ للمسيحيين شبيحاً ملعوناً، فلم يقتربوا منه، بل حطَّموا جزءاً كبيراً من ثراثه، وحرَّموا منه البشرية. حتى إنَّ الغرب اضطُرَّ بعد صحته أن يبدأ من جديد، على الرغم من أنَّ الحضارات القديمة، والهيلينية^(١) على الخصوص، كانت قد وصلت في سالف أيامها إلى درجة كبيرة من الرقيّ.

وعلى الرغم من هذا فقد بدأ للسادِةِ المهيمنين على الأمور ضرورة تحرير الكتب، التي تهتمُّ بالأمور الحقيرة الدنيوية على المتعلمين ورجال الدين المسيحي.

ففي عام (١٢٠٦ م) نَبَّهَ مجمع رؤساء الكنائس المنعقد في باريس رجال الدين بشدَّةٍ على عدم قراءة العلوم الطبيعية، واعتبر ذلك خطيئة لا تغفر. وقضى هذا التفكير الضيق على كل موهبة، وعاَقَ كُلَّ بحثٍ علميٍّ، وأجْبَرَ كُلَّ المفكرين الذين لا تتفق أعمالهم ومعتقدات الكنيسة هذه، على إنكار ما قالوه من النظريات العلمية، وإلاً كان مصيرهم الحرق العلني بالنار، لکفراهم وخروجهم على المعتقدات الإلهية -بحسب زعمهم

(١) الهيلينية: أي: اليونانية.

الفاسد-.

ومن هنا فقط يتضح لنا تماماً لماذا احتاجت الحضارة في الغرب ألفاً من السنين، قبل أن تبدأ بالازدهار تدريجياً، مع أنها قد كانت لذاتها فرصةً مناسبة لتبدأ قبل الحضارة العربية -أي: حضارة المسلمين- بقرنين أو ثلاثة.

وما قاله «هيجل Hegel» عن بوم «منيرقا» الذي لا يبدأ طيرانه إلا عند الغسق، ينطبق على التراث اليوناني السائر إلى الوراء حينذاك، بل ينطبق انتظاماً أكثر على العلوم في الغرب التي ظلت في دور الحضانة ألفاً من السنين.

وهو لا ينطبق على التطور العربي -أي: تطور المسلمين- ذلك لأن العلوم عندهم لم تكن قط ثمرةً متاخرةً لشجرة الحضارة.

فها أن انقضى قرنٌ واحدٌ من الزمان على الفتوحات الإسلامية حتى ازدهرت حضارةُ العرب -أي: المسلمين- وآتت أكملها مكتملةً ناضجةً^(١) -اهـ.

□ وجاء فيه أيضاً قوله: «لقد أحاط العرب -أي: المسلمين- الكتب بقلوبهم، حتى المؤلفات الفنية الدقيقة في الهندسة والميكانيكا والطب والفلك والفلسفة.

وكما تطلب الدولة المتصررة من الدولة المنهزمة تسليم أسلحتها وسفنهما الحربية، شرطاً أساسياً لعقد الصلح، هكذا طلب «هارون الرشيد» بعد احتلاله لعموريَّة وأنقرة تسليم المخطوطات الإغريقية

(١) «شمس العرب» (ص ٣٧٠ - ٣٧٢).

القديمة.

وكم يُسْتَولِيَ المُنْتَصِرُونَ الْيَوْمَ عَلَىَ الْمَنَاجِمِ، والصُّنَاعَاتِ الْحَرَبِيَّةِ الْهَامَّةِ، وَالْأَسْلَحَةِ الْمَدَّرَّةِ مَعَ مُخْتَرِعِيهَا، نَرِي «الْمُؤْمَنُونَ» بَعْدَ انتصارِهِ عَلَىَ «مِيَخَائِيلَ الثَّالِثَ» قِيسِرِ بِيزَنْطِيَّةِ، يُطَالِبُ بِتَسْلِيمِ أَعْمَالِ الْفَلَاسِفَةِ الْقَدِيمَاءِ، الَّتِي لَمْ تَتِّمْ تَرْجِمَتُهَا بَعْدَ الْعَرَبِيَّةِ، وَيُعْتَبِرُ ذَلِكَ بَدِيلًا عَنْ تَعْوِيضَاتِ الْحَرَبِ.
إِمَّا أَسْلَحَةً تُسَاهِمُ فِي بَنَاءِ الْمَجْدِ.

وَمَا دَامَ الْأَمْرَاءُ الْعَرَبُ قَدْ شُغِّفُوا بِأَوْرَاقِ الْبَرْدِيِّ وَالْبَرْجَامُونَ نَصْفَ الْمَزْقَةِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِنْ طَرِيقٍ لِكَسْبِ صِدَاقَتِهِمْ أَنْجَحُ مِنْ إِهْدَائِهِمْ بَعْضَ لَفَائِفَ، الْكُتُبِ الَّتِي تَرَكُمُ التَّرَابُ فَوْقَهَا.

هَذَا مَا فَكَرَ بِهِ قَاطِنُو الْبُوْسْفُورِ، فَأَرْسَلُوا إِلَىَ «عَبْدِ الرَّحْمَنِ الثَّالِثِ» أَمِيرَ الْأَنْدَلُسِ، حَقِيقَةً كَبِيرَةً -بَغْيَةً تَوْطِيدِ الصِّدَاقَةِ مَعَهُ- وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ مَلَأَىَ بِالْمَخْطُوطَاتِ الْقَدِيمَةِ، وَمِنْ بَيْنِهَا تَعَالِيمُ الطَّبِّ وَالْعَلاجِ لِـ«دِيْسِقُورِيْدِيسَ» (Diosktrides) وَكَانَ ثُمَنْ بَيْعُ هَذَا الْفَكَرِ الْقَدِيمِ بَاهِظًا، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ -أَيْ: الْمُسْلِمِينَ- كَانُوا عَلَىَ اسْتَعْدَادٍ لِدَفْعِ الثُّمَنِ مَهِمًا كَانَ. وَأُرْسَلَتُ الْبَعْثَاتُ الْخَاصَّةُ مِنْ بَغْدَادَ، لِلْبَحْثِ عَنْ كُنُوزِ الْعِلْمِ، حَامِلَةً أَكْيَاسًا مِنِ النَّقُودِ، إِلَىَ بِيزَنْطِيَّةِ وَالْهَنْدِ، إِذْ قَامَ الْمُتَعَلِّمُونَ مِنْ مُخْتَلَفِ الْبَلَدَانِ بِدُورِ السَّمَاسِرَةِ.

وَأَصْبَحَ اقْتِنَاءُ الْمَخْطُوطَاتِ الَّتِي لَمْ تُتَرْجِمْ حَتَّىَ ذَلِكَ الْحِينَ هُوَيَّةً الْأَمْرَاءِ، وَالْوُزَرَاءِ، وَسَرَّاَتِ الْقَوْمِ. فَضَّحَّوْا بِمَبَالِغٍ طَائِلَةٍ فِي بَلَادِ الإِغْرِيقِ وَآسِيَّةِ الصَّغَرِيِّ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ وَطَئَتْهُ أَقْدَامُ الإِغْرِيقِ يَوْمًا مَا، عَنْ طَرِيقِ بَعْثَاتِ الْعُلَمَاءِ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ عَمَلَائِهِمِ الْخَاصِّينَ.

أجل لقد دفعوا ثمناً باهظاً وجدوه باقياً من الآثار العلمية، وكان قد نجا من أعمال التخريب الفظيعة الشائنة.

واستطاع العرب -أي: المسلمين- كذلك أن يكشفوا كثيراً من الكنوز، ففي قبور مظلم تسكنه الفئران والعنابي في الإسكندرية، عشر القومُ بين حجرين هائلين على كتابٍ في فنونِ الحربِ، وعثروا على كتاب آخر في قدرٍ مغلقة تحت جُدران دير سوري.

وفي آسية الصغرى، وعلى مسيرة ثلاثة أيام بيزنطية، عشر «محمد بن إسحاق» على مكتبة ضخمة في معبود قديم كبير، له بابٌ لم يرَ من قبل باباً حديدياً في ضخامته.

لقد أنشأ الإغريق هذا المعبد يوم كانوا يعبدون النجوم والأوثان، وقدّموا فيه القرابين لآلهتهم.

□ ويتحدث «محمد بن إسحاق» عن مجده في هذا السبيل، باعتباره مندوبياً عربياً في البلاط البيزنطي، فيقول: «لقد رجوتُ الحاكم أنْ يفتح لي هذا المعبد، ولكنه ما طلَّ في ذلك؛ لأن أبواب هذا المعبد لم تُفتح منذ انتحلوا المسيحية، ولكنني لم أكُفَّ عن إغرائه، فعاودتُه في مناسبات عدَّة، وطلبت إليه ذلك كتابةً ومشاهدةً في جلسة من جلسات بلاطه التي اشتراك فيها.

وأخيراً وافق على فتحه، فرأيت في هذا المبنى المشيد بأحجار المرمر الفاخرة، رأيت على حوائطه من الكتابات والرسوم ما لم أر أفحش ولا أجمل منه، ومن المخطوطات القديمة شاهدتُ هناك ما يُحمل جمالاً، إنها تقارب الألف كتاب، وكان جزء منها ممزقاً، وكان الجزء الآخر نصيباً

للديدان».

إنَّ ما قام به العرب -أي: المسلمين- هُوَ عَمَلٌ إِنْقاذِيٌّ لِهِ مَغْزَاهُ فِي تارِيخِ الْعَالَمِ.

إِنَّهَا حِضَارَةً قَدْ هَوَتْ وَتَحْطَمَتْ، وَكَانَتْ عَلَى وَشَكِّ الْفَنَاءِ أَمَامَ أَعْيُنِ صَانِعِيهَا الَّذِينَ صَارُوهُمْ هَدْفُّ آخِرٍ يَسْعَوْنَ إِلَيْهِ، وَهَذَا الْهَدْفُ لَا يَمْتُّ هَذَا الْعَالَمَ بِصَلَةٍ.

فَمَا بَقِيَ مِنْ هَذِهِ الْحِضَارَةِ يَجِبُ أَنْ تُشَكَّرَ عَلَيْهِ الْبَشَرِيَّةُ الْيَوْمَ الْعَرَبَ -أي: الْمُسْلِمِينَ- وَحُبَّهُمُ الْعِلْمُ، وَلَا يَعُودُ لِبِيزَنْطِيَّةِ فِيهِ إِلَّا فَضْلٌ قَلِيلٌ^(١) -أهـ.

وَشَهَدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا:

□ يقول «جوزيف رينو» في كتابه «الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا» كوسيلة من وسائل نقل الحضارة: «عندما استقرَّ المُسْلِمُونَ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْمِيَلَادِيِّ فِي بِرْوَفَانِسْ وَفِي دُوفِينِي وَسَافَوَايِّ، وَفِي سُوِيْسَرَا، كَانُوا قَدْ قَطَعُوا أَشْوَاطًا فِي الْعِلْمِ وَالْفَنُونِ، وَيَتَقدِّمُونَ بِطَرِيقَةٍ عَجِيْبَةٍ. وَمَا لَا جَدَالَ فِيهِ أَنَّ مُسْلِمِي الْأَنْدَلُسِ وَصَقْلِيَّةِ، وَمُسْلِمِي أَفْرِيْقِيَا الشَّمَالِيَّةِ، كَانُوا أَكْثَرَ تَقدِّمًا مِنْ سَكَانِ فَرْنَسَا وَالْبَلَدَانِ الْمَجاوِرَةِ، حِيثُّ كَانَتْ هَذِهِ الْبَلَدَانُ كُلُّهَا تَعْانِي مِنْ الْفَوْضِيِّ وَمِنْ كُلِّ أَنْوَاعِ الْبُؤْسِ الَّتِي تَلَازِمُهَا.

فَمِنْ ذَا الَّذِي لَمْ يَسْمَعْ بِعَظَمَةِ مَسْجِدِ قَرْطَبَةِ، وَمِنْ ذَا الَّذِي يَجْهَلُ مَا شَيَّدَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ الْجَسُورِ، وَمَا شَقَوْهُ مِنْ الْأَنْهَارِ وَالْقَنُوَاتِ لِرِي

(١) «شمس العرب» (ص ٣٧٥ - ٣٧٧).

الأرض، وما شيدوه من الآثار العظيمة في الأندلس ابتداء من النصف الثاني للقرن الثامن الهجري؟!

وعظمة المسلمين وتفوقهم لا تتجلى في الفنون وحدها، حيث أن عبقريتهم قد برزت في العلوم أيضاً -العلوم التي لا يمكن أن تقوم دعائم حضارة بدونها، فقد كان العرب يملكون ذخائر علوم الأولين وكنوزهم، وكانوا قد ترجموا إلى العربية كتب أرسطو وأبقراط وجالينوس ودسقوريدس وبطليموس وغيرهم، وأضافوا مساهمات ثمينة إلى ما اكتشفه الأولون.

وهكذا، فقد كان تفوق العرب حقيقة لا مراء فيها، ويعرف بها المسيحيون أنفسهم.

وقد حفظ لنا التاريخ قصة «شانجة Sanche» ملك ليون الذي طلب إذنًا من عبد الرحمن الثالث، عندما أصيب بمرض عضال في سنة ٩٦٠م، ليقصد قرطبة ملتمساً الاستشفاء على يد الأطباء المسلمين، ويضيف المؤرخون أن شانجة قد وجد عند هؤلاء العناية، وفي علمهم المساعدة التي كان ينشدها، وقد ظل طوال حياته يذكر الحفاوة التي قوبل بها والاهتمام الذي أحاط به.

وفي غضون تلك الفترة نفسها، كان قسيس اسمه «جيربر Gerbert» قدر له أن يصبح البابا «سيليستر الثاني Sylvester» قد قصد إلى الأندلس ليطلب العلوم الطبيعية والرياضية. وقد حصل من تلك العلوم وغيرها حظاً عظيماً، بحيث اعتبرته عامة الناس في فرنسا ساحراً.

على أن عدداً صغيراً من الفرنسيين استطاع الاعتراف من معين الثقافة

والعلوم العربية في الأندلس، في الوقت الذي ظلت فيه الجماهير غارقة في ظلمات الجهلة في فرنسا.

إن نشر الفنون الحضاري العربي الحقيقي في فرنسا والبلاد المجاورة لها، قد بدأ بعد ذلك، أي ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي، ولا سيما في أعقاب الحروب الصليبية، وبعد الاحتكاك الذي وقع بين الإسلام والمسيحية، والشعوب الشرقية والشعوب الغربية التي من بينها الشعوب الفرنسية والإنجليزية والألمانية — تلك الشعوب التي بدأت تخرج من سباتها العميق، وشرعت في أبداء رغبتها في الاستفادة مما حققته الحضارة العربية من التقدم.

كانت العلوم اليونانية في ذلك الوقت قد انفتحت من أوروبا، ولكنها كانت مترجمة ومحفوظة عند العرب. وكذلك اتجه المسيحيون من فرنسا والبلدان المجاورة لها إلى إسبانيا ليتعلموا تلك العلوم العربية، لينقلوها إلى اللغة اللاتينية التي كانت يومئذ لغة العلم في أوروبا. وهذه الكتب المترجمة هي التي ستدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن الخامس عشر.

سوف لا تتوقف لدرس مختلف الأشياء المحفوظة بعناية في فرنسا والتي يرجع تاريخها إلى العهد العربي، وهذه الآثار تتكون، خصوصاً، من أقمشة الحرير، وصناديق العاج أو الفضة، وكؤوس البلاور وأسلحة.. إلخ، وجزء كبير من هذه التحف لا يزال محفوظاً في الكنائس ولدى الهواة جمع التحف الأثرية.

لقد ظل الناس في فرنسا والبلدان المجاورة لها، أجيالاً طويلاً، وهم لا يفكرون إلا في عظمة الفكر الإسلامي، وفي قوة المسلمين واتساع آفاق

فتور حاتهم.

وكذلك كان الرأي العام يعزى إلى العرب كل ما هو عظيم وضخم من المنجزات العمرانية.

لقد جاء المسلمين إلى فرنسا قبل النورمانдинين والنهغاريين، وقد استمر وجودهم فيها، بعد غارات هؤلاء وأولئك. والفتحات الإسلامية كانت تكتسي طابعًا من الجلال والعظمة بحيث لا يمكن أن يقرأ إنسان أخبارها أو يسمع روایاتها دون أن تهتز نفسه لها، فعلى عكس النورمانдинين والنهغاريين، كان المسلمون، أجيالاً طويلة، في طليعة قافلة الحضارة في العالم^(١).

لقد ذكر «جوزيف رينو» ما ذكره الناس في فرنسا عن البابا «سلفستر الثاني»، الذي درس العلوم الطبيعية والرياضية على يد المسلمين في الأندلس، إذا اعتبروه ساحراً، وخاصة عندما كان يدهشهم بتجاربه في الكيمياء والفيزياء.

أما «لويس يونج»، فإنه يعطي تفصيلاً عن الفكر الأوروبي في ذلك الوقت، والذي استمر حتى القرن السابع عشر، لا يملك إلا أن يعزو كل ما كان يجهله إلى الشيطان وألاعيبه، وما جنون ظاهرة تعقب النساء المتشيطنات بعيد.

يقول «بونج»: «لقد أغنى الرياضيون العرب العالم بالمعرفة في جميع المجالات، وبخاصة الأفكار والملاحظات الرياضية.

وأحد أوائل الأوروبيين الذي أخذوا بالأرقام العربية كان «جريرت»،

(١) («الفتحات الإسلامية في فرنسا» (ص ٢٥١ - ٢٥٦، ٢٦٤ - ٢٦٥) لجوزيف رينو.

الذي أصبح فيما بعد (في عام ٩٩٩ م) البابا «سيلفستر الثاني» (ولد ٩٤٥ - وتوفي ١٠٠٣ م). سافر جربرت هذا بين عامي (٩٦٧ - ٩٧٠ م) إلى إسبانيا، حيث درس العلوم، وألف بعد ذلك كتاباً يشرح فيه كيفية استخدام الأرقام العربية.

إلا أن أوروبا لم تلق بالاً إلى هذا النظام الجديد، بل كان ينظر إلى «جربرت» بعين الشك؛ لأنك درس على يد العرب في إسبانيا، وعلى المستوى الشعبي كان يشك في أنه يمارس السحر.

ولقد رويت عنه كثير من الروايات الخارقة، فقيل: أنه كان يغادر الدير ليلاً، ويطير في الهواء إلى إسبانيا حيث يدرس الفلك والفنون السحرية، ثم يعود إلى حجرته قبل بزوغ الفجر.

كما كان يظن بأنه تعلم إحضار الأرواح من جهنم، وأنه يحتفظ بكتاب سحر حصل عليه بالمكر والخدعة من ساحر عجوز، وأنه رهن روحه للشيطان لكي يحميه من انتقام هذا الساحر العجوز.

وبعد فترة طويلة من الزمن تبنت أوروبا الأرقام العربية، نتيجة أعمال «ليوناردو فيبوناتشي» من بيزا، الذي توفي عام ١٢٤٠ م، وكان فيبوناتشي رياضياً، درس الرياضيات على يد معلم عربي، في شمال أفريقيا، وأصدر كتاباً يشرح فيه نظام الأرقام العربية عام ١٢٠٢ م، وكان ذلك بداية تبني أوروبا للأرقام العربية، وبداية لعلم الرياضيات الأوروبي»^(١).

□ وبقيت الكلمة نقوها: أن رجال الكنيسة أرادوا من العلماء الطاعة العميماء لهم، وقد دخلوا في دينهم ما ليس منه، واعتبروا أي مخالفة لذلك

(١) «العرب وأوروبا» (ص ١٢٥).

إنما هي هرطقة وكفر جزاؤهما بالإحرق في الدنيا رحمة بالذنبين، بدلاً من الإحرق الأبدي في الآخرة.

ويعبر عن هذا المنطق الرهيب «تور كويهادا» (١٤٢٠ - ١٤٩٨م)، رئيس محاكم التفتيش في إسبانيا، الذي كان «يبرر إحرق مئات الزنادقة والسحرة على الخازوق، وتعريف الزنادقة والسحرة وكل منشق على الكنيسة الكاثوليكية أو رافض لها في العقيدة أو السلوك أو المصالح، بقوله: نحن نحرقك في الدنيا رحمة بك حتى تندرك من النار الأبدية في الآخرة!».

ولقد كان من نتيجة تطبيق هذا الفكر الكتسي الرهيب أن تعرض الكثير للتعذيب أو الإحرق أو كليهما معًا، ونكتفي أخيراً بذكر هذا المثال: □ في عام ١٤١٥م أحرقت الكنيسة «جون هس» أعظم واعظ بالإنجيل في بوهيميا، وقد كان رئيسًا لجامعة براغ التي كانت آنذاك أعظم جامعات أوروبا بعد باريس وأوكسفورد. ولقد أدين أمام مجمع كونستانتس (١٤١٤ - ١٤١٨م) بتهمة الهرطقة وعومنل في السجن بوحشية ثم أحرق حيًّا.

الطب عندهم من المضحكات المبكيات:

□ قال الدكتور «ماكس مايرهوف» المستشرق الألماني عن حالة المستشفيات في أوروبا في العصر الذي كانت فيه المستشفيات في حضارتنا كما وصفناها.. قال الدكتور «ماكس»: «إن المستشفيات العربية ونظم الصحة في البلاد الإسلامية الغابرة لتلقى علينا الآن درساً قاسياً مرّاً لا يقدره حق فدره إلّا بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات أوروبا في

ذلك الزمان نفسه». مر أكثر من ثلاثة قرون على أوروبا، اعتباراً من زمننا هذا، قبل أن تعرف للمستشفيات العامة معنى، ولا نبالغ إذا قلنا: بأنه حتى القرن الثامن عشر (١٧١٠م) والمرضى يعالجون في بيوتهم أو في دور خاصة كانت المستشفيات الأوروبية قبلها عبارة عن دور عطف وإحسان، ومؤوى لمن لا مأوى لديه، مرضى كانوا أم عاجزين، وأصدق مثال لذلك هو مستشفى «أوتيل ديو» بباريس، أكبر مستشفيات أوروبا في ذلك العصر، وصفه كل من «ماكس» توردو وتينون بما يلي: «يحتوي المستشفى على ١٢٠٠ سرير، منها ٤٨٦ خصصت لنفر واحد، أما الباقى سولم تكن سعة الواحد منها تتجاوز خمسة أقدام - فتجد فيها عادة ما يتراوح بين ثلاثة مرضى وستة، وكانت الردهات الكبرى عفنة كثيرة الرطوبة، لا منافذ تهوية فيها، مظلمة دوماً، ترى فيها في كل حين حوالي ثمانين مريض يفترشون الأرض وهم مكدسون بعضهم فوق بعض، على القاع أو على كوم من القش، في حالة يرثى لها.. إنك لتتجد في السرير ذي الحجم المتوسط أربعة أو خمسة أو ستة مرضى متلاصقين، قدم أحدهم على رأس الثاني، تجد أطفالاً بجانب شيخوخ، ونساءً بجانب رجال، «قد لا تصدق لكنها الحقيقة» تجد امرأة في المخاض مع طفل في حالة تشنج مصاب بالتيفوس يحترق في بحران الحمى، وكلاهما إلى جنب مريض بداء جلدي يحك جلده المهرئ بأظفاره الدامية فيجري قبح البثور على الأغطية. وطعام المرضى من أحسن ما يتصوره العقل، يوزع عليهم بكميات قليلة للغاية، وفي فترات متباude لا نظام فيها. واعتادت الراهبات أن يحابين المرضى الطائعين المنافقين على حساب الآخرين، فيسكنينهم الخمور، ويصلنهم بالحلوى والمأكل الدسمة مما يتفضل به المحسنون في الوقت

الذي هم فيه أحوج إلى الحمية، فيموت الكثير منهم بالتخمة ويفطس غيرهم جوعاً. وكانت أبواب المستشفى مفتوحة في كل وقت وحين لِكُلِّ رائحٍ وغادٍ وبهذا تنتشر العدوى بانتقالها، وبالفضلات وبالهواء النتن الملوث. وإن لم يتفصل المحسنون على المرضى ماتوا جوعاً، كما يموتون أحياناً بالتخمة أو من فرط السكر، والفرش حافلة بالحشرات الدنية وهواء الحجرات لا يطاق لفساده، حتى أن الخدم والممرضين لم يكونوا يجربون على الدخول إلَّا بعد وضع إسفنجية مبللة بالخل على أنوفهم. وترك جثث الموتى ٢٤ ساعة على الأقل قبل رفعها من السرير المشاع، وكثيراً ما تتفسخ الجثة وتتعفن وهي ملقاة بجانب مريض يكاد يطير صوابه».

هذه مقارنة بسيطة بين حالة المستشفيات عندنا في عهود حضارتنا، وحالتها عند الغربيين في تلك العصور، وهي تدل على مبلغ الانحطاط العلمي الذي كان عليه القوم، والجهل الفاضح بأصول المستشفيات، بل بقواعد الصحة العامة البديهية. وإنما لنرى فيما يرويه العربي أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار، مبلغ جهل الغربيين الصليبيين بالطب، ومبلغ على أطبائهم بشكل مضحك، من الحادثتين التاليتين:

□ ومن عجيب طبهم «الفرنج» أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل إليه طبيباً نصراوياً يقال له: ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى، قال: أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة، وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبخة ففتحت الدملة وصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب إفرنجي، فقال لهم: «هذا

ما يعرف شيء يداويم»، وقال للفارس: أيها أحب إليك، تعيش بـرجل واحدة أو تموت بـرجلين؟ قال: أعيش بـرجل واحدة. قال: أحضروا لي فارساً قوياً وفاسداً قاطعاً، فحضر الفارس والفالس، وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: اضرب رجله بالفالس ضربة واحدة واقطعها. فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية.. سال مخ الساق ومات من ساعته، ثم ينطلق ليروي كيف أن هذا الطبيب الصليبي أمر بتغطيس المرأة بهاء مغلي فماتت لساعتها».

□ ونختتم هذا الحديث بالنتائج التي نحب أن نلقي الأنظار إليها بعد هذه المقارنات، أننا في حضارتنا كنا أسبق من الغربيين إلى تنظيم المستشفيات بتسعة قرون على الأقل، وأن مستشفياتنا قامت على عاطفة إنسانية نبيلة لا مثيل لها في التاريخ ولا يعرفها الغربيون حتى اليوم، وأننا كنا أسبق الأمم إلى معرفة ما للأدب المصحح والإيحاء الذاتي من أثر بالغ في شفاء المرضى، وأننا بلغنا في تحقيق التكافل الاجتماعي حدّاً لم تبلغه الحضارة الغربية حتى اليوم حين نجعل الطب والعلاج والغذاء للمرضى بالمجان، بل حين كنا نعطي الفقير الناقة من المال ما ينفق على نفسه حتى يصبح قادرًا على العمل، إن هذه نزعة إنسانية بلغنا فيها الذروة يوم كنا نحمل لواء الحضارة، فأين نحن منها اليوم، وأين منها هؤلاء الغربيون؟^(١).

إنجلترا وباريis في القرن العاشر الميلادي «الرابع الهجري»:

□ جاء في التاريخ العام لـ«لأفيis» و«رامبو» ما يلي: كانت إنجلترا

(١) «من روائع حضارتنا» (ص ١١٦ - ١١٨).

الإنجلوسكسونية في القرن السابع الميلادي إلى ما بعد العاشر فقيرة في أرضها منقطعة الصلات بغير بلادها، سمحجة وحشية، تبني البيوت بحجر غير منحوت، وتشيدها من تراب مدقوق، وتجعلها في وطاء من الأرض، مساكن ضيقة المنفذ، غير محكمة الإغلاق، واصطبلاط وحظائر لا نوافذ لها، تعرض الأمراض والأوبئة المتكررة المواشي والسائلة وهي المورد الوحيد في البلاد، ولم يكن الناس أحسن مسكنًا وأمنًا من الحيوانات، يعيش رئيس القبيل في كوهه مع أسرته وخدمه ومن اتصل به، يجتمعون في قاعة كبرى في وسطها كانوا ينبعث دخانه من ثقب فتح في السقف فتحًا غليظًا، ويأكلون كلهم على خوان واحد، يجلس السيد وقريته في أحد أطراف المائدة، ولم تكن الشوكات معروفة، وللأقداح حروف من أسفلها، فكان على كل مدعو أن يمسك بيده قدحه، أو يفرغه في فيه دفعه واحدة ويتنقل السيد إلى غرفته في المساء بعد أن يتناولوا الطعام ويعربدوا على الشراب، ثم ترفع المنضدة والصقالات وينام جميع المجتمعين في تلك القاعة على الأرض أو على دِكَّه، واضعًا كل فرد سلاحه فوق رأسه؛ لأن اللصوص كانوا من الجرأة بحيث يقتضي على الناس أن يقفوا لهم بالمرصاد كل حين لئلا يؤخذوا على غرة.

وكانت أوروبا في ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة، متأخرة في زراعتها، وتبعث من المستنقعات الكثيرة في أراضي المدن روائح قاتلة، تجتاح الناس وتحصدتهم. وكانت البيوت في باريس ولندن تبني من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب «كبيوت القرى عندنا منذ نصف قرن» ولم يكن فيها منفذ ولا غرف مدفعية، وكانت البسط مجهلة عندهم، لا بساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض، ولم يكونوا يعرفون

النظافة، ويلقون بأحشاء الحيوانات وأقدار المطبخ أمام بيوتهم فتتصاعد منها رائحة مزعجة، وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال، وكثيراً ما كانوا يؤدون معهم الحيوانات الداجنة، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف، يجعل مخددة أو وسادة، ولم يكن للشارع مجاري ولا بلاط ولا مصابيح، ولم تكن أكبر مدينة في أوروبا تضم أكثر من خمسة وعشرين ألفاً. هكذا كان الغرب في القرون الوسطى حتى القرن الحادي عشر فما

بعده، باعتراف مؤرخيهم أنفسهم^(١).

٠٣٤٥٦٧٩٢٥٣٤

(١) «من رائق حضارتنا» (ص ١٣٢ - ١٣٣).

وما تزال خلية الإسلام تعسل

لا تزال دوحة الإسلام وارفة الظلال، وما تزال خلية الإسلام تعسل، سُنطِبُ المريض بدوائنا، صُمَّتْ أذُنُ الدنيا إِنْ لم تسمع لنا، ما عَقِمتْ أُمُّ الفتىان، والله أَوْسُّ آخرون وخزرج، وفجر الإسلام وحضارته آت نوقن به أكثر من يقيننا بوجودنا.. والإسلام معطاء ولود.. كل يوم – حتى في وسط الظلمات- تهل تباشير الصباح.. وهناك أناس وأبناء له يبعثون الأمل على قدرة الإسلام وأبنائه على تبُوء أعلى القمم في ميادين الحياة، وهذه أمثلة ناصعة البياض.. عطرة.. تبرهن أعظم البراهين على ما نقول:

الدكتور علي مصطفى مشرفة عالم الذرة الفريد يحفظ القرآن الكريم والصححين:

□ لما سمع أينشتين بخبر موته لم يصدق، ثم قال: «كلا.. كلا، لا تقولوا: إنَّ مشرفة مات.. إنها خسارة جسيمة»!! ووصفه بوحد من أعظم علماء الفيزياء^(١). ونعته الإذاعة في أمريكا على أنه «واحد من سبعة علماء في العالم يعرفون أسرار الذرة»!!^(٢).

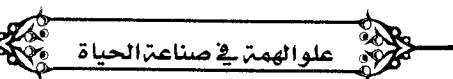
إنَّ العالم المصري المسلم الدكتور علي مصطفى عطيه أحمد مشرفة، من رواد علوم الرياضيات والفيزياء.

نشأته ورحلته العلمية:

ولد مشرفة سنة ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م في حي المظلوم بمدينة دمياط.

(١) «عالم غيروا وجه العالم» (ص ١٧٩).

(٢) «مشرفة بين الذرة والذروة» لمحمد الجوادي (ص ٥٦) - مكتبة مدبولي.



وكان والده من ذوي اليسر والجاه، وهو ما جعل مشرفة يقضي سنواته الأولى في رغد من العيش وهناء البال، غير أن تلك الحياة الرغدة لم تدم طويلاً.. ففي سنة ١٩٠٩م توفي والده بعد تعرضه لأزمة مالية أودت بكل ما تملك الأسرة، وكان ذلك قبل امتحان الشهادة الابتدائية لمشرفة بثلاثة أشهر، ولكنه تغلب على الصدمة ونال الابتدائية بتفوق وكان ترتيبه الأول على القطر المصري !!

انتقلت الأسرة بعد ذلك إلى القاهرة، وقبل امتحان البكالوريا بشهرين تُوفيت والدته، ولكنه بنفس العزيمة حصل على شهادة البكالوريا بتفوق، وكان ترتيبه الثاني على القطر المصري، وذلك سنة ١٩١٤م !!^(١).

آخر مشرفة أن يلتحق بمدرسة المعلمين العليا؛ فحصل على دبلومها سنة ١٩١٧م، وكان ترتيبه الثاني على الدبلوم. وقد أهله هذا التفوق ليختار ضمن بعثة علمية إلى إنجلترا، فالتحق بكلية «نوتنجهام» بجامعة لندن، فحصل منها على درجة البكالوريوس في الرياضة مع مرتبة الشرف، وكان الحصول على هذه الشهادة يحتاج أربع سنوات من الدراسة، إلا أن مشرفة اختصرها في ثلاثة سنوات فقط، فحصل عليها سنة ١٩٢٠م !!^(٢).

وفي فبراير سنة ١٩٢٣م حصل مشرفة على درجة الدكتوراه في فلسفة العلوم (ph.D) البريطانية، من جامعة لندن في أقصر مدة تمسح بها قوانين

(١) «١٠٠ عالم» (ص ١٧٩)، «مشرفة بين الذرة والنذروة» (ص ٥٢، ٢٦).

(٢) «مشرفة بين الذرة والنذروة» (ص ٢٧)، «١٠٠ عالم» (ص ١٧٩).

الجامعة، وأصبح عضواً في الجمعية الملكية البريطانية وأخذ يحاضر العلماء من أعضاء الجمعية ولم يتجاوز بعد الخامسة والعشرين من عمره!!^(١).

على أن آمال مشرفة في الحصول على درجة «الدكتوراه في العلوم (D.Sc) ظلت تلُّح عليه، فواصل ليه بنهاره في صيف سنة ١٩٢٣م حتى انتهى من إعداد أطروحة دكتوراه العلوم في شهر سبتمبر، فعرضها على أستاذه السير «ريتشاردسون» «أكبر علماء الطبيعة في عصره»، ولم تكن جامعة لندن تسمح بدخول امتحان هذه الدرجة إلا بعد مرور عامين - على الأقل - من حصول الطالب على درجة دكتوراه الفلسفة في العلوم، وتقديم مشرفة - بناء على نصيحة أساتذته - يلتمس إذناً خاصاً من مجلس إدارة الجامعة يمكنه من دخول الامتحان في أقرب فرصة؛ نظراً لأنه نشر أبحاثاً عملية جليلة القدر، وفي الحادي والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٢٣م وافق مجلس إدارة جامعة لندن للدكتور مشرفة على أن يؤدي هذا الامتحان بصفة استثنائية في الرابع والعشرين من يناير سنة ١٩٢٤م، وأدى مشرفة الامتحان في الموعد المحدد، وأعلنت نتيجة الامتحان في مارس سنة ١٩٢٤م بحصول الدكتور مشرفة على الدكتوراه في العلوم؛ وبذلك أصبح مشرفة العالم الحادي عشر في العالم الذي يحصل على هذه الدرجة، وأول عالم مصرى يحصل على هذه المكانة الرفيعة!!^(٢).

رجع مشرفة إلى مصر؛ وعيّن مدرّساً للرياضيات التطبيقية بكلية العلوم بجامعة القاهرة، ثم منح درجة «أستاذ» في عام ١٩٢٦م رغم

(١) «مشرفة بين النيرة والذروة» (ص ٢٨).

(٢) «مشرفة بين النيرة والذروة» (ص ٢٨).

اعتراض قانون الجامعة على منح اللقب لمن هو أدنى من الثلاثين!! وكان بذلك أول أستاذ مصري في كلية العلوم، ولما يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره!! وقد اعتمد عميداً للكلية في عام ١٩٣٦م، وانتُخب للعِمَادَة أربع مراتٍ متتاليات، كما انتُخب وكيلاً للجامعة سنة ١٩٤٥م^(١).

وقد تمتَّعَت كلية العلوم في عصره بشهرة عالمية واسعة؛ حيث عنيتْ عناية تامة بالبحث العلمي وإمكاناته، فوفرَ كل الفرص المتاحة للباحثين الشباب لإتمام بحوثهم، ووصل به الاهتمام إلى مراسلة أعضاءبعثات الخارجية، وسمح لأول مرة بدخول الطلبة العرب الكلية، وكان من أهم أعماله أيضاً أنه أنشأ قسماً للترجمة العلمية بالكلية؛ لأن الدراسة كانت باللغة الإنجليزية، وكان يهدف من وراء ذلك إلى ترجمة المراجع العلمية إلى اللغة العربية، حتى يمكن تصدير الكلية والمعاهد العليا بوجه عام، وحتى تكون اللغة العربية هي لغة التعليم بدلاً من الإنجليزية. كما حولَ مشرفة الدراسة في قسم الرياضيات التطبيقية الذي يرأسه والرياضيات البحثة باللغة العربية!^(٢).

سمته وثقافته :

أبرز ما كان يميز مشرفة ما كان من تمسكه بدينه منذ صغره، وبعد سفره، وقد تجسَّد ذلك في حفظه القرآن الكريم وال الصحيحين، واستشهاده بذلك في سائر كلامه، كما عُرف عنه مواظبه على أداء فروض الدين، وكان يحتفظ في جيده بمصحف صغير على الدوام، وكان يؤتي الزكاة

(١) المصدر السابق (ص ٣٠)، «مسلمون علموا العالم» لمحمد عثمان علي (ص ٧٠).

(٢) «مسلمون علموا العالم» (ص ٧٠)، و«مشرفة بين الذرة والذروة» (ص ١٣٦).

مضاعفةً ما استطاع، وفي الخفاء، ولما مات جاءت مجموعة من الطلبة الصوماليين يواسون أسرته، وهم يبكون على مشرفة وعلى مستقبلهم الذي ظنوه سيضيع بوفاة عائلهم الذي تكفل بنفقات تعليمهم من دون أن يعلم أحدٌ عن ذلك شيئاً، ولم يكن هذا التدين غريباً عن مشرفة وهو العالم الذي تعمق في العلوم، ووقف على أسرار الكون وخلق الله^(١).

وكانت ثقافة مشرفة الدينية مثلاً فريداً، ليس عند العلماء الذين تستهويهم الثقافات الدينية، ولكن عند علماء الدين أنفسهم، فقد حفظ مشرفة القرآن، والتوراة والإنجيل - المحرفين -، واستطاع أن يدرس الإسلام واليهودية والنصرانية دراسة مقارنة، وكان عقله جاهزاً في كل حين لاستحضار الصورة الكاملة للمفاهيم الدينية المختلفة في أية قضية من القضايا، ولم يكن مشرفة يبهر علماء الأديان بثقافته تلك فحسب، وإنما كان يناظرهم ويقارعهم الحجّة وينتصر عليهم في كثير من الأحيان!!

والذين يتبعون مشرفة في حياته كلها يجدون في نفوسهم إحساساً قوياً بأن مشرفة عمل ودرس، وسعى وجاحد، وقرأ وبحث، وكشف وكتب وحاضر ابتغاء مرضيّة الله^(٢)، على أن الأمر في مثل هذه النية لا يقف عند الإحساس الذي يجده المتبعون، وإنما حفظ لنا الدهر عبارةً في خطاب كتبه مشرفة إلى صديق لوالده يقول فيه: «أما وقد تطورت في طور جديد من أطوار حياتي أسأل الله أن يجعله سبيلاً إلى تقواه، ومعيناً على طاعته،

(١) «مشرفة بين الذرة والذروة» (ص ٤٥).

(٢) نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً من عباده.

ومقرّباً من جنة رضوانه!!^(١).

وقد أجاد الدكتور مشرف اللغة الإنجليزية، لا إلى الحد الذي يعبر عنه الناس فيقولون: «أتقنها كواحد من أهلها» فحسب، ولكن إلى الحد الذي شجع الإنجليز أنفسهم على اختياره رئيساً لجمعية المناقشات في الكلية الملكية، وكان مشرفة بالطبع أول أجنبى يختار لهذا المنصب، وقد عُرفَ مشرفة في هذه الجمعية بقلب Pat وهو اختصار للاسم الأيرلندي patrick وقد اختار له الإنجليز هذا الاسم تقديراً لقدراته وملكاته الجدلية^(٢).

دور العلم في حياته :

آمن مشرف إيماناً عميقاً بالعلم، وبأهمية تطبيقه في الحياة، وكانت هذه هي الفكرة الغالبة على أعماله ومؤلفاته، وكان مشرفة يستنهض الهمم في كل حين إلى العناية بأمر العلم والبحوث العلمية والتطبيقية واستغلال ثرواتنا البحرية والصحراوية، وتنظيم استغلال ثرواتنا الزراعية والتجارية، وكان الساسة يظلون مشرفة مغالياً في دعوته، وما كان مشرف مغالياً، وإنما كان مقدراً للأمر قدره الغالي^(٣).

وكان مشرف يعمل ما لا يقل عن ثلاثة أرباع اليوم، وكثيراً ما كان يكتفي من النوم بثلاث ساعات: ساعة في العصر بين الرابعة الخامسة، ويقوم بعدها فيتناول الشاي مع أسرته، وساعتين بعد الفجر من الخامسة إلى السابعة أو من السادسة إلى الثامنة صباحاً، وكان المحيطون به يشفقون

(١) المصدر السابق (ص ٤٦).

(٢) «مشرفة بين الذرة والذروة» (ص ٤٨).

(٣) المصدر السابق (ص ٣٩).

عليه من هذا الكفاح الذي لا يستريح معه، ولكنه كان معتقداً أنه إن استراح فقد تقاعس، والتقاعس لا يليق بسيرة العلماء الذين كان يرى أن عليهم واجباً نحو الإنسانية، ورسالة لا ينبغي أن يتخلوا عنها طلباً للراحة^(١).

ولم يكن مشرفة من العلماء الذين يحول اشتغالهم بالعلم بينهم وبين الجمهور، ولعل في هذا سرّاً الدعوة الملحّة إلى الاتصال بين معاهد العلم وجماهير الشعب، وهي الدعوة التي صدرت عن تقديره لمدى الفوائد الإيجابية التي تعود نتيجة لهذا الاتصال، وعن تقديره لمدى السلبيات التي تنتج عن غياب هذا الاتصال، والتي تمثل على حد تعبيره في أن يتحول العلم إلى ضرب من ضروب السحر، ويتحول العلماء إلى نوع من الكهنة الذين يُقرّأُ عنهم في تاريخ مصر القديمة^(٢).

□ وقد ترجم الدكتور مشرفة أفكاره في هذه الناحية إلى واقع عملي، فكان من السبّاقين إلى نشر الثقافة العلمية المبسطة عن طريق الإذاعة، ولم يسلك مشرفة في عمله هذا مسلكاً فردياً بغية مجد شخصي، وإنما استطاع أن ينظم سلسلة من الأحاديث الدورية أطلق عليها اسم: «أحاديث كلية العلوم» يلقاها على الناس في الراديو أستاذة كلية العلوم، وكان مشرفة يعتقد أن قيام كلية العلوم بهذا العمل إنما هو جزء من رسالتها في إتاحة الفرصة أمام الجمهور المثقف للوقوف على أحد ثآراء العلمية، والإمام بما كشف عنه الباحثون من خفايا الكون وأسرار الطبيعة، وكان يعتقد

(١) المصدر السابق (ص ٤٤).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٦).

كذلك أن هذه الأحاديث فرصة عظيمة لطائفة العلماء ليتحدثوا عن دراساتهم، ويعبروا عن وجهات نظرهم، ويتبسطوا في هذه الأحاديث بلغة سهلة، خالية على قدر ما يتيسر من المصطلحات الغربية، والرموز المزيفة.

غير أن الهدف الأسماى الذي سعى مشرفة إليه من وراء هذه الأحاديث لم يكن إلّا إشاعة العقلية العلمية في رُوح الشعب؛ حتى تصبح هذه العقلية عادة في تفكيرنا القومي، فإذا ما عَنِت للناس مشكلة من المشكلات استطاعوا التغلب عليها بالأسلوب العلمي، غير متأثرين بهوى نفسٍ أو غرض في التفكير.

وقد حرص الدكتور مشرفة في الوقت نفسه على أن يبين للناس في الأحاديث التي قام هو بإلقائها كثيراً من الأمور الأساسية في العلوم، والاكتشافات الحديثة في دنيا الابخراع، والعناصر الرئيسية في التفكير العلمي، والعلامات البارزة في تاريخ البحث والصناعة، وقد اتسعت دائرة العلوم التي تناولتها هذه الأحاديث، كما تزايد عدد الأساتذة الذين شاركوا في هذا البرنامج الإذاعي حديثاً بعد حديث^(١).

وعلى الجانب الآخر كان مشرفة يتمنى للوظائف العامة أن يتولاها أساتذة الجامعات، ولم يكن من أنصار الرأي القائل بأنه على أساتذة الجامعات أن يترفّعوا عن مثل هذه الوظائف، وكان يقول في الرد على ذلك: كيف يلام أساتذة الجامعة وهم صفوة المتعلمين في الأمة إذا طلبوا ذلك الجاه لكي يُسمع صوتهم فلا يظلوا بعيدين عن تiarات الحياة في

(١) «مشرفة بين الذرة والذروة» (ص ٤٧).

(١) الأمة؟!

آثاره ومؤلفاته:

علي مصطفى مشرفة مشرفة أبحاث متعددة في نظرية الكم، وتفسير كثير من الظواهر الفيزيائية، وكذلك في المادة والإشعاع، وكان من أول القائلين بأنه يمكن اعتبارهما صورتين لشيء واحد، تتحول إحداهما للأخرى، وقد اقترن اسمه بهذه النظرية.

كما أن له نظرية في مجال الذرة سهلت فيما بعد اقتحام مجال العلوم الذرية، والدخول إلى أعماقها!!^(٢).

والحقيقة أن أبحاث الدكتور مشرفة بدأت تأخذ مكانها في الدوريات العلمية وعمره لم يتجاوز الخامسة والعشرين عاماً؛ ففي الجامعة الملكية بلندن (kings College) نُشرَ له أول خمسة أبحاث حول النظرية الكمومية التي نال من أجلها درجتي (D.ph.D) دكتوراه الفلسفة و(D.sc) دكتوراه العلوم)، كما أنَّ له ٢٦ بحثاً مبتكرة في الطبيعة.

□ وقد كان من مؤلفاته العديدة التي خلَّفَها ما يلي:

- ١ - كتاب الميكانيكا العلمية والنظرية، وقد ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٣٧ م.
- ٢ - كتاب الهندسة الوصفية، وقد ظهر سنة ١٩٣٧ م.
- ٣ - كتاب الهندسة المستوية والفراغية، وظهر سنة ١٩٤٤ م.

(١) المصدر السابق (ص ٥٠).

(٢) «١٠٠ عالم غيروا وجه العالم» (ص ١٧٩).

- ٤ - كتاب حساب المثلثات المستوية، وظهر سنة ١٩٤٤ م.
- ٥ - كتاب الذرة والقنابل الذرية، وظهر سنة ١٩٤٥ م.
- ٦ - كتاب العلم والحياة، وظهر سنة ١٩٤٦ م.
- ٧ - كتاب الهندسة وحساب المثلثات، وظهر سنة ١٩٤٧ م.

وعلى أن مشرفة كان له إسهاماته الخاصة في مجال إحياء التراث الإسلامي أيضاً، وكان من أشهر تحققاته: كتاب «الجبر والمقابلة» «للخوارزمي»، وهو الكتاب الذي ظل عمدة ومرجعاً لعلماء الشرق والغرب طيلة قرون عديدة، وقد قدم مشرفة لهذا الكتاب بمقدمتين: الأولى عن الجبر قبل الخوارزمي، والثانية: عن «الخوارزمي» وكتابه «الجبر والمقابلة»، ثم عرض كتاب الخوارزمي؛ فشرح الجزء الخاص بالجبر، وعلق عليه، وحلّ مسائله، وعبر عن المعاني العلمية والفنية بعبارات الاصطلاح الحديث، أما المسائل التي لا ترتبط بصلب العلم فقد اكتفى فيها بالنقل دون التعليق، وهكذا أخرج لنا مشرفة من كنوز العرب درّة فجلّها خير تحلية^(١).

وفاته:

وبعد أن أضاء جنبات الحياة العلمية وأثراها في عصره، توفي الدكتور علي مصطفى مشرفة سنة ١٩٥٠ م؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجراه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء^(٢) أهـ.

(١) «مشرفة بين الذرة والذروة» (ص ١٨٦)، و«مسلمون علموا العالم» (ص ١٨٠).

(٢) «العلم وبناء الأمم» (ص ٥٩٨ - ٦٠٤).

جمال حمدان.. عالم الجغرافيا السابق لعصره:

«سبق عصره بعطايه العلمي، واستطاع أن يترك بصماته الفريدة على الدراسات الجغرافية في العصر الحديث، والتي ربط فيها التاريخ بحقائق الأرض والجغرافيا».

تفوق منذ النشأة:

ولد «جمال محمود صالح حمدان» في قرية «ناي» بمحافظة القليوبية بمصر في (١٢ شعبان ١٣٤٦هـ / ٤ فبراير سنة ١٩٢٨م)، ونشأ في أسرة كريمة تنحدر من قبيلة «بني حمدان» العربية التي نزحت إلى مصر في أثناء الفتح الإسلامي^(١).

كان والده أزهريًا ومدرّسًا للغة العربية، وقد اهتم بتحفيظ أبنائه السبعة القرآن الكريم، وتجويده وتلاوته على يديه؛ مما كان له أثر بالغ على شخصية «جمال حمدان»، وعلى امتلاكه نواصي اللغة العربية؛ مما غالب على كتاباته الأسلوب الأدبي المبدع.

حصل «جمال حمدان» على الثانوية العامة عام (١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م)، وكان ترتيبه السادس على القطر المصري، ثم التحق بقسم الجغرافيا بكلية الآداب، وكان طالبًا متفوقًا ومتميّزًا خلال مرحلة الدراسة الجامعية؛ حيث كان منكباً على البحث والدراسة، متفرغاً للعلم والتحصيل.

وبعد تخرجه عام (١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م) تم تعيينه معيidaً بالكلية، ثم أوفدته الجامعة فيبعثة إلى بريطانيا سنة (١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م)، حصل

(١) «جمال حمدان وتراثه الفكري» (ص ٨) لعبد الحميد صالح حمدان.

خلالها على الدكتوراه في «فلسفة الجغرافيا» من جامعة «ريدنج» عام ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م)، وكان موضوع رسالته: «سكان وسط الدلتا قديماً وحديثاً»، ولم تترجم رسالته تلك حتى وفاته.

بعد عودته من بعثته العلمية انضم إلى هيئة التدريس بقسم الجغرافيا في كلية الآداب جامعة القاهرة، ثم رُقي أستاذًا مساعدًا، وأصدر في فترة تواجده بالجامعة كتبه الثلاثة الأولى: «جغرافيا المدن»، و«المظاهر الجغرافية لمجموعة مدينة الخرطوم»، و«دراسات عن العالم العربي»، وقد حصل بهذه الكتب على جائزة الدولة التشجيعية سنة (١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م)، وقد لفتت كتبه أنظار الحركة الثقافية عامة، كما أنها صوّبت إليها سهام الغيرة من قبل بعض زملائه وأساتذته داخل الجامعة، حتى اضطر في عام ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م) إلى التقديم باستقالته من الجامعة؛ احتجاجاً على ظلم إداري تعرض له^(١).

وباستقالة «جمال حдан» من الجامعة تبدأ مرحلة طويلة من التبلي في طلب العلم، والانقطاع للتأليف، أثمرت نتاجاً علمياً غزيراً، يأقى في القمة منه موسوعته الفريدة «شخصية مصر.. دراسة في عقرية المكان»^(٢).

ومن الإنصاف أن نؤكّد - كما أشار عدد من الباحثين - أن «جمال حдан» لم يعزل تلك الفترة الطويلة ذلك النوع السلبي من العزلة.. وإنما عزل ضجيج الحياة وصغارها هومها وتهافت صراعاتها عن فكره الراقي وعقله الثاقب؛ ليطلق لها العنان في آفاق العلم الرحبة وغير المحدودة.

(١) «موقع إسلام أون لاين مشاهير العرب».

(٢) «جمال حдан وتراثه الفكري» (ص ٨).

نظرة «جمال حمدان» إلى الجغرافيا:

□ لا يرى «جمال حمدان» في علم الجغرافيا ذلك العلم الذي يقف على حدود الموقع والتضاريس، وإنما هو علم تنصهر في بوتقته علوم مختلفة؛ فالجغرافيا هي: «تلك التي إذا عرفتها عرفت كل شيء عن نمط الحياة في هذا المكان أو ذاك، جغرافيا الحياة التي إن بدأت من أعلى آفاق الفكر الجغرافي في التاريخ والسياسة، فإنها لا تستنكر عن أن تنفذ أو تنزل إلى أدق دقائق حياة الناس العادية في الإقليم»^(١).

□ وإذا كانت الجغرافيا –كما يقول في تقديمه لكتاب «شخصية مصر»– هي علم «التبالين الأرضي»، أي التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض على مختلف المستويات؛ فمن الطبيعي أن تكون قمة الجغرافيا هي التعرف على «شخصيات الأقاليم»، والشخصية الإقليمية شيء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم، إنما تسأله أساساً عنها يعطي منطقة ما تفردّها وتميّزها بين سائر المناطق، كما تريد أن تنفذ إلى روح المكان ل تستشف عبقيته الذاتية التي تحدد شخصيتها الكامنة»^(٢).

□ ولئن بدا أن هذا يجعل للجغرافيا نهجاً فلسفياً متنامراً، يتارجح بين علمٍ وفنٍّ وفلسفة؛ فيمكن أن نضيف للتوضيح: إنها كذلك؛ فهي علمٌ بعادتها، وفنٌّ بمعالجتها، وفلسفة بنظراتها، الواقع أن هذا المنهج الثالث يعني ببساطة أن يتنقل بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير، من

(١) «موقع إسلام أون لاين».

(٢) «شخصية مصر» –المقدمة لجمال حمدان.

جغرافيا الحقائق المرصوصة إلى جغرافيا الأفكار الرفيعة^(١).

□ وكانت رؤية جمال حمدان للعلاقة بين الإنسان والطبيعة في المكان والزمان متوازنة؛ فلا ينحاز إلى طرف على حساب الآخر، يظهر ذلك واضحاً في كتابه العظيم «شخصية مصر»، والذي تبرز فيه نظرته الجغرافية المتوازنة للعلاقة بين الإنسان المصري والطبيعة بصفة عامة، و«النيل» - كمكون أساسي للطبيعة المصرية - بصفة خاصة، وكيف أفضت هذه العلاقة إلى صياغة الحضارة المصرية على الوجهين: المادي والروحي^(٢).

آثاره وإنجازاته:

□ كان لعصرية جمال حمدان ونظرته العميقه الفضل -بعد توفيق الله تعالى- في الوصول إلى كثير من التحليلات والأراء التي استُغربَت وقت إفصاحه عنها، إلا أن الأيام أكدتها بعد ذلك؛ فقد أدرك بنظره الثاقب كيف أن تفكك الكتلة الشرقية واقع لا محالة، وكان ذلك عام (١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م)، فإذا الذي تنبأ به يتحقق بعد إحدى وعشرين سنة، عام (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م)، حيث حدث الزلزال الذي هز أركان أوروبا الشرقية، وانتهى الأمر بانهيار أحجار الكتلة الشرقية، وتبعاً لذلك الأوروبية عن الاتحاد السوفيتي، ثم تفكك وانهيار الاتحاد السوفيتي نفسه عام (١٤١١هـ - ١٩٩١م)^(٣).

(١) «شخصية مصر» (ص ٩) كتاب الملال.

(٢) «جمال حمدان وتراثه الفكري» (ص ١٣، ١٤).

(٣) «استراتيجية الاستعمار والتحرير» لجمال حمدان (ص ١٩٨، ١٩٩) - دار الشروق - القاهرة.

- وفي عام (١٣٨٧هـ-١٩٦٧م) أصدر «جمال حдан» كتابه المهم «اليهود أنثروبولوجيًا» والذي أثبت فيه أن اليهود المعاصرین الذين يدّعون أنهم يتّمّون إلى فلسطين ليسوا هم أحفاد اليهود الذين خرّجوا من فلسطين قبل الميلاد، وإنما يتّمّي هؤلاء إلى إمبراطورية «الخزر التترية» التي قامّت بين «بحر قزوين» و«البحر الأسود»، واعتنقت اليهودية في القرن الثامن الميلادي، وهذا ما أكدّه بعد ذلك «آرثر بونيسلر» مؤلف كتاب «القبيلة الثالثة عشرة» الذي صدر عام (١٣٩٦هـ-١٩٧٦م)^(١).
- وقد ترك «جمال حدان» تسعًّا وعشرين كتاباً وتسعةً وسبعين بحثاً ومقالةً، يأتي في مقدمتها كتاب «شخصية مصر.. دراسة في عقرية المكان»، الذي أصدر الصياغة الأولى له سنة (١٣٨٧هـ-١٩٦٧م) في نحو ٣٠٠ صفحة من القطع الصغير.. ثم تفرّغ لإنجاز صياغته النهائية لمدة عشر سنوات، حتى صدر مكتّملاً في أربعة مجلدات خلال السنوات بين (١٤٠١هـ-١٩٨١م / ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م)^(٢).

الجوائز والوفاة:

- حظي «جمال حدان» بالتكريم داخل مصر وخارجها:
- فقد حصل عام (١٣٧٩هـ-١٩٥٩م) على جائزة الدولة التشجيعية في العلوم الاجتماعية.
- وُمنح جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية سنة (١٤٠٦هـ-).

(١) مقال جمال حدان: صاحب مقوله: «الصراع الحتمي بين أمريكا وأوروبا» عام ١٩٩١ - موقع وكالة نبأ الإخبارية.

(٢) «جمال حدان وتراثه الفكري» (ص ٩، ١٠).

(١٩٨٦م).

□ وحصل كذلك على وسام العلوم من الطبقة الأولى عن كتابه «شخصية مصر» عام (١٤٠٨-١٩٨٨م).

□ كما منحه الكويت جائزة التقدم العلمي سنة (١٤١٣هـ-١٩٩٢م) قبيل وفاته^(١).. لقد كان بمقدور «جمال حمدان» أن يحيا حياة منعمة، وأن يتقلب في صنوف الجاه والرفاية؛ فقد عُرضت عليه كثيراً من المناصب التي يلهمث وراءها كثير من يبتغون المغنم من وراء العلم، وكان يقابل هذه العروض بالاعتذار؛ فقد كان للانقطاع إلى العلم لذلة ونعميم لا يحسن تذوقها إلّا أمثال «جمال حمدان».. فقد تم ترشيحه على سبيل المثال - عام (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م) لتمثيل مصر في إحدى اللجان المهمة بالأمم المتحدة، ولكنه اعتذر عن ذلك، رغم المحاولات المتكررة لإثنائه عن الاعتذار، كما اعتذر بأدب ورقه عن عضوية مجمع اللغة العربية، وكذلك عن رئاسة جامعة الكويت.. وغير ذلك الكثير.

وفي الخامس والعشرين من شوال ١٤١٣هـ - السابع عشر من إبريل ١٩٩٣م، انتقل العالم الجليل الدكتور «جمال حمدان» إلى جوار ربه، إثر تسرّب غامض للغاز في منزله^(٢).. وكما شيد تراثه العلمي الخالد في هدوء فقد شاء الله له أن يرحل في هدوء.. ويبقى على الأجيال اللاحقة أن تُحسن الالتفات إلى النماذج العلمية الشائخة التي يمتليء بها تاريخ أمتنا القديم والحديث على حد سواء.

(١) «جمال حمدان وتراثه الفكري» (ص ١٠).

(٢) المصدر السابق (ص ١٠).

أبو القبلة الباكستانية عبد القدير خان:

ميلاده ونشأته :

هو «عبد القدير بن عبد الغفور خان». ولد في ولاية بہوبال الهندية سنة ١٩٣٥م، لأسرة متواضعة، هاجرت إلى كراتشي في جنوب باكستان، كان أبوه عبد الغفور خان مدرساً تقاعد عام ١٩٣٥م، وتفرغ ل التربية ولده ورعايته، وكانت أمه «زليخة بیجوم» امرأة تقىة مؤمنة تتقن اللغة الأُردية والفارسية^(١)؛ وبعد سنوات تخرج عبد القدير خان في مدرسة الحامدية الثانوية ببہوبال، ثم توفي والده سنة ١٩٥٧م^(٢).

تخرج عبد القدير في كلية العلوم بجامعة كراتشي سنة ١٩٦٠م، وتقديم لوظيفة مفتش للأوزان والقياسات «وظيفة حكومية من الدرجة الثانية»، وكان عبد القدير أحد اثنين قُبِلُوا بهذه الوظيفة من بين متّي متقدّم، وكان راتبه مائتي روبيّة في الشهر، ولكنَّه استقال منها رفضاً لما يتقاضاه مديره من رشاوى^(٣)، ولما لم يجد وظيفة قرر السفر إلى الخارج لاستكمال دراسته، وتقديم لعدة جامعات أوروبية؛ وانتهى به الأمر في جامعة برلين التقنية؛ فأتم دوره تدريبيّة لمدة عامين في علوم المعادن، ثم نال الماجستير سنة ١٩٦٧م من جامعة «دلفت» التقنية بهولندا، ثم درجة الدكتوراه من جامعة «لوفين» البلجيكيّة سنة ١٩٧٢م^(٤)، وشغل بعدها وظيفة كبير خبراء المعادن بشركة FDO الهندسيّة الهولندية، والتي كانت يومها على

(١) عبد القدير خان.. أبو القبلة الباكستانية» لنادية العوضي إسلام أون لاين.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق نفسه.

(٤) السابق نفسه.

صلة وثيقة بمنظمة «اليورنكو» المهمة بتخصيب اليورانيوم^(١).

وحين فجرت الهند القنبلة النووية عام ١٩٧٤ م كتب الدكتور عبد القدير خان رسالة إلى رئيس وزراء باكستان في حينها «ذو الفقار علي بوتو» قال فيها: «إنه حتى يتسمى للباكستان البقاء كدولة مستقلة، فإن عليها إنشاء برنامج نووي». ولم يستغرق الرد على هذه الرسالة سوى عشرة أيام، والذي تضمن دعوة للدكتور عبد القدير خان لزيارة رئيس الوزراء بالباكستان، والتي تمت بالفعل في ديسمبر عام ١٩٧٤ م، قام رئيس الوزراء بعدها بالتأكد من أوراق اعتياده عن طريق السفارة الباكستانية بهولندا، وفي لقاءهما الثاني عام ١٩٧٥ م طلب منه رئيس الوزراء عدم الرجوع إلى هولندا؛ وذلك حتى يرأس برنامج باكستان النووي^(٢).

عاد خان إلى إسلام أباد سنة ١٩٧٦ م؛ حيث كلفه ذو الفقار علي بوتو بتأسيس «البرنامج النووي المدني»، وفي ١٩٨١ م أطلق على المختبر الرئيسي للأبحاث الذرية الباكستانية «مختبرات أبحاث الهندسة» في «كاهوتا» قرب إسلام أباد اسم «مختبرات خان للأبحاث» تكريماً له.

وفي عام ١٩٩٨ م أصبح خان «أبو القنبلة النووية الباكستانية» بطلاً قومياً عندما أعلنت جمهورية باكستان الإسلامية رسمياً نفسها قوة نووية بعد أسبوع من جارتها الهند عقب امتلاك السلاح النووي^(٣).

(١) موقع الأخبار الإسلامية.

(٢) «عبد القادر خان.. أبو القنبلة الباكستانية» لنادية العوضي.

(٣) «موقع الأخبار الإسلامية».

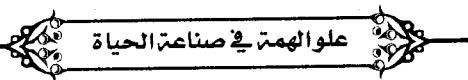
أهم أعماله:

بدأ أعماله العظيمة؛ عندما عُهد إليه بتأسيس المفاعل النووي الباكستاني؛ فأحدث ثورة إدارية على الأسلوب المتبع عادةً من فكرة، ثم قرار، ثم دراسة جدوى، ثم بحوث أساسية، ثم بحوث تطبيقية، ثم عمل نموذجاً مصغرًا، ثم إنشاء المفاعل الأولي، والذي يليه هندسة المفاعل الحقيقي، وبناؤه وافتتاحه.. حيث قام فريق الدكتور خان بعمل كل هذه الخطوات دفعة واحدة، وتمكن معامل كاهوتا من ابتكار تقنية تستهلk عشر الطاقة المستخدمة في الأساليب القديمة!!.

ثم قام الفريق الباقستاني بقيادة عبد القدير خان بتصميم النابذات، وتنظيم خطوط الأنابيب الرئيسية، وحساب الضغوط، وتصميم البرامج والأجهزة اللازمة للتشغيل، حتى حين اشتد الهجوم على البرنامج النووي، وطبق الحظر والعقوبات الاقتصادية، بحيث لم يتمكن الفريق من شراء ما يلزم من مواد.. بدأ المشروع في إنتاج جميع حاجياته بحيث أصبح مستقلًا تماماً عن العالم الخارجي في صناعة جميع ما يلزم المفاعل النووي.

وقد تَوجَّ الدكتور عبد القدير خان حياته العلمية وخدماته الجليلة لوطنه بالرُّد على تفجير الهند النووي في مايو سنة ١٩٩٨م، بتفجير نووي مماثل، بعد أسبوعين فقط من التفجير الهندي، لتنضم باكستان إلى النادي النووي.

ولعلَّ أعظم إنجاز لعبد القدير خان يتمثل في تمكنه من إنشاء مفاعل «كاهوتا النووي» في ستة أعوام فقط؛ بينما يستغرق إنشاؤه عادةً عَقدين من الزمان – في أكثر دول العالم تقدماً في مجال الصناعة النووية–، كما أنَّ



المختبرات التي أشرف عليها خان أنتجت أفضل يورانيوم مخضب في العالم !!.

وامتدت أنشطة معامل خان البحثية لتشمل بعد ذلك برامج دفاعية مختلفة؛ حيث تصنع صواريخ وأجهزة عسكرية أخرى كثيرة وأنشطة صناعية وبرامج وبحوث تنمية، وأنشأت معهداً للعلوم الهندسية والتكنولوجية ومصنعاً للحديد والصلب، كما تدعم المؤسسات العلمية والتعليمية^(١).

جوائز:

نال عبد القدير خان ثلث عشرة ميدالية ذهبية من معاهد ومؤسسات قومية مختلفة، كما نال أعلى وسام مدنى تمنحه دولة الباكستان «وسام هلال الامتياز» سنة ١٩٨٩م، ووساماً آخر عام ١٩٩٦م تقديرًا لإسهاماته المهمة في العلوم والهندسة.

من مؤلفاته:

نشر عبد القدير خان سنة ١٩٨١م كتاب «القنبلة الإسلامية» بالإنجليزية، وهو الكتاب الذي أحدث ثورة كبرى في الغرب، كما نشر حوالي ١٥٠ بحثاً علمياً في مجالات علمية عالمية^(٢).

منهجي العلمي والفكري:

□ سُرّ عبد القدير خان علمه وفكره في سبيل قضية الإسلام

(١) نادية العوضي «موقع الأخبار الإسلامية».

(٢) عبد القدير خان.. أبو القنبلة الباكستانية من إسلام أون لاين.

الأساسية، والخروج بال المسلمين من مهاري الذلة إلى مراقي العزة بين الأمم، ولعبد القدير خان منهجه العلمي والفكري الخاص؛ الذي يبني على مجموعة من الأسس، أهمها السيادة الإسلامية الخالصة على أراضي الإسلام، وإخراج المحتل من أراضي المسلمين.

□ ويرى خان أنه لا مكان لليلأس في نفس المسلم أيًّا كانت الظروف المحيطة، وأن العرب هم قادة الركب ورأس الحربة والصف الأمامي، فيقول: «إن رسالتني إلى الأمة في هذا الوقت هي أن تتحدى في مواجهة عدوها، ومسؤولية النهوض تقع أوًّلاً على عاتق الناس الذين يواجهون العدو، وهم العرب والمسلمون، فهم يطلقون النار على العرب أنفسهم، إنهم لا يقتلون أناسًا من عرق آخر أو جنس أو دين آخر، فعلى العرب أن يتحرّكوا أوًّلاً».

وما زال العالم الكبير د. عبد القدير خان يقدم لوطنه وأمته كل ما يستطيع، ويخدم الإسلام بعلمه، وهذا سمت العالم المسلم دائمًا^(١).

الدكتور أحمد زويل .. رائد كيمياء الفيزيتو:

□ لأول مرة يمكننا أن نلاحظ بالتصوير البطيء ما يحدث خلال أي تفاعل كيميائي، وبذلك نستطيع أن نشرح العديد من المعادلات والصيغ الكيميائية الصعبة التي لم نفهمها من قبل، ونستطيع تفسير أسباب حدوث بعض التفاعلات الكيميائية وأسباب عدم حدوث بعضها، كما يمكننا تفسير سبب تأثير تلك التفاعلات من حيث سرعتها، ونتائجها بالحرارة.

(١) «العلم وبناء الأمم».

□ إنه ميلاد علم كيمياء الفيمتو «Femto Chemistry» وفيه تستخدم كاميرات خاصة، فائقة السرعة، لرصد حركة الجزيئات عند نشوئها، وعند التحام بعضها بعض، وملاحظة التفاعلات الكيميائية بسرعة «ثانية الفيمتو» وهي أقل وحدة زمنية في الثانية الواحدة!!

□ ويستخدم العلماء حول العالم الآن «ثانية الفيمتو» في دراسة وتحليل العديد من المواد الكيميائية بمختلف أشكالها، السائلة والصلبة والغازية، وتفاعلاتها مع بعضها البعض، وتغطي تطبيقاتها العديد من المجالات، بدءاً من دراسة العوامل المساعدة في التفاعلات الكيميائية، وكيف يتم تصميم المكونات الإلكترونية للجزئيات، ووصولاً إلى أدق العمليات المتعلقة بالحياة، مثل الطب وكيفية تطويره في المستقبل^(١).

بقي أن نعرف أن ميلاد «كيمياء الفيمتو» الذي أذهل العالم، وأحدث انقلاباً مدوياً في كل الأوساط العلمية، وخاصة في الكيمياء، إضافة إلى العلوم التي تتعلق بها؛ كان على يد العالم المصري المسلم الدكتور أحمد زويل!!

□ ولد زويل في ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٦ م في مدينة دمنهور بمصر، وتلقى فيها تعلمه الأولى، ثم حصل على بكالوريوس العلوم قسم الكيمياء من كلية العلوم بجامعة الإسكندرية، نال بعدها درجة الماجستير من نفس الجامعة في علم الأطياف سنة ١٩٦٩ م^(٢).

□ وفي الولايات المتحدة الأمريكية أكمل دراساته العليا؛ فحصل على

(١) «زويل أمير الكيمياء» هشام الحديدي - الدار المصرية اللبنانية (ص ١٦٨).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٤)، و«عصر العلم» لأحمد زويل (ص ٢٩) - دار الشروق.

درجة الدكتوراه من جامعة بنسلفانيا سنة ١٩٧٤م، وهي عن «أطيف الرنين الصوئي والمغناطيسي للأكسجينات والحالات الموضعية في البلورات الجزيئية»، والأكسجين -كما يعبر زويل- هو الاسم الذي أعطى ليعني حركة جسيم يمكن حفره بالضوء^(١).

□ انتقل زويل بعدها إلى جامعة بيركلي ب كاليفورنيا سنة ١٩٧٤م، وعن أثر تلك الجامعة فيه يقول: «أما جامعة بيركلي فقد فتحت الطريق أمامي للولوج في علم جديد حاسم، والذي قاد بدوره إلى اكتشافات علمية وتكنولوجية حاسمة أيضاً»؛ ذلك أن تلك الجامعة كانت تضم مجموعات بحثية مميزة، أكسبتها مكانة مرموقة، وكان يطلق على كثير من تلك المجموعات اسم: «المجموعات فائقة القوة»^(٢).

□ وبعد بيركلي عمل زويل أستاذًا مساعدًا للطبيعة الكيميائية بمعهد كاليفورنيا التقني «كالتك» من سنة ١٩٧٦م حتى عام ١٩٧٨م، ثم أستاذًا في الفيزياء الكيميائية بنفس المعهد من سنة ١٩٨٢م وحتى الآن، ومنه خرجت أعظم إنجازاته^(٣).

زويل وكاميلا الفيمتو:

□ كانت أهم إنجازات أحمد زويل قاطبة ذلك الفتح العلمي العظيم في مجال الكيمياء «الفيمتو ثانية»؛ فقد استطاع لأول مرة في تاريخ العلم تصوير عملية التفاعل الكيميائي التي لا تستغرق سوى لحظة من مليون

(١) «عصر العلم» لزويل (ص ٨٢).

(٢) المصدر السابق (ص ٩١).

(٣) «زويل أمير الكيمياء» (ص ٣٤)، و«عصر العلم» (ص ١٠١، ١١٦).

بليون جزء من الثانية؟ فغير بذلك علم الكيمياء الحديثة!! فلم يكن العالم يعرف بالضبط ماذا يحدث أثناء تلك اللحظة، ولا الوقت الذي تستغرقه، وسلم العلماء طيلة السنوات الخمسين الماضية بالصورة التقريرية التي وضعها «ماكس بورن»، و«روبرت أوينهايم» بما يسمى باللحظة الانتقالية التي تنفك خلاها الروابط الكيميائية للجزئيات، وتقرن بجزئيات مادة أخرى، ويولد عنها جزءٌ جديدٌ لمادة جديدة، وهذا الاكتشاف من شأنه أن يستخدم بكثرة في العديد من المجالات، مثل الطب والإلكترونيات وعلوم الفضاء والكيمياء والفيزياء وغيرها.

□ صمم زويل كاميرا جزئية لرصد الذرات وهي في حالة حركة، وتصوير عملية التفاعل التي تحدث في وقت مثل ثانية واحدة في فيلم يستغرق عرضه ٢٣ مليون سنة^(١)، وقام بنشر تجاريبه في ذلك مع فريقه في مجلة العلوم الأمريكية، والتي نشرتها تحت عنوان: «ميلاد الجزيئات»، وقد نوهت لجنة جائزة نوبل إلى هذا البحث بقولها: «والآن فإنه بإمكاننا أن نرى حركة الذرات المنفردة كما نتصورها، ومن ثم لم تعد تلك الجسيمات أشياء غير مرئية..»^(٢).

□ وعن نتيجة ميلاد هذا العلم الجديد يقول د. «زويل»: «وترب على ذلك ميلاد علوم جديدة، مثل «الفمتو كيمياء» و«الفمتو بيولوجيا»، وفي ذلك الوقت تولدت قناعة بأن عالم «الفمتو ثانية» (جزء من مليون بليون جزء من الثانية، أو واحد على واحد أمامه ١٥ صفرًا من الثانية) سوف

(١) «زويل أمير الكيمياء» (ص ٣٥).

(٢) «عصر العلم» (ص ١٢٨، ١٢٩).

يؤدي إلى اكتشافات وتطورات علمية وتكنولوجية تساهم في ترويض المادة وقياس الزمن»^(١).

□ كما يعلق أيضًا على اكتشافه بالقول: «هذا الاكتشاف أُسهم في تطوير دراسات الهندسة الوراثية والعلوم الطبية.. ولا زال المركز القومي لعلوم الليزر والجزيء بالولايات المتحدة الأمريكية يقوم بتجارب في النظام العصبي والبروتين والعيون وأساسيات الخلية التي يطلق عليها (DNA) لتطبيق هذا الفتح العلمي.. ونتيجة لذلك رصدت اليابان لعلم «الفيمتو» ما يقدر بـ ٢٥٠ مليون دولار؛ لأنهم يفكرون في تحديد التجارب الإلكترونية، وتصنيع مواد خام جديدة، تحقق الفائدة في الاتصال المرئي»^(٢).

□ ولعل السر في وصول «زويل» إلى ما وصل إليه هو ما ظهر في قوله: «إن نشوء العلم، والفرصة المتاحة لكشف أشياء جديدة، جعلتني مستغرقاً استغرقاً تاماً في البحث العلمي، وكنت أواصل العمل ليل نهار، طوال الأربع والعشرين ساعة، باستثناء فترات قصيرة آخذ فيها بعض النوم»^(٣).

□ واتضح أكثر حين قال: «حب العلم، والافتتان بالمعرفة، وعشق تلك الجزئية من العلم التي هي بين يديك، والاستغراق فيها بكل جوارحك، كفيل بأن يحملك إلى شيطان معرفية لم تخلم يوماً أن تطأها

(١) المصدر السابق (ص ١٢٩).

(٢) «زويل أمير الكيمياء» (ص ١٧٧).

(٣) «عصر العلم» (ص ١١٣).

(١) قدماك».

زويل.. والتفوق عالمياً:

نال زويل جائزة بنiamين فرانكلين لإنجازاته وإسهاماته العلمية لخدمة العلم والعلوم عن اكتشافه العلمي المذهل هذا، وكان ذلك في سنة ١٩٩٨م^(٢). وفي عام ١٩٩٠م تم تكريمه بالحصول على منصب الأستاذ الأول للكيمياء في معهد لينوس بولينج.

ثم توج أخيراً بمنحة جائزة نوبل للكيمياء سنة ١٩٩٩م؛ وفي هذه المناسبة قال البروفيسور بنجت نوردن رئيس لجنة جائزة نوبل للكيمياء بالأكاديمية السويدية للعلوم: «إن استخدام زويل لتقنية الليزر فائقة السرعة «فمتoscوب» يمكن وضعه في سياقه التاريخي جنباً إلى جنب مع استخدام غاليليو للتلسکوب، والذي صوبه شطر كل شيء مضى في القبة السماوية الزرقاء، أما زويل فقد صوب ليزر الفيمتو ثانية على كل شيء يتحرك في عالم الجزيئات. لقد انتقل زويل بتلسكوبه هذا إلى آفاق العلم»^(٣).

وإنها لحقيقة؛ قد وصل «زويل» بعلم الكيمياء إلى ما كان يbedo مستحيلاً قبل ظهوره، وحين يشير علم الكيمياء إلى رجلين كان لها الإسهام الأكبر في بنائه واستعلائه طيلة القرن العشرين، فليس غير لainos Bolinج «الحاائز على جائزة نوبل»، وأحمد زويل.

(١) «زويل أمير الكيمياء» (ص ٥٢).

(٢) «عصر العلم» (ص ١٥٠).

(٣) المصدر السابق (ص ٢٢).

□ وهو الرأي الذي يحمله السير «جون ميرج توماس» (المدير السابق للمؤسسة الملكية لبريطانيا العظمى، ورئيس ماستر بيت هاوس بجامعة كمبردج) بقوله: «إن زويل هو خليفة الكيميائي الأعظم في القرن العشرين للينوس بولينج؛ فقد منح جائزة نوبيل في الكيمياء منفرداً من أجل إنجاز علمي كبير –ابتدعه لعلم الفمتو كيميا الجديد، والذي من المحتم أن يغير من علوم القرن الحادى والعشرين»^(١).

وغير جائزة «بنيامين فرانكلين» وجائزة نوبيل وقبلهما فقد حصل «زويل» على جائزة بحوث الكيمياء المتميزة (N.R.C) ببلجيكا سنة ١٩٨٢م، واختارته الجمعية الأمريكية للطبيعة زميلاً لها سنة ١٩٨٢ م^(٢).

ومنح «زويل» جائزة الكسندر فون هومبولت من ألمانيا الغربية، وهي أكبر جائزة علمية هناك، وذلك في سنة ١٩٨٣ م^(٣)، ثم جائزة الملك فيصل في العلوم والفيزياء سنة ١٩٨٩ م، وهو بذلك يُعد أول عربي يحصل على هذه الجائزة في العلوم أو الطب^(٤).

كما منح «زويل» أيضاً جائزة «ولف»، والتي حصل عليها في بداية سنة ١٩٩٣ م، وقد جاء في الحيثيات الرسمية لمنحة الجائزة ما يلي: «من أجل التطوير الرائد لفمتو كيميا الليزر، وباستخدام الليزرات والأحزمة أو البقات الجزيئية، فإن الفمتو كيميا جعلت بالإمكان رصد تطور

(١) «عصر العلم» (ص ٢١).

(٢) «زويل أمير الكيمياء» (ص ٣٥).

(٣) «عصر العلم» (ص ١١٦).

(٤) المصدر السابق (ص ١٤٢).

- التفاعلات الكيميائية كما تحدث بالفعل في زمن حقيقى»^(١).
- منح «زويل» أيضًا جائزة ويلش، والتي تخصصت في تقدير الإنجازات التي يتوصل إليها العالم طوال حياته، وتحنح لأجل الإضافات العلمية البارزة في الكيمياء، والهادفة لرفاهية وإسعاد الجنس البشري^(٢).
 - وفي سنة ١٩٩٣ م منحته الجامعة الأمريكية في مصر أول دكتوراه فخرية، وفي سنة ١٩٩٥ م منحته الدولة المصرية وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، وبعد تسلمه جائزة نوبيل منحته مصر قلادة النيل العظمى—أعلى وسام مصرى^(٣).

□ في نهاية ذلك كله، وبعد ما كان من إنجازات وتسويجات، ترى «زويل» يقف صادقًا مع نفسه معتبرًا عن حقيقة أكيدة، وقاعدة أصيلة قائلاً: «كل ما أعرفه: هو أنني عاشقٌ لعلمي، ولا يوجد عندي رغبة في التوقف والاستماع بالمجده»^(٤) «أهـ»^(٥).

الدكتور زغلول النجاشي رائد الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنّة النبوية في القرن العشرين:

- الدكتور زغلول النجاشي أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والأجنبية، ورئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

(١) المصدر السابق (ص ١٤٨).

(٢) المصدر السابق (ص ١٤٨).

(٣) المصدر السابق (ص ١٥١، ١٥٠، ١٦٠).

(٤) المصدر السابق (ص ٨٧).

(٥) «العلم وبناء الأمم».

بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، وزميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.

ولد الدكتور زغلول النجّار في قرية مشال، مركز بسيون بمحافظة الغربية في ١٧ نوفمبر عام ١٩٣٣ م.

المؤهلات العلمية:

تعلم القرآن الكريم وحفظه منذ الصّغر في كُتاب القرية ثمَّ على يد والده رحمه الله تعالى.

تخرج من جامعة القاهرة عام ١٩٥٥ م حاصلاً على درجة بكالوريوس العلوم بمرتبة الشرف، وكان أول دُفْعَتِه فمنحه الجامعة جائزة بركة للجيولوجيا وكان أول الحاصلين عليها.

حصل على درجة الدكتوراه في علوم الأرض من جامعة ويلز ببريطانيا عام ١٩٦٣ م ومنحته الجامعة درجة زمالتها فيما بعد الدكتوراه، كما حصل على منحة روبرتسون للأبحاث المتقدمة فيما بعد درجة الدكتوراه، وتدرج في وظائف هيئة التدريس حتى حصل على درجة الأستاذية سنة ١٩٧٢ م. عمل مديرًا لمعهد «ماركفليد» للدراسات العليا ببريطانيا، وعمل أستاذًا زائرًا بجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس بأمريكا.

الجوائز العلمية:

مُنح جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، وتم اختياره الشخصية الإسلامية الأولى على مستوى العالم لعام ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.

مُنح جائزة رئيس جمهورية السودان التقديرية، ووسام العلوم والآداب والفنون الذهبي عن سنة ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.

- حصل على جائزة أفضل البحوث المقدمة لمؤتمر البترول العربي عام ١٩٧٠ م، وعام ١٩٧٢ م.
- حصل على جائزة أفضل البحوث المقدمة لمؤتمر الأحفير الدقيقة الكافية بكل من جنيف «سويسرا» عام ١٩٦٧ م، وروما «إيطاليا» سنة ١٩٧٠ م.
- حصل على درجة زمالة جامعة ويلز فيها بعد الدكتوراه ببريطانيا سنة ١٩٦٣ م.
- حصل على منحة «روبرتسون» للأبحاث فيها بعد الدكتوراه بجامعة ويلز ببريطانيا سنة ١٩٦٣ م.
- حصل على جائزة مصطفى بركة لعلوم الأرض جامعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م، وكان أول الحاصلين عليها.

الإنتاج العلمي:

- له أكثر من ١٥٠ بحثاً علمياً منشورة وأكثر من خمسة وأربعين كتاباً. منها سلسلة من آيات الإعجاز العلمي وتشمل:
 - ١ - النساء في القرآن الكريم.
 - ٢ - الأرض في القرآن الكريم.
 - ٣ - النبات في القرآن الكريم.
 - ٤ - الجبال في القرآن الكريم.
 - ٥ - الحيوان في القرآن الكريم.
 - ٦ - الإنسان من الميلاد إلى البعث في القرآن الكريم.

٧- خَلْقُ الْإِنْسَانِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

□ أشرف على أكثر منأربعين رسالة علمية للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في عدد من الجامعات العربية والأجنبية، كما كان عضواً في لجان تحكيم العديد من الرسائل للحصول على هاتين الدرجتين العلميتين.

الأنشطة العلمية والثقافية:

□ الدكتور زغلول النجار عضو في العديد من الجمعيات العلمية المحلية والعالمية، وعضو هيئة تحرير عدد من الدوريات العلمية المتخصصة.

□ وهو زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم وعضو مجلس إدارتها.

□ شارك في العديد من المؤتمرات العربية والإسلامية والدولية.

□ وهو عضو سابق في هيئة تحكيم جائزة اليابان الدولية للعلوم.

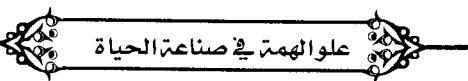
□ وهو مستشار في شؤون التعليم العالي بالمعهد العربي للتنمية.

□ وهو عضو مؤسس للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية وعضو مجلس إدارتها.

□ وهو عضو مؤسس للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرّمة وعضو مجلس إدارتها.

□ وهو عضو مجلس أمناء الهيئة الإسلامية للإعلام بإنجلترا «بريطانيا».

□ وعمل مستشاراً علمياً لكل من مؤسسة روبرتون للأبحاث العلمية (ويلز - بريطانيا)، ومستشارو النفط العرب «الكويت»، وشركة



الزيت العربية «الخفجي بالسعودية».

□ له مقال أسبوعي بجريدة الأهرام المصرية عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة صدر منه حتى الآن أكثر من مائتين وخمسين مقالاً^(١).

وقد أسلم بسبب أقواله الطيبة في الإعجاز العلمي العشرات، وهو خير من تكلم في الإعجاز العلمي لا فُضَّل فوقه، وهو بحق رائد الإعجاز العلمي.

الأستاذ الدكتور السيد كامل علي عقل جراح القلب رائد جراحة زراعة صمامات القلب البشرية، وأول من زرعها في مصر:

□ هو الأستاذ الدكتور «السيد كامل علي عقل» ولد في طنطا في ٩/٧/١٩٥٣م من أسرة يعمل عائلتها بالتعليم، وأم متفرغة ل التربية الأولاد، وأتم دراسة الثانوية في فصل المتفوقين بمدرسة الأورمان الثانوية النموذجية بالجيزة عام ١٩٧١م بمجموع مرتفع جعله من أوائل المتقدمين إلى كلية الطب جامعة القاهرة.

□ أتم دراسة الطب بالقصر العيني عام ١٩٧٧م، وكان من أوائل الدفعة بترتيب يسّر له أن يختار بين تخصصات الأقسام الجراحية، وكان مشغوفاً بالتطور والطفرة التي حدثت في مجال جراحة القلب والصدر، واختاره تخصيصة له بعد أن استخار الله تعالى في هذا الاختيار.

وببدأ طبيباً مقيماً بعد قضاء عام الامتياز في قسم جراحة القلب

(١) انظر: «مقدمة كتبه في «من آيات الإعجاز العلمي» ومنها «الإنسان من الميلاد إلى البعث في القرآن الكريم» (ص ٥ - ٧) - دار المعرفة بيروت - لبنان.

والصدر بالقصر العيني حتى حصل على الماجستير ١٩٨١م وتمّ تعينه معيّداً، ثم مدرّساً مساعدًا في نفس القسم، وخلال السنوات التالية تتلمذ على يد أساتذة في جراحة القلب والصدر وعلى رأسهم «الأب الروحي» لهذا التخصص في مصر الأستاذ الدكتور «صلاح الملّاح»، ثم تقدّم لامتحان الدكتوراه، ونجح من أول مرّة منفرداً، وكان أحد أربعة تقدموا لامتحان، وكان أصغرهم سنّاً، ولم ينجح أحد سواه، وذلك في مايو سنة ١٩٨٧م، وبعد الحصول على الدكتوراه، بدأ يُعَدُّ نفسه لامتحان المعادلة للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لاستكمال التدريب التقدّم في هذا الفرع الدقيق، وأنّذ قام الأستاذ الدكتور مجدي يعقوب جراح القلب الأشهر في العالم بزيارة القصر العيني وإجراء عمليات دقيقة في عام ١٩٨٨م، وخلال هذه الزيارة توسّم في هذا الشاب استعداداً طيّباً للتعلم والإتقان، فأرسل توصية للمركز البريطاني بالقاهرة؛ لتوفير منحة له للسفر والتدريب تحت إشرافه في إنجلترا بمستشفى «هيرفيلد» بضواحي لندن، وهي من أكبر مراكز جراحة وزراعة القلب في العالم.

□ وقبل أن يبدأ رحلته للتدريب مع الدكتور مجدي يعقوب قام بزيارة الشيخ محمد الغزالى رحمه الله الذي أوصاه بأن أكبر خدمة يُقدّمها للإسلام هي أن يُقنن لأقصى درجات الإتقان تفاصيل هذا التخصص، ويتعلّم من الدكتور مجدي يعقوب أقصى ما يُمكن من خبرته.

□ وفي أواخر عام ١٩٨٨م بدأ رحلته إلى لندن مع الدكتور مجدي يعقوب بمنحة مُقدّمة من المركز البريطاني بالقاهرة، ورغم حصوله على درجة الدكتوراه بتفوّق في مصر إلّا أنه بدأ سلّم التدريب من أول درجة مراة أخرى بمستشفى «هيرفيلد» البريطانية وقبل أن يبدأ العمل بدرجة

طبيب امتياز في هذا المستشفى الشهير.

واستمرَّ يتقَدَّم في تدريبه ومساعدته للدكتور مجدي يعقوب على مدى ثلاثة أعوام في مجالات جراحة القلب المختلفة، وهو المصري الوحيد الذي أمضى مثل هذه الفترة في هذا المركز التميُّز. وكان الاهتمام بزراعة الصمامات البشرية؛ لأنها تمثِّل بديلاً هاماً ومثالياً لنسبة كبيرة من مرض صمامات الأورطي في مصر بالذات مع صغار السن، والإإناث خلال فترة الحمل والولادة.

كما اهتم بشدة بعمليات زراعة القلب، وازداد اقتناعاً وشعوراً بالمسؤولية أن هذه العمليات الغير موجودة في مصر لا بد وأن تُجْرَى في بلده؛ لإنقاذآلاف المرضى المحتاجين الذين يعانون أشدَّ المعاناة للسفر للخارج لإجراء هذه العمليات.

وانتهت مهمة التدريب في أواخر ١٩٩١م، وعاد إلى مصر ليقوم بإجراء العمليات التي تدرَّب عليها في لندن.

وبعد عودته مباشرة للقصر العيني بدأ التجهيز للبدء في مشروع الصمامات البشرية، وحصل على موافقة مُفتى الديار المصرية، وشيخ الأزهر، والمسؤولين في كلية الطب جامعة القاهرة على بدء هذه العمليات، ولم تمضي سوى ستة أسابيع حتى أجرى أول عملية لزراعة صمام بشري بأيدي مصرية لمريض مصرى من مُتوفى مصرى في ٣٠/١١/١٩٩١م.

ثمَّ حصل على درجة أستاذ مساعد بنفس القسم عام ١٩٩٢م واستمرَّ لعدة سنوات يُجْرِي الجراحات المُعَقدَة لشريان الأورطي وزراعة الصمامات البشرية لعشرات المرضى من مختلف الأعمر في مصر، وقام

بالتجهيز التام لإجراء أول عملية زرع قلب في مصر بالتنسيق مع جراح الكبد المعروف الأستاذ الدكتور مدحت خفاجي، ولكن بعد إجراء ثاني عملية لزراعة الكبد تفجّرت قضية زراعة الأعضاء في مصر.

واستمرّ الدكتور السيد عقل بالتنسيق مع الأستاذ الدكتور حمدي السيد نقيب الأطباء خلال الخمسة عشر سنة الماضية في الدفاع عن قضية زراعة الأعضاء في مصر اقتناعاً منه بأنها حق من حقوق المرضى المصريين، والمتأتّح لأمثالهم من المواطنين في دول الجوار، ومن ضمنها دول إسلامية، ونظراً لحرمانهم من هذا العلاج بمصر يضطرّ القادرون منهم للسفر للخارج بما يحملّهم معاناة رهيبة خارج أوطنهم، وتكلفة باهظة، وتعرضهم للمهانة؛ لأنهم يعاملون في هذه البلاد كأشخاص من الدرجة الثالثة، وما زال حتى الآن يقاوم تيار المعارضين لهذه المسألة الهامة^(١).

(١) اختلاف الفقهاء والعلماء المعاصرون في حكم نقل الأعضاء من إنسان حي وزرعها في إنسان حي مثله على أربعة مذاهب.

المذهب الأول: الجواز بشرط، والثاني: المنع مطلقاً. والثالث: الجواز إلا أن يترتب ضرر بالغ بتفويت أصل الانتفاع أو جله، والرابع: بالمنع إلا أن يكون النقل من كافر إلى مسلم.

والذي يظهر ويترجّح -بعد الدراسة والتأمل في الأدلة وما أورد عليها- أنه يجوز نقل الأعضاء من إنسان حي وزرعها في إنسان حي مثله، بيد أن القول بالجواز لا بد أن يُقيّد بشروط.

وقد صدرت الفتوى بذلك في عدد من المؤتمرات والجماعات والهيئات واللجان العلمية، منها: المؤتمر الإسلامي الدولي المنعقد باليزيتا، ومجمع الفقه الإسلامي (مجلة المجمع الفقهي - السنة الخامسة، العدد السابع ١٤١٤ هـ (ص ٢٠٣)، وهيئة كبار العلماء بالسعودية (قرار رقم ٩٩ بتاريخ ١٤٠٢/١١/٦)، وانظر مجلة المجمع

الفقهى (١/١ ١٩٨٧ ص ٣٧). ولجنة الفتوى فى الأردن، والكويت، ومصر،

والجزائر

وتُمثل فتوى المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي القرار رقم (١) - الدورة الثامنة المنعقد بمكة المكرمة (٤/٢٨ إلى ٤/٧ الموافق ١٤٠٥ / ٥ / ٢٨ - ٢٨ يناير ١٩٨٥ م)

خلاصة جيدة لهذا الموضوع، وانتهى المجلس إلى القرار التالي:

أولاً: إن أخذ عضو من جسم إنسان حي وزرعه في جسم آخر مضطر إليه لإنقاذ حياته أو لاستعادة وظيفة من وظائف أعضائه الأساسية هو عمل جائز لا يتنافى مع الكرامة الإنسانية بالنسبة للمأخوذ منه، كما أنه فيه مصلحة كبيرة وإعانة خيرة

للمزروع فيه، وهو عمل مشروع وحميد إذا توافرت فيه الشروط التالية:

١- أن لا يضرّ أخذ العضو من المتبّع به ضرراً يخلي بحياته العادلة؛ لأن القاعدة الشرعية أن الضّرر لا يُزال بضرر مثله ولا بأشدّ منه؛ ولأن التبع حينئذ يكون من قبيل الإلقاء بالنفس إلى التهلّكة وهو أمر غير جائز شرعاً.

٢- أن يكون إعطاء العضو طوعاً من المتبّع دون إكراه الممكّنة لعلاج المضطّر.

٣- أن يكون زرع العضو هو الوسيلة الطبية الوحيدة.

٤- أن يكون نجاح كل من عملية النزع والزرع محققاً في العادة أو غالباً يضاف إلى ذلك أنه يحرم اقتضاء مقابل للعضو المنقول أو جزئه؛ لأن بيع الأدمي الحر باطل شرعاً لكرامته بنص القرآن الكريم. انظر: «الجناية العمد» للطيب على الأعضاء البشرية في الفقه الإسلامي» للدكتور محمد يسري (ص ٢١٦)، (ص ٢٤٥-٢٤٦).

أما حكم نقل الأعضاء من الميت

فاختلاف العلماء على ثلاثة مذاهب: والراجح.

جواز نقل الأعضاء من الميت إلى الحي بشروط:

وبه صدر قرار المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي (وهو القرار الأول من قراراه الدورة الثامنة (ص ١٤٧)، وقرار جمع الفقه الإسلامي لمنظمة المؤتمر الإسلامي (القرار رقم ١) د (٨٨/٤) من قرارات الدورة الرابعة - مجلة جمع الفقه الإسلامي (ع ٣ ج ٢) (١٩٨٨/٥١٠) (ص ٢/١٩٨٨)، وقرار هيئة كبار العلماء بالسعودية (القرار ٦ تاریخ ٢٥/١٠/١٣٩٨ هـ، وقرار رقم ٩٩ بتاریخ ٦/١١/١٤٠٢ هـ) =

– مجلة المجمع الفقهى (١٩٨٧/١/١) (ص ٣٥، ٣٧).

وشروط جواز النقل من الميت:

- ١- تحقق الضرورة بأن يكون الاقتطاع لإنقاذ الغير بحيث لا يغنى عن سواه من أعضاء حيوان، أو أي عضو صناعي.
- ٢- أن تتم عملية أخذ العضو ونقله بكل رفق حفاظاً على كرامة الميت ثم يعاد رثى المكان الذي أخذ منه، بحيث لا يترب على ذلك تمثيل بالميت.
- ٣- موافقة الإنسان قبل موته وتبرعه بأعضاء جسمه أو موافقة ولد الأمر على جراحة قطع العضو من الجثة.
- ٤- عدم بيع الأعضاء، أو أخذ بدل مادي من قبل الميت قبل وفاته أو ورثته بعد مماته.
- ٥- التتحقق من الموت، وظهور أهمية ذلك بالنسبة للأعضاء الضرورية للحياة كالقلب مثلاً، والتي لا يجوز استقطاعها أثناء الحياة وإنما أدى استقطاعها إلى الموت.
- ٦- مصلحة المريض المتلقى وضرورته، وأن يكون مسلماً مكلفاً.
- ٧- أن تؤمن الفتنة في أخذه من أخيه.
- ٨- أن تكون العملية بواسطة طبيب ماهر، وأن يغلب الظن بنجاح العملية.
- ٩- يجب أن يتم استقطاع الأعضاء وزرعها في جسم المريض في مؤسسات رسمية تؤكّل إليها هذه المهمة من قبل الدوائر الصحية، مع الاهتمام بأجهزة الرقابة للتأكد من موت الإنسان، وعدم حصول المعاوضة.. انظر «الجناية العمد للطيب على الأعضاء البشرية» (ص ٢٦٥-٢٦٦، ٢٦٧-٢٦٩).

زد على هذه الشروط وقبلها: تقديم النقل من الميت الكافر الحربي مطلقاً، ويحرم النقل من المسلم إلى الكافر مطلقاً، ثم النقل من الميت الكافر معصوم الدم بالشروط المذكورة آنفاً.

فإإن لم يوجد فيجوز النقل من الميت المسلم بشرط أن يصف ذلك الطبيب المسلم الحاذق، وقامت الضرورة وتعينت في نقل العضو. ومصلحة المريض الحي في استنقاذ حياته أولى بالتقديم.

=

وفي خلال هذه المدة حصل على درجة الأستاذية عام ١٩٩٩م، وقام بكتابة أكثر من أربعين بحثاً علمياً ومحاضرة في مؤتمرات علمية محلية ودولية.

- ويقى الموقف الشرعي من «موت الدماغ» أو «موت جذع الدماغ».

وقد اختلف الفقهاء المعاصرون في هذه المسالة على مذهبين:

المذهب الأول: من لم يعتبر موت الدماغ نهاية للحياة الإنسانية، بل لا بد من أمارات الموت التي بها يحصل اليقين، وهو رأي يمثله المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي (بحث نهاية الحياة للدكتور محمد سليمان الأشقر - مجلة مجمع الفقه الإسلامي (ع ٣ ج ٢ / ١٩٨٧ ص ٦٦٥، ٦٦٦) ومن قال بهذا القول فضيلة الشيخ بكر أبو زيد (فقه النوازل ١ / ٢٣٤ - بحث جهاز الإنعاش وعلاقة الوفاة بين الأطباء والفقهاء) والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والدكتور عن الله البسام، والدكتور محمد الشنقيطي.

ومذهب الثاني: من يرى أن نهاية الحياة الإنسانية تكون بموت الدماغ أو جذعه، ويمثل هذا الرأي الدكتور محمد سليمان الأشقر، ومجمع الفقه بمنظمة المؤتمر الإسلامي (مجلة مجمع الفقه الإسلامي (ع ٣ ج ٢ / ١٩٨٧) (ص ٨٠٩).

ولعل القول الأول هو الأرجح، لصحة الأدلة النقلية والعقلية التي ذكرها أصحاب القول الأول، ذلك أن أحكام الموت أياً ما كانت إنما ترتب على وقوعه الفعلي التام، لا على توقعاته ومظانه منها كانت قوية، ولأن انتعاش المريض مرة أخرى وتوجهه مرة أخرى للحياة ليس مستحيلاً عقلاً ولا عادة، ومن ثمَّ فليس مستحيلاً شرعاً، ولا سيما أن بعض أهل العلم نقل رجوع بعض من حكم الأطباء بموتهم بموت جذع الدماغ («بحث جهاز الإنعاش للدكتور بكر أبو زيد (ص ٣)»)، وما ثبت أيضاً من وجود أطفال بلا مخ وحياتهم بالمدد الطويلة، ومرضى الغيبوبة الدماغية إما أن يوصفو بالموت أو بالحياة، ووصفهم بالموت يتناقض مع استمرار مظاهر الحياة في أبدانهم من قبول الغذاء والدواء، والحياة البدنية هي المعتبرة مناطاً للتوكيل.

دكتور السيد العقل الإنسان المحسن:

لقد مسَّت يد الدكتور السيد العقل المتوضئة الطاهرة الداء العضال في قلبي فنزعته —بإذن ربه— وقام بإجراء عملية قلب مفتوح واستبدال صمام الأورطي لي، وتنازل عن أجره وهو أكثر من اثنين وعشرين ألف جنيه مصرى لله وعجلَّه ول تقوم المحبة في الله بيني وبينه، فطُوق عنقي بجميلٍ لن أنساه له ما حييت وما دَقَّت نبضات قلبي ، وعند الله وحده جزاؤه.

كَمْ فَاللهُ أَسْأَلُ أَنْ يُحِيِّيَ قَلْبَهُ مثْلَمَا دَأْوَى قَلْبِي —بِإِذْنِ اللَّهِ—، وَأَنْ يَبْارِكَ لَهُ فِي ذَرِيَّتِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ اللَّهُ نَبْرَاسًا وَقُدْوَةً وَمُثْلَّاً أَعْلَى فِي عَالَمِ الطَّبِّ بَيْنِ الْأَطْبَاءِ الْمُسْلِمِينَ..

يَا أَيُّهَا الْحَبْرُ الَّذِي
عَمَّتْ أَيَادِيهِ النَّبِيلَةِ
أَقْبَلَ هَدِيَّةً مَّنْ يَرِى
فِي حَقِّكَ الدُّنْيَا قَلِيلَةً

الأستاذ الدكتور حنفي مدبولي الحائز على جائزة الدولة التشجيعية وصاحب أول بحث عالمي في أثر «حبة البركة» الحبة السوداء في شفاء الأمراض:

الاسم: حنفي محمود مدبولي حسن.
تاريخ وجهة الميلاد: ١٠/١/١٩٥٦م القناطر الخيرية - القليوبية.
المؤهلات العلمية:

- بكالوريوس العلوم الطبية البيطرية دور مايو ١٩٧٩م.
- ماجستير العلوم الطبية البيطرية (ميکروبیولوچیا أمراض الحيوان) في ٧/٧/١٩٨٤م «تخصص فيروسات» موضوع البحث «دراسات على

سرطان الدم والفيروسات المحفاوية في الأبقار والجاموس بمصر».

- دكتوراة الفلسفة في العلوم الطبية البيطرية (ميکروبیولوچیا أمراض الحيوان) في ١٩٨٧/٦/٢٥ موضوع البحث «دراسة مقارنة عن الاختبارات المستعملة لتشخيص مرض الطاعون البقرى».
 - الحصول على ليسانس أصول الدين قسم التفسير من جامعة الأزهر عام ١٩٩٩ م.

الأنشطة العلمية:

- ١ - نشر ٦٣ بحثاً علمياً منهم ٦٠ بحثاً باللغة الإنجليزية وثلاثة بحثات باللغة العربية.
 - ٢ - الإشراف العلمي على ٤٥ رسالة علمية منهم (٢٤) رسالة ماجستير، (٢١) رسالة دكتوراه.
 - ٣ - فحص وحكم ومناقشة ٦٠ رسالة علمية منهم (٣٤) رسالة ماجستير، (٢٦) رسالة دكتوراه، ومن جملة هذه الرسائل (٤٥) إشراف علمي، (١٥) تحكيم خارجي بدون إشراف.
 - ٤ - تأليف ثلاثة كتب علمية: الأول «أساس علم الفيروسات»، والثاني «أساس علم البيولوجيا الجزيئية»، والثالث «أساس تشخيص الأمراض الفيروسية».
 - ٥ - عزل وتصنيف ١٨ فيروساً من الحيوانات والدواجن والأسمدة المصابة.
 - ٦ - تحضير وتقييم ١٦ لقاح فيروسي ضد فيروسات تصيب الحيوانات والدواجن:

- ٧- المشاركة في أعمال تطوير التعليم بجمهورية مصر العربية.
- ٨- الحصول على براءة الاختراع في تحضير لقاح فيروسي ضد مرض الجامبورو في الدجاج باستخدام زيت حبة البركة.
- ٩- الحصول على جائزة أحسن بحث عولمي في المؤتمر العلمي الثالث لكلية الطب البيطري -بني سويف لعام ٢٠٠٢م.
- ١٠- الحصول على جائزة أحسن بحث علمي في المؤتمر العلمي السابع لكلية الطب البيطري -جامعة القاهرة لعام ٢٠٠٢م.
- ١١- الحصول على جائزة الدولة التشجيعية في العلوم البيولوجية لعام ٢٠٠٢م.
- ١٢- المشاركة في تحكيم ومتابعة بعض مشروعات البيولوجيا الجزيئية والهندسة الوراثية بأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا.
- ١٣- المشاركة في اللجان العلمية الدائمة التابعة للمجلس الأعلى للجامعات لترقية المدرسين والأساتذة المساعددين.
- ١٤- المشاركة في بعض الجمعيات العلمية المتخصصة المحلية والعالمية.
- ١٥- المشاركة في عدة دورات علمية متخصصة مثل الميكروسکوب الإلكتروني، وتفاعل البلمرة المتسلسل، تطوير التعليم، التعليم الإلكتروني عن بعد.
- ١٦- المشاركة في فعاليات العديد من المؤتمرات العلمية المحلية والعالمية.
- ١٧- الانتداب لتدريس علم الفيروسات لكليات الطب البيطري

بكل من (كفر الشيخ - جامعة طنطا، مشتهر - جامعة بنها، الإسماعيلية - جامعة قناه السويس)، وكذلك كلية العلوم جامعةبني سويف، والمعهد الفني الصحي -بني سويف والتابع لوزارة الصحة.

١٨ - إلقاء العديد من المحاضرات العلمية المتخصصة في الكثير من الندوات والمؤتمرات والجهات البحثية.

الجوائز ودرجات الشرف والمنح:

الرقم	الجائز	درجات الشرف	المنح	التاريخ	المصدر
(١)	جائزة الدولة في العلوم البيولوجية	تكريم من الدولة	جمهورية مصر العربية	٢٠٠٢ م	جمهورية مصر العربية
(٢)	جائزة أحسن بحث	في المؤتمر العلمي السابع	كلية الطب البيطري الجيزة	٢٠٠٢ م	كلية الطب البيطري الجيزة
(٣)	جائزة أحسن بحث	المؤتمر العلمي الثالث	كلية الطب البيطري جامعة القاهرة فرعبني سويف	٢٠٠٣ م	كلية الطب البيطري جامعة القاهرة فرعبني سويف
(٤)	درع كلية الطب البيطري جامعة القاهرة فرعبني سويف	تكريم من الكلية	كلية الطب البيطري جامعة القاهرة فرعبني سويف	٢٠٠٣ م	كلية الطب البيطري جامعة القاهرة فرعبني سويف
(٥)	درع جامعة القاهرة	تكريم من نائب	جامعة القاهرة	٢٠٠٤ م	جامعة القاهرة

فرع بنى سويف		فرع بنى سويف	رئيس الجامعة	فرع بنى سويف	
جامعة القاهرة	م٢٠٠٤	جامعة القاهرة	تكريم من الجامعة في عيد العلم	درع جامعة القاهرة	(٦)
النقابة العامة للأطباء البيطريين	م٢٠٠٧	النقابة العامة للأطباء البيطريين	تكريم من النقب	درع النقابة العامة	(٧)
نادي أعضاء هيئة التدريس جامعة القاهرة	م٢٠٠٥	نادي أعضاء هيئة التدريس جامعة القاهرة	تكريم من نادي أعضاء هيئة التدريس	شهادة وميدالية الأستاذ المثالي	(٨)
المؤتمر العالمي للاعجاز العلمي في القرآن والسنة	م٢٠٠٤	جائزة دبي الدولية للقرآن ال الكريم والمؤتم ال العالمي للاعجاز العلمي في القرآن والقرآن والسنة	شكر وتقدير من المؤتمر العالمي للاعجاز العلمي في القرآن والقرآن والسنة	شهادة شكر وتقدير	(٩)
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، المؤتمر ال العالمي الثامن	م٢٠٠٦	وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، المؤتمر العالمي	شكر وتقدير من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت	شهادة شكر وتقدير	(١٠)

للاعجاز العلمي في القرآن والسنة		الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة			
---------------------------------------	--	--	--	--	--

□ جاء في ترشيح كلية الطب البيطري بجامعة بنى سويف في ترشيح الدكتور حنفي محمود مدبولي أستاذ ورئيس قسم الفيروسات للتقدم لجائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي لعام ٢٠٠٧م في مجال التراث العلمي العربي والإسلامي «البيطرة وعلم الحيوان في التراث العربي ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

مبررات ترشح سعادته لنيل الجائزة

تشهد كلية الطب البيطري جامعة بنى سويف بجمهورية مصر العربية أن سعادة الأستاذ الدكتور / حنفي محمود مدبولي من العلماء المتميزين في علم الفيروسات وله ٥٩ بحثاً منشوراً باللغة الأجنبية وثلاثة أبحاث منشورة باللغة العربية في مؤتمرات محلية ودولية وعالمية. وقد أشرف سعادته على ٢٥ رسالة ماجستير و٢١ رسالة دكتوراه وله مدرسة علمية من طلابه الموجودين في كليات الطب البيطري والمعاهد والماراكز البحثية المتشرة في ج.م.ع. وقد انتدب سعادته لتدريس علم الفيروسات بكليات الطب البيطري لجامعات منها، وقناة السويس، وطنطا كما أن سعادته حاصل على جائزة أحسن بحث في مؤتمر كلية الطب البيطري جامعة القاهرة لعام ٢٠٠٢م، وكذلك جائزة الدولة التشجيعية في العلوم البيولوجية لعام ٢٠٠٢م وجائزة أحسن بحث في المؤتمر العلمي الثالث

بكلية الطب البيطري جامعة بنى سويف لعام ٢٠٠٣م، وتم قبول براءة الاختراع المقدم من سعادته ونشر ذلك في جريدة براءة الاختراع العدد ٦٤٥ في ٥/٢٤ م.٢٠٠٥

وقد شارك سعادته في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية المحلية والدولية والعالمية.

كما أن سعادته رئيس مشروع ضمان وتوكيد الجودة بالكلية، ويقوم سعادته بتحكيم المشروعات البحثية بأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا (برنامج الإستراتيجية القومية للتكنولوجيا الحيوية والهندسة الوراثية).

□ وأما بخصوص الأبحاث المقدمة للجائزه فهي تتناول ثلاثة موضوعات مختلفة، البحث الأول منها وهو بحث تطبيقي مفيد يتناول تحضير لقاحات فيروسية باستخدام زيت الحبة السوداء «حبة البركة»، وقد تم إلقاء هذا البحث في المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة والذي عقد بإمارة دبي الشقيقة لعام ٢٠٠٤م، وهو منشور في كتاب هذا المؤتمر (المجلد رقم ١: العلوم الطبية- الأبحاث التطبيقية) وهذا البحث يتناول فكرة جديدة على مستوى العالم وهي استخدام زيت الحبة السوداء في تحضير اللقاحات الفيروسية، واستخدم سعادته هذا الزيت بعد أن قام سعادته بدراسة الحبة السوداء وتأثيرها على جهاز المناعة لعدة سنوات «أبحاث موجودة بقائمة الأبحاث المنشورة»، وقد قارن سعادته رد الفعل المناعي في الكتاكيت المحصنة عند عمر أسبوع، والأمهات المحصنة، والكتاكيت الفاقدة من هذه الأمهات -على فترات

محددة في كل تجربة من هذه التجارب الثلاثة على حدة باستخدام اللقاحات المحضرة لهذا الغرض، وهي: لقاح زيت جبة البركة، لقاح فيتامين E مع ملح السيلينيوم، لقاح الزيت المعدني «لقاحات مثبطة ضد فيروس الريبو» بالإضافة إلى لقاح رابع وهو لقاح حي مستضعف لفيروس الريبو وهو شائع استخدامه في الأسواق. وقد قام سعادته بقياس الأجسام المناعية المضادة في الكتاكيت والأمهات المحسنة وكذلك الكتاكيت الفاقسة منها وقياس نسبة نشاط خلايا البلعمة ومعامل نشاطها، وكذلك نشاط الخلايا الليمفاوية في الكتاكيت والأمهات المحسنة. وقد تبين من النتائج تفوق اللقاح المحضر من زيت جبة البركة على اللقاحات الثلاثة الأخرى في كل الاختبارات المستخدمة.

□ وناقشت سعادته النتائج مناقشة علمية دقيقة بعد معاملتها معاملة إحصائية لبيان الفروق المعنوية، وكذلك فسر أحاديث النبي ﷺ الخاصة بالحبة السوداء على ضوء ما توصل إليه من نتائج واستعنًا بأبحاث العلماء الآخرين في هذا الشأن مبينًا أن الحبة السوداء لا يكون لها الشفاء من كل داء إلّا بتحفيزها القوي لجهاز المناعة، وهذا ما ثبت من خلال التجارب العلمية، واستند بهذا البحث على صدق رسالة النبي ﷺ، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحيٌ يوحى إليه ﷺ من ربه عَزَّلَهُ.

□ أما البحثان الثاني والثالث فهما يتناولان قضيًّا عالمية كقضية تغيير فطرة الحيوانات المأكول لحمها في طريقة غذائها من أكل العشب والكلا إلى أكل بروتين من أصل حيواني بعد إضافة مسحوق الدم واللحم والعظم إلى أعلافها، وما أعقب ذلك من ظهور مرض جنون البقر ومصاحباته في نفس الوقت مرض جاكوب النوع المغایر في الإنسان

بسبب تناوله للحوم هذه الأبقار التي تغذت على علائق بها مسحوق الدم واللحم والعظم، فهذا البحث الثاني يناقش هذه القضية من خلال منظور علمي دقيق مبنياً على الحس والمشاهدة والتقارير الدولية كتقارير منظمة الأغذية والزراعة ومنظمة الصحة العالمية ومكتب الأوبئة في باريس.

كما بين سعادته طبيعة وأنواع الأمراض ذات الاعتلال الدماغي الإسفنجي في الحيوان والإنسان وأسبابها.

كما بين سعادته أن الإنسان لما أكل لحم أخيه الميت ظهر عليه مرض من أمراض الاعتلال الدماغي الإسفنجي وهو مرض «كورو» الذي ظهر في قبائل البابوا في غينيا الجديدة باستراليا لفعلهم ذلك ولما امتنعوا عن ذلك اختفى المرض من بينهم. وقد ربط سعادته بين هذا الحدث العلمي الهائل وبين الآيات القرآنية التي ينهى الله عَزَّ وَجَلَّ فيها عن تغيير وعن تبديل خلق الله فظهر البحث في أحسن ما يكون، مع بيان أوجه الإعجاز العلمي في الآيات بهذا الشأن. وقد أشار سعادته إلى صدق رسالة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعدم معرفته العلمية بما تؤول إليه تغير الفطر في الحيوان والإنسان وقد عرض سعادته هذا البحث في المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة والذي عقد بدولة الكويت الشقيقة، وهو موجود مختصرًا في كتاب المؤتمر «مجلد علوم الحياة من ٥٤ - ٨٢».

□ أما البحث الثالث فقد تم إلقاءه في المؤتمر الوطني الأول بدولة المغرب الشقيق في الفترة ٢٦-٢٩ / ٤ / ٢٠٠٧ م وملخصه منشور بكتيب المؤتمر فهو يتناول أيضًا قضية عالمية هزت الرأي العام العالمي وما زالت وهي قضية الاستنساخ فقد صالح فيها وجال من خلال منظور علمي

دقيق مبيناً فيه أنواع الاستنساخ والعيوب الخفية له وأضراره على الفرد والمجتمع وهل استنساخ البشر ممكن أم مستحيل؟ وما هي آراء علماء الأجيال، والبيولوجيا، والبيولوجيا الجزيئية والساسة والمفكرين والعلماء الذين استنسخوا حيوانات؟ وكذلك آراء علماء الدين في هذا الأمر ومناقشة هذه الآراء مناقشة علمية دقيقة، وبيان القرارات الدولية التي اتخذتها بعض الدول بحظر الاستنساخ بأنواعه، وقرارات منظمة الأمم المتحدة بحظر الاستنساخ بنوعيه، وقد بين أضرار الاستنساخ الاجتماعية من حيث الإرث وما يترتب عليه من أحكام شرعية، وضياع الغرائز الفطرية كغريزة الأمومة والأبوة والبنوة وكلها أمور تعلق بحياة الفرد ولها تأثيرها على المجتمع.

وقد بين سعادته أن مسألة إنجاب الذرية قد حسمها الله تعالى منذ الأزل، وبين في كتابه العزيز أنه سبحانه وتعالى خلق الناس من ذكر وأنثى، وأنه سبحانه وتعالى خلق الأزواج كلها مما تبتت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون، وأنه لا طريق لإنجاب الذرية غير هذا الطريق الذي بيّنه تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وانتهى إلى الفصل في هذه المسألة بيان أن مسألة الاستنساخ مصيرها إلى الزوال باعتراف علماء الاستنساخ، وأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال استنساخ كائن بشري سوى النفس والسريرة وأن الاستنساخ بكل نوعيه محظور علمياً وحراماً شرعاً لما يترتب عليه من مفاسد وأضرار.

لكل ما ذُكر من بيان نبذة مختصرة عن حياته العلمية ولهذه الأبحاث المقدمة تسعد كلية الطب البيطري بجامعةبني سويف أن ترشح سعادته لنيل جائزة الكويت في مجال التراث العلمي العربي والإسلامي «البيطرة

وعلم الحيوان في التراث العربي» متحمسين لسعادته التوفيق بإذن الله تعالى
ودوام الرقي والتقدم.

كَفَلَهُ دَرْهَمٌ مِنْ عَلَّامَةٍ فِي مَجَالِ تَخْصِصِهِ يَسِيرٌ عَلَى نَهْجِ سَلْفِنَا
الصالح..

وأكرم به من نهج وسبيل.. وصُمّت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا.
والأستاذ الدكتور حنفي مدبولي من أبناء الدعوة السلفية بالإسكندرية،
وكان رئيساً لمجلس إدارة الجمعية الشرعية بمدينة القناطر الخيرية، وهو
رئيس قسم الميكروبيولوجي والفيروسات بكلية الطب البيطري ببني
سويف، وهو حافظ للقرآن الكريم، وكان خطيباً بمسجد الجمعية الشرعية
بالقناطر الخيرية.

وهو صاحب البحث المتميز الفريد الأول من نوعه في العالم عن أثر الحبة السوداء» «حَبَّةُ الْبَرْكَةِ» في شفاء الأمراض امثلاً لقول النبي ﷺ: «الحبة السوداء فيها شفاءٌ من كُلِّ داءٍ إِلَّا الموت»^(١).

حصل على جائزة الدولة التقديرية تقديراً لكتاباته العلمية وتفريده في بحثه العظيم.. سُنْطِبُ المريض بدوائنا.. صُمِّتْ أذن الدنيا إِنْ لَمْ تسمع لنا.

(١) صحيح: رواه أبو نعيم في «الطب» عن بُريدة، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨١٩)، و«صحيح الجامع» (٣٦٨).

سيدنا الأستاذ الدكتور الجراح العالمي العابد الزاهد السلفي صاحب الكرامة جمال برهامي أول أستاذ جراح جامعي يعالج الجروح والحرائق بعمل النحل أنموذج مثالي للدعاة المستقبل الوضيء:

إن الداعية العامل الصوام القوام الزاهد الأستاذ الدكتور جمال الدين حسين محمود برهامي شقيق الداعية الكبير الدكتور ياسر برهامي، وهما من كبار دعاة الدعوة السلفية بالإسكندرية.

ولد الدكتور جمال برهامي في صفر ١٣٧٠هـ / ديسمبر ١٩٥٠م، وحصل على بكالوريوس الطب والجراحة من جامعة الإسكندرية سنة ١٩٧٤م، ثم حصل على بكالوريوس طب جراحة الفم والأسنان سنة ١٩٧٩م، وحصل على الدكتوراه في جراحة الوجه والفك والجميل سنة ١٩٨٤م، وحصل على درجة الأستاذية في جراحة الوجه والفك والجميل والجراحة الدقيقة والمكروسكوبية سنة ١٩٩٢م.

وهو أول من بدأ باستعمال واستخدام عسل النحل في علاج الحروق والجروح سنة ١٩٧٦ - ١٩٧٧م وما يزال إلى الآن. ولقد وُوجه باستهزاء شديد في ذلك الوقت حتى نشرت المجالات الطبية الألمانية نتائج استعمال العسل في الحروق، فأصبح طريقة معتمدة في ذلك في أنحاء العالم.

ولقد سافر أستاذنا وطيبينا المبارك ضمنبعثة الرسمية الطبية لنقابة الأطباء المصرية لإغاثة ضحايا الغزو السوفيتي لأفغانستان سنة ١٩٨٤م، وشارك في تأسيس المستشفى الجراحي الأفغاني في مدينة بيشاور الحدودية الباكستانية، وانفجر به لغم في هذه المنطقة حمله عشرة أمتار في الهواء ونزل بخدش صغير وهو معافي بحمد الله، وهذه كرامة طيبة من كراماته،

وحفظ عظيم من الله لوليٌّ من أوليائه.

□ وأستاذنا الدكتور العلامة جمال برهامي حافظ لكتاب الله، وهو إمام مسجد الفاروق، وهو محافظ على درس التفسير والمقرأة يومياً من بعد صلاة الفجر حتى شروق الشمس، وله درس بعد صلاة العشاء في الحديث، ويشارك في خطب الجمعة، ولا تكاد تفوته تكبيرة الإحرام منذ سنوات طويلة، حتى أثناء العمليات الجراحية الطويلة التي تستغرق ١٢ أو ١٤ ساعة يواضب فيها على صلاة الجمعة.

□ وأثناء وجوده في باكستان معالجاً للمجاهدين أيام الغزو السوفيتي كانت هيئات الإغاثة العالمية توصي بقطع الأطراف المصابة نتيجة الألغام، وكان يرفض ذلك ويعالج هذه الإصابات بعمل النحل، ويصبر على علاج مرضاه صبراً جيلاً، وجعل الله الشفاء على يديه لحالات كثيرة أوصى غيره بقطع أطرافها، وكان من ضمن هؤلاء المجاهد السعودي خطاب حَمْلَةَ اللَّهِ، إذ أجرى له عملية جراحية في يده، ثم صار هذا المجاهد بعد ذلك أحد قادة الجهاد في الشيشان واستشهد هناك، لتكون بطولاته في ميزان حسنات أستاذنا الدكتور جمال برهامي.

□ وأستاذنا العظيم سريع الاستجابة لأمر الله ورسوله، فقبل امتحان الماجستير عرف وجوب إعفاء اللحية، فبادر إلى ذلك، وهدّه أستاذته بالرسوب، فأبى واستمر وثبت، وكتب الله له النجاح.

وهو مواطن على أداء العُمرة سنويًا والاعتكاف في العشر الأواخر في المسجد الحرام، والصلوة في الصف الأول.

□ وهو مواطن على التهجد والقيام والصيام.

□ وله القدح المعلى في الزهد، وكشفه لا يتعدي عشر قيمة كشف زملائه من الأساتذة الدكتور المساوين له في الكفاءة العلمية، إذ يبلغ كشف زملائه مئة وخمسين جنيهاً مصرىً ولا يتعدى كشفه هو خمسة عشر جنيهاً أقل سعر في السوق المصري بين كبار الدكتور من أساتذة كليات الطب، وعنه أقل سيارة لا يريد تغييرها منذ عشرين سنة.

ولشيخنا وأستاذنا الكعب العالى في علاج إصابات القدم السكرية بعسل النحل وحقق في ذلك التائج الباهرة.. فبارك الله فيه وفي علمه وأبنائه وعمره ودعوته، ونسأله أن يحشره مع نبيه ﷺ وأن يرزقه النظر إلى وجهه الكريم.

كَفَرَ اللَّهُ دُرِّ أَسْتَاذُنَا الْمَبَارَكُ فَهُوَ بِحَقِّ جَمَالِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ..
أَنْتَ تَدْرِي أَئِهَا الْحِيرَانُ عَنَّا كَيْفَ فَوْقُ الشَّمْسِ أَزْمَانًا حَلَّنَا

□ لسان حاله يقول:
كُنَّا جَبَالًا فِي الْجَبَالِ وَرَبَّنَا سَرَّنَا عَلَى مَوْجِ الْبَحَارِ بِحَارًا

□ الله درك يا دكتور جمال:
جَبَالٌ سُلَيْمَى مَا سَقَوْنِي لَغَنَّتِ سَقَوْنِي وَقَالُوا لَا تُغَنِّي وَلَوْ سَقَوْا

كلمات للحياة

عالي الهمة:

«وَجَدَ نَفْسَهُ مُحَصُورًا بَيْنِ جَدْرَانِ..

وَاكْتَشَفَ سَلَبًا يَلْفَهُ..

فَانْتَفَضَ.. وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَفْتَاحِ بَطِيءِ..

بَلْ كَسْرَ الْقَفْلِ الْقَدِيمِ.. وَرَمَاهُ..

ثُمَّ خَطَا خُطُوطَاتِ الْعَزْمِ وَالْتَّصْمِيمِ..

فَكَانَتْ نَقْلَتِهُ قَوِيَّةً.. لَمَعْتِ بِبَرِيقِ الإِرَادَةِ..

حَتَّى أَنْهَا كَسْرَتِ الْعَتْبَةِ..

وَخَرَجَ إِلَى سَعَةِ وَضَيَاءِ وَأَفْقِ رَحِيبِ..

مَعَهُ الْعِلْمُ وَالْكِتَابُ..

وَيَدِيرُ دُولَابَ الْحَضَارَةِ..

وَمُضِي يَحْلِدوهُ مِنْهَجَهُ الْإِلهِيِّ..

يُؤْكِدُ ذَاتَهُ الْمُتَمِيَّزةِ.. وَيُصْنِعُ الْحَيَاةَ..»^(١).

عالي الهمة فوق التيار.. وفي أعلى الذرى:

يريد تسيير الحياة كلها في تيار واحد، بما فيها من بشر وعلاقات وأموال وعلوم وفنون، ليجعل هذا التيار يصب في وادي «الإسلام» خُطَّهُ واسعة شاملة، وتأثيره يتعدى توجيه الجيل الواحد، تأثيره تأثير

(١) «صناعة الحياة» لـ محمد أحمد الراشد (ص ٢).

حضاري يمتد إلى أجيال، ويضرب في عمق الزمن ورحابة المكان.. يصبر على هدفه صبراً جميلاً ودهراً طويلاً. ليمسك بزمام الحياة لله وَعِزَّلَهُ^(١).

عالي الهمة مكانه المحور.. مكانه في القيادة دائمًا ليحوز ولاء الآخرين:

«إن صوري الذرة واللبنة الكونية تفصحان بوضوح أن «الولاء» حقيقة حيوية راسخة، ولذلك يمكن إسقاطها على العلاقات البشرية وانتظار تبعية بعض البشر لبعضهم الآخر الذين هم أنواع ومحاور، وهذا ما يظهره التاريخ الإنساني جلياً وتؤكده الحقبة الحالية التي نعيشها، ولذلك يؤذن لدعوة الإسلام أن يطلبوا لأنفسهم المكان المحوري ليحوزوا ولاء الآخرين».. لقيادة البشرية تحت راية الإسلام.. والإسلام فقط. نريد فري العباقرة وتسويق العبرية والعثور على مُفهِّم لها.

حدد مستقبلك ومستقبل الإسلام في أعلى الذرى:

حتى تكون مصارعتك للباطل مصارعة واعية مُحَطَّطة هادفة، اجعل تغييرك غير معتمد على ثورية اعتباطية بل على ثورية إيمانية عاقلة.

كل القضية تتلخص في سؤال صيغته: «أنا مسلم» فلمَ لا أكون بؤرة ومحوراً ومركزاً وقائداً؟ ولمَ لا تستقطب الناس حولي؟ لله وللدار الآخرة.

أخي عالي الهمة كُن تياراً هادراً:

«إن بلدًا إسلاميًّا يبلغ أهله عشرين مليوناً لا يستلزم رجحان المعادلة فيه لصالح العمل الإسلامي ملايين عديدة، بمقدار النصف أو الثلث، وإنما بإلغاء عدد النساء من المعادلة يتقلص العدد إلى تسعة ملايين، إذ ما

(١) المصدر السابق (ص ٤).

زال دورهن في بلادنا الإسلامية أضعف من ضعيف. وباللغاء عدد الأطفال الذين هم دون سن البلوغ وكبار السن الذين اعتزلوا الحياة يتقلص العدد إلى ثلاثة ملايين. ثم بإلغاء عدد الأميين السذج في الأرياف وخاصة، وعدد الجبناء الذين يخافون الفكر والسياسة، والمرضى الذين تنهكهم همومهم: يتقلص العدد إلى أقل من مليون بكثير، وربما إلى نصف مليون، هم الذين يحملون فكرًا ويقفون موقفاً سياسياً، وهم رأي وقول، فإذا حاز العمل الإسلامي نصفهم —أي ربع مليون قد يقوده ثلاثة آلاف من صناع الحياة المهرة ليس أكثر، وبقية عدد الدعاة يساعدون هؤلاء وينخدمونهم.

أن أكثر الناس لا شغل لهم بفكر أو إصلاح، وإنما مبدؤهم: نفسي نفسي، وأولادي أولادي، وزوجي زوجي.
فانظر ما أسهل الأمر إذا ربت الدعوة الآلاف الثلاثة هؤلاء.

وأنا أزعم أن كل صاحب مهنة ذي مهارة فيها، وكل عالم في باب من أبواب العلم، وكل فنان، وكل ذي مركز مالي متميز: يمكنه أن يكون صانعاً للحياة ومحوراً تدور حوله أعداد كبيرة من الناس ويتحلقون في وراء قد يتعاظم إلى طاعة، مع العلم أن الشخص الموالي قد يتعدد التأثير عليه من عدد من صناع الحياة المؤثرين في الآن الواحد.

والأمثلة المشروحة توضح ذلك^(١).

(١) «صناعة الحياة» (ص ٢٥).

صناع الحياة:

□ فالعالم الشرعي مثلًا هو من صناع الحياة، الذي هو بحر، ويفتي فتواه عن تمكّن، ويملاً الأسماع حين يقول: «قال الشافعي، وقال مالك، ورجح ابن تيمية كذا، ووحدت هذا في «المبسوط»، وتأيد عندي ما في المدونة»، ويشهد له حديث البخاري، وأورد ابن حجر في «فتح الباري» شواهد أخرى..

هذا نمط العالم الذي يصنع الحياة، وليس هو المقلل المكتفي بمختصر في مذهب واحد.

ورغم تفلّت الناس فإن العرق الإيماني ما زال ينبعض فيهم، ولم يتخلوا عن الحمية الإيمانية، ويحتاجون فتوى مثل هذا العالم في زواجهم وطلاقهم إن لم يكن في بيوعهم، ويستطيع الماهر أن يتبع من يستفتيه أو تصاعد حماسته بعد حاضرة يلقاها أو رسالة ينشرها، حتى تنضج المتابعة من بعد مدة وتحول حاجة المستفتى أو حماسة السامع إلى ولاء له، ثم يعمق هذا الولاء على مر الأيام بالترويعية والتفقيه.

إن الدعوة للإسلام تقتضي بأن تتقدّم ببعضًا من أنقى وأذكى متنسبيها من خريجي الكليات الشرعية، وليس ذلك بشرط، وتقيم لهم الدورات العلمية، وتفرغهم من ثقل الواجبات الإدارية، وتتيح لهم سياحات إلى بلاد أخرى يجلسون فيها بين أيادي مشاهير العلماء، وتتوفر للفقير منهم أمهات المراجع، ثم تخرجهم إلى المجتمع مفتين ومحاضرين وعاقدِي ندوات وكاتبي مقالات في الصحف ومؤلفي كتب. فإذا أخرجت الدعوة في البلد الذي تعداده عشرين مليوناً عشرين من هذا النموذج من العلماء،

ووطأت لهم المنابر، وأشاعت أفلام الفيديو والأشرطة الصوتية لدروسمهم، وانتظرتهم عشر سنوات، فإن الواحد منهم قد ينجح في تحصيل ولاء ثلاثة مسلم لله ولرسوله ﷺ.

فانظر إلى عظم أثر دور هؤلاء العشرين لو تجرّدوا وتبعوا في تربية أنفسهم وأطّلوا السهر وحني الظهر حتى يصلوا إلى مرتبة الفتوى وإماماة الناس.

والوعاظ من صناع الحياة:

ومهمة هؤلاء: الضرب على الوتر العاطفي، وتحريك المشاعر، وإنهاض الأهمم، وتناول حديث الجنة والنار، والموت والقبر، والzediyat، والرقائق، والقلبيات، والأخلاقيات الإيمانية، والتنقل بين الآية والحديث وأبيات الشعر وقصص السلف والصالحين، وقال الفضيل وقال الثوري. ويتضاعف أثر الوعاظ بتعلمـه قواعد النحو، ليكون فصيحاً، وبمطالعة كتب الأدب، ليكون ثريـ اللغة، ويبذل تربية سلفية له، ليبدأ من الحديث الموضوع والإسـرائيليات والبدعـ التي تكثـ في أوراق الوعاظ.

إن الوعاظ الواحد قد يحوز ولاء الخمسة في المتوسط خلال عشر سنوات إذا استمر تأثير السامعين به عبر اتصال فردي ورعاية خاصة، وبخاصة إذا وصلت أشرطة وعظـه الأقاصـي فأثرـتـ فـيمـنـ لاـ يـسـتطـعـ الجلوـسـ بـيـنـ يـدـيهـ، وهذاـ يـعـنيـ إـضـافـةـ خـمـسـ وـعـشـرـينـ أـلـفـ وـلـاءـ إـلـىـ رـصـيدـ بنـكـ التـرجـيجـ.

لابد من ترتيب النقوس بنـداوةـ العـاطـيفـاتـ التيـ هيـ بـضـاعـةـ الـوعـاظـ. فـوجـودـ الـوعـاظـ مـنـ أـركـانـ بنـاءـ الحـضـارـةـ الإـسـلـامـيـةـ الـجـديـدةـ، وـيـصـدـقـ

عليهم وصف صناعة الحياة من هذه الجهة أيضاً، ويما لها من صناعة.

□ ومنهم شعراء الدعوة، ووجودهم ضرورة من الضرورات؛ لأن بعض الناس أهل عقلانية، ولذلك نقنعهم بالمنطق والتأصيل والقواعد والمحاكمات الفكرية، وأما السواد الأعظم فتحرکهم العواطف، ولا يمكن تحصيل ولائهم إلّا بالمجازيات والأخيلة والسياحة في الأقصاص البعيدة للمعنى والأمثلة والاستعارات والترادفات، وإذا كان تأثير المفكر والمفتي علمياً، فإن تأثير الشاعر أخلاقي من جهة، وهمي من جهة أخرى، يحب لنفسه البذل، ويوجد فيها الاستعداد لركوب المصاعد، وبخاصة إذا نُشر شراع الدعوة وقت هبوب الرياح، فينزل الشعراء ليضرموا حرارة التحدي ويغرسوا روح الهدم والبناء.

إن فحصاً بين شباب الدعوة عن ذوي القابلية الشعرية، والتقطاط عدد منهم وتدريبهم وتشجيعهم هو من الأولويات الواجبة في الخطة الجادة، ليصنفو منهم للدعوة في القطر خمسة، من بين فعل مجيد تعلق قصائده في أ Starr الكعبة، وأخر مهد ومعين، ليضيف جميعهم خلال تسع سنوات من الترميم خمسة آلاف ولي إلى الرصيد، ثم ليرفعوا العدد إلى خمسين في السنة العاشرة يوم يهتز اللواء، فتبني أبياتهم بيوت المدينة الفاضلة^(١).

□ والفلكي في مرصده يصنع الحياة أيضاً، وعلى الدعاة أن يتدبوا منهم اثنين يتعلمان خارطة السماء وعلم البروج وأوصاف المجرات وأخبار الثقوب السوداء، والفالك علم صعب يحتاج الرياضيات المتقدمة والصبر على الرصد والنظر إلى العلياء، ولذلك لا نطبع بأكثر من اثنين،

(١) «صناعة الحياة» (ص ٣١).

بل حيازة الواحد إنجاز دعوي كبير، وسيقال عنه: هذا عين من أعيان الأمة حري إن قال أن يحاب، وسيتكلم في التلفزيون والجمعيات والجامعات، وتسابق المدارس في دعوته للكلام، وكلهم يسمعون له وكأن على رؤوسهم الطير، لأن خباره العجيبة الغريبة، وسيؤذن في الناس من مرصده كما يؤذن الواعظ من على منبره: أن أيها الناس آمنوا، فيؤمن نصف المؤمن. ويتضاعف إيمان المؤمن، ويظل يجمع الولاء على مدى عشر سنوات حتى يزداد الرصيد سبعة آلاف، مع تنمية للمحيط، وأداء دور المقدمات الحضارية، ولا تستطيع أعتى الحكومات الظالمة أن تمنعه عن اعتلاء المنصات، هيبة علم الفلك في نقوس الناس ولذته^(١).

والأطباء من صناع الحياة:

□ وينتسب إلى صفوف الدعوة مئات الأطباء، ولكن حسين منهم يمكن أن يكونوا من صناع الحياة حقاً، وهم الذين تخصصوا بجراحة القلب والدماغ والعمليات الصعبة ونالوا أعلى الشهادات في ذلك، والذين تخصصوا بعلاج السرطان والطب النفسي، وما وازى ذلك، فإن الجراح يجري ألف عملية خلال عشر سنوات، على الأقل، ومع كل عملية يشكّره أبناء المريض وأشقاءه وأصدقاءه وجيرانه، فإذا كان نبيها: انتقى منهم عشرة فوطد بهم علاقته من مركز القوة، ويظل يتصل بهم تلفونياً وبالمراسلة، ويبارك لهم في أعيادهم، ويعزّيهم عند المصائب، ويرسل لهم الكتب والأشرطة، وهو خلال كل ذلك يؤذن فيهم أن آمنوا، وأن الإسلام حق، وأن رجال الإسلام أخيار، وتعاونه سكرتارية نشطة في

(١) المصدر السابق (ص ٣٢ - ٣٣).

ذلك وتقوم بتذكيره، فيحصل بذلك على ولاء واحد على الأقل منهم حتى لو أهدرنا التسعة، أي يقدم للدعوة ألف ولي خلال حياته الطيبة الدعوية، أي تحوز الدعوة خمسين ألفاً عبر أذان الأطباء الخمسين من صناع الحياة، وهذه ثروة عظيمة تضاف إلى رصيد مصرفنا أعظم بها، بل بنصفها، بل بربعها^(١).

والمعماريون من صناع الحياة:

إن الناس إذا عرفت مقاييس الجمال فليس أجمل من الإيمان والأخلاق والمعروف، ولذلك فإن على خطة الدعوة في كل بلد أن تدفع مئة لدراسة العبارة، لينبغ منهم عشرة ويصلوا إلى درجة الإبداع والاجتهاد وجودة العطاء فيكون هؤلاء العشرة من صناع الحياة، بمشاركةهم في تحسين المحيط وترويض الأذواق، وباللبنات الحضارية التي يُرسونها في أساس النهضة الإسلامية المستأنفة، وبألف أهل الولاء الذين يضيفونهم إلى رصيد مصرف الترجيح.

بل المتأمل يذهب إلى أبعد من هذا، ويجد في الموازين المعمارية مادة لتعزيز الوعي التنظيمي والتربوي وإتقان فقه الدعوة^(٢).
فكن المعماري المسلم، أو المجهز له، أو الناظر لما تقرف يده الملائكة، لفتح عرصات الحياة وتدق أبواب الحضارة.. لا تكون الرابع فتربع من بعد ما أردت لك المنطلق.

□ والنسبة العالم بأنساب القبائل والعوائل وشجرات الشرف هو من

(١) المصدر السابق (ص ٣٣ - ٣٤).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٧).

صناع الحياة، فإن الناس يحتاجونه ويأنسون به، والدعوة تحتاجه بعد ما تعمّدت حكومات الاشتراكية طمس أنساب الناس لإتاحة مجال الصعود والأمر والنهي للغوغاء والمنكرات والدخلاء، حتى صدرت قوانين بتحريم الانساب إلى قبيلة أو مدينة، وما كان «كوهين» ليصل إلى مرافقة علي على عامر في تفتيشه لدعوات الجولان لو لا أن التربية الاشتراكية علمَت من هنالك أن لا يسأل عن نسب رفيقه!

ليس علم الأنساب من الباطل، ولا تكبر ثمّ، وإنما إذا اجتمع النسب الشريف مع العمل الصالح فنعمًا وهو، والشافعية ميزوا الشافعي على الفقهاء بأنه قرضي، ورأيت إمام الحرمين الجويني متھمساً لذلك في كتابه: الكافية في الجدل.

وقد وجدنا بالاستقراء الاجتماعي أن الأخلاق الطبيعية الأساسية هي أوفر لدى أبناء العائلات العربية، من شجاعة وكرم ووفاء وعدم غدر وصدق وكراهة الطعن من الخلف، مع أنهم يتلبسون بمنكرات، من زنا وشرب خمر، إلا أن هذه سيدات طارئة، يمكن التوبة منها من قريب، إنما البناء في الحياة: بناء تلك الأخلاق الأساسية.

وتساؤل: وهل تزني الحرة؟ جوابٌ على كل اعتراض^(١).

□ ثم التاجر المسلم هو من صناع الحياة، ونعم الصناع هم، بل هم صناع الصناع، وعلى خطة الدعوة أن تتوب توبة نصوحة من إسرافها القديم في تعليم الدعاة كراهة المال وحب الوظائف الحكومية.

كلنا يحييد سب اليهود الذين استحوذوا على الأموال والأسواق،

(١) «صناعة الحياة» (ص ٤٦).

ويضجر من المارون والأقباط والبُهْرَة والقاديانية والمبتدعة والأقليات إذ كان منهم السبق إلى المال، بتسهيل من الدوائر الاستعمارية في فترة الاستعمار جزماً، وبمساعدة من قوى خفية أخرى ربما، ولكتنا لم نُحسِّن غير المسبة.

بدل أن تلعن الظلام أو قد شمعة.

يجب أن نزيع الفاسقين ونحلّ بدهم، على نظرية الفيزاء في الإزاحة والإحلال.

إن قوة الاقتصاد الإسلامي ستكون عاملاً من عوامل قوة الدعوة الإسلامية، إذ إضافة إلى اطمئنان المسلمين في التعامل مع سوق إسلامي ومنظومة شركات إسلامية، وإضافة إلى ما سيشيعه رجال المال المسلم من معنويات في النقوس وأذان في المسلمين أنْ كانوا أقوىاء وزاحموا بالمناقب، فإن قوة المال ستكون في خدمة الأمة والدعوة والسياسة والفكر، وسيستند العملية الإيمانية الشاملة، وبدل أن ينطلق الداعية من الرباطات والمحضران الرثة ودهاليز الدروشة، فإنه سينطلق من مواطن التأثير ومباني الشركات.

نعم، سبقتْ حصيرة في الميزان ناطحة سحاب، لكنها الناطحة النفاقة الفاجرة، أما حين تنطح السحاب استمداداً من عزها الإسلامي وشموخها بالعفاف الإيماني، فإنها تسبق مليون حصيرة.

لنترك المنطق غير المسؤول، فقد آن لنا أن نكتسب بعض الوعي، وأن نتعلم بعض أسرار الحياة.

لا بد أن ننزل إلى ميدان الصناعة والزراعة والعقارات والاستيراد

والتصدير، وبخاصة في البلاد الحرة التي لا ينال أموالنا فيهم ظلم، وفي العالم الفسيح متسع للاستثمار.

يجب أن نوجد معادلة اقتصادية جديدة، وأن نشكر المقتحم المال ينطق، ورنّة الذهب قرينة هدير الواقع من على منبره وهتف المتحمس في حفلته وشارعه.

فحتى متى نذهب.. حتى متى؟

كن حمّالاً في السوق، لكنْ قرّر مع أول خطوة لك فيه أن تصير تاجراً أو عقارياً أو مدير شركة، فستصير وتصل بإذن الله، المهم تصمييك وأن لا تستطيب جلسة الوظيفة الحكومية.

قرر قبول الجوع سنة تأكل الخبر بالخل، هذا هو المهم، إذ ستتأتيك الأموال من بعد، وستجد مraigماً كثيراً في الأرض وسعة، وتكون من صناع الحياة، فستكتسب علمًا إذ أنت في الطريق، وتهدي إليك الأسرار في مجالسك، وتتجمل بالأذواق من خلال ندمائك، وتتولد عننك الأفكار عبر سياحاتك والمعارض التجارية التي تزورها وقد حشد لك فيها أهلها خلاصة عقول البشر ومبتكراتهم وهمهم في مكان واحد.

□ معادلة المال والعلم والجمال يجعلنا الأكفاء.

وهكذا أهل العلوم والفنون والمهن الأخرى^(١).

□ وكان الأمير «عمر طوسون» من صناع الحياة الإسلامية أيام فؤاد ملك مصر وقبله، وهو من عائلته، ولكنه عفيف معروف بالحمية الإيجابية،

(١) «صناعة الحياة» (ص ٤٦ - ٤٧).

وكان وحده يقوم بما تقوم به الآن جمعيات الإصلاح وصناديق الزكاة والمؤسسات الخيرية، فها أن تكون هناك حاجة لإغاثة إسلامية في أنحاء العالم الإسلامي حتى يتصدى لجمع المال وإرسال المعونات والنجدات، وقد خلَّدَ شَكِيبُ أَرْسَلَانَ ذَكْرَهُ فِي أَكْثَرِ مَكَانٍ مِّنْ كِتَابَاتِهِ ^(١).

الفيفيزياوي من صناع الحياة:

هكذا الفيفيزياوي الذي يشارك في بحوث الذرة والليزر ويكون فخر الناس في بلده أو لدى أبناء الأمة الإسلامية عموماً، والمدرس في المدرسة الثانوية الذي يبني أساس العقول والمعنيات لدى الجيل الصاعد، والأستاذ الجامعي الذي يملأ الأسماع ببحوثه ومحاضراته، والمؤرخ، والاقتصادي المنظر، والخبير النفطي الذي يستوعب خبر الأسعار وأوبك وأوابك وينقد ويصحح، والمجاهد في أرض الثورات، والإعلامي الجريء المبكر، والفنان المصور بالكاميرا، والرسام التجريدي، والمهندس المخترع، وخبير المخطوطات، إلى ألف تخصص ومهنة، وإنما مثُلنا لك الأمثلة وعليك القياس، والأمر كما قال عليٌ لأبي الأسود الدؤلي ^{هَلْ يَعْلَمُنَا} يعلمك أصل النحو: الكلام حرف واسم و فعل، وانح منحي هذا، فكان علم النحو الواسع بالاستقراء ثم بالاشتقاق، وقد قلنا لك: إن صناع الحياة واعظ وشاعر ومعماري وتاجر، وانح منحي هذا، وارفع الأذان مع ألف وصلوا درجة الاجتهاد في فنهم: تمنحك الحياة زمامها لتقودها.

حتى أصحاب الصوت الجميل الذين يتلون القرآن، فإنهم سبب

(١) المصدر السابق (ص ٨٥).

استرواح أنفس المؤمنين، وتغمر ساميهم السكينة ^(١).

□ إن نظرية صناعة الحياة في خلاصتها هي تنبئه لضرورة إمساك الدعاة بمصادر القوة العلمية والمحركات العاطفية والجاذبية الجمالية والتسهيلات المالية.

إنها نظرية القدوات، والنقاط الجامعة، والبؤر اللامعة.

□ وعلى صُنَاعَ الحِيَاةِ مِنَ الدُّعَاءِ أَنْ يَدْرِكُوا أَنَّهُمْ يَعَاكِسُونَ تَرْبِيَةَ جَاهِلِيَّةَ عَلَمَانِيَّةَ مُمْتَدَةَ عُمْيقَةَ الْجَذُورِ كَثِيرَةَ الرِّجَالِ، قَدْ سَخَرَتِ الْعِلُومُ وَالْأَدَابُ وَالْفَنُونُ، مِنْ بَابِ، ثُمَّ أَنْ يَدْرِكُوا مِنْ بَابِ آخَرَ أَنَّهُمْ فِي مَحَاوِلَةِ بَنَاءِ حَضَارِيِّ شَامِلٍ، وَلِذَلِكَ لَا يَعْنِي الْاسْتِعْجَالُ، وَلَا رَدُّ الْفَعْلِ الْمُطَطَّرُ وَالْمُكَفَّرُ وَالْمُتَكَلَّفُ لِمَعْنَى الْجَهَادِ، وَإِنَّهُ هُوَ الطَّرِيقُ الْعُلُمِيُّ الْجَارِيُّ مَعَ شَمْوَلِيَّةِ الْعِلْمِ، وَالتَّوزُّعُ التَّخَصُّصِيُّ المُتَعَمِّقُ، وَالتَّرْبِيَّةُ الْذَّوْقِيَّةُ الَّتِي تَرْتَفِعُ بِالْأَحْسَيسِ إِلَى أَوْجِ الْإِرْهَابِ وَتُنْكِرُ الْإِرْهَابَ.

□ والتَّابِعُ ضَرُورَةُ مِنْ ضَرُورَاتِ الدُّعَوةِ أَيْضًا، وَكُلُّ مُيْسَرٍ لِمَا خَلَقَ لَهُ.

وَكَانَتِ الْحِيَاةُ الْإِسْلَامِيَّةُ زَمْنَ النَّبِيِّ ﷺ تَعْتَمِدُ عَلَى طَبَقَاتٍ مِنَ الْأَتَابِعِ مُثِلَّهَا تَعْتَمِدُ عَلَى وَزَرَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَبَقِيَّةِ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرَةِ وَقَادِيِّ السَّرَايَا وَفَقِيهِيِّ الصَّحَابَةِ.

□ فَفِي «صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ» عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى امْرَأَةٍ: مُرِيْ غُلَامَكَ النَّجَارَ يَعْمَلُ لِي أَعْوَادًا أَجْلِسُ عَلَيْهِنَّ» ^(٢).

• وَفِي «الصَّحِيحِ» أَيْضًا: أَنَّ رَجُلًا أَسْوَدَ أَوْ امْرَأَةً سُودَاءَ كَانَ يَقْتُمُ

(١) المُصْدَرُ السَّابِقُ (ص ٤٧).

(٢) رواه البخاري (١١٥/١).

المسجد، فهات، فسأل النبي ﷺ عنه فقالوا: مات. قال: «أفلا كنتم آذنتموني به؟ دُلُونِي على قبره»، أو قال: «قبرها، فأتى قبرها فصلى عليهما»^(١).

ولثلها تطامن الأعلام
ولَنِعْمَ ما سارت له الأقدام
عند الذي كَتَبْتُ به الأقلامُ
لم يخِرُّوا المسؤول وهو إمامُ
يُعطي الدرسَ وقبلها استفهمَ
الله يشهدُ والأئمَّ نِيَامُ
هذا الحياةً وقد مضت أَيَّامُ
لام الصحابة لم يكن إعلامُ
عَتَبْ عليهم ظاهراً وتلامُ
عن قبرها حيث البَلَى وعظاً
فدعاؤه أَمْنٌ لها وسلامُ
فالظلم حُكْمٌ جائزٌ وحرامٌ
أين الرجالُ مُهَنَّدٌ وعِصَامُ^(٢)

والمرأة السوداءُ كانت مَضْرِبًا
قامت بتطهير لبيت مليكنا
ثم انقضت أنفاسُها وتوقفتْ
علم الصحابةُ موتها لكنهم
أخذَ الرسولُ بحسنه وبِلطفِه
أين التي كانت تُطهِّرُ مسجداً؟
قال الصحابةُ: إنَّها قد فارقتْ
غضبَ الرسولِ عليهم وبحرقةٍ
بدأ الكرام يُحقِّرون لشأنها
طلبَ الرسولُ من الكرام دلالةً
وأمامهم بدأ الرحيم بدعوةٍ
لم يتحققْ لوناً ولا جهداً لها
هذا الذي قدرت عليه بجهدها

(١) رواه البخاري (١١٧/١).

(٢) من قصيدة «دُلُونِي على قبرها» خالد الخلوي - مجلة البيان العدد ٢٤٨ (ص ٢٦ =

□ فالسوداء الضعيفة جزء من الحياة الإسلامية، وصانع المنبر جزء، في ألف كان بهم قوام الحياة، وهي ظاهرة تطرد في كل جيل وبلد ومدينة، ونحن نريد الفرسان، وبين يدي كل فارس مجموعة تسعى بين يديه وتهد له، كالطيار الذي تخدمه مجموعة أرضية تضع له الوقود وتحشو له القنابل وتفحص المحركات وتحبس له مقادير الضغط والحرارة والاتجاه الرياح، فيأتي امتطاؤه لصهوة طائرته سهلاً ومفيداً، فصانع الحياة ننتدب له من بيننا سكرييراً وطبعاً وحارساً ومسوقاً، فإن لم تكن فارساً فيها الأخ فلن تابعاً وفرياً^(١).

□ وصانع الحياة في الوصف الآخر هو: مؤسسة ليس بمعنى أنه يقوم بدور كبير يشبه أدوار المؤسسات، وهذا وصف صحيح، وإنما بمعنى قدرته على توظيف طاقات أخرى معه أيضاً، فكثرة من الدعاة أصحاب القابليات الضعيفة والمتوسطة لا يستطيعون شق طريقهم الدعوي بأنفسهم، ويريدون من يأخذ بأيديهم ويقطع شق طريقهم الدعوي بأنفسهم، ويريدون من يأخذ بأيديهم ويقطع حيرتهم وتلفتتهم، ويبقون كالغرباء في مدينتهم، من أثر فطرة فُطروا عليها وحياة وخوف من مسؤولية تحمل القرار، وحب للظل، وضمور عندهم في جانب الابتکار، فيأتي صانع الحياة ويجعلهم من حوله حلقة دائمة النفي، ويستخرج من طاقاتها المكونة ما لم تكن هي نفسها تعلم امتلاكه لها، فيحدث بذلك زخم دعوى قوي يترك آثاره، وتنقطع نفوس الأتباع عن الوسعة

.)٢٨.

(١) «صناعة الحياة» (ص ٥٥).

والحسد، فما تعود ثم فتنة أو لغط، وإنما يكون الصانع وأتباعه كتلة عاطفية فكرية مادية ثقيلة الوزن، تفعل الأفعيل وتأتي بالأعاجيب^(١).

اقتحم يا عالي الهمة فأنت لها، ليك شعارك : إن الله ابتعثنا :

شرطٌ لازم لصناعة الحياة أن تُبدِع وأن تكون مجتهداً، وأن تأتي بالنادر الطَّريف، لا تنبع على منوال الآخرين مقلداً. اترك بصماتك الخاصة في حياة الآخرين شعارك: «إن الله ابتعثنا».

اقتحام في موطن الانهزال، ووفاء في ساعة النكوص، وفصاحة إذا رطنت الألسن، وكرم إذا اختبات الأيدي، وسمو إذا نطق الإغراء، ونبيل عندما يسلف التعامل، وستر إذا استرسلت الفضائح، وفناء إذا قُدست الذات.

انتشال من وَهْدة، وتوجيهه في ساحة حيرة، وتحصيص من بعد تعيم، وتعيم لبادرة، وأذان في نیام، وسلوة بين أحزان، وتحقيق عند الجراف، وإثقال لكتفة الميزان إذا هبطت صاعدة، وانتباه لتبكية النفس إذا استبدت مُتحَدِّرة في الهاوية وهي تتوهّم الارتقاء.

اقتحم أنت لها.. لا وجه لاستضعافك نفسك واستصغارك صحبك..
اقتحم.. فأنت لها.

□ كن من صُنَاعَ الحياة بشموحك وضربك المثل العالي، كذاك الذي انقطع به حبل المشنقة لحظة إعدامه بالباطل فقال: كل جاهليتكم ردئه.. حتى حالكم ردئه!

(١) المصدر السابق (ص ٥٥).

- وليس وراء صنعة الشموخ حبة خردل من معنى دعوي.
- الحياة يبنيها صناع، كُلُّ منهم يؤثِّر في جانبٍ منها.
- فالشاعر مؤسسة، ويستعمل جمال اللفظ وسمو المعنى والمؤرخ صانع حياة يدل الناس على مجدهم ودور بطولتهم من ماضيهم التليد ليصنع تباشير الصباح والمستقبل الآتي.
- إن قيادتنا للحياة هي القيادة، وصانع الحياة يدوُّس الألقابَ برجله ويحطمها، ويمضي يصنع الحياة من موطن التخصص والفن والإبداع، هو مليء النَّفس ولا يحتاج أحدٌ لملئها.
- لو مشينا في مدينة من حواضر الإسلام الكبرى التي كان لها دور و شأن ورأينا مدارسها وخاناتها ومساجد她的 العظيمة وأسواقها وأسوارها وغير ذلك مما فيه إظهار هيبة الإسلام وعظمته ومعطياته الحضارية ونفخته الحماسية في الأرواح لأدركنا أن نخبة المهندسين الذين بنوا تلك المعالم المنيفة عبر الأجيال هم مثل أي فقيه أو شاعر تفخر به الأمة، أو حاكم عادل يتتسابق الوعاظ في ذكر مناقبه.

المهندس يضيف من اللمسات الجمالية إلى الحياة الإسلامية ما يعدل أثر فقيه، ورُبَّ فلكي مسلم يكون له من الأثر الإيماني عند تفهمه الناس حقائق الفلك وأرقامه وسر السماء ما يعدل مئة واعظ. وليس أقل منها الأديب الذي يتكلم بالوصف المحسن، فيصف جمال الوردة وأمواج البحر ونور الشمس وحركة السحاب وفطرة الحيوان وألوان الطير وأمثال ذلك من المعاني الابتدائية البسيطة، فإن مثل هذا الأدب يزيل ما يعدله حجمًا من أدب المجون والتخييل، ويقترب بالسامع مرحلة نحو



بالثرّهات والعواقب والمساومات والإغراءات وسخافات الطواغيت حين يفتحون أبواب السجون وينصبون المشائق، فيمضي في البناء بخطو ثابت، ويد متينة ترفع، ونفس شامخة تحلق، إذ الجبارية يهدمون أركان الحياة، ويكممون الأفواه، ويضيقون على المبدعين، فإن الناس تميز الهدم من الصناعة وهي مع الأحرار في النهاية، ومع كل بناء^(١).

□ فانطلق ثابت الخطو أخي، واصنع الحياة، وارفع بناء الحضارة الإسلامية الجديدة، فإن المجال مُتاح، والناس تنتظرك، وقد أسرف الطواغيت في الهدم، ولن تَعْدُ أقدارهم ذلك، ليتميز ما تصنع أيادي المؤمنين.. انطلق فليس للصدارة والريادة والقيادة والحضارة.. والحياة غيرك فأنت كبير صُنّاع الحياة..

ولسوف تُحَمِّي ذِلَّةً وظلامً	أَبْشِرُ أَخَيًّا سَيُظْهِرُ إِلَيْهِ إِلَاسِلامً
يعلو بها بين الأنامِ كِرَامً	ولسوف تعلو رايةً ومبادئً
منهم قلوبٌ صاغها إِلَاسِلامً	يعلو بها مَن لِلإِلَهِ تَجْرِدَتْ
جَعَلْتُ فِتَّاماً فَوْقَهَا الْأَنْعَامُ	ليست قلوبًا مِلْؤُها الدُّنْيَا الَّتِي
صَدَقْتُ فِعَالًّا مِنْهُمْ وَكَلامً	لَنْ يَنْصَرِ إِلَاسِلامً إِلَّا زَمْرَةً
كانت هُمْ فَوْقَ السَّمَاءِ مَرَامً	لَبِنْ يَنْصَرِ إِلَاسِلامً إِلَّا زَمْرَةً
قد كان دِينُهُمْ هُوَ الإِقْدَامُ	وَمَتى دُعُوا لِلْحَقِّ دَوْمًا أَسْرَعُوا
دَرْبَ الْكَرَاهَةِ وَجْهُهُ بَسَامُ	هُمْ يَطْلَبُونَ رَضْيَ إِلَهٍ يَسِيرُ فِي

(١) «صناعة الحياة» (ص ٨٢).

ذلك النفوسُ أصابها استسلامٌ
يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ الْمَحَقُّرُ نَفْسُهُ
فليبعد عنَّا المخَذْلُ دائِمًا
يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ الْمَحَقُّرُ نَفْسُهُ
بالقول: إني مُعْذَمُ وغلامٌ
ويقول: إني بالقُعود لُغْرَمٌ
قد كَبَّلتني بـالْهَوَى آثَامٌ
ابذل - هُدِيَتَ إِلَى الْمَعَالِي - دُعْوَةً
من عَمَقِ قَلْبٍ ملؤُهُ الْآلَامُ
واعلم بأنك لست وحدك عاملًا
فهناك جُنْدٌ كُلُّهُم «هَمَّام»^(١)

٢٤٥٦٦٦٢٥٦٦

(١) من قصيدة «من يَدُلُّنِي على قبرها» لخالد الخليري مجلة البيان - العدد (٢٤٨) (ص ٢٦-٢٧) وفي القصيدة «عَرَام» بدلاً من هَمَّام.

منارات مضيئة في طريق الحضارة

الحضارة الغربية المادية خبثت فلا تخرج إلا نكداً (إفلاس الحضارة المادية) :

* صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَالْبَلْدُ أَطَيْبٌ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

لقد ظهرت الحضارة الغربية في أمة لم يكن عندها معين صافٍ ولا نبع عذب للحكمة الإلهية، فنبذوا الدين بالعراء، وانصرفوا عن عبادة الله إلى عبادة النفس واتخذوا إلههم هو لهم، وفتنتهم عبادة هذا الإله، وساروا بهم هذه العبادة في كل ميدان عن ميادين الفكر والعمل على طرق زائفة خلاة رائعة، ولكن مصيرها إلى الهالك.

هذا هو الذي مسخ العلوم الطبيعية فصارت آلة هلاك الإنسان، وصاغ الأخلاق في قالب الشهوات والرياء والخلاعة والإباحة، وسلط على المعيشة شيطان الأثرة والشح والفتوك بين النوع، ودَسَّ في عروق المجتمع وشراريه سمووم عبادة النفس والأناية والإخلاد إلى الراحة والتنعم.

والحاصل أن هذه البذرة الخبيثة التي أُقيمت في تربة أوروبا لم تأت عليها قرون حتى نبت منها دوحة خبيثة، ثمارها حلوة، لكنها سامة، أزهارها جميلة لكنها شائكة، وفروعها خضراء لكنها تنفس غازاً ساماً لا يرى، ولكنه يُسمم دم البشر.

إن أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشجرة الخبيثة قد مقتوها، وأصبحوا يتذمرون منها؛ لأنها خلقت في كل ناحية من نواحي حياتهم

مشاكل وعُقدًا لا يَسْعُونَ لحلّها إلَّا وظهرت مشاكل جديدة، ولا يفصلون فرعًا من فروعها إلَّا وتطلع فروعٌ كثيرة ذات شوك؛ فهم في معالجة أدوايهم وإصلاح شؤونهم كمعالج الداء بالداء وناقش الشوكة بالشوكة، فلا يتنهى شر إلَّا إلى شرٍ، ولا فساد إلَّا إلى فساد أكبر منه، ولا تزال هذه الشجرة تثمر لهم شرورًا ومصائب، حتى صارت الحياة الغربية جسدًا مقرورًا، يشكو كل جزء منه أوجاعًا وألامًا، وأعيا الداء الأطباء، واتسع الحرق على الراقي؛ الأمم الغربية تململ ألمًا، قلوبها مضطربة وأرواحها متعطشة إلى ماء الحياة ولكنها لا تعلم أين معين الحياة.

إن الأكثريَّة من رجالهم لا تزال تتَّوَهُمْ أن منع المصائب في فروع هذه الشجرة، فهم يفصلونها ويستأصلونها من الشجرة ويضيّعون أوقاتهم وجهودهم في قطعها، إنهم لا يعلمون أن منبع الفساد في أصل الشجرة، وفيهم جماعة قليلة من العقلاة أدركتوا أن أصل حضارتهم فاسد، ولكنهم لَمْ نشأوا قرُونًا في ظلِّ هذه الشجرة، وبائمارها نبت لحمهم ونشز عظمهم—كَلَّت أذهانهم عن أن يعتقدوا أصلًا آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يُخرج فروعًا وأوراقًا صالحة سليمة وكلا الفريقيْن في النتيجة سواء؛ إنهم يتطلّبون شيئًا يُعالج سقمهم ويريحهم من كربهم ولكنهم لا يعلمونه ولا مكانه»^(١).

حضارة الدجال العوراء ستزول:

إن الحضارة الغربية حضارة مادية بحتة، لا تُلْبِي مطالب الروح

(١) «تنقيحات» لأبي الأعلى المودودي «مقالة أمم العصر المريضة» ملخصة (ص ٢٤، ٢٥، ٢٦).

مطلقاً.

إن هذه الحضارة الأوروبية الغربية نسخة صادقة من حضارة اليونان وروما الوثنيين الجاهليين..

□ قال الأستاذ الألماني محمد أسد الذي أسلم في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق»: «لا شك أن لا يزال في الغرب أفراد يعيشون ويفكرون على أسلوب ديني ويدللون جهدهم في تطبيق عقائدهم بروح حضارتهم، ولكنهم شواذ. إن الرجل العادي في أوروبا، ديمقراطياً كان أو فاشياً، رأسياً كان أو اشتراكياً، عملاً باليد أو رجلاً فكريًا، إنما يعرف ديناً واحداً، وهو عبادة الرقي المادي والاعتقاد بأنه لا غاية في الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل، والتعبير الدارج «حرة مطلقة» من قيود الطبيعة. أما كنائس هذا «الدين» فهي المصانع الضخمة ودور السينما والمخبرات الكيماوية ودور الرقص ومراکز توليد الكهرباء، وأما كهنتها فهم رؤساء الصيارات والمهندسوں والممثلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة والطيارون والمبرزوں الذين يضربون رقمًا قياسيًا، ونتيجة هذه النهامة للقوة، والشره للذلة، الترتيبة الالزامـة هي ظهور طوائف متنافسة مدحجة بالسلاح، والاستعدادات الحربية، مستعدة لإبادة بعضها بعضًا إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها، أما في جانب الحضارة ف نتيجتها ظهور طرزاً للإنسان يعتقد الفضيلة في الفائدة العملية، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح المادي لا غير»^(١).

□ «إن الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة، ولكن ليس في

نظامها الفكري موضع لله في الحقيقة، ولا تعرف له فائدة، ولا تشعر بحاجة إليه»^(١).

ربما يقلل من قيمة هذه الشهادات على مركز الدين في الحياة الأوروبية ومدى تأثيره كون صاحبها قد انتقل من النصرانية إلى الإسلام ومن أوروبا إلى الشرق الإسلامي، فهناك شهادة أصرح منها، وأدل على اضمحلال الدين الرسمي في أكثر مراكزه، واستنكاف أهله من الانتساب إليه لأحد كبار المعلمين في «لندن» وكتاب الإنكليزية البارزين.

قال الأستاذ «جود Joad» رئيس الفلسفة وعلم النفس في جامعة لندن في كتابه: «Cuide to Modern Wickedness»: «سألت عشرين طالباً وتلميذة كلهم في أوائل العقد الثاني من أعمارهم: كم منهم مسيحي بأي معنى من معاني الكلمة، فلم يجب بـ«نعم» إلّا ثلاثة فقط، وقال سبعة منهم: إنهم لم يفكروا في هذه المسألة أبداً. أما العشرة الباقية فقط صرحوا أنهم معادون للمسيحية، أنا أرى أن هذه النسبة بين من يؤمن بال المسيحية ويدين بها وبين من لا يؤمن في هذه البلاد ليست شاذة ولا غريبة، نعم إذا وجه هذا السؤال إلى مثل هذه الجماعة قبل خمسين سنة أو عشرين، كانت الأجوية مختلفة، بناء على ذلك الذين يتفقون في الرأي مع «Canon Parry» ويزعمون أن نهضة مسيحية كبيرة يمكن أن تنقذ العالم سيكونون قليلاً جداً، فإني لا أرى لرأيه هذا مؤيداً ومبرراً إلّا أن يكون ذلك رغبته وهو، فإن الأهواء كثيراً ما تخلق الأفكار، ولكنها لا تولد الشهادات والوثائق، وإن الأحوال والآثار في هذه البلاد لتدل على أن الكنيسة

النصرانية ستموت في القرن الآتي، وإليك ما يؤيد هذا الرأي نقلًا من صحيفة يومية:

اخترع رجل في السابعة والسبعين من عمره طريقة تحول بها نسخ الكتاب المقدس العتيقة إلى حشو البنادق والحرير الصناعي واللدائن وأوراق النقد الشمينة، وإن آلته قد نصبت في «Cardiff Factor» وفي ثمانية مصانع أخرى وتصنع بنسخ التوراة القديمة أسلحة حربية، وقد استثمر المخترع بالألة ثروة عظيمة بعدما عاش في ضنك من العيش.

□ وينتظم الأستاذ مقالته هذه بجملة من التوراة — ولا أجمل منها— لمخاطبة القسوس ورجال الدين أمثال «كينين بيري» وغيره: «فليسمع من له أذنان»^(١).

□ ويقول هذا المؤلف في كتابه الثاني «Philosophy For our Times»: «لم يزل سائداً على عقلية إنكلترا منذ قرون شره المال والملك، وكانت رغبة نيل الثروة أقوى عامل في حياة البلاد وأكبر باعث على العمل؛ لأن الثورة وسيلة للملك، وضخامتها ووفرتها مقاييس لكتفاء الإنسان، ولم يزل الناس يتلقون من طرق السياسة والأدب والتمثيل والسينما والإذاعة اللاسلكية، وفي بعض الأحيان من منابر الكنائس في كل عام وشهر — التحريضات على جمع المال واقتناه، والإقناع بأن الأمة المتقدمة هي التي ارتقى فيها عاطفة الشره والملك.

□ ويقول في مكان آخر من الكتاب: «إن نظرية الحياة التي تسودُ هذا العصر وتحكمُ عليه هي النظر في كل مسألة وشأن من ناحية المعدة

. Cuide to Modern Wickedness P. ١١٤. ١١٥(١)

والجِبَّ».

□ وقد أجاد الصحفي الأمريكي المشهور «John Gunther» تمثيل هذه النفيسيَّة في كتابه «داخل أوروبا» بقوله: «إن الإنجليز إنما يبعدون بنك إنجلترا ستة أيام في الأسبوع، ويتوجّهون في اليوم السابع إلى الكنيسة»^(١).

وعامة المسلمين على إثر الغرب حذو القُدْسَة بالقُدْسَة:

«من الغريب الواقع أن المسلمين قد أصبحوا في الزمن الأخير في كثير من نواحي الأرض حتى في مراكز الإسلام وعواصميه حلفاء للجاهلية الأوروبية وجندوا متطوعين لها، بل صار بعض الشعوب والدول الإسلامية يرى في الشعوب الأوروبية التي تزعّمت حركة الجاهلية منذ قرون ونفخت فيها روحًا جديدة، وركزت أعلامها على الشرق والغرب: ناصراً للMuslimين، حامياً لذمار الإسلام المستضعف، حاملاً لراية العدل في العالم، قواماً بالقسط».

ورضى عامة المسلمين بأن يكونوا ساقة عسكر الجاهلية بدل أن يكونوا قادة الجيش الإسلامي، وسرت فيهم الأخلاق الجاهلية ومبادئ الفلسفة الأوروبية سريان الماء في عروق الشجر والكهرباء في الأسلام، فترى الماديات الغربية في البلاد الإسلامية في كثير من مظاهرها وأثارها، وترى تهافتًا على الشهوات ونهماً للحياة، نهم من لا يؤمن بالآخرة، ولا يؤمن بحياة بعد هذه الحياة، ولا يدخل من طبياتها شيئاً، وترى تنافساً في أسباب الجاه والفسخار وتکالباً عليها فعل من يغلو في تقويم هذه الحياة وأسبابها، وترى إيثاراً للمصالح والمنافع الشخصية على المبادئ

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص ٢٠٣).

والأخلاق، شأن من لا يؤمن بنبي ولا بكتاب، ولا يرجو معادًا، ولا يخشى حسابًا. وترى حبًا للحياة وكرامة للموت، دأب من يعد الحياة الدنيا رأس بضاعته، ومتنه أمله وبلغ علمه، وترى افتاتًا بالزخارف والمظاهر الجوفاء كالآمم المادية التي ليس عندها أخلاق ولا حقيقة حية، وترى خضراعًا للإنسان، واستكانة للملوك والأمراء ورجال الحكومة والمناصب وتقديسهم شأن الأمم الوثنية وعبدة الأصنام^(١).

المسلمون على علاتهم مؤئل الإنسانية وأمة المستقبل:

«ولكن برغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف، فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض التي تعد خصيم الأمم الغربية وغيريتها ومنافستها في قيادة الأمم، ومزاحمتها في وضع العالم، والتي يعزز عليها دينها أن تراقب سير العالم وتحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها ونزعاتها، وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوى، وإلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وتحول بينها وبين جهنم ما استطاعت من القوة، والتي يحرم عليها دينها ويأبى وضعها وفطرتها أن تتحول أمة جاهلية.

هذه هي الأمة التي يمكن أن تعود في حين من الأحيان خطرًا على النظام الجاهلي الذي بسطته أوروبا في الشرق والغرب وأن تحبط مساعيها.

□ وقد وصف هذا الخطر شاعر الإسلام الحكيم «محمد إقبال» في قصيدته البدية «برلمان إبليس» على لسان إبليس، ذكر فيها أن الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورى، وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنه، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسي

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص ٢٨٤).

ومهمتهم الشيطانية فتذاكروا في فتن وأخطار قد أحدقـت بهم وهددـت
نظامـهم، وجـلـلـوا خطـبـها وـتـنـاذـرـوا شـرـهـا^(١) .. فـتـكـلـمـ رئيسـ المـجـلسـ إـبـلـيـسـ
فـقـالـ: إـنـ كـنـتـ خـائـفـاـ فـإـنـ أـخـافـ أـمـةـ لـاـ تـزـالـ شـرـارـةـ الـحـيـاةـ وـالـطـمـوـحـ كـامـنةـ
فـيـ رـمـادـهـ، وـلـاـ يـزالـ فـيـهـ رـجـالـ تـتـجـاـفـ جـنـوـبـهـ عـنـ الـمـضـاجـعـ، وـتـسـيلـ
دـمـوعـهـمـ عـلـىـ خـدـوـدـهـمـ سـحـراـ، لـاـ يـخـفـيـ عـلـىـ الـخـبـيرـ الـمـتـفـرـسـ أـنـ إـلـاسـلامـ
هـوـ فـتـنـةـ الـغـدـ وـدـاهـيـةـ الـمـسـتـقـبـلـ، لـيـسـ الـاشـتـراكـيـةـ.

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً، وأنها فنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم، أنا خير أن ليل الشرق داج مكفره، وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات ويضيء لها العالم، ولكنني أخاف أن قوارع هذا العصر وهزءه ستقضى مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة «محمد ﷺ» إني أحذركم وأنذركم من دين محمد ﷺ حامي الذمار، حارس الذمم والأعراض، دين الكفاح والجهاد، يلغى كل نوع من أنواع الرق، يمحو كل أثر من آثار استعباد الإنسان، لا يفرق بين مالك وملوك، ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك، يزكي المال من كل دنس ورجس ويجعله نقياً صافياً، ويجعل أصحاب الثروة والملك مستخلفين في أمواهم أمناء لله وكلاء على المال، وأي ثورة أعظم وأي انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين في عالم الفكر والعمل يوم صرخ أن الأرض لله لا للملوك والسلطانين.

فابذلوا جهداًكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس، وليهنكم

(١) المصدر السابق (ص ٢٨٤، ٢٨٥).

أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه، فخير لنا أن يبقى مشتغلًا بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات، اضربوا على آذان المسلمين؛ فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ويبطل سحرنا بأذانه وتكتبه، واجتهدوا أن يطول ليه ويبطئ سحره، أشغلوه يا إخواني عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان في العالم. خير لنا أن يبقى المسلم عبدًا لغيره، ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره زهداً فيه، واستخفافاً لخطره، ويا ولتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة يعززها دينها أن تراقب العالم وتعسه»^(١).

المنارة الأولى: «الإسلام هو الحل الوحيد لكل العالم»:

□ قال الشيخ أبو الحسن الندوبي في كتابه القيم: «ما ذا خسِرَ العالم بانحطاط المسلمين»: «والحلُّ الْوَحِيدُ هُوَ تَحْوُلُ الْقِيَادَةِ الْعَالَمِيَّةِ وَاتِّصَالُ دَفَّةِ الْحَيَاةِ مِنْ يَدِ الْأَثِيمَةِ الْخَرْقَاءِ الَّتِي أَسَاءَتْ إِسْتِعْمَالَهَا إِلَى يَدِ أَخْرَى بِرِئَةِ حَادِّةٍ».

إن تحول القيادة من بريطانيا إلى أمريكا ومنها جمِيعاً إلى روسيا لا يعني غناء ولا يغير من الموقف شيئاً، فإن هذا التحول ليس إلا نقل المجداف من اليمين إلى الشمال إذا تعبت الأولى أو بالعكس، فما دام المجداف واحداً فلا فرق بين يمينه وشماله، وليس بريطانيا وأمريكا وروسيا إلا أيدي رجل واحد تداول دفة الحياة، وتتناوب تجديف السفينة على خط واحد إلى جهة واحدة.

إن التحول المؤثر الواضح هو تحول من أوروبا —بالمعنى الواسع الذي

(١) المصدر السابق (ص ٢٨٦ - ٢٨٧).

يشمل بريطانيا وأمريكا وروسيا ومن كان على شاكلتها من الأمم الآسيوية والشرقية - التي تقودها المادية والجاهلية، إلى العالم الإسلامي الذي يقوده سيدنا محمد ﷺ برسالته الخالدة ودينه الحكيم.

هذا هو التحول الذي يغير وجه التاريخ، ويحولجرى الأمور وينقذ العالم من الساعة الرهيبة التي ترقبه.

إن حقاً على العالم الإسلامي أن يمني نفسه بهذا المنصب الخطير، ويطمح إليه، وإن حقاً على كل بلد إسلامي وشعب إسلامي أن يشد حيازمه لذلك، وإن حقاً على كل مسلم أن يجاهد في سبيله ويبذل ما في وسعه، فهذه هي المهمة الشريفة التي نصت بالأمة الإسلامية يوم برزت إلى عالم الوجود، ويوم ظهرت نواتها في جزيرة العرب»^(١).

لأنهضة ولا حضارة إلا تحت راية الإسلام:

لا ينهض العالم الإسلامي إلا برسالة الإسلام، وتحت راية الإسلام فقط والإيمان بها والاستماع إلى سبيلها، وهي رسالة قوية واضحة مشرقة، لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ولا أفضل ولا أيمان للبشرية منها.

وهي نفس الرسالة التي حملها المسلمون في فتوحهم الأولى، والتي خصها أحد رسلهم في مجلس يزدجرد ملك إيران بقوله: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»، رسالة لا تحتاج إلى تغيير كلمة وزيادة حرف، فهي منطقية تمام الانطباق على القرن العشرين انطباقها على القرن السادس المسيحي، لأن الزمان قد استدار كهيته يوم

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» (ص ٢٨٣).

خرج المسلمون من جزيرتهم لإنقاذ العالم من براثن الوثنية والجاهلية. فلا يزال الناس اليوم عاكفين على أصنام لهم — من أوثان منحوته ومنجورة ومقبورة ومنصوبة — ولا تزال عبادة الله وحده مغلوبة غريبة، ولا تزال الفتنة قائمة على قدم وساق ولا يزال إله الهوى يعبد، ولا يزال الأخبار والرهبان والملوك والسلطانين وأصحاب القوة والثروة والزعماء والأحزاب السياسية أرباباً من دون الله تقرب لها القرابين وينصب لها الجبين.

وكذلك العالم اليوم رغم اتساعه وتوافر وسائل السفر والانتقال من مكان إلى مكان، واتصال الشعوب والأمم بعضها ببعض أضيق بأهله منه بالأمس، قد ضيقته المادة التي لا تنظر إلا إلى قدمها ولا تؤمن إلا بفائدة صاحبها، ولا نعرف غير العكوف على الشهوات وعبادة اللذات، وقد خنقته الأثرة التي لا تسمح لاثنين بالعيش في إقليم واسع، والوطنية الضيقة التي تنظر إلى كل أجنبي شرراً وتحجد له كل فضل وتحرمه كل حق.

ثم ضيق خناق هذه الحياة المادة المسيطرة على السياسيون الذين يحتكرون وسائل الحياة والرزق والقوت، يضيقون هذه الحياة لمن شاءوا ويوسعونها لمن شاءوا، ويسيطرون الرزق — زعموا — لمن شاءوا ويقدرونها لمن شاءوا، فأصبحت المدن الواسعة أضيق من جحر ضب، وأصبح الناس في بلادهم في شبه حجر كحجر السفيه واليتيم، وضاقت على الناس الأرض بها رحبة وضاقت عليهم أنفسهم، وأصبح الناس في أغلال وأصفاد من المدينة والملكة مهددين في كل وقت بمعجعات

مصطمعة وحقيقة، وحروب خارجية وداخلية، وأضرابات وأضطرابات أسبوعية ويومية.

نعم ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ولا تزال في هذا العصر المتنور الراقي المثقف أديان تعبث بعقول الناس وتسخرهم كالحمير والبقر، وتزين لأتباعها قتل مئات من البشر لأجل بقرة ذبحت في عيد الأضحى، أو شجرة مقدسة عضدت في قرية من القرى.

وهنالك أديان بغير اسم الأديان لا تقل في نفوذها وسلطتها، ولا تقل في جورها وعدوانها وعبيتها بعقول أتباعها وفي عجائبها عن الأديان القديمة: وهي النظم السياسية والنظريات الاقتصادية التي يؤمن بها الناس كدين ورسالة، كالجنسية والوطنية، والديمقراطية والاشراكية، والدكتatorية والشيوعية، وهي أقل مسامحة لمن لا يدين بها وأشد قسوة على منافسيها، وأضيق عطفاً من الأديان الجاهلية، والاضطهاد السياسي اليوم أفضع من الاضطهاد الديني في القرونظلمة، فإذا تغلب حزب من الأحزاب الوطنية أو ساد مبدأ من المبادئ السياسية، أو انتصر فريق على فريق في الانتخاب، سد في وجه منافسه الأبواب وعذبه أشد العذاب، وما حرب إسبانيا الأهلية التي دامت مدة طويلة، وسفكت فيها دماء غزيرة، وما حرب الصين التي قامت بين الجمهوريين والشيوعيين من أهل الصين، وحرب «كوريا» التي قامت بين الجنوبيين والشماليين، وحرب فيتنام التي تقوم بين جنوبها وشمالها، وبين أمريكا المتفلة، وأهل البلاد إلا نتيجة اختلاف في العقيدة السياسية والنظريات الاقتصادية.

رسالة العالم الإسلامي هي الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم

الآخر، وجائزته الخروج من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وقد ظهر فضل هذه الرسالة وسهل فهمها في هذا العصر أكثر من كل عصر، فقد افتضحت الجاهلية وبدت سوأتها للناس واشتد تذمر الناس منها، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام، لو نهض العالم الإسلامي، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماسة وعزيمة، ودان بها كالرسالة الوحيدة التي تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال.

الاستعداد الروحي:

ولكن العالم الإسلامي لا يؤدي رسالته بالظاهر المدنية التي جادت بها أوروبا على العالم، وبصدق لغاتها وتقليل أساليب الحياة التي ليست من نهضة الأمم في شيء، إنما يؤدي رسالته بالروح والقوة المعنوية التي تزداد أوروبا كل يوم إفلاساً فيها، ويتصدر بالإيمان والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات، والشوق إلى الشهادة، والحنين إلى الجنة، والزهد في حطام الدنيا وتحمل الأذى في ذات الله صابرًا محتسباً، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهْنُوا فِي أَبْيَاغِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَائِمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ بِكَمَا تَأْمَلُونَ وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤] فقوة المؤمن سر انتصاره في إيمانه ورجائه لثواب الله، فإذا كان العالم الإسلامي لا يرى إلا ما تراه أوروبا من العرض القريب، ولا يطمح إلا فيما تطمح فيه أوروبا من حطام الدنيا، ولا يؤمن إلا بما تؤمن به أوروبا من المحسوسات والماديات، كانت أوروبا بقوتها المادية أحق بالانتصار والسيادة من العالم الإسلامي الذي

يختلف عنها في القوة المادية تخلفاً شائناً ولا يفوقها في المدنية.

لقد أتى على العالم الإسلامي حين من الدهر وهو مستخف بهذه القوة المعنوية لا يحتفل بها، ولا يحتفظ بالبقية منها، ولا يغذيها، حتى نصب معينها في قلبه، فلما خاض العالم الإسلامي المعارك التي تحتاج إلى الإيمان، والصبر والثبات، وتحمل الشدائـد والنـكبات؛ وزلزل بعض الـزلزال، وجلـأ إلى القوة المعنوية الكامنة في نفوس المسلمين، كانت كسراب بقـيعة يحسبـه الـظمآن ماء حتى إذا جاءـه لم يجـده شيئاً، هـنالـك عـرف أنه قد جـنى على نـفـسه جـنـاهـة عـظـيمـة بإـهـالـه هـذـه القـوـة الرـوـحـيـة وـتـضـيـعـها، وـبـحـثـ في جـعـبـته فـلـم يـجـدـ شيئاً يـسـدـ مـكـانـها وـيـغـنـيـ غـنـاءـها.

وـخـاضـ العالم الإـسـلامـي في مـعـارـكـ حـاسـمة، وـهـو يـرىـ أنـ المـسـلـمـينـ تـقـومـ قـيـامـتـهـمـ، وـسـوـفـ يـهـرـعـونـ لـلـدـفـاعـ عنـ الإـسـلامـ وـحـمـاـيـةـ بـلـادـهـ المـقـدـسـةـ، وـيـغـضـبـونـ لـلـهـ وـرـسـولـهـ وـحـرـماتـهـ، وـإـنـ الأـقـطـارـ الإـسـلامـيـةـ تـشـتـعـلـ نـارـاً وـتـوـقـدـ حـمـيـةـ وـحـمـاسـةـ إـنـاـذاـ الحـادـثـ لـمـ يـؤـثـرـ فيـ الـعـالـمـ الإـسـلامـيـ التـأـثـيرـ المـنـتـظـرـ، وـإـنـ النـظـرـ ضـئـيلـ وـالـسـخـطـ خـافـتـ، وـإـنـ الـعـالـمـ الإـسـلامـيـ كـعـادـتـهـ فيـ غـدوـاتـهـ وـرـوحـاتـهــ منـهـمـكـ فيـ لـذـاتـهـ وـشـهـوـاتـهـ، كـأـنـ لـمـ يـحـدـثـ كـبـيرـ شـيـءـ، فـعـرـفـ أنـ الـحـمـلـةـ الـدـيـنـيـةـ قـدـ ضـعـفـتـ فيـ الـعـالـمـ الإـسـلامـيـ، وـأـنـ شـعـلـةـ الـجـهـادـ قـدـ انـطـفـأـتـ أوـ كـادـتـ، وـهـنـاكـ عـرـفـ النـاسـ ضـعـفـ الـعـالـمـ الإـسـلامـيـ وـخـذـلـانـهـ وـهـوـانـهـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ.

فـالـهـمـ الأـهـمـ لـقـادـةـ الـعـالـمـ الإـسـلامـيـ، وـجـمـعـيـاتـهـ وـهـيـئـاتـهـ الـدـيـنـيـةـ وـلـلـدـوـلـ الإـسـلامـيـةـ غـرسـ الإـيمـانـ فيـ قـلـوبـ المـسـلـمـينـ، وـإـشـعـالـ الـعـاطـفـةـ الـدـيـنـيـةـ، وـنـشـرـ الدـعـوـةـ إـلـىـ الـلـهـ وـرـسـولـهـ، وـإـيمـانـ بـالـآـخـرـةـ عـلـىـ مـنـهـاجـ الدـعـوـةـ

الإسلامية الأولى، لا تدخر في ذلك وسعاً، وتستخدم لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة، وطرق النشر والتعليم، كتجوال الدعاء في القرى والمدن، وتنظيم الخطب والدروس، ونشر الكتب والمقالات، ومدارسة كتب السيرة، وأخبار الصحافة وكتب المغازي والفتوح الإسلامية، وأخبار أبطال الإسلام وشهاداته؛ ومذكرة أبواب الجهاد، وفضائل الشهداء، وتستخدم لذلك «الإذاعة» والصحافة وكتب الأدب، وبجميع القوى والوسائل العصرية.

والقرآن وسيرة محمد ﷺ قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلان في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان، وتحدثنـا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي، وتجعلـا من أمة مستسلمة، منخذلة ناعسة، أمة فتية ملتهبة حماسة وغيرـة وحنـقـا على الجاهليـة وسـخـطاً على النظم الجائـرة.

إن علة العالم الإسلامي اليوم هي الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة والهدوء الزائد في الحياة، فلا يقلقه فساد، ولا يزعجه انحراف، ولا يهيجه منكر، ولا يهمه غير مسائل الطعام واللباس، ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية – إن وجدا إلى القلب سبيلاً – يحدث صراع بين الإيمان والنفاق، واليقين والشك، وبين المنافع العاجلة والدار الآخرة، وبين راحة الجسم ونعيم القلب، وبين حياة البطالة وموت الشهادة، صراع أحدهـه كل نبي في وقته، ولا يصلح العالم إلـا به، حينئـذ يقـوم في كل ناحـية من نواحيـ العالم الإسلاميـ، بلـ في كل أسرة إسلامـيةـ في كل بلد إسلامـيـ ﴿فَتَيَّأْمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزَدِنَّهُمْ هُدًى﴾
 (١٣) وَرَبَّنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنَنْدَعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهٌ لَّهُمْ قَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطْنَا﴾
 (١٤) [الكهف].

هناك تتجدد ذكرى بلال، وعمار، وخباب، وخبيب، وصهيب، ومصعب بن عمير، وعثمان بن مظعون، وأنس بن النضر، هناك تفوح رائحة الجنة وتهب نفحات القرن الأول، ويولد للإسلام عالم جديد لا يشبه العالم القديم في شيء...»^(١).

وهذه قطعة من قصيدة خاطب بها إقبال الأمة الإسلامية لتعرف مكانتها في العالم ودورها بين أدوار الشعوب والأمم:

«إنَّ نَفْسَ ذَلِكَ الْأَمِيِّ^(٢) الرَّيَانُ، نَقْلُ صَحَرَاءِ الْعَرَبِ الْقَاحِلَةِ إِلَى رُوحِ وَرِيحَانٍ، إِنَّ الْحُرْيَةَ نَشَأَتِ فِي أَحْضَانِهِ، وَإِنَّ حَاضِرَ الشَّعُوبِ لَيْسَ إِلَّا وَلِيَدُ أَمْسِهِ، إِنَّ الْجَسَدَ الْبَشَرِيَّ كَانَ بِلَا قَلْبٍ وَرُوحٍ، فَأَعْطَاهُ الْقَلْبُ وَالرُّوحُ، وَكَشَفَ اللِّثَامَ عَنْ جَمَالِ وَجْهِهِ، إِنَّهُ حَطَّمَ كُلَّ صِنْمٍ قَدِيمًا، وَأَفَاضَ الْحَيَاةُ عَلَى كُلِّ غُضْنٍ ذَاٰءِي مِنْ أَغْصَانِ الْعِلُومِ وَالْمَدِينَةِ، وَأَنْجَبَ أَبْطَالًا وَقَادِهِ مُؤْمِنِينَ، أَقَامُوا الْمَعَارِكَ الْفَاصِلَةَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَتَارَةً يَدُوِّيُّ الْأَذَانُ فِي سَاحَةِ الْحَرُوبِ، وَتَارَةً تَتَحَلَّ الْأَذَانُ بِقِرَاءَةِ «الصَّافَاتِ» بَيْنَ صَلِيلِ السَّيُوفِ وَصَهْيَلِ الْخَيُولِ، إِنَّ سِيفَ الْبَطْلِ الْمُغَوَّرِ صَلَاحُ الدِّينِ، وَنَظْرَةُ الزَّاهِدِ الْأَوَّابِ «كَأَيِّ ذَرِّ»^(٣) مَفْتَاحَانِ لِكُنُوزِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٤).

(١) «ما زَيَّرَ الْعَالَمَ بِانْحِطَاطِ الْمُسْلِمِينَ» (ص ٢٨٨ - ٢٩٢).

(٢) يعني بذلك النبي الأمي محمدًا ﷺ.

(٣) بدلًا من كأي يزيد البسطامي التي في أصل القصيدة.

(٤) «الْإِسْلَامُ وَالْحُضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَوَاقِعُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ» للندوي (ص ٧٩ - ٨٠) - طبع دار القلم - الكويت.

المنارة الثانية: الاستعداد الصناعي للحرب والأخذ بأسباب القوة لازم وركن من أركان حضارة المستقبل تحت راية الإسلام:

لا تنتهي مهمة العالم الإسلامي عند الاستعداد الروحي فقط، ولا بد أن يُضمَّ إلى ذلك الاستعداد الصناعي الحربي.

□ يقول الأستاذ أبو الحسن الندوبي في كتابه الماتع «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: «ولكن مهمة العالم الإسلامي لا تنتهي هنا، فإذا أراد أن يضطلع برسالة الإسلام ويملك قيادة العالم فعليه بالقدرة الفائقة، والاستعداد التام في العلوم والصناعة والتجارة وفن الحرب، وأن يستغنى عن الغرب في كل مرفق من مرافق الحياة؛ وفي كل حاجة من الحاجات، يقوت ويكسو نفسه، ويصنع سلاحه، وينظم شؤون حياته، ويستخرج كنوز أرضه ويتتفع بها؛ ويدير حكوماته برجاليه وماله، ويمخر البحار المحطة به بسفنه وأساطيله، ويحارب العدو ببوارجه ودباباته وأسلحة بلاده، وتزيد صادراته على وارداته، ولا يحتاج إلى الاستدانة من الغرب، ولا يضطر إلى أن يلجمأ إلى راية من راياته وينضم إلى معسكر من معسكياته.

أما ما دام العالم الإسلامي خاضعاً للغرب في العلم والسياسة والصناعة والتجارة، يمتص الغرب دمه، ويحفر أرضه فيستخرج منها ماء الحياة وتغزو بضائعه أسواق العالم الإسلامي وبيوته وجيوشه كل يوم فستخرج منها كل شيء، وما دام العالم الإسلامي يستدين من الغرب الأموال، ويستعيir منه الرجال، ليديروا حكومته، ويشغلوا الوظائف الخطيرة ويدرّبوا جيوشه ويستورد منه البضائع، ويجلب منه المنتجات،

وينظر إليه كأستاذ ومربي، وسيد ورب، لا يرم أمرًا إلا بإذنه ولا يصدر إلا عن رأيه، فلا يستطيع أبدًا أن يواجه الغرب فضلاً عن أن يناهضه ويغالبه.

هذه هي الناحية العلمية والصناعية التي أخل بها العالم الإسلامي في الماضي فعوقب بالعبودية الطويلة والحياة الذليلة، وابتلى العالم الإسلامي بالسيادة الأوروبية الجائرة التي ساقت العالم إلا النار والدمار والتناحر والانتحار، فإن فرط العالم الإسلامي مرة ثانية في الاستعداد العلمي والصناعي والاستقلال في شؤون حياته كتب الشقاء للعالم وطالت محنـة الإنسانية وبلاؤها^(١).

المشاركة الثالثة: الاستقلال العلمي تحت راية الإسلام:

ما بلغت الحضارة العلمية أوجها وعظمتها إلا في زمن تمسك المسلمين بدینهم وشدة إتباعهم لهدى رسولهم ﷺ، ويوم انحرفوا عن دینهم صاروا في ذيل الركب هذه حقيقة أضوا من الشعب في رابعة النهار.. لا يماري فيها إلا خبيث النفس، ولا ينتفع فيها عزان.

□ يقول الأستاذ الندوبي تحت عنوان «تبؤ الزعامة في العلم والتحقيق» من كتابه «ماذا خسر العالم»: «وقد تنازل العالم الإسلامي – بما فيه العالم العربي – منذ زمن طويل عن مكانته في القيادة العلمية والتوجيه، والاستقلال الفكري، وأصبح عيالاً على الغرب متطفلاً على مائده حتى في اللغة العربية وأداب اللغة وعلومها، وحتى في علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه، وأصبح المستشرقون هم المرشدين الموجهين في البحث

(١) «ماذا خسر العالم» (ص ٢٩٢ - ٢٩٣).

والتحقيق، والدراسة والتأليف، وهم المنتهي والمرجع والحججة في الأحكام والأراء الإسلامية والنظريات العلمية والتاريخية، وهم الأسوة في النقض والإبرام، وعدد كبير منهم قساوس وإرساليون ويهود ومسيحيون متعصبون، يضمرون للإسلام وصاحب رسالته عليه السلام العداء والبغضاء وللحضارة الإسلامية السخرية والاستهزاء، ويخونون في النصوص والنقل. ويحرفون الكلام عن مواضعه، ومنهم عدد لم يتقن اللغة العربية ولم يبرع فيها، وهم يخطئون في فهم النصوص وترجمتها أخطاء فاحشة، وقد تغلغلت أفكارهم ودعایاتهم في الأوساط العلمية الحديثة في العالم الإسلامي وتجلت بصورة واضحة في الدعوة إلى فصل الدين عن السياسة وأن الدين قضية شخصية لا شأن له بالمجتمع، وأن الدين عقيدة وعبادة وخلق لا شأن له بالسياسة والحكم، وفي الدعوة إلى تغيير مفهوم الدين وأحكام الشريعة الإسلامية على أساس الحضارة الغربية وفلسفتها، إلى غير ذلك من الأفكار التي يدعو إليها تلاميذ المستشرين والخاضعون لهم في الشرق الإسلامي.

وقد عجز كتاب الشرق المسلمون والمفكرون الشرقيون عن مواجهة الحضارة الغربية وجهًا لوجه ونقد أسسها وقيمها نقداً حراً جريئاً. فيه الابتكار، وفيه الاستقلال، وقد بلغ بعضهم من ضعف التفكير، والإغراق في التقليد متزلة رأى فيها أن الحضارة الغربية هي آخر ما وصل إليه العقل البشري وأنه لا متزلة وراءها، ومنهم من دعا إلى تطبيق الحضارة الغربية برمتها، وعلى علاتها في الشرق، ودعا بعض الأقطار الإسلامية العربية إلى اعتبار نفسها جزءاً لا يتجزأ من القارة الأوروبية

وإذابتها فيها واختيار الثقافة اليونانية التي هي أصل الثقافات الأوروبية^(١).
وندر في هذه الطبقة وجود «عملاق» يكفر بالحضارة الغربية وفلسفة
حياتها وقيمها ويشرح الحضارة الغربية وأسسها التي قامت عليها في ثقة
واعتزاد وعلم وبصيرة، ونستثنى من هذه الكلية بعض الأفراد الأفذاذ.

ولا بد —إذا أراد العالم الإسلامي أن يقوم على قدميه ويفر بعقله— أن
يقاوم هذا الخضوع ويكون فيه علماء عماليق وكتاب جهابذة يتناولون
الحضارة الغربية بالنقد والتشريح، وكتابات المستشرقين وأراءهم بالجرح
والتعديل، ويتباحرون في العلوم الإسلامية ويتعمقون فيها حتى يفيد منهم
كبار المستشرقين في أوروبا وأمريكا ويصححون بهم آراءهم وأخطاءهم،
ويتوجه رواد العلم والتحقيق والدراسات العالية إلى عواصم العالم العربي
وحواضر العالم الإسلامي، كما اعتادوا أن يتوجهوا إلى عواصم أوروبا
وأمريكا. فهذه المدن الإسلامية أولى بأن تكون مركزاً للثقافة الإسلامية
والعلوم الدينية وأداب اللغة العربية من العواصم الأوروبية وجامعات
أوروبا، ومن سقوط الهمة والقناعة بالدون أن تتخل هذه العواصم
العربيّة في العلم والدين عن زعامتها العلمية ومكانتها الرئيسية.

التنظيم العلمي الجديد:

ولا بد للعالم الإسلامي من تنظيم العلم الجديد بما يوافق روحه
ورسالته. وقد ساد العالم الإسلامي على العالم القديم بزعامته العلمية
فتسرب بذلك في عقلية العالم وثقافته، وتغلغل في أحشاء الأدب
والفلسفة، وظل العالم المتmodern قروناً يفكر بعقله ويكتب بقلمه و يؤلف

(١) اقرأ كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» للدكتور طه حسين.

بلغته، فكان المؤلفون في إيران وتركمستان وأفغانستان والهند لا يؤلفون كتاباً له شأن إلا باللغة العربية، وكان بعضهم يؤلف الأصل بالعربية ويلخصه بالفارسية كما فعل الغزالى في «كيمياء السعادة».

وإن كانت هذه الحركة العلمية التي ظهرت في صدر الدولة العباسية متأثرة باليونان والجم، وغير مؤسسة على الفكر الإسلامي النقي والروح الإسلامي؛ وإن كانت فيها مواضع من الناحية العلمية والدينية، ولكنها سادت على العالم بقوتها ونشاطها، وأضمنت أمامها النظم العلمية القديمة.

وجاءت نهضة أوروبا فنسخت هذا النظام القديم باختباراتها ونقدتها العلمي، ووضعت منهاجاً جديداً للعلم والدراسة كان نسخة صادقة لروحها وعلقيتها المادية، فلا يخرج منه الطالب إلا وهو متسبع بهذه الروح، وخضع العالم مرة ثانية لهذا النظام التعليمي، وخضع له العالم الإسلامي بطبيعة الحال –إذ كان مصاباً بالانحطاط العلمي والشلل الفكري من زمان، وكان لا يجد المدد والغوث إلا في أوروبا– فقبل هذا النظام التعليمي على علاته، فهو النظام السائد اليوم في إنجاء العالم الإسلامي.

وكانت نتيجة هذا النظام الطبيعية، صراعاً بين النفسية الإسلامية –إن كانت لا تزال في الشباب لم تقتلها البيئة– وبين النفسية الجديدة، وبين وجهة الأخلاق الإسلامية ووجهة الأخلاق الأوروبية، وبين الميزان القديم والجديد للأشياء وقيمتها، وكانت نتيجة هذا النظام حدوث الشك والنفاق في الطبقة المثقفة، وقلة الصبر والنهم للحياة، وترجح العاجل

على الأجل، إلى غير ذلك مما هو من طبائع المدنية الأوربية. فإذا أراد العالم الإسلامي أن يستأنف حياته، ويتحرر من رق غيره، وإذا كان يطمح إلى القيادة، فلا بد إذن من الاستقلال التعليمي، بل لا بد من الزعامة العلمية، وما هي بالأمر الهين، إنها تحتاج إلى تفكير عميق، وحركة التدوين والتأليف الواسعة، وخبرة إلى درجة التحقيق والنقد بعلوم العصر مع التشيع بروح الإسلام والإيمان الراسخ بأصوله وتعاليمه، إنها لمهمة تنوع بالعصبة أولى القوة، إنها هي من شأن الحكومات الإسلامية، فتنظم لذلك جمعيات، وتحتار لها أستاذة بارعين في كل فن فيضعون منهاجاً تعليمياً يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التي لا تتبدل وبين العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختبار، ويدونون العلوم العصرية للشباب الإسلامي على أساس الإسلام وبروح الإسلام، وفيها كل ما يحتاج إليه النشء الجديد، مما ينظمون به حياتهم ويحافظون به على كيانهم، ويستغنون به عن الغرب ويستعدون للحرب، ويستخرجون به كنوز أرضهم ويستفعون بخيرات بلادهم، وينظمون مالية البلاد الإسلامية، ويديرون حكوماتهم على تعاليم الإسلام، بحيث يظهر فضل النظام الإسلامي في إدارة البلاد، وتنظيم الشؤون المالية على النظم الأوروبية، وتنحل مشاكل اقتصادية عجزت أوروبا عن حلها.

وبالاستعداد الروحي والاستعداد الصناعي والحربي والاستقلال التعليمي ينهض العالم الإسلامي، ويؤدي رسالته وينقذ العالم من الانهيار الذي يهدده. فليست القيادة بالهزل، إنما هي جد الجد، فتحتاج إلى جد واجتهاد، وكفاح وجهاد، واستعداد أي استعداد:

كل امرئ يجري إلى يوم الهياج بما استعدا

«دور القيادة الجديدة»:

لقد وقف العالم -نتيجة لقيادة الغرب- على فوهة بركان، مستعدًّا للانفجار، أو على شفا جرف هار، ولا صلاح للعالم، ولا بقاء للإنسانية، ما دام الغرب في وضعه الحاضر، هو المهيمن على الحياة كلها وهو مصدر التوجيه والإرادة في جميع القارات، فضلاً عن البلاد والحكومات، كالدمل المد في جسم الإنسانية السليم، وهو مرد كل قلق، وكل فوضى، وكل ثورة وانقلاب في أقصى الشرق، وفي أبعد أطراف العالم الإسلامي، لا تشم مع سيطرته جهود إصلاحية، ولا تبقى رغم إرادته ومصالحه حكومات صالحة، ولا نظام راشد، ولا أمل في السعادة إلَّا في تحول القيادة والقوة من الغرب المادي الأناني الذي لم يعد قادرًا على إسعاد البشرية، ولا رغبة له فيها، إلى من يحمل للعالم وللإنسانية روحًا جديداً، وتصميماً جديداً، ويعتبر نفسه مسؤولاً عن ذلك أمام الله، مكلفاً به من قبله، وهو المسلم الذي يتظره العالم من جديد، ويهيب به شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، فيقول: «أنت للسر الأزلي حارس وأمين، ولسيد هذا الكون يسار ويمين^(١) لقد كانت نشائرك من التراب، ولكن بك قوام العالم وبقاء الأمم، اشرب كأساً فائضة من اليقين، وانهض من حضيض الظن والتخمين، انتبه من السبات العميق، الذي طال أمده، واشتدت وطأته».

(١) «زيور عجم» لإقبال (ص ١١٦ - ١١٨) باختصار، «روائع إقبال» للندوي (ص ١٠١ - ١٠٠).

الغياث من الأفرنج الذين خلبوا العقول، وسحروا النفوس، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرة بالرقابة والدلالة، ومرة بالقيود والأغلال، لقد مثل الأوروبيون في العصر الحديث دور جنكس وهلاكو، وأصبح العالم كله خراباً يباباً باغاراتهم وغزوهم، يبابي الحرم! ويا خليفة إبراهيم! نهض لبناء العالم من جديد، انتبه من السبات العميق، الذي طال أمده واشتدت وطأته»^(١).

المشاركة الرابعة: كفالة الكوادر العلمية النادرة والتخصصات العلمية العالمية:

لا بد للأمة إن أرادت الفلاح أن ترعى النابغين من الكوادر العلمية النادرة والتخصصات العالمية وعلى رأس ذلك المجتهدين من طلبة العلوم الشرعية، لا بد أن يكفلوا كفالة تامة..

□ قال الشافعي رحمه الله: «يحتاج طالب العلم إلى ثلات خصال: أولها طول العمر، وثانيها: سعة اليد، والثالثة: الذكاء»^(٢).

* قال تعالى: ﴿لِلْفَقَرَاءِ الَّذِينَ أَخْصِرُوا فِي سَيِّلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِعُونَ ضَرَبًا فِي الْأَرْضِ يَخْسِبُهُمُ الْجَاهَلُ أَغْنِيَاءُ مِنَ الْعَفْفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْعَلُونَ النَّاسَ إِلَحْافًا وَمَا شَفَقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُهِدِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

وقد ذكر العلماء أن الإنفاق على الدعاء وطلبة العلم داخل في عموم هذه الآية الكريمة؛ لأن «الحضر» -لغةً- معناه الحبس، والدعاة حبسوا

(١) «ماذا خسر العالم» (ص ٢٩٣ - ٢٩٨).

(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي.

أنفسهم ووقفوا حياتهم على الطلب والدعوة للإسلام والدفاع عن ساحتهم، فكانوا من أولى الناس أخذًا للهال الذي يستعينون به على إقامة هذا الواجب الأكيد^(١).

* وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَنْفَقُهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُذْرُوْا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبية] ١٦٢.

ففي هذه الآية بيان أنه يلزم أن يكون من المؤمنين طائفة تنفر لتعلم العلم الشرعي، ثم تعود لتعلم الناس أحكام الشرع الحنيف.

• وعن أنس بنث قال: كان أخوان على عهد النبي ﷺ، فكان أحدهما يأتي النبي ﷺ، والأخر يحترف^(٢)، فشكوا المحترف أخاه إلى النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «العلّك تُرَزِّقُ به»^(٣).

□ وعن أبي هريرة رض قال: «إنكم تقولون: إن أبا هريرة يُكثِرُ الحديث عن رسول الله ﷺ! وتقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يُحدِثُون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة؟! وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يشغلُهم الصَّفُقُ بِالأسواق^(٤)، وكنتُ ألزم رسول الله ﷺ

(١) «مفاتيح الرزق» للشيخ فضل إلهي ظهير (ص ٧٩).

(٢) أي: يعمل عملاً دنيوياً ويحصلُ من ورائه مالاً وفيرًا. يقال: «أحرف الرجل إحرافاً»: إذا نما ماله وكثير. واسم الحرفة من هذا المعنى. قال قطُرُب: والحرفة عند الناس: الفقر وقلة الكسب، وليس من كلام العرب، وإنما تقولها العامة. انظر: «تاريخ آداب العرب»، للرافعي (٢٣ / ١ - ط: العصرية).

(٣) صحيح: رواه الترمذى وابن عبد البر في «جامع بيان العلم».

(٤) أي: العمل في التجارة والبيع والشراء.

على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا..» الحديث^(١).
 • وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أن رسول الله ﷺ قال: «من استطاع منكم أن ينفع أخيه فلينفعه»^(٢).

□ أنظر إلى بذل المسلمين في المليارات وبذل اليهود، وكيف ضاعت فلسطين؟ يقول أمير البيان شكيب أرسلان: «عندنا مثال حديث العهد، وهو مسألة فلسطين؛ إذ حدثت وقائع دموية بين العرب واليهود في فلسطين، فأصيب بها أناسٌ من الفريقين، فأخذ اليهود في جميع أقطار الدنيا يُساعدون المصابين من يهود فلسطين، وأراد العالم الإسلامي أن يساعدَ عرب فلسطين كما هو طبيعي -، بلغت تبرعات اليهود لأبناء ملتهم «مليون» جنيه. وبلغت تبرعات المسلمين كلها (١٣) ألف جنيه -أي: نحو جزء من المئة- !!.

إن اليهود وإن كانوا أغنى بالأموال من المسلمين، فإن المسلمين أكثر جداً بالعدد؛ لأن اليهود عشرون مليوناً، والمسلمون نحو أربعين مليوناً^(٣)؛ فلو أن كلَّ واحد من المسلمين تبرَّع للفلسطينيين بقرشٍ واحدٍ - وهو الذي لا يعجز عنه أحدٌ في عالمٍ منها اشتداً فقره -، لا جتمع من ذلك ثلاثة ملايين جنيه ونصف.

فالمسلمون إذن تبرعوا لإخوانهم في فلسطين بثلاثة عشر ألف جنيه، أي بما يُساوي نحو ثلثي عشر القرش عن كل نسمةٍ من عشر عددهم!!

(١) رواه أحمد والشیخان.

(٢) رواه أحمد ومسلم.

(٣) واليوم مليار وربع على الأقل.

أهذا ما ترون أن تسمُّوه تضحيَّة؟! أوَ بمثل هذا تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم؟! أو هذه درجة نجدتكم لإخوانكم في الدين وجيرانكم في الوطن؟!.

وبعد هذا يقولون: لماذا سادت الأمة الإنكليزية^(١) هذه السيادة كلها في العالم؟!^(٢).

□ وقد ذكر المرداوي أن شيخ الإسلام ابن تيمية ذهب إلى أن طالب العلم يجوز له أن يأخذ من زكاة المال لشراء الكتب التي يحتاج إليها في دينه ودنياه، وعقب المرداوي قائلاً: «وهو الصواب»^(٣).

□ واستمع إلى لفتة نفيسة للإمام الغزالى رحمه الله وهو يتحدث عن آداب الصدقة: «كما ينبغي أن يطلب «المتصدق» بصدقته من تزكيه بالصدقة، كأنْ يكون أهل علم، فإن ذلك إعانةً له على العلم، والعلم أشرف العبادات - منها صحت في النية -، وقد كان ابن المبارك يختصُّ بمعروفة أهل العلم، فقيل له: لو عممت!! فقال: إني لا أعرفُ بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء، فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته، لم يتفرغ لطلب العلم، ولم يُقبل على التعلم، فتفرغ لهم للعلم أفضل»^(٤) انتهى.

□ ولما عاتب بعض الناس شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك في إنفاقه على طلبة العلم في البلدان البعيدة دون بلده، فقال: «إني أعرفُ مكان قوم

(١) هنا في وقته، أمّا الآن فأمريكا.

(٢) «لماذا تأخر المسلمون» لشکیب أرسلان (ص ٢٧) وما بعدها - بتصرف - طبع دار القلم.

(٣) انظر: «مشمولات مصرف في سبيل الله» للشيخ عمر الأشقر (ص ٣٨، ٣٩).

(٤) نقلًا عن «مفاتيح الرزق» (ص ٧٩، ٨٠).

لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا طلبه حاجة الناس إليهم، احتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمُهم، وإن أعنَّاهم بُثوا العلم لأمةٍ محمدٌ عليه السلام؛ لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم^(١).

□ وكان يقول عليه السلام للفضيل بن عياض: «لولاك وأصحابك ما أحبرت».

□ وكان عليه السلام يعطي العلماء -بجانب المال- الثياب الحسنة والهدايا الطيبة^(٢).

□ والإمام سفيان الثوري، يقول عن نفسه: «لما أردت أن أطلب العلم قلت: يا رب، إنه لا بد لي من معيشة، ورأيت العلم يدرس، فقلت: أفرغ نفسي للطلب.. وسألت ربي الكفاية»^(٣).

□ فاستجاب الكريم الرحيم لدعوته، وإذا بأمه تدعوه وتقول له: «يا بنى، اذهب، فاطلب العلم، وأنا أكفيك بمغزلي»^{(٤)(٥)}.

□ ويقول الإمام أبو يوسف - תלמיד الإمام أبي حنيفة -: «كنت أطلب الحديث والفقه، وأنا مُقلٌّ رُثٌّ الحال^(٦)، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة، فانصرفت معه، فقال: يا بنى، لا تَمْدَنَّ رِجْلَكَ مع أبي حنيفة، فإن

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/٣٨٧).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/٤١٠).

(٣) «علو المهمة» للشيخ المقدم (١٤٨).

(٤) أي: أغزل الثياب وأبيعها وأنفق عليك.

(٥) «الآداب الشرعية» للعلامة ابن مفلح الخبلي (٢/١٣٩).

(٦) أي: فقير المال والثياب.

أبا حنيفة خبزه مشوي، وأنت تحتاج إلى المعاش^(١). فقصّرْتُ عن كثيرٍ من الطلب، وأثرت طاعة أبي، ففقدني أبو حنيفة، وسأل عنِّي، فجعلتُ أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم بعد تأثري عنه قال لي: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالمعاش وطاعة والدي. فجلست، فلما انصرف الناس دفع إلى صرّة^(٢)، وقال: استمتع بهذه. فنظرت، فإذا فيها مئة درهم، فقال لي: الزَّمِ الْحَلْقَةَ، إِذَا نِفَدَتْ فَأَعْلَمْنِي.

فلزمتُ الحلقة، فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مئة أخرى، ثم كان يتعاهدني^(٣)، وما أعلمته بخلةٍ قط^(٤)، ولا أخبرته بنفاد شيء، كأنه كان يُخَبِّرُ بنفادها، حتى استغنىت وتمولت^(٥)، فلزمت مجلسه حتى بلغت حاجتي، وفتح الله لي ببركته وحسن نيته ما فتح من العلم والمال؛ فأحسّن الله عنِّي مكافأاته، وغفر له^(٦).

□ ولما حضر أسدُ بن الفرات عند محمد بن الحسن الشيباني قال له: «إِنِّي غريبٌ، قليلُ النفقة، والسماع منك نذرٌ، والطلبةُ عندك كثير، فما حيلتي؟ فقال له محمد: أسمع مع العراقيين بالنهار، وقد جعلت لك الليل وحدك، فتبيت عندي وأسمعني».

قال أسد: فكنت أبكيت عنده، وينزل إلي، ويجعل بين يدي قدحاً من

(١) يقصد أبوه: أن أبا حنيفة مكفيٌ، وأما أنت فمحتاج للتكسب.

(٢) الصرّة: كيس النقود.

(٣) أي: يراعي أحوالى ويسأل عنِّي.

(٤) أي: بنفاد المال.

(٥) أي: فتح الله على من المال

(٦) «تاریخ بغداد» (١٤ / ٢٤٤).

الماء، ثم يأخذُ في القراءة، فإذا طال الليل ونعتُ، ملأ يده ونضع في وجهي الماء، فأنتبه؛ فكان ذلك دأبه ودأبي، حتى أتيتُ على ما أريد من السماع عليه».

وكان محمد بن الحسن بتعهده بالنفقة حين علم أن نفقته نفدت، وأعطاه مرة ثمانين ديناراً^(١) حين رأه يشرب من ماء السبيل^(٢).

□ وبشرُ بن الحارث، الزاهد العابد الورع، تفرَّغ لطلب العلم ونشر السنة، وكان يأكلُ من كسب أخته، ولم ينظر أحدٌ من الناس إلى أن هذه بطالة أو عيَّا^(٣).

□ والإمام ابن خزيمة كان لا يدْخُر شيئاً من أرباح ماله، بل كان ينفقُها على طلبة العلم^(٤).

□ والإمام الليث بن سعد أعطى منصورَ بن عمار كيساً فيه ألف دينار، وقال له: «يا أبا السري، خذ هذا إليك، وصنْ هذا الكلام؟ أن تقفَ به على أبوابِ السلاطين^(٥)، ولك في كل سنةٍ مثلها». فقال منصور: رحمة الله، إن الله قد أنعمَ إليَّ وأحسن. قال: لا ترددْ علىَ شيئاً أصلُك به.

قال منصور: فقبضتها، وخرجت، فلما كان في الجمعة الثانية أتيته، فقال لي: اذكر شيئاً^(٦). فأخذت في مجلس لي، فتكلمت، فبكى الشيخ وكثُر

(١) ديناراً: أي من الذهب.

(٢) «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» لمحمد مخلوف المالكي

(٣) «المنطلق» للشيخ محمد بن أحمد الراشد (١٥ - ط: دار المنطلق).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٤ / ٣٧٠).

(٥) أي: حتى لا تسألهم شيئاً.

(٦) أي: من الوعظ.

بكاؤه، فلما أردت أن أقوم قال: انظر ما في ثني الوسادة^(١). فإذا حسمئت دينار. قلت: رحمة الله، عهدي بصلتك بالأمس!^(٢) قال: لا تردد على شيء أصلك به. فلما كانت الجمعة الداخلة أتيته موعداً، فقال لي: خذ في شيء أذكرك به. فتكلمت، فبكى الشيخ وكثُر بكاؤه، ثم قال لي: يا منصور، انظر ما في ثني الوسادة، فإذا ثلائمة دينار، فقال: أعدّها للحج. ثم قال: يا جارية، هاتي ثياب إحرام منصور. فجاءت بإزار فيه أربعون ثوبًا. قلت: رحمة الله، أكتفي بثوبين. فقال لي: أنت رجل كريم، فيصحبك قومٌ، فأعطيهم. وقال للجارية التي تحمل الثياب معه: وهذه الجارية لك»^(٣).

□ وقال منصور أيضاً: «دخلت على الليث بن سعيد يوماً - وعلى رأسه خادم يغمزه -، فخرج، ثم ضرب الليث بيده إلى مصلاه، فاستخرج من تحته كيساً فيه ألف دينار، ثم رمى بها إلىي، ثم قال: يا أبا السري، لا تعلم بها ابني فتهونَ عليه»^(٤).

وأعطى الليث يوماً أسد بن موسى مالاً، وقال له: «ادفعها إلى بعض أصحاب الحديث مِنْ تراه مستحقاً لها». فأخذها، ففرقها على جماعة منهم^(٥).

□ وقال يحيى بن بکير: «وصل الليث بن سعد ثلاثة أنفس ثلاثة

(١) أي: ما تحتها.

(٢) أي: لا زال معي مال مما أعطيني آخر مرة.

(٣) انظر كتابنا: «من يظلمهم الله» (٤٨/٢).

(٤) «التهذيب الموضوعي لحلية الأولياء» (٨٦).

(٥) «حلية الأولياء» (ج) ٧.

آلاف دينار:

- احترقت دارُ ابن همزة، فبعث إليه بـألف دينار.
 - وحَجَّ^(١)، فأهدي إليه مالكُ بن أنس رُطبًا على طبق، فرَدَ إليه على الطبق ألفَ دينار.
 - ووصل منصورَ بن عمار القاضي بـألف دينار، وقال: لا تُسمح بهذا أبني فتهونَ عليه.
 - بلغ ذلك شعيبَ بن الليث، فوصله بـألف دينار إلَّا دينارًا، وقال: إنَّما نقصتُك هذا التيار لئلاً أساوِي الشِّيخ^(٢) في عطَّيَّته^(٣).
- وها هو العلامة أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي، ذلك الإمام الجبل معلمةُ العلوم^(٤)، ذكر العلماء أنه عانَى كثيرًا من الفقر وشظف العيش حتى يسَّرَ اللهُ له الشِّيخ أبو منصور عبد الملك بن يوسف، فكفاه مشقة البحث عن الرزق، ليتفرغ إلى طلب العلم^(٥).

□ والإمام أبو إسحاق الشيرازي -شِيخ الشافعية وإمامهم-، كان له رفيق وصاحب يقال له: «رافع الحَمَّال»، كان يعمل بالنهار حَمَّالاً، وينفق على نفسه وعلى أبي إسحاق^(٦).

(١) أي: الليث.

(٢) يعني: أباه «الليث».

(٣) «حلية الأولياء» (ج ٧).

(٤) المعلمة: ما يُسمَّى «الموسوعة».

(٥) وهذه الأخيرة لفظة خاطئة.

(٦) «الواضح في أصول الفقه» للإمام ابن عقيل (٩/١) - ط: الرسالة.

□ والإمام بدر الدين الزركشي، لما دخل إحدى المدن ورأى فقهاء الشافعية تجابتنه أخذوه وبنوا له بيته وزوجوه، وجعلوا له راتباً معلوماً، كل هذا نظير نصرة المذهب الشافعي، فما هو إلا فترة من الزمان حتى خرج عليهم بكتابه الفذ: «البرهان في علوم القرآن».

□ والإمام ابن أبي زيد القيرواني المالكي، وكان يُلقب «بملك الصغير»، كان مع عظمته في العلم ذا بُرّ وإثمار وإنفاق على طلبة العلم، وقد وصل الفقيه يحيى بن عبد العزيز العمري حين قدم القيروان بمائة وخمسين ديناً، وجعَّزت بنتُ الشيخ أبي الحسن القابسي بأربعين دينار من مال ابن أبي زيد رحمه الله ^(١).

□ وكان الإمام؟ عبد الغني المقدسي مجتهداً في طلب العلم، يُكرِّم الطلبة وينفق عليهم، وكان بعض العلماء إذا أراد السفر أعطاه نفقات السفر وزوجده بما يحتاج إليه ^(٢).

□ والملك العادل الزاهد نور الدين زنكي، كان يُحب العلماء ويعظمهم، ويرسل إليهم بالمال والعطايا ^(٣).

□ وقال الإمام شعبة: «إذا رأيت المحبرة في بيت إنسانٍ فارحمه، وإن كان في كُمك شيء فأطعْمه» ^(٤).

□ وكان أبو محمد بن ماسي يُرسل بين الفينة والفينية إلى أبي عمر الزاهد

(١) «السير» (١٧ / ١٠ - ١٢).

(٢) «السير» (٤٧١ / ٤٤٣ - ٤٤٣).

(٣) انظر كتابنا «نداء الريان» (١ / ١٥٥).

(٤) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (١ / ١٤٩).

من النفقه لينفق على نفسه ^(١).

□ وكان الإمام أحمد بن حنبل تمر عليه أيام، وتنفق زوجته عليه وعلى أولاده، فقد قال الإمام أحمد لابنه صالح: «كانت والدتك في الغلاء تغزل غزلاً دقيقاً، فتبين الأستار بدرهمين - أو أقل أو أكثر -، فكان ذلك قوتنا» ^(٢).

□ وكان الخليفة المأمون يعطي الأموال إلى إسحاق بن موسى الأنصاري ويقول له: «قسمه على أصحاب الحديث، فإن فيهم ضعفاء» ^(٣).

□ قال أبو منصور علي بن علي الأمين: «ما رجع الخطيب من الشام كانت له ثروة من الثياب والذهب، وما كان له عقب، فكتب إلى القائم بأمر الله: إن علي يصير إلى بيت مال، فائذن لي حتى أفرّقه فيمن شئت. فأذن له، ففرقها على المُحدّثين» ^(٤).

□ وجاء في ترجمة الحافظ ابن حجر رحمه الله وعلاقته بتلاميذه ما يلي: «وكان يُسطّ لهم وجهه، ولا يُغلق دونهم بابه، ويوسّع عليهم من ماله، ويسعى بجهده لقضاء حوائجهم العلمية والدنيوية.

واذا قصده أحدُهم -بعد فراغ الدرس وقد هم بدخول بيته-، وقف له طويلاً لا يفارقه حتى يكون الطالب هو المنصرف، ويعيرهم كتبه، حتى

(١) «فقه الائتلاف» للشيخ الخزندار (٢٢٨).

(٢) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص ١١).

(٣) «مناقب الإمام أحمد» (ص ١٢).

(٤) «مقدمة تاريخ بغداد» بتحقيق الشيخ بشار عواد معروف.

ضاع منها زيادةً على مئة وخمسين سِفَرًا، التمسها في السوق فلم يجدوها، وكثيراً ما يتقدّم الطلبة سِيَّا الغرباء والوافدين عليهـ، منفقاً عليهم، ويعينهم بكتبهـ، ويُعِدُّ عليهم من هداياه وما شاكّلهاـ، وعندما يطلبون منه الإجازات يكتب لهم بهاـ، ويشجّعهم خلاّلها بالإنكباب على طلب العلم وتحصيلهـ، ويعودُ مرضاهمـ، بل ويصبر عليهمـ في اشتغالهم عليهـ في مرضهـ»^(١) انتهىـ.

□ وقال الحافظ أبو طاهر السّلّافيـ: «استفتيت شيخنا إلـكـيا المـهـريـيـ ما يقول الإمامـ وفقـهـ اللهـ تـعـالـىـ: في رـجـلـ أـوـصـىـ بـثـلـثـ مـالـهـ لـلـعـلـمـ وـالـفـقـهـ، أـتـدـخـلـ كـتـبـةـ الـحـدـيـثـ تـحـتـ هـذـهـ الـوـصـيـةـ؟ـ فـقـالـ نـعـمـ»^(٢) انتهىـ.

□ ويقول العـلـامـ الشـنـقـيـطـيـ عنـ نـفـسـهـ: «وـلـمـ حـفـظـتـ الـقـرـآنـ، وـأـخـذـتـ الرـسـمـ الـعـلـمـانـيـ، وـتـفـوـقـتـ فـيـ عـلـىـ الـأـقـرـانـ، عـنـيـتـ بـيـ وـالـدـيـ وـأـخـواـلـيـ أـشـدـ الـعـنـيـةـ»^(٤)، وـعـزـمـواـ عـلـىـ تـوـجـيهـيـ لـلـدـرـاسـةـ فـيـ بـقـيـةـ الـفـنـ، فـجـهـزـتـنـيـ وـالـدـيـ بـجـمـلـيـنـ، أـحـدـهـاـ عـلـيـهـ مـرـكـبـيـ وـكـتـبـيـ، وـالـآـخـرـ عـلـيـهـ نـفـقـتـيـ وـزـادـيـ، وـصـحـبـنـيـ خـادـمـ وـمـعـهـ عـدـدـ بـقـرـاتـ، وـقـدـ هـيـاـتـ لـيـ مـرـكـبـيـ كـأـحـسـنـ، مـاـ يـكـونـ مـنـ مـرـكـبـ، وـمـلـابـسـ كـأـحـسـنـ مـاـ يـكـونـ، فـرـحـاـ بـيـ، وـتـرـغـيـبـاـ لـيـ فـيـ طـلـبـ الـعـلـمـ، وـهـكـذـاـ سـلـكـتـ سـبـيلـ الـطـلـبـ وـالـتـحـصـيلـ»^(٥) انتهىـ.

(١) مقدمة تحقيق «هدى الساري» (١/٥٤) - طبعة: طيبة.

(٢) إلـكـياـ: كـلـمـةـ فـارـسـيـةـ معـناـهـاـ: الـكـبـيرـ الـقـدـرـ الـمـقـدـمـ بـيـنـ الـقـوـمـ، قـالـهـ اـبـنـ خـلـكـانـ كـمـ جاءـ فـيـ «ـصـفـحـاتـ مـنـ صـبـرـ الـعـلـمـاءـ»ـ لـأـبـيـ غـدـدـهـ (صـ٩٢)ـ طـ.ـ الـبـشـائرـ الـإـسـلـامـيـةـ.

(٣) «ـشـدـرـاتـ الـذـهـبـ فـيـ أـخـبـارـ مـنـ ذـهـبـ»ـ لـابـنـ الـعـمـادـ الـخـبـلـيـ (٦/١٥).

(٤) تـُوـقـيـ وـالـدـهـ وـهـوـ صـبـيـ صـغـيرـ.

(٥) مقدمة تحقيق «آثار العـلـامـ الشـنـقـيـطـيـ» (١/٢١)ـ طـعـ عـالـمـ الـفـوـائدـ.

□ وجاء في ترجمة الإمام الغزالى رحمه الله: «ولد بـ «طوس»، وكان أبوه يغزل الصوف ويبيعه في دكانه، فلما حضرته الوفاة أوصى به سوأخيه أحمد - إلى صديق له متصرف من أهل الخير، وقال له: إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط، وإنني أشتتهي استدراك ما فاتتني في ولدي هذين، فعَلِّمْهُما ولا عليك أن تُنفَدَ في ذلك جميع ما أخلفه لهما»^(١) انتهى.

□ وعن أبي جمرة قال: «كنت أقعدُ مع ابن عباس، فكان يجلسُني معه على سريره، فقال لي: أقمْ عندي حتّى أجعل لك سهماً من مالي»^(٢).

□ قال الخطيب البغدادي رحمه الله: «وفرض على الإمام أيضاً أن يأخذ الناس بذلك^(٣)، ويرتب أقواماً لتعليم الجهال، ويفرض لهم الرزق^(٤) من بيت المال»^(٥) انتهى.

□ ويوب باباً في موضع آخر -، فقال: «باب: ذكر ما يلزم الإمام^(٦) أن يفرض للفقهاء ومن نصب نفسه للفتوى من الرزق والعطاء»^(٧).

لا يسوغ للمفتى أن يأخذ الأجرة من أعيان من يفتى به، كالحاكم الذي لا يجوز له أن يأخذ الرزق من أعيان من يحكم له وعليه.

وعلى الإمام أن يفرض لمن نصب نفسه لتدريس الفقه والفتوى في

(١) «أبو حامد الغزالى والتصوف» للشيخ عبد الرحمن دمشقية (ص ٢٧) - طبع دار طيبة.

(٢) البخاري (٥٣)، و«الفقيه والمتفقة» للخطيب البغدادي (٢٤١ / ٢).

(٣) أي: بطلب العلم والبحث عليه.

(٤) أي: المال المعد لأهل الوظائف الدينية.

(٥) «الفقيه والمتفقة» (١ / ١٧٤).

(٦) أي: الحاكم.

(٧) «الفقيه والمتفقة» (٢ / ٣٤٧).

الأحكام ما يُعنيه عن الاحتراف والتكسب، ويجعل ذلك من بيتِ مال المسلمين، فإن لم يكن هناك بيتٌ مال أو لم يفرض الإمام للمفتري شيئاً، واجتمع أهل بلدٍ على أن يجعلوا له من أموالهم رُزقاً ليتفرّغ لفتاويهم وجوابات نواز لهم ساغ لهم ذلك».

فقد كتب عمر بن عبد العزيز لوالى حمص: «انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعطِ كلَّ رجلٍ منهم مئة دينارٍ يستعينون بها على ما هو عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هذا، فإن خيراً أعجله، والسلامُ عليك».

□ فقد كتب عمر بن عبد العزيز لوالى حمص: «انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعطِ كلَّ رجلٍ منهم مئة دينارٍ يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هذا، فإن خيراً أخْرِجْهُ، والسلامُ عليك».

فكان عمرو بن قيس وأسد بن وداعة فيمن أخذها.

□ وعن ابن أبي غيلان قال: «بعث عمرو بن عبد العزيز يزيدَ بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري يفقهان الناس في البدو، وأجرى عليهما رُزقاً، فاما يزيد فقبل، وأما الحارث فأبى أن يقبل، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز بذلك، فكتب عمر: إننا لا نعلم بما صنع يزيدُ بأساً، وأكثرَ اللهُ فيما مثل الحارث بن يمجد»^(١).

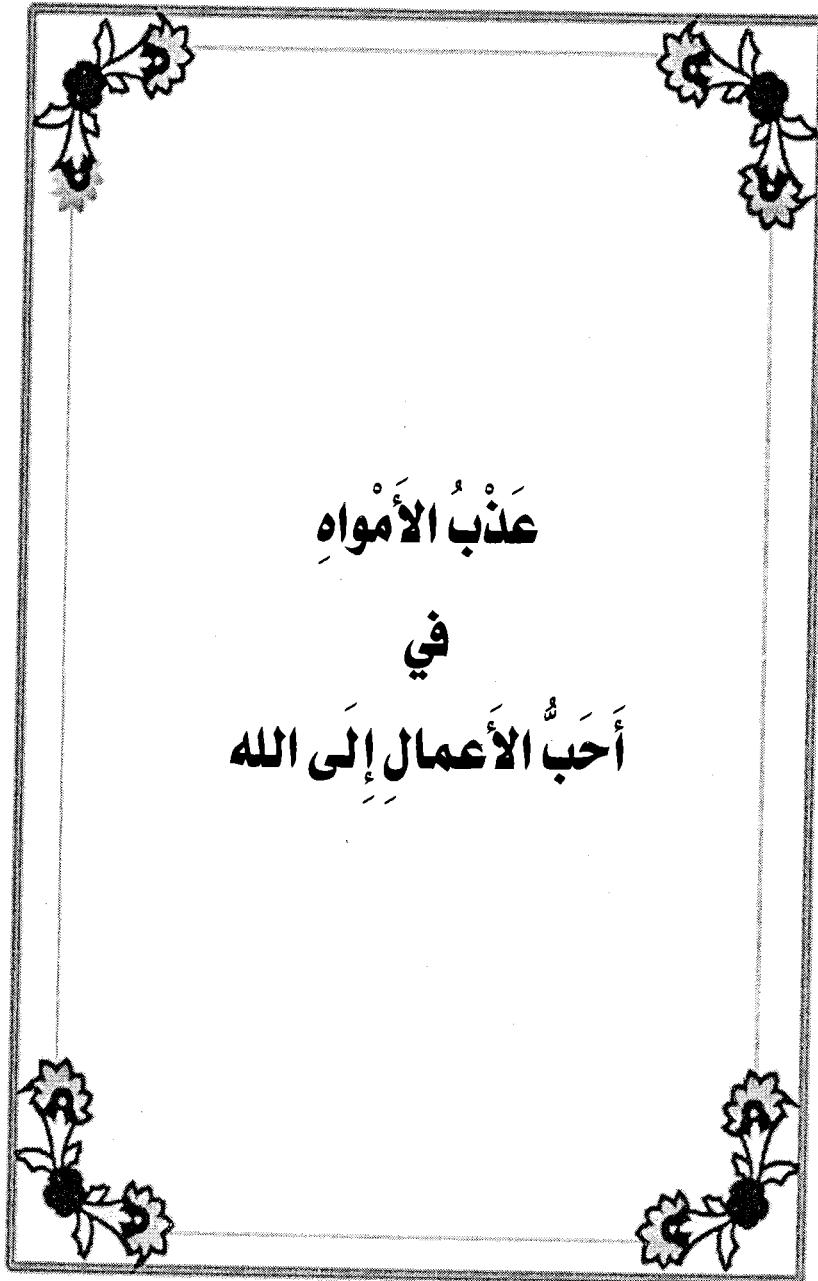
□ وقال الإمام الذهبي في ترجمة الإمام أبي طاهر السّلّفي: «كان حليماً،

(١) «الفقيه والمتفقه» (٢/٣٤٧).

- متحملًا، كفأء الغرباء –أي: يتتحملهم ويقوم بكفایتهم– «^(١)» انتهى.
- وفي ترجمة علي بن عاصم: أن أباه دفع له مئة ألف، وقال: «اذهب، فلا أرى لك وجهاً إلا بمئة ألف حديث».
- وقال الأعمش: «ورث خيثمة بن عبد الرحمن مثني ألف درهم، فأنفقها على الفقراء والفقهاء» ^(٢).
- وفي ترجمة الإمام أبي العلاء الهمданى: «كان يفتح عليه من الدنيا جُمل، فلا يدخلها، بل ينفقها على تلامذته» ^(٣) انتهى.
- ورحم الله العلامة ابن مفلح إذ يقول: «واجب على الإمام أن يتعاهد المعلم والمتعلم، ويزرقهما من بيت المال؛ لأن في ذلك قوامًا للدين، فهو أولى من الجهاد؛ لأنه ربما نشأ الولد على مذهبٍ فاسد، فيتعدّ زواله من قلبه» ^(٤) اهـ.
- وهذا واجب الأمة نحو علماء الشرع وطلبة العلم الأفذاذ أن يفرّغوهم لتحصيل العلم الشرعي وبلغه أقصى المراتب فيه؛ فحاجة الأمة إليهم أشد من حاجتها إلى الطعام والشراب.
- قال يحيى بن معاذ الرازى: «العلماء أرأف بأمة بمحمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم؛ لأنهم يحفظونهم من نار الآخرة وأهواهم، وآباؤهم وأمهاؤهم يحفظوهم من الدنيا وأفاتها» ^(٥).
-
- (١) سير أعلام النبلاء.
- (٢) التهذيب الم موضوعي حلية الأولياء (ص ١٢٠).
- (٣) (السير) ٤٠ / ٢١.
- (٤) (الأدب الشرعية) لابن مفلح (١٤٢ / ٢).
- (٥) نقلًا عن «تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين النووي».

ويندرج هذا الكلام على أفذاذ العلماء من أصحاب التخصصات في كل فن وعلم من علوم الحياة ينفع الأمة، أو تكون الأمة بحاجة ماسة إليه. حتى تناول الأمة المكانة العالية والصدارة بين الأمم في علوم الدنيا ونقول: ﴿هَذِهِ بِضَعْتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥].





تابعونا على مدونة العلوم والتكنولوجيا لنجدوا كل جديد

<https://arabessam.blogspot.com/>

تابعونا على مدونة معلومات و تقنيات لنجدوا كل جديد

<https://web1essam.blogspot.com/>

عَذْبُ الْأَمْوَاهِ فِي أَحَبِ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ

عالي الهمة أحقر الناس على التحلّي بأحب الأعمال إلى الله وأفضليها: لما كانت حبة الله للعبد أغلى كنوز الآخرة.. «ليس الشأن أن تحب.. إنما الشأن أن تحب»؛ لذا كان حِرْص عالي الهمة دائمًا، ونُصب عينيه أبدًا التحلّي بأحب الأعمال وأفضليها عند الله وهي:

١- المداومة على الأعمال:

• فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ»^(١).

٢ ، ٣ ، ٤- الإيمان بالله، ثم صلة الرحم، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

• عن رجل من خثعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله إيمان بالله، ثم صلة الرَّحْمَن، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأبغض الأعمال إلى الله الإشراك بالله، ثم قطيعة الرَّحْم»^(٢).

٥ ، ٦ ، ٧- الصلاة لوقتها، ثم بُرُّ الوالدين^(٣)، ثم الجهاد في سبيل الله:

• عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها، ثم بُرُّ الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله»^(٤).

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود.

(٢) حسن: رواه أبو يعلى وحسنه الألباني في «صحیح الجامع» (١٦٦)، وانظر: «مجموع الزوائد» (٨/١٥١)، و«الترغيب» (٣/٢٢٣).

(٣) بُرُّ الوالدين مُقدَّم على صلة الأرحام.

(٤) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي.

- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل الأعمال الصلاة لوقتها، وبر الوالدين»^(١).
- وعن أم فروة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل الأعمال الصلاة في أول وقتها»^(٢).
- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل الأعمال الصلاة لوقتها، وبر الوالدين، والجهاد في سبيل الله»^(٣).
- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل العمل الصلاة لوقتها، والجهاد في سبيل الله»^(٤).
- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل العمل إيمان بالله، وجهاد في سبيل الله»^(٥).

٨- الحج المبرور:

- عن ماعز رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل الأعمال الإيمان بالله

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، والحاكم عن أم فروة، ورواہ ابن حبان، والحاکم عن ابن مسعود، وصححه الألبانى في «صحیح أبي داود» (٤٥٢)، و«تحقيق المشكاة» (٦٠٧)، و«صحیح الجامع» (١٠٩٣).

(٣) صحيح: رواه الخطيب عن أنس، وأحمد عن رجل، وصححه الألبانى في «الصحيح» (١٤٨٩)، و«صحیح الجامع» رقم (١٠٩٥).

(٤) صحيح: رواه البهقى في «شعب الإيمان»، وصححه الألبانى في «الصحيح» (١٤٨٩)، و«صحیح الجامع» (١١٢٣).

(٥) صحيح: رواه ابن حبان في «صحیحه»، وصححه الألبانى في «الصحيح» (١٤٩٠)، و«صحیح الجامع» (١١٢٤).

وحدة، ثم الجهاد، ثم حجة مبرورة، تفضلسائر الأعمال، كما بين مطلع الشمس إلى مغربها»^(١).

• وقال رسول الله ﷺ: «أفضل الأعمال الإيمان بالله وحده، ثم الجهاد، ثم حجّة بَرَّةً تفضلُ سائرَ الْأَعْمَالِ كَمَا بَيْنَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إِلَى مَغْرِبِهِ»^(٢).

• عن جابر بن عبد الله ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «بر الحج إطعام الطعام، وطيب الكلام»^(٣).

٩- ذكر الله :

• عن معاذ بن جبل ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله»^(٤).

• وعن أبي الدرداء ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أَنْبَئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعُهَا فِي درجاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الْذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان في «صحيحه»، وصححه الألباني في «صحيف الجامع» رقم (١٠٩٢)، وانظر: «تخيير الترغيب» (١٠٧/٢).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن ماعز، وصححه الألباني في «صحيف الجامع» رقم (١٠٩١)، وانظر: «تخيير الترغيب» (١٠٧/٢).

(٣) حسن: رواه الحاكم في «المستدرك»، وكذا رواه أحمد، والطبراني في «الأوسط»، وابن عدي، والخرائطي، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٢٦٤)، و«صحيف الجامع» (٢٨١٩).

(٤) حسن: رواه ابن حبان في «صحيفه»، وابن السنى في «عمل اليوم والليلة»، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن معاذ، وحسنه الألباني في «صحيف الجامع» رقم (١٦٥)، وانظر: «الترغيب» (٢٢٨/٢).

أعناقهم، ويضر بوا عنان قكم؟ ذكر الله»^(١).

١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤ - نفع الناس، أو إدخال السرور على المسلم، أو كشف كربه، أو قضاء دينه، أو طرد الجوع عنه:

• عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله وكلها سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كُرْبَة، أو تقضى عنه دِيَنَا، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليّ من أن اعتكِف في المسجد شهراً، ومن كف غضبه، ستر الله عورته، ومن كظم غيظاً، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضي يوم القيمة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبَت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل، كما يفسد الخلل العسل»^(٢).

• وقال رسول الله ﷺ: «أحب العباد إلى الله تعالى أنفعهم لعياله»^(٣).

• وقال رسول الله ﷺ: «أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سروراً، أو تقضي عنه دِيَنَا، أو تطعمه خبزاً»^(٤).

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم عن أبي الدرداء، وصححه النووي فى «الأذكار»، والألبانى فى «صحيح الجامع» (٢٦٢٩)، و«تحقيق المشكاة» (٢٢٦٩)، وانظر: «تخيير الترغيب» (٢/٢٢٨).

(٢) حسن: رواه ابن أبي الدنيا فى «قضاء الحاجات»، والطبرانى فى «الكبير» عن ابن عمر، وحسنه الألبانى فى «الصحيحة» رقم (٩٠٦)، و«صحيح الجامع» رقم (١٧٦).

(٣) حسن: رواه عبد الله بن أحمد فى «زوائد الزهد» عن الحسن مرسلاً، وحسنه الألبانى فى «صحيح الجامع» رقم (١٧٢).

(٤) حسن: رواه ابن أبي الدنيا فى «قضاء الحاجات» والبيهقى فى «شعب الإيمان» عن أبي



١٥- حُسْنُ الْخُلُقِ :

• عن أَسَّاَمَةَ بْنَ شَرِيكَ هَبَّابَتْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحَبُّ عِبَادَ اللَّهِ إِلَيْهِ أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(١).

• وَعَنْ أَبِنِ عُمَرَ هَبَّابَتْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الْمُؤْمِنِينَ أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٢).

١٦، ١٧، ١٨- سلامة المسلمين من لسان العبد ويده، وهجران ما نهى الله عنه، ومجاهدة النفس في ذات الله عَزَّوجَلَّ:

• عَنْ أَبِنِ عُمَرَ هَبَّابَتْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِسْلَامًا مَنْ سَلِيمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَأَفْضَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَأَفْضَلُ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، وَأَفْضَلُ الْجَهَادِ مِنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّوجَلَّ»^(٣).

• وَعَنْ أَبِي ذِرَّ هَبَّابَتْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الْجَهَادِ أَنْ يُجَاهِدَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ وَهُوَهُ»^(٤).

هريرة، وأبي عدي عن ابن عمر، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٤٩٤)، و«ال صحيح الجامع» (١٠٩٦).

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٣٣)، و«ال صحيح الجامع» (١٧٩).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم في «المستدرك» عن ابن عمر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٧٤)، و«ال صحيح الجامع» (١١٢٨).

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، وأبي نصر، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٩١)، و«ال صحيح الجامع» (١١٢٩).

(٤) صحيح: رواه ابن النجار، وأبو نعيم، والديلمي عن أبي ذر، وصححه الألباني في =

١٩- التسبیح: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَوْ سُبْحَانَ رَبِّي وَبِحَمْدِهِ»، ثلَاثًا:

• عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»^(١).

• وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ رَبِّي وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ رَبِّي وَبِحَمْدِهِ»^(٢).

٢٠- سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ:

• عن عمارة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا يُضُرُّكُ بِأَيِّنَّ بَدَأْتَ»^(٣).

• وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الْكَلَامِ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»^(٤).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أَدْلُكُ عَلَى غَرَاسٍ، هُوَ خَيْرٌ مِّنْ هَذَا؟ تَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، يُغَرِّسُ لَكَ بِكُلِّ كَلْمَةٍ مِّنْهَا شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ»^(٥).

(١) الصحيحـة (٢٤٩٦)، وـ«صحيح الجامـع» رقم (١٠٩٩).

(٢) رواه أـحمد، ومـسلم، والـترمـذـي عن أبي ذـر.

(٣) صحيحـ: رواه التـرمـذـي، والـحاـكمـ في «المـسـتـدرـكـ»، والـبيـهـقـيـ في «ـشـعـبـ الإـيـانـ»، وـصـحـحـهـ الـأـلـبـانـيـ في «ـصـحـيـحـ الـجـامـعـ» رقم (١٧٥)، وـانـظـرـ: «ـالـتـرغـيـبـ» (٢٤٢/٢).

(٤) رواه أـحمد، ومـسلم.

(٥) صحيحـ: رواه أـحدـ عن رـجـلـ، وـصـحـحـهـ الـأـلـبـانـيـ في «ـصـحـيـحـ» (١٤٩٨)، وـ«ـصـحـيـحـ الـجـامـعـ» (١١٢٨).

(٦) صحيحـ: رواه ابن مـاجـهـ، والـحاـكمـ في «ـالـمـسـتـدرـكـ»، وـصـحـحـهـ الـأـلـبـانـيـ في «ـصـحـيـحـ»

٢١- التهليل :

• عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»^(١).

• وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»^(٢).

٢٢- التحميد :

• سرّ قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أن أفضل الدعاء الحمد لله».

• عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم أدلوك على ما هو أكثر من ذكرك الليل مع النهار؟ تقول: الحمد لله عدد ما خلق، والحمد لله ملء ما خلق، الحمد لله عدد ما في السموات وما في الأرض، الحمد لله عدد ما أحصى كتابه، والحمد لله على ما أحصى كتابه، والحمد لله عدد كل شيء، والحمد لله ملء كل شيء، وتسبّح الله مثلهم، تعلّمهم وعلّمهم عقبك من بعديك»^(٣).

الجامع»، وانظر: «الترغيب» (٢٤٤ / ٢).

(١) حسن: رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وحسنه الألبانى فى «الصحيحه» (١٤٩٧).

(٢) حسن: رواه مالك عن طلحة بن عبيد بن كريز مرسلًا، وحسنه الألبانى فى «الصحيحه» (١٥٠٣)، و«صحیح الجامع» (١١٠٢).

(٣) صحيح: رواه الطبرانى فى «المعجم الكبير» عن أبي أمامة، وصححه الألبانى فى «صحیح الجامع» (٢٦١٥)، وانظر: «الترغيب» (٢٥٢ / ٢).

٢٣- الدُّعَاء:

• قال رسول الله ﷺ: «أفضل العبادة الدُّعَاء»^(١).

٢٤- إصلاح ذات البَيْنِ:

• عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلوة والصدقة؟ إصلاح ذات البَيْنِ؛ فإن فساد ذات البَيْنِ هي الحالقة»^(٢).

٢٥- العمل الصالح في عشر ذي الحجة الأولى:

• عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى من هذه الأيام» —يعني: أيام العشر— قالوا: يا رسول الله! ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»^(٣).

• وقال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إلى الله العمل فيهنَّ من أيام العشر، فأكثروا فيهنَّ من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير»^(٤).

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس، وابن عدي عن أبي هريرة، وابن سعد عن النعمان بن بشير، وصححه الألباني في «الصحيح» (١٥٧٩)، و«ال صحيح الجامع» (١١٢٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى عن أبي الدرداء، ورواه ابن حبان، وصححه الألباني في «غاية المرام» (٤١٤)، و«التحقيق المشكاة» (٥٠٣٨)، و«ال صحيح الجامع» (٥٠٣٨).

(٣) رواه البخاري، والترمذى، وأبو داود، وابن ماجه، والطبرانى في «المعجم الكبير».

(٤) إسناده جيد: رواه الطبرانى في «الكتاب» عن ابن عباس، ورواه أحمد في «مسنده» عن

٢٦، ٢٧ - سلامة القلب من الإثم والبغى والحسد وصدق اللسان، ثم كراهة الدنيا وحب الآخرة:

• عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس ذو القلب المحموم واللسان الصادق»، قيل: ما القلب المحموم؟ قال: «هو التقى النقى الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد». قيل: فمن على أثراه؟ قال: «الذى يشنأ الدنيا، ويحب الآخرة». قيل: فمن على إثراه؟ قال: «مؤمن في خلق حسن»^(١).

٢٨، ٢٩ - تخويف أعداء الله، ثم عزلة الناس:

• عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخیر الناس منزلة؟ رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله حتى يموت أو يُقتل. ألا أخبركم بالذى يتلوه؟ رجل معتزل في شعب، يقيم الصلاة، ويؤتى الزکاة، ويعتزل شرور الناس. ألا أخبركم بشر الناس؟ رجل يُسأَل بالله ولا يعطي»^(٢).

ابن عمر، وإنساده جيد، وقال الم testimي في «جمع الزوائد» (٤/١٧): «رجاوه رجال الصحيح».

(١) صحيح: رواه الحكيم، والطبراني في «الكبير» وأبو نعيم في «الخلية»، والبيهقي في «شعب الإثبات» عن ابن عمر، وهو عند ابن ماجه عن ابن عمرو شطره الأول بنحوه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٤٨)، و«صحيح الجامع» (٣٢٩١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنمسائى، وابن حبان. وصححه الألبانى في «الصحيح» (٢٥٥)، و«تحقيق المشكاة» (١٨٨١)، (١٩١٤)، و«صحيح الجامع» (٢٦٠١)، و«تخریج الترغیب» (٢/١٧٣).

• وقال رسول الله ﷺ: «خير الناس في الفتنة رجل أخذ بعنان فرسه خلف أعداء الله، يتحيفهم ويتحيفونه، أو رجل معتزل في بادية يؤدّي حق الله الذي عليه»^(١).

- ٣٠ - الورع :

• قال رسول الله ﷺ: «خير دينكم الورع»^(٢).

- ٣١ - التيسير :

• قال رسول الله ﷺ: «خير دينكم أيسره»^(٣).

- ٣٢ - تعليم القرآن وتعلمه :

• قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(٤).

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس، والطبراني في «المعجم الكبير» عن أم مالك البهذية، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٩٨)، و« الصحيح الجامع» (٣٢٩٢).

(٢) صحيح: رواه أبو الشيخ في «الثواب» عن سعد، ورواه الحاكم، والديلمي، والبزار، والطبراني في «الأوسط» عن حذيفة، وصححه الألباني في « الصحيح الترغيب» (٦٥)، و« الصحيح الجامع» رقم (٣٣٠٨).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في «الأدب»، والطبراني في «الكتاب» عن مجhn بن الأدرع، والطبراني في «الكتاب» عن عمران بن حصين، والطبراني في «الأوسط»، وابن عدي، والضياء عن أنس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٣٥)، و« الصحيح الجامع» (٣٣٠٩).

(٤) رواه أحمد، والبخاري، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه عن عثمان، ورواه الترمذى عن علي.

٣٣ - ٣٤ - إطعام الطعام، ورد السلام:

• عن صحيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «خُرُوكُمْ مِنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَرَدَ السَّلَامَ»^(١).

٣٥ - مَنْ يُرجِي خَيْرًا، وَيُؤْمِنُ شَرًّا:

• قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «خُرُوكُمْ مِنْ يُرجِي خَيْرًا، وَيُؤْمِنُ شَرًّا، وَشَرُوكُمْ مِنْ لَا يُرجِي خَيْرًا وَلَا يُؤْمِنُ شَرًّا»^(٢).

٣٦ - حُسْنُ الْمَعْالَمَةِ لِلأَهْلِ وَالنِّسَاءِ:

• قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «خُرُوكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»^(٣).

• وقال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «خُرُوكُمْ خَيْرُكُمْ لِلنِّسَاءِ»^(٤).

٣٧ - حسن القضاء للدين:

• عن عرباض رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «خُرُوكُمْ خَيْرُكُمْ قَضَاءً»^(٥).

(١) حسن: رواه أبو يعلى، والحاكم في «المستدرك» عن عمران بن حصين، ورواه الطياليسي، وأحمد في «مسنده»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٤٠)، و« الصحيح الجامع» (٣٣١٨).

(٢) صحيح: رواه أبو يعلى عن أنس، ورواه أحمد، والترمذى عن أبي هريرة، وصححه الألباني في « الصحيح الجامع» (٣٣٢٠)، و«تحقيق المشكاة» (٩٤٩٣).

(٣) صحيح: رواه الترمذى عن عائشة، وابن ماجه عن ابن عباس، والطبرانى في «الكبير» عن معاوية، وصححه الألبانى في «الصحيحة» (٢٨٥)، و« الصحيح الجامع» (٣٣١٤).

(٤) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس، وصححه الألبانى في «الصحيحة» (٢٨٥)، و« الصحيح الجامع» (٣٣١٦).

(٥) صحيح: رواه النسائي، وأحمد، وابن ماجه، والحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في



• وقال رسول الله ﷺ: «خير الناس خيرهم قضاء»^(١) .

• وقال رسول الله ﷺ: «إن خياركم أحسنكم قضاء»^(٢) .

• وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ خيارَ عبادِ اللهِ الْمُؤْفُونَ الْمُطَيَّبُونَ»^(٣) .

٣٩، ٣٨- الصبر والسماحة:

• قال رسول الله ﷺ: «أفضل الإيمان الصبر والسماحة»^(٤) .

٤٠- قيام الليل، والثبات عند الهزيمة:

• عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ثلاثة يحبهم الله، ويضحك إليهم، ويستبشر بهم الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه الله عزوجل إماماً أن يُقتل، وإنما أن ينصره الله ويكتفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي كيف صبر لي بنفسه؟ والذي أمرأ حسنة وفراش لين حسن، فيقوم من الليل، فيقول: يذُرْ شهوته ويدركني، ولو شاء رقد، والذي إذا كان في سفر، وكان معه

«سننه»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣١٣).

(١) أي: وفاة لما عليهم من الحقوق.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه عن عرباض بن سارية، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٢٩٠).

(٣) رواه أحمد، والبخاري، والنساء، وأبن ماجه عن أبي هريرة.

(٤) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم في «الحلية» عن أبي حميد الساعدي، وأحمد بن عائشة، والطبراني في «الصغير»، وأبي حميد البزار، وأبو الشيخ، وأبو يعلى، والعقيلي عن عائشة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٠٦٢).

(٥) صحيح: رواه الديلمي في «مسند الفردوس» عن مقلن بن يسار، والبخاري في «التاريخ» عن عمير الليثي، وكذا رواه أحمد، والبيهقي في «سننه» عن عمرو بن عبسة، وأحمد بن عبادة، والحاكم عن عمير الليثي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٩٥).

ركب، فسهروا، ثم هجعوا، فقام من السحر في ضرّاء وسرّاء»^(١).

٤٢- صيام يوم وافطار يوم صيام داود:

• عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سُدُسَه، ويصوم يوماً ويُفطر يوماً»^(٢).

٤٣- من سفك دمه وعقر جواده، وثبت في الصف الأول:

• عن أبي أمامة رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الشهداء من سفك دمه وعقر جواده»^(٣).

• وعن نعيم بن همار رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الشهداء الذين يُقتلون في الصف الأول فلا يلْفِتون وجوههم حتى يُقتلوا، أولئك الذين يتلَبَّطُون^(٤) في الغُرف الْعُلَى من الجنة، يضحك إليهم ربُّك، فإذا ضحِّك ربُّك إلى عباد في موطنِ فلا حساب عليه»^(٥).

□ وأفضل الشهداء أيضاً - كما مرّ - من سفك دمه، وأخذ ماله».

(١) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» وقال: إسناده حسن، وقال المishi في «المجمع»: رجاله ثقات، وحسنَه الألباني، انظر: «صحيح الترغيب» رقم (٦٢٥).

(٢) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، ورواه أحمد في «مسنده».

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة، ورواه أحمد، وأبو داود عن عبد الله ابن حبشي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٠٤)، و«صحيح الجامع» (١١٠٨).

(٤) أي: يتمَّغون.

(٥) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير»، وأبو يعلى، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٠٧)، وانظر: «الترغيب» (٢/١٩٣).

ولهذه الأعمال العالية مراتب، يحرص عالي الهمة على أعلاها وأفضليها:

كذلك فأحب الأعمال الصلاة لوقتها ولها مراتب.

• قال رسول الله ﷺ: **«أفضل الصلاة طول القنوت»**^(١).

• وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفضل الصلوات عند الله صلاة الصبح يوم الجمعة في جماعة»**^(٢).

• وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلّا المكتوبة»**^(٣).

• وقال رسول الله ﷺ: **«أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة في جوف الليل، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرّم»**^(٤).

• وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفضل الساعات جوف الليل الأخير»**^(٥).

(١) رواه أحمد، ومسلم، والترمذى، وابن ماجه عن جابر، ورواه الطبرانى فى «الكبير» عن أبي موسى، وعن عمرو بن عبسة.

(٢) صحيح: رواه أبو نعيم فى «الحلية»، والبيهقي فى «شعب الإيمان»، وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (١٥٦٦)، و« الصحيح الجامع» (١١١٩).

(٣) صحيح: رواه النسائي، والطبرانى فى «الكبير»، ورواه أحمد، وأبو داود، وأبو عوانة، وصححه الألبانى فى « الصحيح أبي داود» (١٣٠١)، و« الصحيح الجامع» (١١١٧).

(٤) رواه مسلم، وأصحاب السنن الأربع عن أبي هريرة، والروياني فى «مسنده»، والطبرانى فى «الكبير» عن جنديب، وصححه الألبانى فى «الإرواء» (٤٤٩)، و« الصحيح الجامع» (١١١٦).

(٥) صحيح: رواه الطبرانى فى «الكبير»، وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٥٥١)، و« الصحيح الجامع» (١١٠٦).

وأفضل الصدقات:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «أفضل الصدقة جهد المُقلّ، وابداً بمن تعول»^(١).
- وقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرّحم الكاش»^(٢).
- وقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «أفضل الصدقات ظلُّ فسطاط في سبيل الله عجلة، أو منحة خادم في سبيل الله، أو طرفة فَحْل في سبيل الله»^(٣).
- وقال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «أفضل الصدقة سقي الماء»^(٤).
- وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العلّى خير من اليد السُّفلى، وابداً بمن تعول»^(٥).

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم في «المستدرك»، وصححه الألباني في «الإرواء» (٨٣٤، ٨٩٧)، و« الصحيح الترغيب» (٨٧٤)، و«الصحيحة» (٥٦٦)، و« الصحيح الجامع» (١١١٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير» عن أبي أيوب وعن حكيم بن حزام، والبخاري في «الأدب»، وأبو داود، والترمذى عن أبي سعيد، والطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك» عن أم كلثوم بنت عقبة، وصححه الألباني في «الإرواء» (٨٩٢)، و« الصحيح الترغيب» (٨٨٤، ٨٨٥)، و« الصحيح الجامع» (١١٠).

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذى عن أبي أمامة، والترمذى عن عدي بن حاتم، والحاكم، وابن عساكر، وحسنه الألباني في « الصحيح الجامع» (١١٠٩).

(٤) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان والحاكم عن سعد بن عبادة، وأبو يعلى عن ابن عباس، وحسنه الألباني في « الصحيح الترغيب» (٩٥١)، و« التحقيق المشكاة» (١٩١٢)، و« الصحيح الجامع» (١١١٣).

(٥) رواه أحمد، ومسلم، والنسائي.

وأفضل الصيام:

• قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصوم صوم أخي داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفتر إذا لاقى» ^(١).

• قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان، الشهر الذي تدعونه المحرّم» ^(٢).

وأفضل الحج:

• قال رسول الله ﷺ: «أفضل الحج العَجُّ والثَّجُّ» ^(٣).

وأفضل الجهاد:

• قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائز» ^(٤).

(١) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى عن ابن عمرو، وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (١١٢٠).

(٢) صحيح: رواه النسائى عن جنذب، وصححه الألبانى فى «الإرواء» (٩٥١)، و«صحيح الجامع» (١١٢١).

(٣) حسن: رواه الترمذى عن ابن عمر، وابن ماجه، والحاكم فى «المستدرك»، والبيهقى فى «سننه» عن أبي بكر، وأبو يعلى عن ابن مسعود. وحسنه الألبانى فى «الصحيحة» (١٥٠٠)، و«صحيح الجامع» (١١٠١).

(٤) صحيح: رواه ابن ماجه عن أبي سعيد، وأحمد، وأبو ماجه، والطبرانى فى «الكبير»، والبيهقى عن أبي أمامة، وأحمد، والنسائى، والبيهقى فى «شعب الإيمان» عن طارق ابن شهاب، وأبو داود، والحميدى، والحاكم عن أبي سعيد، والروياني، وابن عدي عن أبي أمامة، والضياء عن طارق، والعقيلي عن جابر، والحاكم عن عمير بن قتادة وصححه الألبانى فى «الصحيحة» رقم (٤٩١)، و«صحيح الجامع» رقم (١١٠٠).

وسيد الاستغفار:

• عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلّك على سيد الاستغفار؟ اللهم أنت رب لا إله إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهلك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك عليّ، واعترف بذنبي، فاغفر لي ذنبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، لا يقولها أحد حين يُسمى، فيأتي عليه قدر قبل أن يصبح إلا وجبت له الجنة، ولا يقولوها حين يُصبح، فيأتي عليه قدر قبل أن يسمى إلا وجبت له الجنة»^(١).

٤٤- وكلمة من تحت العرش، من كنز الكنز «لا حول ولا قوّة إلا لله»:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلّك على كلمة من تحت العرش، من كنز الجنة؟ تقول: لا حُول ولا قوّة إلا بالله، فيقول الله: أسلم عبدي واستلم»^(٢).

٤٥- ونختتم بأحب الأديان إلى الله:

• عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأديان إلى الله الحنيفة السمحّة»^(٣).

(١) صحيح: رواه الترمذى عن شداد بن أوس، وصححه الألبانى فى «الصحيح» (١٧٤٧)، وهو عند أحمد، والبخارى والنسائى، والحاكم بلفظ «سir الاستغفار..» وليس عندهم ذكر القدر.

(٢) صحيح: رواه الحاكم «المستدرك»، وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٢٦١٤)، وانظر: «الترغيب» (٢٥٥ / ٢).

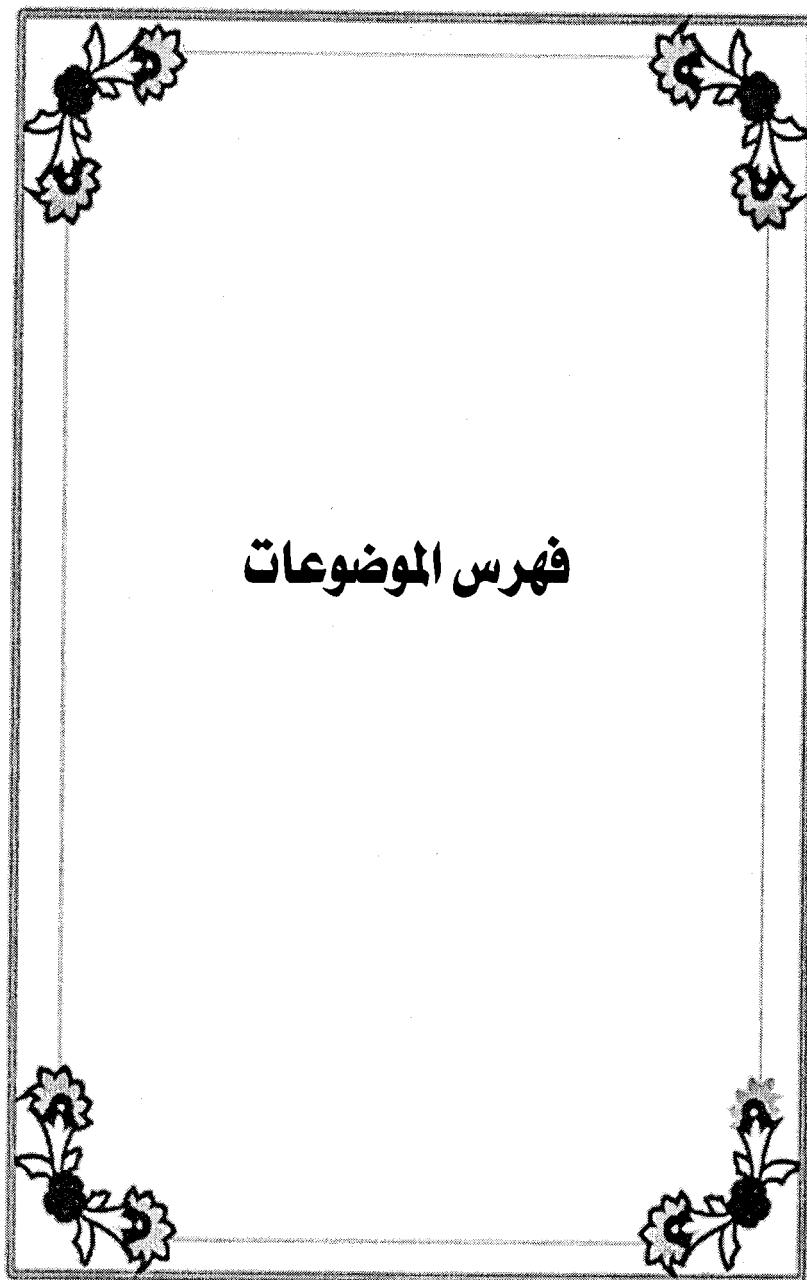
(٣) حسن: رواه أحمد، والبخارى فى «الأدب»، والطبرانى فى «الكبير» عن ابن عباس، وحسنه الألبانى فى «الصحيح» (٨٨١)، و«صحيح الجامع» (١٦٠).



- وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «أفضل الإسلام الخيفية السمحة»^(١).



(١) حسن: رواه الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس، ورواه أحمد في «الزهد» عن عبد العزيز بن مروان مرسلاً، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٠٩٠).



فهرس الموضوعات

تابعونا على مدونة العلوم والتكنولوجيا لنجدوا كل جديد

<https://arabessam.blogspot.com/>

تابعونا على مدونة معلومات و تقنيات لنجدوا كل جديد

<https://web1essam.blogspot.com/>

مقدمة في حضارة الإسلام

مقدمة في حضارة الإسلام

- ١١** حضارة الإسلام:
من روائع حضارتنا وخصائصها:
إن أبرز ما يلفت نظر الدارس لحضارتنا أنها تميزت
بالخصائص التالية:
- ١٩** آثار حضارتنا في التاريخ:
أولها: في ميدان العقيدة والدين:
ثانيها: في ميدان الفلسفة والعلوم:
ثالثها: في ميدان اللغة والأدب:
رابعاً: في ميدان التشريع:
خامسها: في مفهوم الدولة وعلاقة الشعب الحكومة:
لأنْ يُعدَّمُ الْحُقُّ أَنْصَارًا مِنَ الْكُبَرَاءِ:
- ٣٠** آراء المستشرقين في الحضارة الإسلامية:
١ - شهادة المؤرخ الإنجليزي ويلز:
٢ - شهادة العلامة بريفولت:
٣ - شهادة المفكر ليوبولد فايس:
٤ - شهادة الكاتب الفرنسي أناتول فرانس:
٥ - شهادة المسيو سيديو:
٦ - شهادة العلامة جورج سارتون:

- ٧ - شهادة الدكتورة لوبيجي رينالدي: ٣٣
- ٨ - شهادة البروفسور غريسيب، مدير جامعة برلين: ٣٣
- ٩ - شهادة آلبر شامدرور: ٣٤
- ١٠ - شهادة المستشرق الفرنسي جاك رسيلر: ٣٤
- ١١ - شهادة رينان: ٣٤
- ١٢ - شهادة غوستاف لوبيون: ٣٥
- ١٣ - شهادة جلين ليونارد: ٣٥
- ١٤ - شهادة كارادي فو: ٣٦
- ١٥ - شهادة زيفريد هونكه: ٣٦
- ١٦ - شهادة بلسنز: ٣٨
- ١٧ - شهادة ييدي توميسون: ٣٩
- ١٨ - شهادة أوسلر: ٣٩
- ١٩ - شهادة جوان فرينيه: ٣٩
- ٢٠ - شهادة براند تراندجون: ٤٠
- ٢١ - شهادة دوبير: ٤٠
- ٢٢ - شهادة نيكلسون: ٤١
- ٢٣ - شهادة وايدمان: ٤١
- ٢٤ - شهادة كمستون: ٤١
- ٢٥ - الباحث الألماني الدكتور بير بورمان: ٤١
- ٢٦ - شهادة ي. هل: ٤٢
- ٢٧ - شهادة جوستاف!. فون جرونيباوم: ٤٣
- ٢٨ - شهادة ماير هو夫: ٤٣

٤٣	- شهادة تشرش:	٢٩
٤٣	- شهادة تومبسون:	٣٠
٤٤	- شهادة ماكس فانتيجو:	٣١
٤٤	- شهادة الزعيم الهندي «جواهر لال نهرو»:	٣٢
٤٥	- شهادة الأمير البريطاني تشارلز:	٣٣
٤٥	- شهادة الموسوعة البريطانية:	٣٤
٤٥	- شهادة البروفسور هوكينج:	٣٥
٤٦	- شهادة الدكتور كمبل:	٣٦
٤٦	- شهادة أندرو ديكسون وايت:	٣٧
٤٧	- شهادة سميث:	٣٨
٤٧	- شهادة سنجر:	٣٩
٤٧	- شهادة جون هرمان راندال:	٤٠
٤٨	- شهادة الدكتور لويس يونج:	٤١
٤٩	- موريس لومبار:	٤٢
٤٠	- الكاتب الهندي:	٤٣
٤٠	- أيانيز:	٤٤
٤١	- العالمة «درير»:	٤٥
٤٢	- سارتون:	٤٦
٤٢	- هربرت فيشر:	٤٧
٤٣	- برنارد لويس:	٤٨
٤٤	- مارسيل بوازار:	٤٩
٤٦	- المؤرخ الأمريكي دراير:	٥٠

- ٥٧ - مرة أخرى مع الأمير شارلز وليّ عهد بريطانيا: ٥١
 ٥١ - صموئيل هتنجتون صاحب نظرية «صراع الحضارات»
- ٥٩ - وتراجعه:
- ٦١ - ٥٢ - روبين كوك وزير خارجية بريطانيا:
- ٦٣ - شمس العرب تسطع على الغرب:
- نهاذج من علوم المسلمين في الحضارة الإسلامية وذكر علاة
 ٦٨ - الهمم الروّاد الأوائل للدنيا بأسرها:
- ٦٨ - علم الطب في الحضارة الإسلامية:
- ٧٠ - طب العيون «الكحالة»:
- ٧٠ - أبو القاسم الزهراوي أعظم الجراحين في التاريخ:
- ٧٢ - ابن سينا الطيب الرئيس:
- ابن النفيس الفقيه الشافعي مكتشف الدورة الدمويّة الصغرى
 ٧٥ - (٦٨٧هـ/١٢١٠-١٢٨٨م):
- ٧٧ - نشأة ابن النفيس العالم:
- ٧٨ - العالم المغمور:
- ٨٠ - ابن النفيس والدورة الدموية:
- ٨٢ - مؤلفات ابن النفيس:
- ٨٥ - المسلمين وابتکار المستشفىات:
- ٩٠ - الرازمي معجزة الطب عبر الأجيال:
- ٩٧ - ومن نوابغ المسلمين في الطب:
- ٩٨ - ابن الجزار:
- ٩٨ - علي بن عباس:

٩٩.....	ابن رشد:
٩٩.....	ابن خاتمة:
٩٩.....	العلاجات والعقاقير:
١٠٠.....	الأدوات الطبية:
١٠٠.....	المصنفات في الطب و العقاقير:
١٠٠.....	ابن البيطار إمام الصيادلة:
٢- الكيمياء وعلوّهم علماء المسلمين فيها:	١٠١.....
أبرز علماء المسلمين في الكيمياء:	١٠٤.....
١- أبو الكيمياء جابر بن حيان الصوفي مؤسس علم الكيمياء:	١٠٤.....
جابر بن حيان أوليات وإنجازات:	١٠٧.....
مؤلفات جابر:	١٠٩.....
٢- ذو التون المصري:	١١١.....
٣- ابن وحشية:	١١١.....
٤- أبو بكر محمد بن زكريا الرازى:	١١١.....
٣- علم الجغرافيا والتدوين فيه لدى الرؤاد المسلمين العظام:	١١٢.....
السلمون وإثبات كروية الأرض:	١١٣.....
وها هي أقوال علماء الجغرافيا المسلمين:	١١٤.....
من إنجازات المسلمين في علم الجغرافيا:	١١٦.....
خطوط الطول وخطوط العرض:	١١٦.....
قياس محيط الأرض:	١١٧.....
دوران الأرض حول نفسها:	١١٨.....
علم الخرائط:	١١٩.....

١٢١	تصحيح أخطاء السابقين:
١٢٣	علو همة الرُّوَاد المسلمين في الكشوف الجغرافية:
١٢٤	استكشاف القارات:
١٢٤	١ - في آسيا:
١٢٤	٢ - في أوروبا:
١٢٥	٣ - في أفريقيا:
١٢٥	الاكتشافات البحرية:
	اكتشاف القارة السادسة في القطب الجنوبي!! وخرطة بيري
١٣٠	ريس:
١٣٢	رُوَاد وعلماء جغرافيون عَلَتْ هممهم وسبقوا عصرهم:
١٣٢	١ - الإِصطَرْخِي (الكرخي) ت ٣٤٦ هـ:
١٣٦	٢ - البَلْخِي:
١٣٦	٣ - الجيهاني:
١٣٧	٤ - ابن حَوْقَل:
١٣٧	٥ - المسعودي:
١٣٧	٦ - المقدسي:
	العالم الفلكي المسلم ثابت بن قرّة بن عرفان الحرّاني (٢٢١-٩٢١ هـ) -
١٣٨	(٨٣٦-٩٠١ م):
١٣٩	٧ - البتّاني:
١٤٠	قالوا عن البتّاني محمد بن جابر بن سنان:
١٤٢	٨ - الإِدْرِيسِي:
	البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ (٣٦٢-٤٤٠ هـ / ٩٦٣)

١٤٣	: ١٠٤٨
١٤٨	الخوارزمي مؤسس علم الجبر:.....
١٥٢	مؤلفات الخوارزمي:.....
١٥٥	علم الفلك:.....
المحدث الرُّوِدَانِي السوسي صاحب «جمع الفوائد من جامع الأصول وجمع الزوائد» وصاحب «كرة التوقيت والهيئة»: ١٥٧	
١٥٨	العلامة الرياضي «غياث الدين جمشيد الكاشي»:.....
١٥٨	علم البصريات في الحضارة الإسلامية ورائداته الحسن بن الهيثم:
١٥٨	الفيلسوف أبو يوسف الكندي صاحب كتاب «علم المناظر»: ..
أبو علي الحسن بن الهيثم «رائد علم البصريات» (٣٥٤ - ٤٣٠ هـ):.....	
١٦٤	كتاب المناظر لابن الهيثم ثورة في علم البصريات:.....
١٦٦	ابن الهيثم وعلماء الغرب:.....
العلامة ابن خلدون رائد علم الاجتماع والتاريخ (٧٣٢ - ١٣٣٢ / ١٤٠٦ هـ):.....	
١٧٠	مؤلفاته:.....
١٧١	أفكاره:.....
١٧٢	كتاب «تاريخ ابن خلدون»:.....
١٧٣	ثناء العلماء عليه:.....
١٧٥	دراسات عن ابن خلدون:.....
١٧٦	المؤسسات الخيرية في أيام الحضارة الإسلامية
١٧٧	عنوان علوًّا الهمة.....

١٨٢	من مبرّات صلاح الدين الأيوبي:.....
١٨٣	المدارس والمعاهد العلمية في حضارتنا:.....
١٨٥	الجامع الأزهر كمدرسة:
١٨٩	المستشفيات:
٢٠٥	المكتبات:
والآن لنذكر بعض الأمثلة عن المكتبات العامة والخاصة التي كان لها ذكر في التاريخ من أشهر المكتبات:.....	
٢٠٩	مكتبة الحكم بقرطبة بالأندلس أكبر مكتبات العالم:.....
٢١٠	العمران في حضارتنا:
٢١٦	المساجد والمدن.. مسجد قرطبة يدل على علو همة المسلمين:....
٢١٦	قرطبة ومسجدها في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي): ..
٢١٩	ومن معالم قرطبة الحضارية:
الستان اللامع.. أبو العمارة العثمانية.. وشيخ مهندسيها سنان باشا:.....	
٢٢١	العمران في العواصم والمدن الكبرى:.....
٢٢٥	وسلسلة الخطاطين صنعت الحياة والحضارة:.....
٢٣٤	ٌلُثُ .. لكنه تام .. و مُعلَق .. لكنه مسيطر:
٢٣٤	ياقوت الأمازي المستعصمي رائد من رواد الخط العربي:
٢٣٥	ومن الحضارة: الفن الحربي والآلات الحربية ﴿وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾:
٢٣٨	علو همة محمد الفاتح وسليمان القانوني:
٢٣٨	خطة فتح القسطنطينية:
٢٤١

٤٦٧

- تفوق محمد الفاتح في فن الحرب:**
٢٤٤
- مزايا الشعب التركي:**
٢٤٦
- النهضة العلمية بعد الفتح:**
٢٤٧
- اهتمامه بالمدارس والمعاهد:**
٢٤٧
- اهتمام السلطان محمد الفاتح بالعلماء:**
٢٥٠
- اهتمامه بالترجمة:**
٢٥١
- اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات:**
٢٥٢
- سلیمان القانوني الله دره:**
٢٥٣
- انحطاط الأتراك في الأخلاق وجهودهم في العلم وصناعة الحرب:**
٢٥٦
- «ولكن الإسلام لا بوأكي له»: وإسلاماه.. وإسلاماه:**
٢٥٨
- وما تزال بعيني ألف مُبِكَّة:**
٢٥٨
- الإسلام المفترى عليه:**
٢٥٨
- فساد البدايات دالٌ على فساد النهايات.. وجَهْلٌ بَيْن بشمول الإسلام وواقع المسلمين المُر:**
٢٥٩
- الملاحظة الأولى:**
٢٦٠
- الملاحظة الثانية:**
٢٦٢
- الملاحظة الثالثة:**
٢٦٣
- الملاحظة الرابعة:**
٢٦٥
- الملاحظة الخامسة:**
٢٦٨
- الملاحظة السادسة:**
٢٦٩
- الملاحظة السابعة:**
٢٧٣

صلاح الأمة في علو الهمة		
الملحوظة الثامنة:	٢٧٥	
الملحوظة التاسعة:	٢٧٧	
ليسمع من له أذنان، ومن كانت عنده همة عالية إذا لم يتفوق المسلمون في هذه المجالات، فما البديل؟!!		
٢٧٩	وكم ذا بمصر من المبكيات:	
٢٨٣	مبكية أخرى:	
٢٨٤	براءات الاختراع:	
٢٨٤	وأخلد المسلمين إلى الأرض:	
٢٨٦	قلة احتفال المسلمين بالعلوم العملية المفيدة ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَصْرُّهُمْ وَلَا يَنْقَعُهُمْ ﴾:	
٢٨٧	هكذا كانوا يوم كناً	
٢٨٨	واقع حال أوروبا والغرب كله إبان ازدهار حضارة المسلمين:	
٢٨٨	تأثير الرهبانية في أخلاق الأوربيين:	
٢٩٢	عجز الرهبانية عن تعديل المادية الجانحة:	
٢٩٣	بين الرهبانية العاتية، والمادية الجاححة:	
٢٩٤	الفساد في المراكز الدينية:	
٢٩٤	تنافس البابوية والإمبراطورية:	
٢٩٥	شقاء أوروبا برجال الدين:	
٢٩٦	جنائية رجال الدين على الكتب الدينية:	
٢٩٧	اضطهاد الكنيسة للعلم:	
٢٩٨	قصير التأثيرين وعدم ثبتهم:	
٣٠٤	مؤكّدات هذه الحقائق من بيانات غربية منصفة:	
٣٠٦		

٣١٥	وشهد شاهدٌ من أهلها:.....
٣٢٠	الطب عندهم من المُضيّكات المُبكيات:.....
٣٢٣	إنجلترا وباريس في القرن العاشر الميلادي «الرابع الهجري»:... .
٣٢٦	وما تزال خلية الإسلام تعسل
	الدكتور علي مصطفى مشرف عالم الذرة الفريد يحفظ القرآن
٣٢٦	الكريم والصحيحين:.....
٣٢٦	نشأته ورحلته العلمية:.....
٣٢٩	سماته وثقافته:.....
٣٣١	دور العلم في حياته:.....
٣٣٤	آثاره ومؤلفاته:.....
٣٣٥	وفاته:.....
٣٣٦	جمال حمدان.. عالم الجغرافيا السابق لعصره:.....
٣٣٦	تفوق منذ النشأة:.....
٣٣٨	نظرة «جمال حمدان» إلى الجغرافيا:.....
٣٣٩	آثاره وإنجازاته:.....
٣٤٠	الجوائز والوفاة:.....
٣٤٢	أبو القنبلة الباكستانية عبد القدير خان:.....
٣٤٢	ميلاده ونشأته:.....
٣٤٤	أهم أعماله:.....
٣٤٥	جوائز:.....
٣٤٥	من مؤلفاته:.....
٣٤٥	منهجه العلمي والفكري:.....



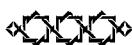
- ٣٤٦ الدكتور أحمد زويل .. رائد كيمياء الفيكتور: زويل وكاميلا الفيكتور: زويل.. والتفوق عالميًّا: ..
- ٣٤٨
- ٣٥١
- ٣٥٢ الدكتور زغلول النجاري رائد الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنّة النبوية في القرن العشرين: ..
- ٣٥٤ المؤهلات العلمية: الجوائز العلمية: ..
- ٣٥٥ الإنتاج العلمي: ..
- ٣٥٦ الأنشطة العلمية والثقافية: ..
- ٣٥٧ الأستاذ الدكتور السيد كامل علي عقل جراح القلب رائد جراحة زراعة صمامات القلب البشرية، وأول من زرعها في مصر: ..
- ٣٦٤ دكتور السيد العقل الإنسان المُحسِّن: ..
- ٣٦٤ الأستاذ الدكتور حنفي مدبوبي الحائز على جائزة الدولة التشجيعية وصاحب أول بحث عالي في أثر «حبة البركة» الحبة السوداء في شفاء الأمراض: ..
- ٣٦٤ المؤهلات العلمية: ..
- ٣٦٥ الأنشطة العلمية: ..
- ٣٦٧ الجوائز ودرجات الشرف والمنح: ..
- ٣٦٩ مبررات برشح سعادته لنيل الجائزة
- ٣٦٩ سيدنا الأستاذ الدكتور الجراح العالمي العابد الزاهد السلفي صاحب الكرامة جمال برهامي أول أستاذ جراح جامعي يعالج

الجروح والحرائق بعسل التحل أنموذج مثالي للدعاة المستقبل	٣٧٥
الوضيء:	٣٧٥
كلمات للحياة	٣٧٨
علي الهمة:	٣٧٨
علي الهمة فوق التيار.. وفي أعلى الذرى:	٣٧٨
علي الهمة مكانه المحور.. مكانه في القيادة دائماً ليحوز ولاء الآخرين:	٣٧٩
حدد مستقبلك ومستقبل الإسلام في أعلى الذرى:	٣٧٩
أخي علي الهمة كُن تياراً هادراً:	٣٧٩
صناع الحياة:	٣٨١
والواعظ من صناع الحياة:	٣٨٢
والأطباء من صناع الحياة:	٣٨٤
والمعماريون من صناع الحياة:	٣٨٥
والفيزياوي من صناع الحياة:	٣٨٩
اقتضم يا علي الهمة فأنت لها، ليكُنْ شعارك: إن الله ابتعثنا:	٣٩٣
أخي علي الهمة:	٣٩٥
منارات مضيئة في طريق الحضارة	٣٩٨
الحضارة الغربية المادية خبيثة فلا تخرج إلا نكدا «إفلات الحضارة المادية»:	٣٩٨
حضارة الدجال العوراء ستزول:	٣٩٩
وعامة المسلمين على إثر الغرب حذو القذّ بالقذّ:	٤٠٣
المسلمون على علاتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل:	٤٠٤

المنارة الأولى: «الإسلام هو الحل الوحيد لكل العالم»:	٤٠٦
لأنهضة ولا حضارة إلا تحت راية الإسلام:	٤٠٧
الاستعداد الروحي:	٤١٠
المنارة الثانية: الاستعداد الصناعي الحرب والأخذ بأسباب القوة لازم وركن من أركان حضارة المستقبل تحت راية الإسلام:	٤١٤
المنارة الثالثة: الاستقلال العلمي تحت راية الإسلام:	٤١٥
التنظيم العلمي الجديد:	٤١٧
(دور القيادة الجديدة):	٤٢٠
المنارة الرابعة: كفالة الكوادر العلمية النادرة والمتخصصات العلمية العالمية:	٤٢١
عذبُ الأمواهِ في أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى الله	٤٣٩
عالي الهمة أحقر الناس على التحليل بأحب الأعمال إلى الله وأفضلها: ..	٤٣٩
١- المداومة على الأعمال:	٤٣٩
٢، ٣، ٤ - الإيمان بالله، ثم صلة الرحم، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:	٤٣٩
٥، ٦، ٧ - الصلاة لوقتها، ثم بُرُّ الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله:	٤٣٩
٨- الحج المبرور:	٤٤٠
٩ - ذكر الله:	٤٤١
١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤ - نفع الناس، أو إدخال السرور على المسلم، أو كشف كربه، أو قضاء دينه، أو طرد الجوع عنه:	٤٤٢

٤٤٣	١٥ - حُسْنُ الْخُلُقِ:
٤٤٣	١٦، ١٧، ١٨ - سلامة المسلمين من لسان العبد ويده، وهجران ما نهى الله عنه، ومجاهدة النفس في ذات الله عَزَّلَهُ:
٤٤٤	١٩ - التسبیح: «سبحان الله وبحمده، أو سبحان رب وبحمده»، ثلاثةً:
٤٤٤	٢٠ - سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر:
٤٤٥	٢١ - التهليل:
٤٤٥	٢٢ - التحمید:
٤٤٦	٢٣ - الدُّعَاء:
٤٤٦	٢٤ - إصلاح ذات البَيْنِ:
٤٤٦	٢٥ - العمل الصالح في عشر ذي الحجة الأول:
٤٤٧	٢٦ - سلامة القلب من الإثم والبغى والحسد وصدق اللسان، ثم كراهة الدنيا وحب الآخرة:
٤٤٧	٢٨ - تخويف أعداء الله، ثم عزلة الناس:
٤٤٨	٣٠ - الورع:
٤٤٨	٣١ - التيسير:
٤٤٨	٣٢ - تعليم القرآن وتعلمه:
٤٤٩	٣٣ - إطعام الطعام، ورد السلام:
٤٤٩	٣٥ - مَن يُرْجَى خَيْرُهُ، وَيُؤْمَن شُرُّهُ:
٤٤٩	٣٦ - حُسْنُ المعاملة للأهل والنساء:
٤٤٩	٣٧ - حسن القضاء للدين:
٤٥٠	٣٨ - الصبر والصَّمَاهَة:

٤١ - قيام الليل، والثبات عند الهزيمة:	٤٥٠
٤٢ - صيام يوم وإفطار يوم صيام داود:	٤٥١
٤٣ - من سُفك دمه وعقر جواده، وثبت في الصف الأول:	٤٥١
ولهذه الأعمال العالية مراتب، يحرص عالي الهمة على أعلاها وأفضلها:	٤٥٢
وأفضل الصدقات:	٤٥٣
وأفضل الصيام:	٤٥٤
وأفضل الحج:	٤٥٤
وأفضل الجهاد:	٤٥٤
وسيد الاستغفار:	٤٥٥
٤ - وكلمة من تحت العرش، من كنز الكنز «لا حول ولا قوّة إلا الله»:	٤٥٥
٤٥ - ونختم بأحب الأديان إلى الله:	٤٥٥



كمبيوتر الصديق
 محمول/٠١٦١٩٠٣٦٨٥
 ت/٢٦٤٣٢٨٣٧

زهر الجنان من حياة شيوخ الإسلام

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

٢٥١٨٢٥٧

٦٢/٣٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

١٨٤٤١٩٢٥٠

٢٦٤٣٢٨٣٧

الكوثر الجاري من تفسير كلام المنعم الباري

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٢٥١٨٢٥٧

بني سويف ت: ٣٧٣٤٤٦٢

كمبيوتر الصديق

محمول/ ١٨٤٤١٩٢٥٠

٢٦٤٣٢٨٣٧ ت/

الروض الندي في حب النبي ﷺ

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٢٥١٨٢٥٧

بني سويف ت: ٦٢/٣ ٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

محمول/ ١٨٤٤١٩٢٥٠

٢٦٤٣٢٨٣٧/ ت

بكاء الأفئدة من نار الله المقدة

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

٠٢/٢٥١٨٢٥٧

بني سويف ت: ٤٢/٣٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

محول/١٨٤٤١٩٢٥٠

٢٦٤٣٢٨٣٧ ت

نزل الأبرار في الفرق بين المتقين والفجار

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٢٥١٨٢٥٧

بني سويف ت: ٦٢/٣٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

محمول/ ١٨٤٤١٩٢٥٠

ت/ ٢٦٤٣٢٨٣٧

عيش السعادة بين الخوف والرجاء

تأليف

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

٠٢/٢٥١٨٢٥٧

بني سويف ت: ٦٢/٣٧٣٤٤

كمبيوتر الصديق

٠١٨٤٤١٩٢٥٠

٢٦٤٣٢٨٣٧